الكتاب الأول

الشرق الأدنى

« وفى ذلك الوقت نادتنى الآلهة ، أنا حمورابى ، الخادم الذى سرت من أعماله ، . . . والذى كان عوناً لشعبه فى الشدائد ، . . . والذى أفاء عليه الثروة والوفرة . . . ، أن أمنع الأقوياء أن يظلموا الضعفاء وأنشر النور فى الأرض ، وأرعى مصالح الخلق » .

قانون حمورابى — المقدمة

الباب الرابع

سومر(*)

وجيه — فضل الشرق الأدنى على الحضارة الغربية

لقد انقضى منذ بداية التاريخ المكتوب حتى الآن ما لا يقل عن ستة آلاف عام ، وفى خلال نصف هذا العهد كان الشرق الأدنى مركز الشئون البشرية التي وصل إلينا علمها . وإذا ذكرنا هذا اللفظ المبهم فى هذا الكتاب فإنا نقصد به جميع بلاد أسية الجنوبية الغربية الممتدة جنوب الروسيا والبحر الأسود ، وغرب الهند وأفغانستان . وسنطلق هذا الاسم أيضاً — وإن خرجنا فى هذا على مقتضيات الدقة أكثر من ذى قبل — على مصر ، لأن هذه البلاد كانت شديدة الاتصال بذلك الجزء من العالم كما كانت مركزاً انتشرت منه الحضارة الشرقية . على هذا المسرح غير الدقيق التحديد الآهل بالسكان وبالثقافات المتباينة نشأت الزراعة والتجارة، والخيل المستأنسة والمركبات ، وسكت النقود ، وكتبت خطابات الاعتماد ، ونشأت الحرف والصناعات ، والشرائع والحكومات ؛ وعلوم الرياضة والطب ، والحقن الشرجية ، وطرق صرف المياه ، والهندسة والفلك ، والتقويم والساعات ، وصورت دائرة البروج ، وعرفت الحروف الهجائية والكتابة ، واخترع الورق والحبر ، وألفت الكتب وشيدت المكتبات والمدارس ، ونشأت الآداب والموسيقى والنحت وهندسة البناء ، وصنع الخزف المطلى المصقول والأثاث الدقيق الجميل ، ونشأت عقيدة التوحيد ووحدة الزواج ، واستخدمت أدهان التجميل والحلى ، وعرف النرد والداما ، وفرضت ضريبة الدخل ؛ واستخدمت المرضعات ، وشربت الخمور — عرفت هذه الأشياء كلها واستمدت منها أوربا وأمريكا

(*) ويكتبها بعض المؤرخين السومر والبعض الآخر شومر . (المترجم)

ثقافتهما على مدى القرون عن طريق كريت واليونان والرومان ، وقصارى القول أن « الآريين » لم يشيدوا صرح الحضارة – بل أخذوها عن بابل ومصر ، وأن اليونان لم ينشئوا الحضارة إنشاء لأن ما ورثوه منها أكثر مما ابتدعوه . وكانوا الوارث المدلل المتلاف لذخير من الفن والعلم مضى عليها ثلاثة آلاف من السنين ، وجاءت إلى مدائنهم مع مغانم التجارة والحرب . فإذا درسنا الشرق الأدنى وعظمنا شأنه فإنا بذلك نعترف بما علينا من دين لمن شادوا بحق صرح الحضارة الأوربية والأمريكية ، وهو دين كان يجب أن يؤدى من زمن بعيد .

الفصل الأول

عيـــلام

ثقافة السوس – دجاجة الفخاري – عجلات المركبات

إذا نظر القارئ إلى مصور لبلاد إيران ومر بإصبعه على نهر دجلة –
[...]ئاً من الخليج الفارسي حتى يصل إلى العمارة ، ثم اتجه به شرقاً مخترقاً
[...]ود العراق إلى مدينة شوشان الحديثة ، إذا فعل هذا فقد حدد لنفسه موقع
[...]نة السوس القديمة – التي كانت فيما مضى مركز إقليم يسميه اليهود بلاد عيلام –
[...] الأرض العالية . فى هذا الصقع الضيق الذى تحميه من غربه المناقع ومن
[...]قه الجبال الحافة بهضبة إيران العظيمة ، أنشأ شعب من الشعوب لا نعرف
[...]له ولا الجنس الذى ينتمى إليه إحدى المدنيات الأولى المعروفة فى تاريخ
[...]م . وقد وجد علماء الآثار الفرنسيون فى هذا الإقليم منذ جيل مضى آثاراً
[...]رية يرجع عهدها إلى عشرين ألف عام ، كما وجدوا شواهد تدل على
[...] ثقافة راقية يرجع عهدها إلى عام ٤٥٠٠ ق م (*)(١)

ويبدو أن أهل عيلام كانوا فى ذلك الوقت قد خرجوا توا من الحياة
[...]وية ، حياة صيد الحيوان والسمك ، ولكنهم كانت لهم وقتئذ أسلحة وأدوات
[...] النحاس ، وكانوا يزرعون الحبوب ويؤنسون الحيوان ، وكانت لهم كتابة
[...]سة ووثائق تجارية ، ومرايا وحلى ، وتجارة تمتد من مصر إلى الهند(٢). ونجد
[...] أدوات الظران المسواة التى ترجع هنا إلى العصر الحجرى الجديد مزهريات
[...]لة الصنع رشيقة مستديرة عليها رسوم أنيقة من أشكال هندسية أو صور جميلة
[...] الحيوان والنبات ، نعد بعضها من أجمل ما صنعه الإنسان فى عهود التاريخ

(*) يعتقد الأستاذ برستد أن ده مرجان و پمبلى وغيرهما من العلماء قد بالغوا فى قدم [...]
[...]فة وثقافة أور(٢) .

كله[٤] . ولسنا نجد فى تلك البلاد أقدم ما عرف من عجلات الخزاف وحسب بل نجد فيها أيضاً أقدم ما عرف من عجلات المركبات ، ذلك أنا لا نعثر مرة أخرى على هذه المركبة التى كان لها شأن متواضع ، ولكنه شأن حيوى فى نقل المدنية من مكان إلى مكان ، إلا بعد هذا الوقت فى بلاد بابل ، ثم بعد ذلك أيضاً فى مصر[٥] . ثم انتقل العيلاميون من هذه البدايات المعقدة إلى حياة السلطان والغزو ذات الأعباء الثقال ، فامتلكوا سومر وبابل ، ثم دارت عليهم الدائرة فاستولت عليهم هاتان الدولتان كلتاهما بعد الأخرى . وعاشت مدينة السوس ستة آلاف من السنين ، شهدت فى خلالها عظمة إمبراطوريات سومر ، وبابل ، ومصر ، وأشور ، وفارس ، واليونان ، وروما ، وظلت ، باسم شوشان ، مدينة مزدهرة حتى القرن الرابع عشر الميلادى . ومرت بها فى خلال تاريخها الطويل فترات مختلفة نمت فيها ثروتها نموا عظيما . وحسبنا شاهداً على هذا وصف المؤرخين لما عثر عليه فيها أشور بانيبال حين استولى عليها ونهبها فى عام ٦٤٦ ق . م من ذهب وفضة وحجارة كريمة ، وجواهر ملكية ، وثياب ثمينة ، وأثاث فخم ، ومركبات ساقها الفاتحون وراءهم إلى نينوى ، ذكر المؤرخون هذه المغانم كلها ولم يحاولوا الانتقاص من شأنها أو الاستخفاف بها ، وهكذا بدأ التاريخ دورته المحزنة فبدلها فى وقت قصير من فنها المزدهر حرباً وخراباً

الفصل الثانى

السومريون

١ — تاريخهم

الكشف عن أرض سومر — جغرافيتها — أهلها وجنسيتهم — مظهرهم — الديوان السومرى — الملوك — مصلح قديم — سرجون ملك أكاد — عصر أور الذهبى

إذا عدنا إلى خريطة الشرق الأدنى وتتبعنا المجرى المشترك المكون من نهرى دجلة والفرات من مصبه فى الخليج الفارسى إلى أن ينفصل المجريان (عند بلدة القرنة الحديثة) ، ثم تتبعنا نهر الفرات متجهين إلى الغرب ، وجدنا فى شماله وجنوبه المدن السومرية القديمة المطمورة وهى : إريدو (أبوشهرين الحديثة) وأور (المُقَيَّر الحديثة) وأروك (وهى المسماة إرك فى التوراة والمعروفة الآن باسم الوركاء) ولارْسا (المسماة فى التوراة باسم الاسار والمعروفة الآن باسم سنكرة) ولكش (سِبِرلا الحديثة) ونپور (نفر). تتبع بعدئذ نهر الفرات فى سيره نحو الشمال الغربى إلى بابل التى كانت فى يوم من الأيام أشهر بلاد الجزيرة (أرض ما بين النهرين) تجد إلى شرقها مباشرة بلدة كش مقر أقدم ثقافة عرفت فى هذا الإقليم ، ثم سر مع النهر صعدا قرابة ستين ميلا حتى مقر أجاد قصبة مملكة أكَّد فى الأيام الخالية . ولم يكن تاريخ أرض الجزيرة القديم من إحدى نواحيه إلا صراعاً قامت به الشعوب غير السامية التى تسكن بلاد سومر لتحتفظ باستقلالها أمام الهجرات السامية والزحف السامى من كش وأجاد وغيرهما من مراكز العمران الشمالية . وكانت هذه الأجناس المختلفة الأصول فى خلال هذا الصراع تتعاون دون أن تشعر بتعاونها — ولعلها كانت تتعاون على الرغم منها — لتقيم صرح

حضارة هى أول ما عرف فى التاريخ من حضارة واسعة شاملة فذة ، وهى من أعظمها إبداعاً وإنشاء(*) .

وليس فى وسعنا رغم ما قام به العلماء من بحوث أن نعرف إلى أية سلالة من السلالات البشرية ينتمى هؤلاء السومريون ، أو أى طريق سلكوه حتى دخلوا بلاد سومر . ومن يدرى لعلهم جاءوا من آسية الوسطى ، أو من بلاد القفقاس أو من أرمينية واخترقوا أرض الجزيرة من الشمال متتبعين فى سيرهم مجرى دجلة

(*) لقد كان كشف هذه الحضارة المنسية من أروع القصص الروائية وأكثرها غرابة فى علم الآثار . لقد كان الرومان واليونان واليهود ، وهم الذين نسميهم القدماء جهلا منا بالمدى الواسع لأحقاب التاريخ ، لا يعرفون شيئاً عن سومر ، ولعل هيرودوت لم يصل إلى علمه شىء عن هؤلاء الأقوام ، وإذا كان قد وصل إلى علمه شىء عنهم فقد أغفل أمرهم لأن عهدهم كان أبعد إليه من عهده هو إلينا . ولم يكن ما يعرفه بروسس ، وهو مؤرخ بابلى كتب حوالى ٢٥٠ ق . م عن سومر إلا مزيجاً من الخرافات والأساطير . فقد وصف فى تاريخه جيلا من الجبابرة يقودهم واحد منهم يسمى أوانس خرج من الخليج الفارسى ، وأدخل فى البلاد فنون الزراعة وطرق المعادن والكتابة . ثم يقول : « وقد ترك إلى بنى الإنسان كل الأشياء التى تصلح أمور حياتهم ولم يخترع من ذلك الوقت شىء ما حتى الآن »(٦) . ولم تكشف بلاد سومر إلى العالم إلا بعد ألفى سنة مما كتبه عنها بروسس . فقد تبين هنكز فى عام ١٨٥٠ أن كتابة مسمارية — تكتب بضغط قلم معدنى ذى طرف دقيق على طين لين ، وتستخدم فى لغات الشرق الأدنى السامية — أن كتابة من هذا النوع قد أخذت عن أقوام أقدم عهداً من الساميين الذين استعملوها فيما بعد كانوا يتكلمون لغة كثرة ألفاظها غير سامية . وقد أطلق أوبرت على الشعب الذى ظنه صاحب هذه الكتابة اسم الشعب « السومرى »(٧) . وكشف رولنسن ومساعدوه فى نفس الوقت تقريباً بين الخرائب البابلية ألواحاً نقشت عليها كلمات من هذه اللغة القديمة وبين سطورها ترجمتها إلى اللغة البابلية كما يفعل علماء الجامعات فى هذه الأيام(٨) . وفى عام ١٨٥٤ أزاح عالمان إنجليزيان الثرى عن مواقع مدن أور ، وإريدو ، وأرك . وكشف العلماء الفرنسيون فى أواخر القرن التاسع عشر عن أنقاض لكش وعثروا بينها على ألواح نقش عليها تاريخ الملوك السومريين ، وفى أيامنا هذه كشف ولى الأستاذ بجامعة بنسلفانيا وكثيرون غيره من العلماء عن مدينة أور العتيقة حيث أنشأ السومريون كما يلوح حضارة لهم قبل عام ٤٥٠٠ ق . م : وهكذا تعاون العلماء من مختلف الأمم على كشف السر الغامض من تلك القصة العجيبة التى لا آخر لها . وأخذوا يتعقبون الحقائق التاريخية بلا ملل تعقب رجال الشرطة السرية للصوص والمجرمين . على أننا مع هذا لم نعد بعد بداية البحث والتنقيب فى بلاد سومر . ولسنا ندرى ماذا يسفر عنه هذا البحث من حضارة ومن معلومات تاريخية ، بعد أن تحفر الأرض وتدرس المواد المستكشفة كما حفر العلماء أرض مصر ودرسوا آثارها فى خلال المائة السنين الأخيرة .

والفرات — حيث توجد — كما فى أشور مثلا — شواهد دالة على ثقافتهم الأولى ؛ أو لعلهم قد سلكوا الطريق المائى من الخليج الفارسى — كما تروى الأساطير — أو من مصر أو غيرها من الأقطار ، ثم اتخذوا سبيلهم نحو الشمال متتبعين على مهل النهرين العظيمين ، أو لعلهم جاءوا من السوس حيث يوجد بين آثارها رأس من الأسفلت فيه خواص الجنس السومرى كلها . بل إن فى وسعنا أن نذهب إلى أبعد من هذا كله فنقول إنهم قد يكونون من أصل مغولى قديم موغل فى القدم . ذلك بأن فى لغتهم كثيراً من التراكيب الشبيهة بلسان المغول(٩) لكن علم هذا كله عند علام الغيوب .

وتدل آثارهم على أنهم كانوا قصار القامة ممتلئى الجسم ، لهم أنوف شم مصفحة ليست كأنوف الأجناس السامية ، وجباه منحدرة قليلا إلى الوراء ، وعيون مائلة إلى أسفل . وكان كثيرون منهم ملتحين ، وبعضهم حليقين ، وكثرتهم العظمى يحفون شواربهم . وكانوا يتخذون ملابسهم من جلود الغنم ، ومن الصوف المغزول الرفيع ، وكانت النساء يسدلن من أكتافهن اليسرى مآزر على أجسامهن ، أما الرجال فكانوا يشدونها على أوساطهم ويتركون الجزء الأعلى من أجسامهم عارياً . ثم علت أثواب الرجال مع تقدم الحضارة شيئاً فشيئاً حتى غطت جسمهم كله إلى الرقبة . أما الخدم رجالا كانوا أو نساء فقد ظلوا يمشون عراة من الرأس إلى وسط الجسم إذا كانوا فى داخل البيوت . وكانوا فى العادة يلبسون قلانس على رءوسهم وأخفافاً فى أقدامهم ، ولكن نساء الموسرين منهم كن ينتعلن أحذية من الجلد اللين الرقيق غير ذات كعاب عالية ، وذات أربطة شبيهة بأربطة أحذيتنا فى هذه الأيام . وكانت الأساور والقلائد والخلاخيل والخواتم والأقراط زينة النساء السومريات التى يظهرن بها ثراء أزواجهن كما تظهره النساء الأمريكيات فى هذه الأيام(١٠) .

ولما تقدم العهد بمدنيتهم — حوالى ٢٣٠٠ ق . م حاول الشعراء والعلماء

السومريون أن يستعيدوا تاريخ بلادهم القديم ، فكتب الشعراء قصصاً عن بداية الخلق ، وعن جنة بدائية ، وعن طوفان مروع غمر هذه الجنة وخربها عقاباً لأهلها على ذنب ارتكبه أحد ملوكهم الأقدمين[11] . وتناقل البابليون والعبرانيون قصة هذا الطوفان وأصبحت بعدئذ جزءاً من العقيدة المسيحية . وهينا كان الأستاذ وَلى ينقب فى خرائب أور عام ١٩٢٩ إذ كشف على عمق عظيم من سطح الأرض ، عن طبقة من الغرين سمكها ثمان أقدام ، رسبت — إذا أخذنا بقوله — على أثر فيضان مروع لنهر الفرات ظل عالقاً بأذهان الأجيال التالية ومعروفاً لديهم باسم الطوفان . وقد وجدت تحت هذه الطبقة بقايا حضارة قامت قبل هذا الطوفان ، وصفها الشعراء فيما بعد بأنها العصر الذهبى لتلك البلاد .

وحاول الكهنة المؤرخون فى هذه الأثناء أن يخلقوا ماضياً يتسع لنمو جميع عجائب الحضارة السومرية فوضعوا من عندهم قوائم بأسماء ملوكهم الأقدمين ، ورجعوا بالأسرة المالكة التى حكمت قبل الطوفان إلى ٤٣٢٫٠٠٠ عام[12] ، ورووا عن اثنين من هؤلاء الحكام وهما تموز وجلجميش من القصص المؤثرة ما جعل ثانيهما بطل أعظم ملحمة فى الأدب البابلى . أما تموز فقد انتقل إلى مجمع الآلهة البابليين وأصبح فيما بعد أدنيس اليونان . ولعل الكهنة قد تغالوا بعض الشىء فى قدم حضارتهم ، ولكن فى وسعنا أن نقدر عمر الثقافة السومرية تقديراً تقريبياً إذا لاحظنا أن خرائب نپور تمد إلى عمق ست وستين قدماً ، وأن ما يمتد منها أسفل آثار سرجون ملك أكد يكاد يعدل ما يمتد فوق هذه الآثار إلى أعلى الطبقات الأرضية (أى إلى بداية القرن الأول من التاريخ الميلادى) .

وإذا حسبنا عمر نپور على هذا الأساس رجع بنا إلى عام ٥٢٦٢ ق . م . ويلوح أن أسراً قوية من ملوك المدن مستمسكة بعروشها قد ازدهرت فى كش حوالى عام ٤٥٠٠ ق . م وفى أور حوالى ٣٥٠٠ ق . م وإنا لنجد فى التنافس الذى قام بين هذين المركزين الأولين من مراكز الحضارة القديمة أول دور من

أدوار النزاع بين السامية وغير السامية ، وهو النزاع الذى يكوّن فى تاريخ الشرق الأدنى مأساة دموية متصلة تبدأ من عهد عظمة كش السامية وتستمر خلال فتوح الملكين الساميين سرجون الأول وحمورابى إلى استيلاء القائدين الآريين قورش والإسكندر على بابل فى القرنين السادس والرابع قبل الميلاد ، وإلى اصطراع الصليبيين والمسلمين لامتلاك قبر المسيح ، وإلى التسابق التجارى ، وتمتد إلى هذا اليوم الذى يحاول فيه البريطانيون جاهدين أن يسيطروا على الأقوام الساميين المنقسمين على أنفسهم فى الشرق الأدنى وينشروا السلام فى ربوعه .

وبعد عام ٣٠٠٠ ق .م. تروى السجلات المكونة من ألواح الطين التى كان الكهنة يحتفظون بها ، والتى وجدت فى خرائب أور ، قصة دقيقة دقة لا بأس بها عن قيام ملوك المدائن وتتويجهم وانتصارهم غير المنقطع وجنائزهم الفخمة فى مدن أور ولكش وأرك وما إليها . وما أكثر ما غالى المؤرخون فى هذا الوصف ، لأن كتابة التاريخ وتحيز المؤرخين من الأمور التى يرجع عهدها إلى أقدم الأزمان . وكان واحد من هؤلاء الملوك وهو أوروكاجينا ملك لكش ملكا مصلحاً ومستبداً مستنيراً ، أصدر المراسيم التى تحرم استغلال الأغنياء للفقراء واستغلال الكهنة لكافة الناس . وينص أحد هذه المراسيم على أن الكاهن الأكبر يجب « ألا يدخل بعد هذا اليوم حديقة الأم الفقيرة ويأخذ منها الخشب أو يستولى على ضريبة من الفاكهة » . وخفضت رسوم دفن الموتى إلى خمس ما كانت عليه ، وحرم على الكهنة وكبار الموظفين أن يقتسموا فيما بينهم ما يقربه الناس قرباناً للآلهة من أموال أو ماشية . وكان مما يباهى به الملك أنه « وهب شعبه الحرية » وما من شك فى أن الألواح التى سجلت فيها مراسيمه تكشف عن أقدم القوانين المعروفة فى التاريخ وأقلها ألفاظاً وأكثرها عدلا .

واختتمت هذه الفترة الواضحة من تاريخ أور كما تختتم فى العادة مثيلاتها من الفترات على يد رجل يدعى لوجال ــ زجيزى ، غزا لكش ، وأطاح بأور وكاجينا

ونهب المدينة وهى فى أوج عزها ورخائها ، وهدم معابدها . وذبح أهلها فى الطرقات ، وساق أمامه تماثيل الآلهة أسيرة ذليلة : ومن أقدم القصائد المعروفة فى التاريخ قصيدة كتبت على لوح من الطين لعل عمرها يبلغ ٤٨٠٠ سنة يرثى فيها الشاعر السومرى دِنْجيرِدَامو انتهاب إلهة لكش ويقول فيها :

وا أسفاه ! إن نفسى لتذوب حسرة على المدينة وعلى الكنوز .

وا أسفاه ! إن نفسى لتذوب حسرة على مدينتى جرسو (لكش) وعلى الكنوز .

إن الأطفال فى جرسو المقدسة لفى بؤس شديد

لقد استقر (الغازى) فى الضريح الأفخم

وجاء بالملكة المعظمة من معبدها .

أى سيدة مدينتى المقفرة الموحشة متى تعودين ؟[15]

ولا حاجة بنا إلى الوقوف عند السفاح لوجال ــ زجيزى وغيره من الملوك السومريين ذوى الأسماء الطنانة الرنانة أمثال لوجال ــ شجنجور ، ولوجال ــ كيجوب ــ تدوده ، وننيجى ــ دبتى ، ولوجال ــ أندرنوجنجا . . . . وفى هذه الأثناء كان شعب آخر من الجنس السامى قد أنشأ مملكة أكد بزعامة سرجون الأول ، واتخذ مقر حكمه فى مدينة أجاد على مسيرة مائتى ميل أو نحوها من دول المدن السومرية من ناحية الشمال الغربى . وقد عثر فى مدينة سومر على أثر ضخم مكون من حجر واحد يمثل سرجون ذا لحية كبيرة تخلع عليه كثيراً من المهابة ، وعليه من الثياب ما يدل على الكبرياء وعظيم السلطان . ولم يكن سرجون هذا من أبناء الملوك : فلم يعرف التاريخ له أباً ، ولم تكن والدته غير عاهر من عاهرات المعابد[16] : ولكن الأساطير السومرية اصطنعت له سيرة روتها على لسانه شبيهة فى بدايتها بسيرة موسى ، فهو يقول : وحملت بى أمى الوضيعة الشأن ، وأخرجتنى إلى العالم سراً ، ووضعتنى فى قارب من الأسل كالسلة ، وأغلقت علىّ

الباب بالقار »[١٧] . وأنجاه أحد العمال ، وأصبح فيما بعد ساقى الملك ، فقربه إليه وزاد نفوذه وسلطانه ، ثم خرج على سيده وخلعه وجلس على عرش أجاد ، وسمى نفسه « الملك صاحب السلطان العالمى » وإن لم يكن يحكم إلا قسما صغيراً من أرض الجزيرة . ويسميه المؤرخون سرجون « الأعظم » لأنه غزا مدناً كثيرة ، وغنم مغانم عظيمة ، وأهلك عدداً كبيراً من الخلائق . وكان من بين ضحاياه لوجال ــ زجيزى نفسه الذى نهب لكش وانتهك حرمة إلاهتها ، فقد هزمه سرجون وساقه مقيداً بالأغلال إلى نپور . وأخذ هذا الجندى الباسل يخضع البلاد شرقاً وغرباً ، شمالا وجنوباً فاستولى على عيلام وغسل أسلحته فى مياه الخليج الفارسى العظيم رمزاً لانتصاراته الباهرة ، ثم اجتاز غرب آسية ووصل إلى البحر المتوسط[١٨] وأسس أول إمبراطورية عرفها التاريخ ، وظل يحكمها خمسا وخمسين سنة ، وتجمعت حوله الأساطير فهيأت عقول الأجيال التالية لأن تجعل منه إلهاً . وانتهى حكمه ونار الثورة مشتعلة فى جميع أنحاء دولته .

وخلفه ثلاثة من أبنائه كل منهم بعد أخيه . وكان ثالثهم نارام ــ سِن بنّاء عظيما وإن لم يبق من أعماله كلها إلا لوحة تذكارية تسجل انتصاره على ملك خامل غير ذى شأن . وقد عثر ده مورجان على هذه اللوحة ذات النقش البارز فى مدينة السوس عام ١٨٩٧ ، وهى الآن من كنوز متحف اللوفر ، وتمثل نارام ــ سن رجلا مفتول العضلات ، مسلحاً بالقوس والسهام ، يطأ بقدميه فى خيلاء الملوك أجسام من ظفر بهم من أعدائه ويدل مظهره على أنه يتأهب لأن يرد بالموت العاجل على توسل أعدائه المنهزمين واسترحامهم . وصوَّر بين هؤلاء الأعداء أحد الضحايا وقد أصابه سهم اخترق عنقه فسقط على الأرض يحتضر ، وتطل هذا المنظر من خلفه جبال زجروس . وقد سجل انتصار نارام ــ سن على أحد التلال بكتابة مسمارية جميلة . وتدل هذه اللوحة على أن فن النحت قد توطدت وقتئذ قواعده وأصبحت له تقاليد مرعية طويلة الأمد .

على أن إحراق مدينة من المدن لا يكون فى جميع الأحوال من الكوارث الأبدية التى تبتلى بها ، بل كثيراً ما يكون نافعاً لها من الناحيتين العمرانية والصحية وهذه القاعدة تنطبق على لكش فى ذلك العهد ، فقد ازدهرت هذه



(شكل ٥) « جوديا الصغير »
تمثاله فى متحف اللوفر

المدينة من جديد قبل أن يحل القرن السادس والعشرون قبل الميلاد ، وذلك فى عهد ملك آخر مستنير يدعى جوديا تعد تماثيله القصيرة المكتنزة أشهر ما بقى من آثار فن النحت السومرى . وفى متحف اللوفر تمثال له من حجر الديوريت يمثله فى موقف من مواقف التقوى ورأسه ملفوف بعصابة ثقيلة كالتى نشاهدها فى التماثيل المقامة فى مسرح الكلوسيوم ، ويداه مطويتان فى حجره ، وكتفاه

وقدماه عارية وساقاه قصيرتان ضخمتان يغطيهما ثوب نصفي مطرز بطائفة كبيرة من الكتابة المقدسة . وتدل ملامحه القوية المتناسبة على أنه رجل مفكر ، عادل ، حازم ، دمث الأخلاق . وكان رعاياه يجلونه ، لا لأنه جندي محارب ، بل لأنه فيلسوف مفكر أشبه ما يكون بالإمبراطور ماركس أورليوس الروماني ، يختص بعنايته الشؤون الدينية والأدبية والأعمال النافعة الإنشائية ، شاد المعابد ، وشجع دراسة الآثار القديمة بالروح التي تدرسها بها البعثات التي كشفت عن تماثاله ، ويحد من سلطان الأقوياء رحمة بالضعفاء . ويفصح نقش من نقوشه التي عثر عليها عن سياسته التي من أجلها عبده رعاياه واتخذوه إلها لهم بعد موته : « في خلال سبع سنين كانت الخادمة نداً لمخدومتها ، وكان العبد يمشي بجوار سيده ، واستراح الضعيف في بلدي بجوار القوي »[19] .

وفي هذه الأثناء كانت « أور مدينة الكلدان » تنعم بعهد من أكثر عهودها الطوال رخاء وازدهاراً ، امتد من عام ٣٥٠٠ ق . م (وهو على ما يلوح عهد أقدم مقابرها) إلى عام ٧٠٠ ق . م . وأخضع أعظم ملوكها أور – أنجور جميع بلاد آسية الغربية ونشر فيها لواء السلام ، وأعلن في جميع الدولة السومرية أول كتاب شامل من كتب القانون في تاريخ العالم . وفي ذلك يقول : « لقد أقمت إلى أبد الدهر صرح العدالة المستنده إلى قوانين شمش الصالحة العادلة »[20] . ولما زادت ثروة أور بفضل التجارة التي انصبت إليها صبا عن طريق نهر الفرات فعل فيها ما فعل بركليز بأثينة من بعده فشرع يجملها بإنشاء الهياكل ، وأقام فيها هي وغيرها من المدائن الخاضعة له أمثال لارسا وأوروك ونپور كثيراً من الأبنية . وواصل ابنه دنجي طوال حكمه الذي دام ثمانية وخمسين عاماً أعمال أبيه ، وحكم البلاد حكماً عادلا حكيما ، جعل رعاياه يتخذونه من بعد موته إلها : ويصفونه بأنه الإله الذي أعاد إليهم جنتهم القديمة .

لكن سرعان ما أخذ هذا المجد يزول ، فقد انقض على أور التي كانت تنعم

وقتئذ بالرخاء والفراغ والسلم أهلُ عيلام ذوو الروح الحربية من الشرق ، والعموريون الذين علا شأنهم وقتئذ من الغرب ، وأسروا مَلكها ، ونهبوها ودمروها شر تدمير . وأنشأ شعراء أور القصائد التي يندبون فيها انتهاب تمثال إشتار أمهمَ الإلهة المحبوبة التي انتزعها من ضريحها الغزاة الآثمون . ومن الغريب أن هذه القصائد التي صيغت في صيغة المتكلم ، وأسلوبها مما لا تسر منه آذان الأدباء السوفسطائيين ، ولكننا على الرغم من هذا نحس من خلال الأربعة الآلاف من السنين التي تفصل بيننا وبين الشاعر السومري بما حل بالمدينة وأهلها من خراب وتدمير . يقول الشاعر :

لقد انتهك العدو حرمتي بيديه النجستين .
انتهكت يداه حرمتي وقضيَ عليَّ من شدة الفزع .
آه ، ما أتعس حظي ! إن هذا العدو لم يظهر لي شيئاً من الاحترام ،
بل جرّدني من ثيابي وألبسها زوجه هو ،
وانتزع مني حليي وزين بها أخته ،
وأنا (الآن) أسيرة في قصوره — فقد أخذ يبحث عني
في ضريحي — واحسرتاه . لقد كنت أرتجف من هول اليوم الذي أخرج فيه ؛
فقد أخذ يطاردني في هيكلي ، وقذف الرعب في قلبي ،
هناك بين جدران بيتي ، وكنت كالحمامة ترفرف ثم تحط
على رافدة ، أو كالبومة الصغيرة اختبأت في كهف .
وأخذ يطاردني في ضريحي كما يطارد الطير ،
طاردني من مدينتي كما يطارد الطير وأنا أتحسر وأنادي :
« إن هيكلي من خلفي ، ما أبعد المسافة بينه وبيني »(٢١) .

وهكذا ظلت بلاد سومر خاضعة لحكم العيلاميين والعموريين مائتي عام تبدو لأعيننا كأنها لحظة لا خطر لها .

ثم أقبل من الشمال حمورابى العظيم ملك بابل واستعاد من العيلاميين أورك وايسين ، وظل ساكناً ثلاثاً وعشرين سنة غزا بعدها ببلاد عيلام، وقبض على ملكها ، وبسط حكمه على عمور وأشور النائية ، وأنشأ إمبراطورية لم يعهد التاريخ من قبل لها مثيلا فى قوتها ، وسن لها قانوناً عاماً نظم شئونها . وظل الساميون بعد ذلك الوقت قروناً كثيرة يحكمون ما بين النهرين حتى قامت دولة الفرس ، فلم نعد نسمع بعدئذ شيئاً عن السومريين إذ طويت صحفهم القليلة فى كتاب التاريخ .

٢ — الحياة الاقتصادية

الزراعة — الصناعة — التجارة — طبقات الناس — العلوم

انقضى عهد السومريين ، ولكن حضارتهم لم يقض عليها ، فقد ظلت سومر وأكد تخرجان صناعا وشعراء وفنانين وحكماء ورجال دين ، وانتقلت حضارة المدن الجنوبية إلى الشمال على طول مجرى الفرات ودجلة حتى وصلت إلى بلاد بابل وأشور ، وكانت هى التراث الأول لحضارة الجزيرة .

وكان أساس هذه الثقافة هو تربة الأرض التى أخصبها فيضان النهرين السنوى ، وهو الفيضان الناشئ من سقوط الأمطار الشتوية . وكان هذا الفيضان ضاراً ونافعاً ، فقد هدى السومريين إلى أن يجروا ماءه جرياناً أميناً فى قنوات للرى تخترق البلاد طولا وعرضا ، وقد خلدوا أخطاره الأولى بالقصص التى تتحدث عن فيضان عظيم طغى على الأرض ثم انحسر عنها آخر الأمر ونجا الناس من شره(٢٣) . وكان نظام الرى المحكم الذى يرجع عهده إلى ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد من أعظم الأعمال الإنشائية فى الحضارة السومرية ، وما من شك فى أنه كان أيضاً الأساس الذى قامت عليه . فقد أخرجت الحقول التى عنوا بريها وزرعها محصولات موفورة من الذرة والشعير والقمح والبلح والخضر الكثيرة

المختلفة الأنواع ، وظهر عندهم المحراث من أقدم العصور تجره الثيران كما كانت تجره فى بلادنا حتى الأمس القريب. وكان يتصل به أنبوبة مثقوبة لبذر البذور . وكانوا يدرسون المحاصيل بعربات كبيرة من الخشب ركبت فيها أسنان من الظران تفتت القش ليكون علفا للماشية ، وتفصل منه الحب ليكون طعاماً للناس(٢٤) .

والقد كانت هذه الثقافة ثقافة بدائية من نواح كثيرة . فقد كان السومريون يستخدمون النحاس والقصدير ، وكانوا يخلطونهما فى بعض الأحيان ليضعوا منهما البرنز ، وبلغ من أمرهم أنهم كانوا من حين إلى حين يصنعون من الحديد آلات كبيرة(٢٥) . ولكن المعادن مع هذا كانت نادرة الوجود قليلة الاستعمال ، وكانت كثرة الآلات السومرية تتخذ من الظران ، وبعضها ، كالمناجل التى يقطع بها الشعير ، يصنع من الطين ؛ أما الدقيق منها كالأبر والمثاقب فكان يصنع من العاج والعظام(٢٦) . وكانت صناعة النسيج واسعة الانتشار يشرف عليها مراقبون يعينهم الملك(٢٧) على أحدث طراز من الإشراف الحكومى على الصناعات عرف حتى الآن . وكانت البيوت تبنى من الغاب تعلوه لبنات من الطين والقش تعجن بالماء وتجفف فى الشمس . ولا يزال من اليسير العثور على منازل من هذا الطراز فى الأرض التى كانت من قبل بلاد سومر ، وكان لهذه الأكواخ أبواب من الخشب تدور فى أوقاب منحوتة فى الحجارة ، وكانت أرضها عادة من الطين ، وسقفها مقوسة تصنع من الغاب المثنى إلى أعلى ، أو مستوية مصنوعة من الغاب المغطى بالطين المبسوط فوق دعامات من الخشب وكانت البقر والضأن والمعز والخنازير تجول فى المساكن فى رفقة الإنسان البدائية . وكان ماء الشرب يؤخذ من الآبار(٢٨) .

وأكثر ما كانت تنقل البضائع بطريق الماء وإذا كانت الحجارة نادرة الوجود فى بلاد سومر فقد كانت تنقل إليها من خارج البلاد عن طريق الخليج الفارسى أو من أعالى النهرين ، ثم تحمل فى القنوات إلى أرصفة المدن النهرية .

لكن النقل البرى أخذ ينمو وينتشر ، وشاهد ذلك ما كشفته بعثة أكسفورد فى كش من مركبات هى أقدم ما عرف من المركبات ذات العجلات فى تاريخ العالم[٢٩] ؛ وقد عثر فى أماكن متفرقة على أختام يستدل منها على وجود صلات تجارية بين سومر وبين مصر والهند[٣٠] . ولم تكن النقود قد عرفت فى ذلك الوقت ، ولهذا كانت التجارة تتبادل عادة بطريق المقايضة ، ولكن الذهب والفضة كانا يستعملان حتى فى ذلك الوقت البعيد لتقدير قيم البضائع ، وكانا يقبلان فى العادة بدلا من البضائع نفسها — إما على هيئة سبائك وحلقات ذات قيم محدودة وإما بكميات تقدر قيمتها حسب وزنها فى كل صفقة تجارية . وكانت الطريقة الثانية أكثر الطريقتين استعمالا . وإن كثيراً من ألواح الطين التى وصلت إلينا وعليها بعض الكتابة السومرية لهى وثائق تجارية تكشف عن حياة تجارية جمة النشاط . ويتحدث لوح من هذه الألواح فى لغة تدل على الملل والسآمة عن « المدينة التى تعج بضوضاء الإنسان » . وكان لديهم عقود مكتوبة موثقة يشهد عليها الشهود ، ونظام للائتمان تقرض بمقتضاه البضائع والذهب والفضة ، تؤدى عنها فوائد عينية يختلف سعرها من ٢٥ ٪ إلى ٣٣ ٪ فى السنة[٣١] . ولما كان استقرار المجتمع يتناسب إلى حد ما تناسباً عكسياً مع سعر الفائدة فإن لنا أن نفترض أن التجارة السومرية كانت كتجارتنا يحيط بها جو من الارتياب والاضطراب الاقتصاديين والسياسيين .

وقد وجدت فى المقادير كميات كبيرة من الذهب والفضة منها ما هو حلى ومنها ما هو أوان وأسلحة وزخارف ، بل إن منها ما هو عدد وآلات . وكان أهل البلاد الأغنياء منهم و الفقراء ينقسمون إلى طبقات ومراتب كثيرة ، وكانت تجارة الرقيق منتشرة بينهم وحقوق الملكية مقدسة لديهم[٣٢] . ونشأت بين الأغنياء والفقراء طبقة أفرادها من صغار رجال الأعمال وطلاب العلم والأطباء والكهنة وقد علا شأن الطب عندهم فكان لكل داء دواء خاص ، ولكنه ظل يختلط

بالدين ويعترف بأن المرض لا يمكن شفاؤه إلا إذا طردت الشياطين من أجسام المرضى ، لأن الأمراض إنما تنشأ من تقمصها هذه الأجسام . وكان لديهم تقويم ، لا نعرف متى نشأ ولا أين نشأ ، تقسم السنة بمقتضاه إلى اثنى عشر شهراً قمرياً يزيدونها شهراً فى كل ثلاثة أعوام أو أربعة حتى يتفق تقويمهم هذا مع فصول السنة ومع منازل الشمس . وكانت كل مدينة تسمى هذه الأشهر بأسماء خاصة[٣٣] .

٣ ـــ نظام الحكم

الملوك – الخطط الحربية – أمراء الإقطاع – القانون

والحق أن كل مدينة كانت شديدة الحرص على استقلالها ، تعض عليه بالنواجذ ، وتستمتع بملك خاص بها تسميه پاتيسى أو الملك ـــ الكاهن فتدل بهذه التسمية نفسها على أن نظام الحكم كان وثيق الاتصال بالدين ، وما وافى عام ١٨٠٠ ق . م حتى نمت التجارة نمواً جعل هذا الانفصال بين المدن أمراً مستحيلا ، فنشأت منها جميعاً « إمبراطوريات » استطاعت فيها شخصية قوية عظيمة أن تخضع المدن والملوك ـــ الكهنة لسلطانها ، وأن تؤلف من هذه المدن وحدة سياسية واقتصادية . وكان هذا الملك الأعظم صاحب السلطان المطلق يحيط به جو من العنف والخوف شبيه بما كان يحيط الملوك فى عصر النهضة الأوربية . ذلك بأنه كان معرضاً فى كل وقت إلى أن يقضى عليه بنفس الوسائل التى قضى بها على أعدائه وارتقى بها عرشه . وكان يعيش فى قصر منيع له مدخلان ضيقان لا يتسع الواحد منهما لدخول أكثر من شخص واحد فى كل مرة . وكان عن يمين المدخل وشماله مخابئ يستطيع من فيها من الحراس السريين أن يفحصوا عن كل زائر أو ينقضوا عليه بالخناجر[٣٤] . بل إن هيكل الملك كان هو نفسه مكاناً سرياً مختفياً فى قصره يستطيع أن يؤدى فيه واجباته الدينية دون أن تراه الأعين ، أو أن يغفل أداءها دون أن يعرف الناس شيئاً عن هذا الإغفال .

وكان الملك يخرج إلى الحرب فى عربة على رأس جيش مؤلف من خليط من المقاتلين مسلحين بالقسى والسهام والحراب . وكانت الحرب تشق لأسباب صريحة هى السيطرة على طرق التجارة والاستحواذ على السلع التجارية ، فلم يكن يخطر لهم ببال أن يستروا هذا الغرض بستار من الألفاظ يخدعون بها أصحاب المثل العليا . من ذلك أن منشتوسو ملك أكد أعلن فى صراحة أنه يغزو بلاد عيلام ليستولى على ما فيها من مناجم الفضة ، وليحصل منها على حجر الديوريت لتصنع منه التماثيل التى تخلد ذكره فى الأعقاب — وتلك هى الحروب الوحيدة فى التاريخ التى تخوضها الجيوش لأغراض فنية . وكان المغلوبون يباعون ليكونوا عبيداً ، فإذا لم يكن فى بيعهم ربح ذبحوا ذبحاً فى ميدان القتال . وكان يحدث أحياناً أن يقدم عشر الأسرى قرباناً إلى الآلهة المتعطشة للدماء ، فيقتلوا بعد أن يوضعوا فى شباك لا يستطيعون الإفلات منها . وقد حدث فى هذه المدن ما حدث بعدئذ فى المدن الإيطالية فى عصر النهضة ، فكانت النزعة الانفصالية التى تسود المدن السومرية حافزاً قوياً للحياة والفن فيها ، ولكنها كانت كذلك باعثاً على العنف والنزاع الداخلى ، فأدى هذا إلى ضعف الدويلات جميعها وإلى سقوط بلاد سومر بأكملها(٣٥) .

وكان نظام الإقطاع وسيلة حفظ النظام الاجتماعى فى الإمبراطورية السومرية ، فقد كان عقب كل حرب يُقطع الزعماء البواسل مساحات واسعة من الأرض ويعفيها من الضرائب . وكان من واجب هؤلاء الزعماء أن يحافظوا على النظام فى إقطاعاتهم ، ويقدموا للملك حاجته من الجند والعتاد . وكانت موارد الحكومة تتكون من الضرائب التى تجبى عيناً وتختزن فى المخازن الملكية وتؤدى منها مرتبات موظفى الدولة وعمالها(٣٦) .

وكان يقوم إلى جانب هذا النظام الملكى الإقطاعى طائفة من القوانين تستند إلى سوابق كثيرة من عهد أور — أنجور ودنجى اللذين جمعا قوانين أور ودوناها ،

فكانت هي المعين الذى استمد منه حورابى شريعته الذائعة الصيت . وكانت تلك الشرائع أبسط وأكثر بدائية من الشرائع اللاحقة ، ولكنها كانت أيضاً أقل منها قسوة .

مثال ذلك أن الشرائع السامية تقضى بقتل الزوجة إذا زنت ، أما الشريعة السومرية فكل ما تجيزه أن تسمح للزوج بأن يتخذ له زوجة ثانية ، وأن ينزل الزوجة الأولى منزلة أقل من منزلتها السابقة(٢٧) . والقانون السومرى يشمل العلاقات التجارية كما يشمل العلاقات الزوجية والجنسية بوجه عام ، وينظم شئون القروض والعقود ، والبيع والشراء ؛ والتبنى والوصية بكافة أنواعها . وكانت المحاكم تعقد جلساتها فى المعابد وكان معظم قضاتها من رجال الدين ، أما المحاكم العليا فكان يعيَّن لها قضاة فنيون مختصون . وخير ما فى القانون كله هو النظام الذى وضعه لتجنب التقاضى ، ذلك أن كل نزاع كان يعرض أوّلا على محكَّم عام واجبه أن يسويه بطريقة ودية دون أن يلجأ المتنازعون إلى حكم القانون(٢٨) ، فها هى ذى مدنية بدائية يجدر بنا أن نتلقى منها درساً نصلح به مدنيتنا .

٤ — الدين والأخلاق

مجمع الآلهة السومرية – طعام الآلهة – الأساطير – التعليم – صلاة سومرية – عاهرات المعابد – حقوق المرأة – أدهنة الشعر والوجه

نشر أور – أنجور فى البلاد شرائعه باسم الإله الأعظم شمش ، ذلك أن الحكومة سرعان ما رأت ما فى الالتجاء إلى الدين من فوائد سياسية . فلما أن أصبح الآلهة ذوى فائدة من هذه الناحية تضاعف عددهم مراراً حتى أصبح لكل مدينة ، ولكل ولاية ، ولكل نوع من النشاط البشرى ، إله موح مدبر . وكانت عبادة الشمس قد تقادم عهدها حين نشأت بلاد سومر ، وكان مظهرها عبادة شمس « نور الآلهة » الذى كان يقضى الليل فى الأعماق الشمالية حتى يفتح

له الفجر أبوابه فيصعد فى السماء كاللاهب ويضرب بعربته فى أعماق القبة الزرقاء ؛ ولم تكن الشمس إلا عجلة فى مركبته النارية[39] . وشيدت مدينة نيبور المعابد العظيمة للإله إنليل ولصاحبته نهيل ، وأكثر ما كانت تَعبُد أوروك إلهة إنيني العذراء إلهة الأرض والمعروفة لدى أهل أكّد الساميين باسم إستير ، والتى تشبه عند أهل الشرق الأدنى أفروديتى — دميتر الفاجرة الغملجة عند الغربيين . وعبدت مدينتا كش ولكش أمًّا لهما حزينة هى الإلهة ننكرساج التى أحزنها شقاء البشر فأخذت تشفع لهم عند الآلهة الذين كانوا أشد منها قسوة[40] ؛ وكان تنجرسو إله الرّى و« ربّ الفيضانات» . وكان أبو أو تموز إله الزرع ؛ وكان سِنْ إله القمر ، وكانوا يمثلونه فى صورة إنسان يعلو رأسه هلال أشبه شىء بالهالات التى تحيط برءوس القديسين فى العصور الوسطى ، وكان الهواء كله فى زعمهم مملوءاً بالأرواح — منها ملائكة خيّرون لكل سومرى ملك منهم يحميه ، ومنها أرواح خبيثة أو شياطين تعمل جاهدة لطرد الروح الخير الواقى وتقمص جسم الآدمى وروحه .

وكانت كثرة الآلهة تسكن المعابد حيث يقرب لها المؤمنون القرابين من مال وطعام وأزواج ، وتنص ألواح جوديا على الأشياء التى ترتاح لها الآلهة وتفضلها عن غيرها ، ومنها الثيران ، والمعز ، والضأن ، واليمام ، والدجاج ، والبط ، والسمك ، والبلح ، والتين ، والخيار ، والزبد ، والزيت ، والكعك[41] . ولنا أن نستدل من هذا الثبت على أن الموسرين من أهل البلاد كانوا يتمتعون بالكثير من أصناف الطعام ، ويلوح أن الآلهة كانوا فى بادئ الأمر يفضلون لحم الآدميين ، فلما ارتقت أخلاق الناس لم يجدوا بدا من الاقتناع بلحم الحيوان .

وقد عثر فى الخرائب السومرية على لوحة نقشت عليها بعض الصلوات وجاءت فيها هذه النذر الدينية الغريبة : « إن الضأن فداء للحم الآدميين ، به افتدى الإنسان حياته »[42] ، وأثرى الكهنة من هذه القرابين حتى أصبحوا أكثر الطبقات مالا وأعظمها قوة فى المدن السومرية ، وحتى كانوا هم الحكام

المتصرفين فى الشئون ، حتى ليصعب علينا أن نحكم إلى أى حد كان الپاتيسى كاهناً ، وإلى أى حد كان ملكا .

فلما أسرف الكهنة فى ابتزاز أموال الناس نهض اوروكاچينا كما نهض لوثر فيما بعد ، وأخذ يندد بنهمهم وجشعهم ، ويتهمهم بالرشوة فى توزيع العدالة ، وبأنهم يتخذون الضرائب وسيلة يبتزون بها الزراع والصيادين ثمرة كدهم . وأفلح وقتاً ما فى تطهير المحاكم من هؤلاء الموظفين المرتشين الفاسدين ، وسن قوانين لتنظيم الضرائب والرسوم التى تؤدى للمعابد ، وحمى الضعفاء من ضروب الابتزاز ، ووضع الشرائع التى تحول دون اغتصاب الأموال والأملاك[43] . لكن العالم كان قد عمر حتى شاخ ، وتأصلت فيه الأساليب القديمة التى غشّاها الزمان بشىء من التبجيل والتقديس .

واستعاد الكهنة سلطانهم بعد موت أورو ــ كاچينا كما استعادوا سلطانهم فى مصر بعد موت إخناتون ، ذلك أن الناس لا يترددون فى أن يؤدوا أغلى الأثمان لكى يعودوا إلى ما خطته لهم أساطيرهم ، وكانت جذور الأساطير الدينية حتى فى ذلك العهد السحيق قد أخذت تتأصل فى العقول ، ومن حقنا أن نفترض أن السومريين كانوا يؤمنون بالحياة الآخرة ، لأن الطعام والأدوات كانت تدفن مع الموتى فى القبور[44] ، ولكنهم كانوا يصورون الدار الآخرة ، كما صوروها اليونان من بعدهم ، عالماً مظلماً تسكنه الأطياف التعسة ويهوى إليه الموتى أيا كان شأنهم من غير تمييز بينهم .

ولم تكن فكرة الجنة والنار والنعيم الدائم والعذاب الخالد ، قد استقرت بعد فى عقولهم ، ولم يكونوا يتقدمون بالصلاة والقربان طمعاً « فى الحياة الخالدة » ، بل كانوا يتقدمون بهما طمعاً فى النعم المادية الملموسة فى الحياة الدنيا[45] .. وتصف إحدى الأساطير المتأخرة كيف علمت إى إلهة الحكمة أداباً حكيمَ إريدو جميع العلوم ، ولم تخف عنه من أسرارها إلا سراً واحداً ــ هو سر الحياة الأبدية التى

لا تنتهى بالموت[٤٦] . وتقول أسطورة أخرى إن الآلهة خلقت الإنسان منعما سعيدا ، لكنه أذنب وارتكب الخطايا بإرادته الحرة ، فأرسل عليه طوفان عظيم عقاباً له على فعله ، فأهلك الناس كافة ولم ينج منه إلا رجل واحد هو تجتوج الحائك ، وإن تجتوج هذا خسر الحياة الخالدة والعافية لأنه أكل فاكهة شجرة محرمة[٤٧] .

وكان الكهنة يعلمون الناس العلوم ويلقنونهم الأساطير ، وما من شك فى أنهم كانوا يتخذون من هذه الأساطير سبيلا إلى تعليم الناس ما يريدونه هم ، وإلى حكمهم والسيطرة عليهم . وكانت تلحق بمعظم الهياكل مدارس يعلم فيها الكهنة الأولاد والبنات الخط والحساب ، ويغرسون فى نفوسهم مبادئ الوطنية والصلاح ، ويعدون بعضهم للمهنة العليا مهنة الكتبة . ولقد بقيت لنا من أيامهم الألواح المدرسية وعليها جداول للضرائب والقسمة ، والجذور التربيعية والتكعيبية ، ومسائل الهندسة التطبيقية[٤٨] . ويستدل من أحد الألواح المحتوية على خلاصة لتاريخ الإنسان الطبيعى على أن ما كان يتلقاه أطفال ذلك العهد من هذا العلم لم يكن أسخف كثيراً مما يتلقاه أبناؤنا فى هذه الأيام . فقد جاء فى هذا اللوح : « إن الإنسان فى أول خلقه لم يكن يعرف شيئاً عن خبز يؤكل أو ثياب تلبس ، فكان الناس يمشون مكبين على وجوههم ، يقتلعون الأعشاب بأفواههم ليقتاتوا بها كما تقتات بها الأغنام ، ويشربون الماء من حفر فى الأرض[٤٩] .

ومن أعظم الشواهد الناطقة بما بلغه هذا الدين — وهو أول الأديان التى عرفها التاريخ — من نبل فى التعبير والتفكير ، ذلك الدعاء الذى يتضرع به الملك جوديا للإلهة « بو » راعية الكش ونصيرتها :

أى مليكتى ، أيتها الأم التى شيدت لكش
إن الذين تلحظينهم بعينيك ينالون العزة والسلطان ،
والعابد الذى تنظرين إليه تطول حياته ،
أنا ليس لى أم — فأنت أمى ،

وليس لى أب ــ فأنت أبى . . . ؛
أى إلهتى بو ؟ إن عندك علم الخير ؛
وأنت التى وهبتنى أنفاس الحياة ،
وسأقيم فى كنفك أعظمك وأمجدك ،
وأحتمى بحماك يا أماه[٥٠] .

وكان يتصل بالهياكل عدد من النساء منهن خادمات ، ومنهن سرارى للآلهة أو لممثليهم الذين يقومون مقامهم على الأرض ؛ ولم تكن الفتاة السومرية ترى شيئاً من العار فى أن تخدم الهياكل على هذا النحو ، وكان أبوها يفخر بأن يهب جمالها ومفاتنها لتخفيف ما يعترى حياة الكهان المقدسة من ملل وسآمة ، وكان يحتفل بإدخال ابنته فى هذه الخدمة المقدسة ، ويقرّب القرابين فى هذا الاحتفال ، كما كان يقدم بائنة ابنته إلى المعبد الذى تدخله[٥١] .

وكان الزواج قد أصبح وقتئذ نظاماً معقداً تحوطه شرائع كثيرة . فكانت البنت إذا تزوجت تحتفظ لنفسها بما يقدمه أبوها من بائنة ؛ ومع أن زوجها كان يشترك معها فى القيام على هذه البائنة ، فقد كان لها وحدها أن تقرر من يرثها بعد وفاتها . وكان لها من الحقوق على أولادها ما لزوجها نفسه ، وإذا غاب زوجها ولم يكن لها ابن كبير يقيم معها كانت تدير هى المزارع كما تدير البيت . وكان لها أن تشتغل بالأعمال التجارية مستقلة عن زوجها ، وأن تحتفظ بعبيدها أو تطلق سراحهم . وكانت تسمو أحياناً إلى منزلة الملكة كما سمت شوب ــ آد وتحكم مدينتها حكماً رحيما رغداً قوياً[٥٢] ، غير أ الرجل كان هو السيد المسيطر فى الأزمات جميعها وكان من حقه فى بعض الظروف أن يقتل زوجته أو يبيعها أمة وفاء لما عليه من الديون . وكان الحكم الأخلاقى على الرجل يختلف عن الحكم الأخلاقى على المرأة حتى فى ذلك العهد السحيق ، وكان ذلك نتيجة لازمة لاختلافهما فى شئون الملكية والوراثة . فزنى الرجل كان يعد من النزوات التى يمكن الصفح عنها ،

أما زنى الزوجة فكان عقابه الإعدام ، فقد كان ينتظر منها أن تلد لزوجها وللدولة كثيراً من الأبناء ، فإذا كانت عاقراً جاز طلاقها لهذا السبب وحده ، أما إذا كرهت أن تقوم بواجبات الأمومة ، فكانت تقتل غرقاً . ولم يكن للأطفال شيء من الحقوق الشرعية ، وكان للآباء إذا تبرءوا منهم علناً أن يحملوا ولاة الأمور على نفيهم من المدينة[٥٣] .

غير أن نساء الطبقات العليا كن يحيين حياة مترفة ، وكان لهن من النعم ما يكاد يعدل بؤس أخواتهن الفقيرات ؛ شأنهن في هذا شأن النساء في جميع الحضارات ، فالأدهان والأصباغ والجواهر من أظهر العاديات في المقابر السومرية وقد كشف الأستاذ ولى في قبر الملكة شوب - آد عن مدهنة صغيرة من دهنج(*) أزرق مشرب بخضرة ، وعلى دبابيس من الذهب رءوسها من اللازورد ، كما عثر أيضاً على مثبنة عليها قشرة من الذهب المخرم . وقد وجدت في هذه المثبنة التي لا يزيد حجمها على حجم الخنصر ملعقة صغيرة لعلها كانت تستخدم في أخذ الصبغة الحمراء من المدهنة . وكان فيها أيضاً عصا معدنية يستعان بها على ملوسة الجلد ، وملقط لعله كان يستعمل لتزجيج الحاجبين أو لنزع ما ليس مرغوباً فيه من الشعر . وكانت خواتم الملكة مصنوعة من أسلاك الذهب وكان أحدها مطعماً بفصوص من اللازَوَرْد ، وكان عقدها من الذهب المنقوش واللازورد . وما أصدق المثل القائل إنه لا جديد تحت الشمس وإن الفرق بين المرأة الأولى والمرأة الأخيرة ليتسع له سم الخياط .

(*) الدهنج كجعفر كالزمرد ويسمى أيضاً الملخيت **Malachite** . (المترجم)

٥ — الآداب والفنون

الكتابة – الأدب – الهياكل والقصور – صناعة التماثيل – صناعة الفخار – الحلى – كلمة موجزة عن المدينة السومرية

الكتابة أروع ما خلفه السومريون ، ويبدو هذا الفن عندهم فناً عظيم الرقى ، صالحة للتعبير عن الأفكار المعقدة فى التجارة والشعر والدين . والنقوش الحجرية أقدم ما عثر عليه من النقوش ، ويرجع عهدها إلى عام ٣٦٠٠ ق . م[٥٤] ؛ وتبدأ الألواح الطينية فى الظهور حوالى ٣٢٠٠ ق . م . ويلوح أن السومريين قد بدءوا من ذلك الوقت يجدون فى هذا الكشف العظيم ما ترتاح له نفوسهم وما يفى بأغراضهم . ولقد كان من حسن حظنا أن سكان ما بين النهرين لم يكتبوا بالمداد السريع الزوال على الورق السريع العطب القصير الأجل ، بل كتبوا على الطين الطرى ونقشوا عليه ما يريدون نقشه بسن آلة حادة كالإسفين . وكانوا فى ذلك جد مهرة ، فاستطاع كتابهم بفضل هذه المادة اللينة أن يحتفظوا بالسجلات ، ويدونوا العقود والمشارطات ، ويكتبوا الوثائق الرسمية ، ويسجلوا الممتلكات والأحكام القضائية والبيوع ، ويخلقوا من هذه كلها حضارة لم يكن القلم فيها أقل قوة من السيف ، وكان الكاتب إذا أتم ما يريد كتابته جفف اللوح الطينى فى النار أو عرضه لحرارة الشمس فجعله بذلك مخطوطاً أبقى على الدهر من الورق ، ولا يفوقه فى طول عمره إلا الحجر وحده . وكانت نشأة هذه الكتابة المسمارية وتطورها أعظم ما للسومريين من فضل على الحضارة العالمية .

وتُقرأ الكتابة السومرية من اليمين إلى اليسار ؛ والبابليون فيما نعلم هم أول من كتب من اليسار إلى اليمين . ولعل الكتابة فى سطور كانت نوعاً من العلامات والصور التى جرى بها العرف والتى كانت تصور وتنقش على الأوانى الخزفية السومرية البدائية(*). وأكبر الظن أن الصور الأصلية قد صغّرت وبسطت

(*) ارجع إلى ما قلناه عن الكتابة فى الجزء الأول .

خلال القرون الطوال وبسبب الرغبة فى سرعة كتابتها ، حتى أضحت شيئاً فشيئاً علامات تختلف فى شكلها اختلافاً تاماً عن الأشياء التى كانت تمثلها ، فصارت بهذا رموزاً للأصوات لا صوراً للأشياء . ولنضرب لهذا مثلا من اللغة العربية يوضح هذه الطريقة وهو صورة العين . فإذا افترضنا أن صوُرة العين قد صغرت وبسطت وصورت حتى لم يعد معناها العين نفسها بل كان هو الصوت الخاص الذى تمثله مع حركتها (وهو الفتحة فى هذه الحال) والذى ينطق به مع حروف أخرى فى كلمات مختلفة كالعَسَل مثلا ، كان هذا شبيهاً بما حدث فى اللغة السومرية(*) . ولم يخط السومريون الخطوة التالية فى هذا التطور فيجعلوا الرسم ممثلا للحرف وحده دون الحركة فيفصلوا الحركة عنه حتى يمكن استخدام العلامة الدالة على العين فى ألفاظ مثل عنب وعُرقوب ومَعْمل تختلف حركة العين فيها عن الفتحة . وظلت هذه الخطوة التى أحدثت انقلاباً عظيما فى طرق الكتابة حتى خطاها قدماء المصريين[55] .

ويغلب على الظن أن الانتقال من الكتابة إلى الأدب تطلب عدة مئات من السنين . فقد ظلت الكتابة قروناً عدة أداة تستخدم فى الأعمال التجارية لكتابة العقود والصكوك ، وقوائم البضائع التى تنقلها السفن ، والإيصالات ونحوها ، ولعلها كانت بالإضافة إلى هذا أداة لتسجيل الشئون الدينية ، ومحاولة للاحتفاظ بالطلاسم السحرية . والإجراءات المنيعة فى الاحتفالات والمراسم ، والأقاصيص المقدسة ، والصلوات والتراتيل ، حتى لا تبيد ولا يدخل عليها المسخ والتغيير . ومع هذا فلم يحل عام ٢٧٠٠ ق . م حتى كان عدد كبير من دور الكتب العظيمة قد أنشئ فى المدن السومرية . فقد كشف ده سرزاك فى مدينة تلو مثلا ،

(*) هذا المثل من وضعنا . وأما المؤلف فقد ضرب مثلا حرف b الإنجليزى ومركباته bee (النحلة) ، being كائن . كذلك عدلنا الكلام فى الفقرة التالية حتى يتفق مع المثل العربى . والمعنى رغم هذا التغيير واحد ويوضح ما يرمى إليه المؤلف ، ولسنا نعد هذا تصرفا فى الترجمة بل نراه واجبا ضروريا للترجمة الصحيحة . (المترجم)

وفى أنقاض عمائر معاصرة لعهد جوديا . مجموعة مؤلفة من ثلاثين ألف لوح موضوعة بعضها فوق بعض فى نظام أنيق منطقى دقيق(٥٦) . وبدأ المؤرخون السومريون من عام ٢٠٠٠ ق . م يكتبون ماضيهم ويسجلون حاضرهم ليخلفوه لمن يجىء بعدهم . ووصلت إلينا أجزاء من هذه السجلات ولكنها لم تصل إلينا فى صورتها الأصلية بل جاءتنا مقتبسة فى تواريخ المؤرخين البابليين . على أن من بين ما بقى من هذه الكتب فى صورته الأصلية لوحاً عثر عليه فى نيبور كتب عليه الأصل السومرى البدائى لملحمة جلجميش التى سندرسها فيما بعد فى الصورة التى تطورت إليها عند البابليين(٥٧) . وتحتوى بعض الألواح المحطمة مراثىَ ذات قوة لا بأس بها فى أسلوب أدبى خليق بالتقدير . وفى هذه الألواح تبدأ خاصة التكرار اللفظى الذى تمتاز به أغانى الشرق الأدنى ، فترى ألفاظاً بعينها تتكرر فى بداية السطور ، كما ترى كثيراً من الجمل تكرر المعنى الذى ذكر فى جمل سابقة أو توضحه ؛ وفى هذه الآثار التى نجت من عوادى الأيام ترى النشأة الدينية للأديب فى الأغانى والمراثى التى يرددها الكهنة . فلم تكن القصائد الأولى إذن أراجيز ولا أناشيد غزلية بل كانت صلوات وأدعية دينية .

وما من شك فى أن قروناً طويلة من النماء والتطور فى سومر وفى غيرها من البلاد قد سبقت هذه البدايات الثقافية الظاهرة ؛ فهذه الثقافات لم يبتدعها السومريون فى هذه الحقبة بل نمت عندهم وتطورت . وكما يبدو فى الكتابة أن السومريين قد ابتدعوا الخط المسمارى ، كذلك يبدو فى العمارة أنهم ابتدعوا الأشكال الأساسية للمنازل والهياكل والأعمدة والقباب والعقود(٥٨) . ويخيل إلينا أن الفلاح السومرى كان فى أول الأمر ينشىء كوخه بأن يغرس الأعواد على هيئة مربع أو مستطيل أو دائرة ، ويثنى أعلاها حتى تجتمع ، ثم يربطها حتى يتكون منها قوس أو عقد أو قبة(٥٩) ؛ فكان ذلك هو البداية البسيطة أو المظهر الأول المعروف لهذه الأشكال الهندسية المعمارية . وقد عثر المنقبون فى

خرائب نپور على مجرى مائى معقود أنشئ منذ خمسة آلاف من السنين ، وعثر فى مقابر أور الملكية على عقود يرجع تاريخها إلى عام ٣٥٠٠ ق . م . وكانت المداخل المعقودة مألوفة فى أور منذ عام ٣٠٠٠[٦٠] ق . م . وكانت عقودها عقوداً حقاً أى أن أحجارها كانت صنجية الرص - كل حجر منها على هيئة إسفين يتجه طرفه الرفيع إلى أسفل محكم الوضع فى مكانه .

أما الأغنياء من أهل المدن فكانوا يشيدون قصوراً يقيمونها على رُبى تعلو عن أرض السهل قرابة أربعين قدماً فى بعض الأحيان ، وكانوا يجعلونها منيعة لا يمكن الوصول إليها إلا من طريق واحد ، وبذلك يستطيع كل عظيم سومرى أن يتخذ قصره حصناً له . وإذ كانت الحجارة نادرة الوجود فى تلك البلاد فقد كان أغلب هذه القصور يُبنى من الآجر ، وكانت الجدران الحمراء تغطى بحليات من الآجر نفسه ذات أشكال مختلفة - منها لوالب ، ومقرنصات ومثلثات ، ومنها معينات أو مشجرات ، وكانت الجدران الداخلية تغطى بالجص وتنقش نقشاً بسيطاً . وكانت الحجرات والمرافق تقام حول فناء يقى البيت وهج شمس البحر الأبيض وحرّها . ولهذا السبب عينه مضافاً إليه رغبة القوم فى الأمن من الأعداء كانت الحجرات تطل على هذا الفناء الداخلى بدل أن تطل على العالم الخارجى . أما النوافذ فكانت من الكماليات أو لعلهم كانوا فى غير حاجة إليها . وكانت المياه تؤخذ من الآبار ، وكان ثمة نظام واسع للمجارى وتصريف الفضلات من الأحياء المأهولة فى المدن . وكان أثاث البيوت قليلا بسيطاً ، ولكنه لم يكن يخلو من طابع الفن والذوق ، وكانت بعض الأسرّة تطعم بالمعادن أو بالعاج ، وكانت لبعض الكراسى السائدة أحياناً أرجل تنتهى بما يشبه مخالب السباع[٦١] على النحو الذى نشاهده فى كراسى المصريين الأقدمين .

أما الهياكل فكانت تستورد لها الحجارة من الأقطار النائية وكانت تزيّن بأعمدة وأفاريز من النحاس مطعمة بمواد شبيهة بالحجارة الكريمة . وكان هيكل

ناناو فى أور طرازاً تحتذيه سائر هياكل أرض الجزيرة ، فكانت جدرانه مغطاة من الخارج بالقرميد الأزرق الشاحب ، أما من الداخل فكانت تكسوه ألواح من الأخشاب النادرة ، كخشب الأرز والسرو تطعم بالرخام والمرمر والعقيق الظفرى واليمانى والذهب وكان أعظم هيكل فى المدينة يقام عادة فوق ربوة ، يعلوه برج من ثلاث طبقات أو أربع أو سبع فى بعض الأحيان ، يحيط به سلم لولبى ذو بسطة عند كل مقلب . وكانت هذه الأبراج أعلى صروح فى المدائن السومرية ، ومساكن أعظم آلهتها ، وكان فى وسع الحكومة أن تجد فيها آخر حصن روحى وطبيعى يعصمها من الثوار أو الغزاة(*)(٦٢) .

وكانت الهياكل تزينها أحياناً تماثيل للآلهة وللحيوان وللأبطال من بنى الإنسان . وكانت هذه التماثيل ساذجة غير جميلة فى صناعتها تمثل القوة والعظمة ولكنها ينقصها الصقل والأناقة والدقة الفنية . ومعظم ما بقى منها يمثل الملك جوديا . وهى منحوتة من حجر الديوريت الصلب نحتاً واضح المعارف ولكنه مع ذلك فج ساذج . وقد عثر فى خرائب تنتمى إلى العهد السومرى الأول على تمثال صغير من النحاس على شكل ثور ، عدا عليه الدهر ولكنه لا يزال يفيض حيوية وهمة ثورية . وفى مدينة أور عثر المنقبون على رأس بقرة مصنوع من الفضة فى قبر الملكة شب - آد وهو آية فنية تشهد بما وصل إليه الفن من رقى عظيم ، وإن كان الدهر قد عدا عليها حتى لم يعد فى وسعنا أن نقدرها التقدير الذى هى خليقة به . وإن هذا الحكم ليؤيده ما بقى من النقوش المحفورة تأييداً

(*) وقد أوحت هذه الأبراج إلى المهندسين الأمريكيين بطراز جديد من المبانى الشاهقة . ولم يسع القائمين على أعمال التنظيم فى تلك البلاد إلا أن يرغموهم على الرجوع بالطبقات العليا من المبانى إلى الداخل حتى لا يحجبوا الضوء عن جيرانهم . وإذا ما مثل الإنسان لنفسه أبراج السومريين التى أقيمت من الآجر منذ ٥٠٠٠ عام وأبراج مدينة نيويورك المقامة من الآجر فى هذه الأيام إذا مثل الإنسان لنفسه هذه وتلك تضاءل الزمن أمامه حتى لم يعد أطول من طرفة عين .

لا يكاد يترك مجالا للشك فيه : كذلك تظهر خشونة الفن السومري فى « لوحة الصقور » التى أقامها إينـــا – نوم ملك لكش ، واسطوانة إبنشار المصنوعة من الرخـــام السماق(٦٣) الصور الهزلية (. وهى بلا شك هزلية) التى تمثل أور – نينا(٦٤) ، وبخاصـــة فى « لوحة النصر » التى أقامها نارام – سِن ، ولكنها مع ذلك تنم عن حيوية قوية فى الرسم والنحت لا تكاد تترك مجالا للشك فى وجود فن ناشئ سائر فى طريق الازدهار .



شكل (٦) لوحة نارام – سن
المحفوظة فى متحف اللوفر

أما صناعة الخزف فليس فى وسعنا أن نحكم عليها هذا الحكم السهل الذى أصدرناه على صناعة النحت . ولعل عوادى الزمن من أسباب الخطأ فى هذا الحكم ، فقد يكون ما بقى لنا من آثار هذه الصناعة أقلها شأناً . ولعل هؤلاء الناس كانت لديهم قطع منه لا تقل فى إتقانها عن الأوانى المنحوتة من المرمر التى عثر عليها فى إريدو(٦٥) ، ولكن معظم الخزف السومرى – وإن كانت عجلة الفخّار قد استخدمت فيه – لا يعدو أن يكون آنية ساذجة من الفخار لا تسمو

إلى مستوى مزهريات عيلام . أما صناعة الذهب فقد بلغت مستوى رفيعاً كما يدل على ذلك ما وجد فى أقدم مقابر أور التى يرجع تاريخ معظمها إلى عام ٤٠٠٠[٦٦] ق . م من أوانٍ من الذهب تنم عن ذوق راق ومصقولة أجمل صقل . وفى متحف اللوفر مزهرية من الفضة كجسم جوديا ولكنها مزينة بطائفة كبيرة من صور الحيوانات المنحوتة نحتاً جميلا[٦٧] . وأجمل ما وجد من هذه القطع الفنية غمد من الذهب وخنجر مطعم باللازورد عثر عليهما المنقبون فى أور[٦٨] . وإذا كان لنا أن نحكم على هذه الآية الفنية من صورها الشمسية(*) حق لنا أن نقول إن الفن يكاد يسمو فيها إلى ذروة الكمال . وقد كشف فى هذه الخرائب عن عدد كبير من الأختام الاسطوانية معظمها مصنوع من المعادن الثمينة أو الأحجار الكريمة ، وعليها نقوش منحوتة فيما لا يزيد على بوصة مربعة أو بوصتين . ويلوح أن السومريين كانوا يستخدمون هذه الأختام فيما نستخدم فيه نحن الإمضاءات ، وكلها تشهد بما بلغته الحياة والأخلاق فى تلك الأيام من رقى وتهذيب ينقض ما لدينا من فكرة ساذجة عن تقدم الإنسان المتواصل من ثقافات الأيام الخوالى المنحوسة إلى ثقافات هذه الأيام التى بلغت الحد الأقصى من الكمال !

ويمكن أن نلخص الحضارة السومرية تلخيصاً موجزاً فى هذا التناقض بين خزفها الفج الساذج وحليها التى أوفت على الغاية فى الجمال والإيمان . لقد كانت هذه الحضارة مزيجاً مركباً من بدايات خشنة وإتقان بارع فى بعض الأحيان . وفى تلك البلاد — على قدر ما وصل إليه علمنا فى الوقت الحاضر — نجد أول ما أسسه الإنسان من دول وإمبراطوريات ، وأول نظم الرى ، وأول استخدام للذهب والفضة فى تقويم السلع ، وأول العقود التجارية ، وأول نظام للائتمان ، وأول كتب القوانين ، وأول استخدام للكتابة فى نطاق واسع ، وأولى قصص الخلق والطوفان ، وأولى المدارس والمكتبات ، وأول الأدب والشعر ، وأول

(*) وأصل هذه التحفة محفوظ الآن فى متحف بغداد .

أصباغ التجميل والحلى ، وأول النحت والنقش البارز ، وأول القصور والهياكل ، وأول استعمال للمعادن فى الترصيع والتزيين . وهنا نجد فى البناء أول العقود والأقواس وأول القباب ، وهنا كذلك تظهر لأول مرة فى التاريخ المعروف بعض مساوئ الحضارة فى نطاق واسع : يظهر الرق والاستبداد وتسلط الكهنة وحروب الاستعمار . لقد كانت الحياة فى تلك البلاد متنوعة ، مهذبة ، موفورة النعم ، معقدة . وهنا بدأت الفوارق الطبيعية بين الناس تنتج حياة جديدة من الدعة والنعيم للأقوياء ، وحياة من الكدح والعمل المتواصل لسائر الناس . وفى تلك البلاد كانت بداية ما نشأ فى تاريخ العالم من اختلافات يخطئها الحصر .

الفصل الثالث

الانتقال إلى مصر

أثر السومريين فى أرض الجزيرة — بلاد
العرب القديمة — أثر بلاد الجزيرة فى مصر

على أننا إذا ما تحدثنا عن السومريين نكون جد قريبين من بداية التاريخ قرباً يصعب علينا معه أن نحكم حكماً دقيقاً أى الحضارات التي نمت فى بلاد الشرق الأدنى والتى يتصل بعضها ببعض أوثق اتصال — نقول أى هذه الحضارات كانت أسبق من أختها أو أيها أعقبت الأخرى ؟ . إن أقدم مدوّنات كتابية وصلت إلينا هى المدوّنات السومرية وإن كان هذا فى ذاته لا يقوم دليلا على أن الحضارة السومرية أولى الحضارات ، فقد يكون هذا الكشف وليد الظروف المحضة ، وقد يكون نتيجة عبث الموت والفناء بمخلفات الأقدمين . وقد عثر على تماثيل صغيرة وآثار أخرى شبيهة بآثار السومريين فى بلدتى أشور وسامراء وهما من البلاد التى شملتها فيما بعد دولة أشور . ولسنا نعرف أكانت هذه الثقافة القديمة مستمدة من بلاد سومر أم انتقلت إليها من مكان آخر عن طريق نهر دجلة ؟ . كذلك تشبه شرائع حمورابى شرائع أور — أنجور ودنجى ، ولكننا لا نستطيع أن نثبت أن الأولى تطورت عن الثانية ، وليست تطوراً لشريعة أخرى أقدم منهما عهداً ، وأن كلتا الشريعتين استمدت أصولها منها . وكل ما فى وسعنا أن نقوله هو أننا نرجح ، ولا نؤكد ، أن حضارة البابليين والأشوريين مستمدتان من سومر وأكد ، أو أن سومر وأكد لحقتا الحضارتين البابلية والأشورية بلقاحهما[٦٩] . ذلك أن آلهة بابل ونينوى وأساطيرهما الدينية ليست فى كثير من الأحوال إلا آلهة وأساطير سومرية طرأ عليها التحوير والتطور ، وأن

العلاقة التى بين اللغتين البابلية والأشورية وبين اللغة السومرية لتشبه العلاقة القائمة بين اللغتين الفرنسية والإيطالية من جهة واللغة اللاتينية من جهة أخرى.

ولقد لفت شوينفرت أنظار العلماء إلى تلك الحقيقة الطريفة العظيمة الخطر، وهى أن الشعير والذرة الرفيعة والقمح، وتأنيس الماشية والمعز والضأن، وإن ظهرت كلها فى مصر وبلاد ما بين النهرين من أقدم العهود المدونة، لا توجد فى حالتها البرية الطبيعية فى مصر بل فى بلاد آسية الغربية وبخاصة فى بلاد اليمن وبلاد العرب القديمة، وهو يستدل من هذا على أن الحضارة — وهى هنا زراعة الحبوب واستخدام الحيوانات المستأنسة — قد ظهرت فى العهود القديمة غير المدونة فى بلاد العرب، ثم انتشرت منها فى صورة « مثلث ثقافى » إلى ما بين النهرين (سومر، وبابل وأشور) وإلى مصر[٧٠]، ولكن ما وصل إلى علمنا عن تاريخ بلاد العرب القديمة حتى الآن ليبلغ من القلة حداً لا نستطيع معه إلا أن نقول : إن هـــذا مجرد فرض جائز الوقوع .

وأكثر من هذا احتمالا أن عناصر بعينها من الثقافة المصرية مستمدة من بلاد السومريين والبابليين . فنحن نعلم أن مصر وبلاد النهرين كانتا تتبادلان التجارة — وخاصة بطريق برزخ السويس — ولعلهما كانتا تتبادلانهما أيضاً بالطريق المائى طريق مصاب الأنهر المصرية القديمة فى البحر الأحمر[٧١] . وإن نظرة إلى الخريطة لتوضح لنا السبب فى أن مصر كانت طوال تاريخها المعروف تنتمى إلى آسية الغربية أكثر مما تنتمى إلى أفريقية . لقد كان من السهل أن تنتقل التجارة والثقافة إلى مصر من بلاد آسية بطريق البحر المتوسط . ولكنها لا تلبث أن تعترضها الصحراء التى تفصل هى وجنادل النيل بلاد مصر عن سائر بلاد أفريقية . ومن ثم كان من الطبيعى أن نجد فى الثقافة المصرية عناصر كثيرة من ثقافة ما بين النهرين .

وكلما رجعنا إلى الوراء فى درس اللغة المصرية القديمة زاد ما نجده فيها من

صـلات بينها وبين لغات الشرق الأدنى السامية[٧٢] . ويبدو أن الكتابة التصويرية التى كان المصريون يستخدمونها قبل عصر الأسر الحاكمة قد انتقلت إلى مصر من بلاد السومريين[٧٣] . والخاتم الاسطوانى – وأصله بلا شك من بلاد الجزيرة – يظهر فى أقدم العهود المعروفة من تاريخ مصر، ثم يستخفى ، وقد كان أسلوباً قديماً دخيلا استبدل به أسلوب وطنى أصيل[٧٤] . وليست عجلة الفخار معروفة فى مصر قبل عهد الأسرة الرابعة – أى بعد أن ظهرت فى سومر بزمن طويل ، ولعلها جاءت إلى مصر من أرض النهرين مع العربات والعجلات[٧٥] ، ورءوس الصولج المصرية لا تفترق فى شىء عن البابلية[٧٦] . ومن بين الآثار المصرية التى ترجع إلى عصر ما قبل الأسر والتى عثر عليها فى جبل الأراك سكين من الظران جميل الصنع عليه نقوش بارزة هى بعينها نقوش أرض الجزيرة من حيث موضوعها وطرازها[٧٧] . ولعل صناعة النحاس قد نشأت فى غربى آسية ثم انتقلت بعدئذ إلى مصر[٧٨] . وتشبه الهندسة المعمارية المصرية الأولى هندسة أرض الجزيرة فى استخدام النقوش القليلة البروز لتزيين الجدران المتخذة من الآجر[٧٩] ، وفخار عهد ما قبل الأسر المصرية وتماثيله الصغيرة وموضوعات زينتها تشبه مثيلاتها فى أرض الجزيرة فى كثير من الأحوال أو شديدة الصلة بها بلا ريب[٨٠] . ومن بين الآثار المصرية الباقية من ذلك العهد تماثيل صغيرة لآلهة لا يخطئ الإنسان فى أنها من أصل أسيوى . ولقد كان الفنانون فى أور ينحتون التماثيل وينقشون النقوش التى يدل طرازها وما جرى عليه العرف فى صنعها على قدم هذين الفنين فى بلاد سومر ، وذلك فى الوقت الذى يلوح فيه أن الحضارة المصرية لم تَعْدُ بدايتها(*)[٨١] .

(*) حاول مؤرخ كبير هو إليوت اسمث أن يعارض هذه الآراء بقوله إن مصر وإن لم يعرف فيها الشعير والذرة الرفيعة والقمح بأشكالها البرية الطبيعية ، كانت هى البلاد التى نجد فيها أقدم الشواهد الدالة على زراعة هذه النباتات . وهو يعتقد أن الزراعة والحضارة بوجه عام قد انتقلتا إلى بلاد سومر من مصر نفسها[٨٢] . وكذلك لا يؤمن الأستاذ برستد – أعظم علماء العاديات المصرية الأمريكيين – بأسبقية الحضارة السومرية للحضارة المصرية ؛ وهو يعتقد أن العجلات قديمة فى مصر قدمها فى بلاد السومريين إن لم تكن أقدم، ويرفض رأى شوينفرت ، وحجته فى ذلك الرفض أن الحبوب قد وجدت فى أشكالها البرية فى مرتفعات بلاد الحبشة .

ولا غضاضة على مصر فى أن تعترف بالسبق لبلاد سومر ؛ ذلك أنه مهما تكن الأصول التى استمدتها مصر من أرض دجلة والفرات فإن هذه الأصول سرعان ما نمت وأينعت وأثمرت حضارة مصرية خالصة فذة هى بلا ريب من أغنى الثقافات المعروفة فى التاريخ وأعلاها شأناً وأعظمها قوة ؛ وهى مع ذلك من أكثرها رشاقة وجمالا ، حضارة إذا قيست إليها السومرية لم تكن هــذه إلا بداية فجة ، بل إن حضارتى اليونان والرومان لا تفضلانها فى شىء .

البحر الأبيض المتوسط
رشيد
الإسكندرية
ومصاب النيل
سايس
نقراطيس
پلوزيم
بوبسطه
عين شمس
القاهرة
الجيزة
سقارة
منفيس
بحيرة موريس
الفيوم
ميدوم
هرقليوبوليس
سيناء
بنى حسن
تل العمارنة
اخيتاتون
العرابة
دندره
مدينة حبو
الكرنك
طيبة
الأقصر
إدفو
الفنتين
اسوان
أبو
مصر

الباب الثامن

مصر

الفصل الأول

هبة النيل

١ — فى الوجه البحرى

الإسكندرية – النيل – الأهرام – أبو الهول

هذا مرفأ أمين أوفى على الغاية فى الأمان . ففى خارج حاجز المياه ترى الأمواج الصاخبة يعلو بعضها فوق بعض ، أما فى داخله فالبحر مرآة من اللجين . هناك ، على جزيرة فاروس الصغيرة ، فى عهد من عهود مصر الموغلة فى القدم ، شاد سُستراتس من الرخام الأبيض منارته العظيمة ورفعها خمسمائة قدم لتكون هادية لجميع الملاحين الضاربين فى مياه البحر المتوسط ، ولتكون إحدى عجائب العالم السبع .

ولقد عفت آثار هذه المنارة بفعل الأيام والمياه الغاضبة ، ولكن منارة جديدة قد حلت الآن محلها تهدى السفن التجارية بين الصخور إلى أرصفة ميناء الإسكندرية ، حيث أنشأ الإسكندر – ذلك الغلام السياسى العجيب – مدينته العظيمة التى اختلطت فيها الأجناس ، والتى ورثت فيما بعد ثقافة مصر وفلسطين واليونان ، وفى مرفأ الإسكندرية استقبل قيصر وهو غاضب مكتئب رأس بمبى مفصولا من جسده .

وإذا أطل المسافر من نافذة القطار وهو يخترق المدينة لمحت عيناه فى بعض

أجزائها أزقة وطرقات غير مرصوفة ، وأمواجاً من الحرارة ترقص فى الهواء ، وعمالا عرايا إلى أوساطهم يكدحون فى مختلف الأعمال ، ونساء ذوات مآزر سود يحملن الأثقال ، وشيوخاً عليهم جلابيب بيض فاخرة وعمائم تكسوهم المهابة والوقار . وتقع العين من بعيد على ميادين فسيحة وقصور فخمة لا تقل جمالا عما شاده فيها البطالمة حين كانت الإسكندرية ملتقى العالم كله . ثم لا يلبث الإنسان أن يرى نفسه فجاءة فى الريف ويرى المدينة من ورائه تتراجع إلى أفق دال النهر الخصيبة ، وهى ذلك المثلث الأخضر الذى يبدو فى المصورات كجريد النخلة السامقة محمولا على جذع نهر النيل الرفيع .

وما من شك فى أن هذه الدال كانت فى يوم من الأيام خليجاً فى البحر ؛ طمره النهر الواسع طمراً بطيئاً لا تدركه العين بما ألقاه فيه من الغرين الذى حمله معه آلاف الأميال(*) . وفى هذا الركن الطينى الصغير الذى يكتنفه مصبا النهر العظيم يُخرج ستة ملايين من الفلاحين قطناً يصدرون منه إلى خارج بلادهم ما قيمته مائة ألف ريال فى كل عام . وفى ذلك الصقع من أصقاع العالم يجرى أعظم نهر من أنهار الأرض وأوسعها ذكراً ، تسطع الشمس على مياهه البرّاقة الهادئة وتكتنفه من جانبيه أشجار النخل الرفيعة السامقة والحشائش والحقول الناضرة . وليس وسع فى المسافر أن يرى الصحراء الغربية من مجرى النهر العظيم أو الوديان الجافة التى كانت من قبل روافد له . ولا تستطيع فى هذه المرحلة أن تدرك ضيق أرض مصر الشديد ، واعتمادها التام على نهر النيل ، وما يحيط بها على الجانبين من رمال سافية تناصبها العداء .

ويمر القطار الآن وسط السهل الرسوبى المغطى بعضه بالماء ، والذى تخترقه قنوات الرى فى كل مكان ، وينتشر فيه الفلاحون يجدُّون ويكدحون وليس عليهم

(*) يعتقد الجغرافيون القدماء أنفسهم (استرابوان مثلا) أن أرض مصر كانت فيما مضى تغمرها مياه البحر المتوسط وأن صحاريها كانت فى قاع هذا البحر .

إلا القليل من الثياب ، والنهر يفيض في كل عام ويبدأ فيضانه وقت الانقلاب الصيفي ويدوم نحو مائة يوم ؛ وماء الفيضان هو الذى أخصب للصحراء ، وأوجد مصر « هبة النيل » كما سماها هيرودوت ؛ ومن اليسير على الإنسان أن يدرك لماذا وجدت الحضارة فى هذا الوادى موطناً من أقدم مواطنها . ذلك أننا لا نجد فى أى بلاد أخرى فى العالم نهراً مثل نهر النيل سخياً بمائه ، يعلو بقدر ، ويسهل التحكم فيه ؛ وليس فى وسع بلاد أخرى أن تضارع مصر فى هذا إلا أرض الجزيرة ؛ ولقد ظل زراع مصر آلاف السنين يرقبون فيض النيل بقلوب واجفة ، ولا يزال المنادون إلى يومنا هذا فى أيام الفيضان يعلنون أنباءه فى كل صباح فى شوارع القاهرة . وهكذا ينحدر الماضى إلى المستقبل انحدار هذا النهر الهادئ الدائم الجريان ماراً فى طريقه بالحاضر مرا خفيفاً . إن تقسيم الأيام إلى ماض وحاضر ومستقبل عمل من صنع المؤرّخين ، أما الزمن فلا يعرف هذا التقسيم .

لكن لكل هبة ثمنها ، ومهما يكن تقدير الفلاح لقيمة هذا الفيض العظيم فقد أدرك أنه إن لم يسيطر عليه فإنه لا يروى الحقول فحسب بل إنه يرويها ويخربها . ومن أجل هذا احتفر منذ عهود ماقبل التاريخ تلك القنوات التى تخترق أرض مصر طولا وعرضاً وتتقاطع فيها تقاطع خيوط الشباك ، واحتبس فيها المياه الزائدة(*) حتى إذا ما انخفضت مياه النهر رفعها إلى الأرض فى دلاء معلقة فى قوائم طويلة وأنشد وهو يرفعها الأغانى التى استمع إليها النيل من خمسة آلاف من السنين . ذلك أن هؤلاء الفلاحين الذين نراهم الآن منقبضين لا يضحكون حتى فى أثناء غنائهم لا يختلفون فى شىء عن أجدادهم الذين عاشوا على ضفاف النهر طوال القرون الخمسين الماضية[3] . وهذا الجهاز الذى يرفع به الماء ، والذى لا نزال نشاهده الآن ، قديم قدم الأهرام نفسها ، ولا يزال مليون من هؤلاء الفلاحين يتكلمون

(*) ليس الغرض من إنشاء القنوات الاحتفاظ بالمياه الزائدة بل الغرض منها إيصال الماء إلى الأرض البعيدة عن مجرى النهر . (المترجم)

اللغة المنقوشة على الآثار القديمة رغم انتشار اللغة العربية فى كافة أنحاء البلاد(*)(٤).

وفى أرض الوجه البحرى ، وعلى بعد خمسين ميلا إلى الجنوب الشرقى من الإسكندرية ، موقع مدينة نقراطيس القديمة التى كانت فى يوم من الأيام مدينة صناعية عظيمة يسكنها اليونان المحدثون ، وعلى بُعد ثلاثين ميلا إلى شرق هذه المدينة موقع ساو (سايس أوْ صا الحجر) التى بعثت فيها الحضارة القومية المصرية آخر مرة فى القرون التى سبقت الفتح الفارسى والفتح اليونانى . وعلى بعد مائة وتسعة وعشرين ميلا فى جنوب الإسكندرية الشرقى تقع مدينة القاهرة . والقاهرة مدينة جميلة ولكنها ليست مصرية خالصة ، فقد شادها الفاتحون المسلمون فى عام ٩٦٨ بعد الميلاد . ثم أقام الفرنسيون المرحون فى قلب الصحراء باريس أخرى دخيلة غير حقيقية، على النتائج أن يجتازها فى سيارة أو عربة تجرها الجياد ، إذا أراد أن يجتازها على مهل ، ليشاهد مصر القديمة عند الأهرام .

ولشد ما تبدو هذه الأهرام صغيرة الحجم حين ينظر الإنسان إليها من الطريق الطويل المؤدى إليها ، فهل قطعنا نحن هذه الرحلة الطويلة لنرى هذه الآثار الصغيرة ؟ لكنها لا تلبث أن يزداد حجمها كأن يداً قد رفعتها فى الهواء . ونصل إلى منحنى فى الطريق ، ونقبل فجأة على حافة الصحراء ، وتواجهنا الأهرام عارية منعزلة فى الرمال ، ضخمة شاهقة تسمو قممها فى سماء مصر الصافية . ونبصر عند سفوحها خليطاً من أجناس مختلفة — منهم رجال أشداء يركبون الحمير ذاهبين بها إلى أعمالهم ، ومنهم سيدات فى عربات نقل ، ومنهم شبان مرحون على ظهور الخيل ، وفتيات يجلسن فى غير اطمئنان على ظهور الجمال تلتمع ثيابهن الحريرية

(*) يقول المؤلف إنه استقى هذه المعلومات من كتاب إرمن Erman « الحياة فى مصر القديمة Life in Ancient Egypt » . ولكنا لم نجد هذا القول أو ما يقرب منه فى كتاب إيرمن . ولعله يقصد بالمحبون من الفلاحين الذين يتكلمون اللغة المنقوشة على الآثار ، أقباط مصر ولكن الأقباط لا يتكلمون اللغة المصرية القديمة وليست اللغة القبطية هى بعينها لغة الآثار وإن احتوت بعض ألفاظ منها . وحتى هذه اللغة لا يتحدث بها الأقباط وإن درسها بعضهم . (المترجم)

فوق سيقانهن فى ضوء الشمس . ونرى فى كل مكان الأدلاء العرب على استعداد لمعونة القادمين وتأدية ما يلزمهم من خدمات ، ونقف حيث وقف قيصر ونابليون ، ونذكر أن خمسين قرناً تطل علينا ، نقف حيث جاء أبو التاريخ(*) قبل أن يجىء قيصر بأربعمائة عام ، واستمع إلى القصص التى دهش منها بركليز . ثم يسقط من الصورة عامل الزمن فيبدو لنا قيصر وهيرودوت ونحن أيضاً كأننا كلنا يعاصر قديمنا حديثنا ، ونقف ذاهلين أمام هـــذه المقادير التى كانت أقدم إلى قيصر وهيرودوت من اليونان بالنسبة إلينا .

وإلى جوار الأهرام يربض تمثال أبى الهول ، نصـــفه أسد ونصفه فيلسوف ، يقبض بمخالبه القوية على الرمال ؛ ويحدق بعينيه وهو ساكن لا يتحرك فى الزائرين العابرين وفى السهل الأزلى . إنه لتمثال ينتهى فيه جسم الأسد برأس إنسان ، له فكّان بارزان ، وعينان قاسيتان ، كأن المدنية التى صورته (٢٩٩٠ ق . م) لم تنسَ ما كان عليه الإنسان من وحشية فى سابق عهده . وكانت الرمال تغطيه فى الزمن القديم ، ولذلك لا يذكر هيرودوت كلمة واحدة عنه وهو الذى أبصر بعينيه أشياء كثيرة لا وجود لها تلك البلاد .

ألا ما أعظم ما كان يتمتع به أولئك المصريون الأقدمون من ثراء . وما أقوى سلطانهم وأعظم حذقهم فى طفولة التاريخ نفسها . لقد استطاعوا بثرائهم وقوتهم وحذقهم أن ينقلوا هذه الحجارة الضخمة ستمائة ميل أو أكثر وأن يرفعوها وهى تزن عدة أطنان إلى علو خمسمائة قدم ؛ وأن يطعموا المائة ألف من العمال الذين ظلوا يكدحون عشرين عاماً كاملة فى تشييد هذه الأهرام إذا لم يكونوا قد أدوا لهم أجورهم على عملهم هذا ! وقد احتفظ لنا هيرودوت بنقش وحده على هرم منها يسجل مقدار ما استهلكه العمال الذين شادوه من فجل وثوم وبصل ، كأن

(*) يقصد هيرودوت . (المترجم)

هذه أيضاً أشياء لابد لها أن تخلد(*) . على أننا نغادر هذا المكان فى غير بهجة ، ذلك أنا نرى فى هذا الحرص الشديد على الضخامة شيئاً من النزعة الهمجية البدائية أو النزعة الهمجية الحديثة . إن ذاكرة من يشاهدها وخياله وقد تضخما بفعل التاريخ وتأثيره ، هما اللذان يخلعان العظمة على هذه الآثار . أما هى ذاتها فلا تعدو أن تكون دليلا على الغرور الباطل ، فهذه مقابر أراد بها الموتى حياة خالدة . ولعل الصور قد رفعت كثيراً من شأنها ، ذلك أن الصور الشمسية تستطيع أن تسجل كل شىء عدا الأقذار ، وأن تعظم من شأن أعمال الإنسان بما تحيطها به من مناظر الأرض والسماء . إن منظر غروب الشمس فى الجيزة لأعظم فى نظرنا من رؤية الأهرام .

٢ — مشرعة النهر

منف – روائع الملكة حتشبسوت – تمثالا ممنون –
الأقصر والكرنك – عظمة الحضارة المصرية

يركب المسافر من القاهرة باخرة صغيرة تصعد فى النهر — أى تسير فيه جنوباً — سيراً بطيئاً يستمر ستة أيام تصل بعدها إلى الكرنك والأقصر ، وتمر على بعد ثلاثين ميلا إلى جنوب القاهرة بموقع منف أقدم العواصم المصرية ، فى هذه المدينة كان يحكم الملوك العظام ملوك الأسرتين الثالثة والرابعة ، وقد بلغ عامرها فى أيامهم مليونين من الأنفس ؛ والآن لا ترى العين فيها إلا صفاً من الأهرام الصغيرة وأيكة من النخل ؛ أما ما عدا هذا فهو صحراء لا آخر لها ، ورمال جرداء تغوص فيها الأقدام ، وتؤذى بوهجها الأعين وتسد مسام الجلد ، وتغطى كل شىء ، وتمتد من مراكش مخترقة طور سيناء وبلاد العرب والتركستان والتبت إلى

(*) يقول ديودور الصقلى (وهو كاتب يجب أن يقرأ على الدوام بحذر) : إن نقشا على الهرم الأكبر ينص على (أن ١٦٠٠ وزنة أى ٠٠٠و١٦٠٠٠٠(٥) ريال قد أنفقت فى شراء الخضر والمسهلات للعمال .

بلاد المغول . وفى هذه المنطقة الرملية التى تخترق قارتين من أكبر قارات العالم قامت مراكز الحضارة فى الزمن القديم ، ثم عفت آثارها حين ارتد الجليد إلى الوراء فاشتدت الحرارة وقلت الأمطار : ويمتد بحذاء النيل من البحر المتوسط(*) إلى بلاد النوبة شريط ضيق من الأرض الخصبة يبلغ عرضه اثنى عشر ميلا على كلتا الضفتين انتزع من الصحراء : وهذا هو الخيط الذى كانت تتعلق به حياة مصر . ومع هذا فما أقصر ما تبدو حياة اليونان أو رومة بالقياس إلى السجل الحافل فى حياة مصر الذى يمتد من مينا إلى كليوبطرة !

وبعد أسبوع من بداية الرحلة تصل الباخرة النيلية إلى الأقصر ؛ وفى هذا المكان الذى تقوم فيه قرى صغيرة من حولها الرمال السافية شيدت أكبر العواصم المصرية وأغنى مدينة فى العالم القديم ، كانت معروفة عند اليونان باسم طيبة وعند أهلها القدامى باسم ويزى ، ونى . وعلى الضفة الشرقية لنهر النيل يقوم الآن الفندق المعروف بقصر الشتاء (ونتر پالاس) يتوهج سياجه بزهر الجهنمية . فإذا أطل المسافر على الضفة الغربية رأى الشمس تغرب من وراء مقابر الملوك فى بحر من الرمال ، ورأى السماء مزدانة بصفحات براقة ما بين أرجوانية وذهبية ، وتسطع فى الغرب من بعيد أعمدة هيكل الملكة حتشبسوت الفخم ، إذا نظر إليه القادم من بلاد الغرب ظنه بهو أعمدة شاده اليونان أو الرومان الأقدمون .

فإذا أصبح الصباح ركب السائح قارباً بطيئاً يعبر به النهر فوق ماء هادئ ساكن ، فلا يخطر بباله أن هذا النهر بعينه قد ظل يجرى على هذا المنوال قروناً يخطئها الحصر . فإذا عبر النهر إلى الضفة الغربية سار فى الصحراء ميلا بعد ميل فى طرق جبلية متربة . ماراً بقبور تاريخية قديمة حتى يصل إلى تلك الآية الفنية الرائعة ، وأعنى بها هيكل الملكة حتشبسوت العظيمة ، التى ترتفع عمده البيض

(*) لعله يقصد من القاهرة أما ما يقع شمالها حتى البحر المتوسط فهو دال النهر التى تمتد أرضها الزراعية أضعاف هذا القدر . (المترجم)

الساكنة فى وهج السماء الصافية . وهنا اعتزم الفنان أن يحيل الطبيعة وتلالها إلى جمال أعظم من جمالها ، فشاد فى مواجهة أجراف الحجر الأعبل هذه العمَد التى لا تقل فخامة عن العمد التى أقامها إكتينوس لبركليز . وليس فى وسع من يشاهدها أن يخالجه شك فى أن اليونان قد أخذوا فنون عمارتهم من هذا الشعب المبدع المبتكر ، ولعلهم أخذوها منه عن طريق جزيرة كريت . وعلى جدران هذا المعبد نقوش قليلة البروز تنبض بالحياة والحركة والفكر ، وتقص قصة أولى نساء التاريخ العظيمات وللملكة ليست أقل ملكاته شأناً .

ويشاهد المرء فى طريقه وهو راجع تمثالين كبيرين يمثلان أوفر ملوك مصر نعمة ، وهو الملك أمنحوتب الثالث ، ويسميهما الرحالة اليونان خطأ « تمثالى ممنون » . ويبلغ ارتفاع الواحد منهما سبعين قدماً ؛ ويزن سبعمائة طن ، وهو منحوت من كتلة حجرية واحدة . وعلى قاعدة أحدهما نقش خطته يد السياح اليونان الذين زاروا هذه الآثار منذ ألفى عام . وهنا أيضاً تتضاءل الدهور تضاؤلا غريباً ويبدو هؤلاء اليونان فى حضرة هذين التمثالين العظيمين معاصرين لنا نحن . وعلى بعد ميل منهما جهة الشمال آثار حجرية من عهد رمسيس الثانى ، وهو شخصية من أروع الشخصيات فى التاريخ ، يبدو الإسكندر الأكبر إلى جانبها إنساناً لا قيمة له ولا خطر . لقد عاش هذا الملك تسعة وتسعين عاماً جلس منها على عرش مصر سبعة وستين ، وأنجب من الأبناء مائة وخمسين . وتراه هنا تمثالا كان ارتفاعه فى يوم من الأيام ستا وخمسين قدما ، أما الآن فيمتد على الأرض بين الرمال ستا وخمسين يسخر منه الغادون والرائحون . وقد حرص علماء نابليون على قياس كل جارحة فيه فقدروا طول أذنه بنصف قدم ، وعرض قدمه بخمس أقدام ، وقدروا وزنه بألف طن . وكان حقاً على نابليون أن يحييه بما حيا به الفيلسوف جوته فيما بعد إذ قال : « ها هو ذا الرجل ! » .

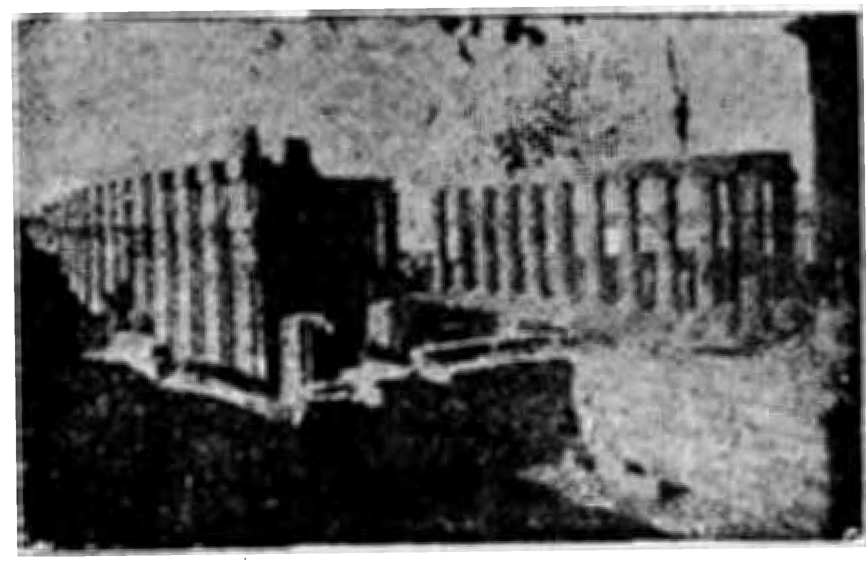
ومن حولنا فى هذا المكان على شاطئ النيل الغربى مدينة الموتى حيث

كشف علماء الآثار المصرية المنقبون فى كل ناحية من نواحيها قبراً لملك من الملوك . ولقد كان قبر توت عنخ آمون فى أثناء زيارتى مغلقاً ، مغلقاً حتى فى وجه من كانوا يظنون أن الذهب تفتح له جميع الأبواب .

أما قبر سيتى الأول فمفتوح ، وهنا فى الأرض الظليلة المائلة إلى البرودة يستطيع السائح أن يبصر سقفاً وطرقات منقوشة ، ويعجب بما كان للصناع فى ذلك العهد من مهارة ، وما كان فى البلاد من ثروة استطاعت بهما أن تنشئ أمثال هذه التوابيت الضخمة ، وأن تحيطها بهذا الفن الرائع . ولقد شاهد المنقبون فى أحد هذه المقابر آثار أقدام العبيد الذين حملوا جثة الملك المحنطة ليودعوها مقرها الأخير منذ ثلاثة آلاف عام[٦] .

هذا ما يشاهده السائح على الضفة الغربية . أما الضفة الشرقية فهى مزدانة بأحسن الآثار وأجملها : ففى الأقصر القائمة على هذه الضفة بدأ أمنحوتب العظيم يقيم صرحه الضخم مستعيناً بالمغانم التى أفاءتها على مصر فتوح تحتمس الثالث . ولكن المنية عاجلته قبل أن يتمه ، فوقف العمل مائة عام كاملة حتى جاء رمسيس الثانى وأتمه بما يليق بالملوك من أبهة . ولا يكاد المرء ينظر إلى هذا البناء حتى تغمره روح فن العمارة المصرية التى لا تقتصر مزاياه على السعة والقوة بل تجمع إليهما الجمال الرائع ودلائل الرجولة السامية . لقد كان فى هذا الصرح بهو عظيم فسيح الأرجاء تغطيه الرمال الآن ، ولكن أرضه فى الأيام الخالية كانت كلها من الرخام ، وتقوم على ثلاثة من جوانبه عمد فخمة لا تضارعها إلا عمد الكرنك وعدها . وفى كل جهة حجارة عليها نقوش قليلة البروز وتماثيل تنم عن العظمة حتى بعد أن عدت عليها عوادى الزمان . فليتمثل القارئ ثمانية أعواد طويلة من أعواد البردى — مهد الكتابة ولكنه هنا طراز من طرز الفن ؛ ومن تحت أزهارها التى لا تزال فى أكمامها خمسة أربطة قوية تشد هذه الأعواد فتجمع بين

الجمال والقوة ، وليتصور بعدئذ أن هذه الحزمة كلها من صخر أصم ، تلك هي العَمَد المقامة فى الأقصر على هيئة نبات البردى . وليتصور القارئ بهواً مشيداً كله من هذه العمد مرفوعة عليها دعامات ضخمة وأكنان ظليلة . ليتصورها



شكل (٧) البهو والعمد فى الهيكل العظيم فى الأقصر

القارئ بالصورة التى تركتها عليها عوادى ثلاثين قرنا ؛ ثم ليحكم بعدئذ على أقدار الرجال الذين استطاعوا فى ذلك العهد السحيق الذى كنا نسميه طفولة المدنية أن يفكروا فى هـــذه الآثار العظيمة ثم يخرجوا أفكارهم إلى حيز الوجود .

ثم يجتاز السائح بين الأطلال القديمة والأقدار الحديثة طريقا غير معبد يؤدى إلى هياكل الكرنك آخر ما احتفظت به مصر من آثارها لتعرضها على زائريها . وقد اشترك فى تشييدها نحو خمسين من الفراعنة منذ أواخر الدولة القديمة إلى أيام البطالمة . وأخذت هذه الهياكل تنمو ويزداد عديدها جيلا بعد جيل حتى غطت هذه الصروح – وهى أعظم ما قربه فن العمارة قرباناً للآلهة – ما لا يقل عن ستين فداناً من الأرض . وثمة طريق تحفه من الجانبين تماثيل أبو الهول يؤدى من هذه

الهياكل إلى المكان الذى وقف فيه شمپليون واضع علم الآثار المصرية القديمة عام ١٨٢٨ وكتب :

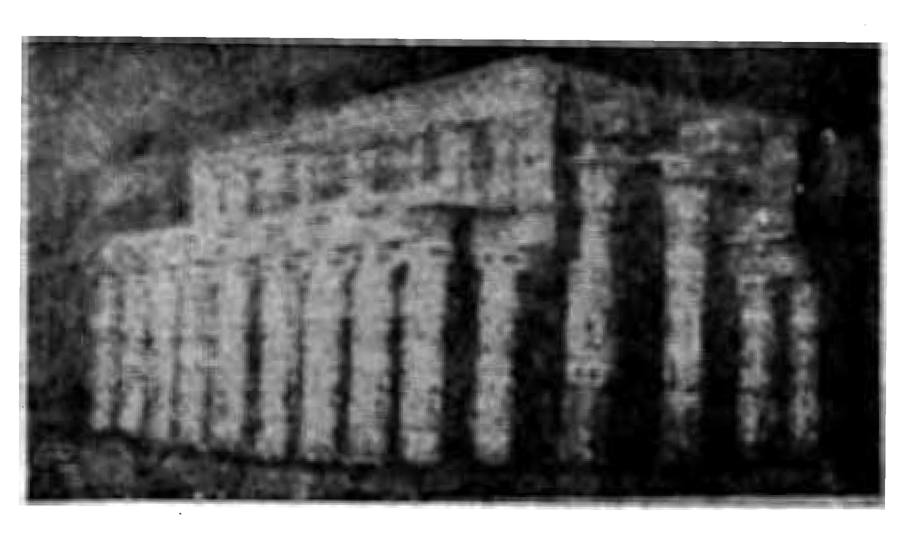
« وجئت آخر الأمر إلى القصر أو بعبارة أصح إلى مدينة الآثار — إلى الكرنك : وفيها تبدت لى عظمة الفراعنة بأكملها وشاهدت كل ما تصوره الناس وما أخرجوه فى أكبر صوره . . . وما من شعب قديم أو حديث غير قدماء المصريين قد صور لنفسه فن العمارة بهذا السمو وهذه العظمة ، هذه الفخامة .

لقد كانوا يفكرون كما يفكر الجبابرة الذين تبلغ قامة الواحد منهم مائة من الأقدام[٧] .

وليس فى وسع الإنسان أن يفهم هذا البناء على حقيقته إلا إذا كانت لديه خرائط ورسوم . وكان ملماً بكل ما بلغه فن العمارة من رقى . فليتصور القارئ رقعة فسيحة مسورة مربعة الشكل ، طول ضلع من أضلاعها ثلث ميل ، كثيرة الأبهاء ، كانت تحتوى فى وقت من الأوقات ٨٦٠٠٠ تمثال[٨] . أهم ما فيها مجموعة من المبانى يتألف منها هيكل أمون وطوله ألف قدم فى ثلثمائة ، وبين كل بهو وبهو أبواب عظيمة ؛ وأعمدة النصر التى أقامها نابليون مصر تحتمس الثالث وقد تهشمت تيجانها ولكنها لا تزال تشهـــد بدقة النحت والتصوير ؛ ثم بهو الاحتفالات ذو العمد المخددة التى شادها هذا الملك الباسل نفسه والتى تستبق كل ما فى العمد الدُّورية المقامة فى بلاد اليونان من قوة وعظمة ، ثم هيكل پتاح الصغير ذو العمد التى لا تقل رشاقة عن أشجار النخيل الحية القائمة بجوارها ، ثم المتنزه العظيم الذى أنشأه تحتمس أيضاً والذى يضم طائفة من العمد العارية الضخمة . وأعظم من هذا كله البهو(*) الأكبر ذو السقف العظيم المقام على أعمدة ضخمة تبلغ عدتها مائة وأربعين ، متقاربة بعضها من بعض لتقى من فيها حر الشمس اللافح وتمثـــل فى أعلاها رءوس النخل منحوتة فى الحجارة ، وتحمل ســـقفاً من كتل

(*) فى متحف الفن بمدينة نيويورك نموذج لهذا البهو .

ضخمة من الحجارة منحوتة من الحجر الأعبل الصلب وممتدة من تاج عمود إلى تاج عمود . وبالقرب من هذه الردهة مسلتان رفيعتان كلتاهما من حجر واحد ، متماثلتان أتم تماثل ومتساويتان فى الجمال والرشاقة ، تقومان كأنهما



شكل (٨) صورة مستعادة للبهو ذى السقف المقام على العمد فى الكرنك

عمودان من النور بين حطام التماثيل والهياكل ، وتذيعان بما عليهما من النقوش رسالة الملكة الفخور حتشبسوت إلى العالم . وقد جاء فى هذا النقش أن « هاتين المسلتين قد صنعتا من الحجر الأعبل الصلد الذى جىء به من محاجر الجنوب ، وأن رأسيهما من الذهب الإبريز الذى اختير من أحسن ما حوته منه البلاد الأجنبية . ويمكن مشاهدتهما على النهر من بعيد ونورهما الساطع يشع فى الأرضين . وإذا ما لاح قرص الشمس بينهما بدا كأنه يبزغ حقاً فى أفق السماء . . . وأنتم يا من ترون هذين الأثرين بعد زمن طويل ويا من تتحدثون من بعدى عما فعلت ، ستقولون : إنا لا ندرى ، لا ندرى كيف أقاموا جبلا كله من الذهب . . . لقد أنفقت فى تذهيبهما ذهباً كنت أكيله كيلا كأنه أكياس الحب . . . ذلك أنى أعرف أن الكرنك أفق الأرض السماوى[٩] » .

أعظم بها من ملكة وأعظم بهم من ملوك ! أكبر الظن أن هذه الحضارة - أولى الحضارات العظيمة - كانت أجملها كلها ، وأكبر الظن أيضاً أننا لم نعدُ طور البداية فى الكشف عن عظمتها . وفى جوار بحيرة الكرنك المقدسة رجال يحفرون الأرض ويحملون التراب فى أسفاط صغيرة مزدوجة فى



شكل (٩) عمد تحمل سقف البهو الكبير فى الكرنك

عصا على الكتفين . وإلى جانبهم عالم من علماء الآثار المصرية مكب على نقوش هيروغليفية على حجرين أخرجا من الأرض توا ، وهو واحد من آلاف الرجال أمثال كارتر ، وبرستد ، ومسپيرو ، وبيترى ، وكاپار وويجال ، الذين عاشوا فى تلك البلاد عيشة البساطة والقناعة فى حرارة الشمس اللافحة والرمال السافية يحاولون أن يحلوا لنا طِلَّسْم أبى الهول ، وأن يختطفوا من بين أحضان الثرى الضنين

فنون مصر وآدابها وتاريخها وحكمتها ، والأرض والسماء تعاكسهم فى كل يوم ، والخرافات تلعنهم وتعوقهم ، والرطوبة وقوى التحات تغير فى كل يوم على الآثار التى يخرجونها من باطن الأرض ، وهذا النيل الذى يفيض على البلاد بالخصب والنماء يتسلل فى أيام فيضانه إلى خرائب الكرنك ، فيفلك الأعمدة ويصدعها(*) ، ويترك عليها بعد أن ينحصر عنها طبقة من الأملاح تأكل الحجارة كما يأكل الجذام الأجسام .

والآن فلنستعرض مرة أخرى عظمة مصر ومجدها فى تاريخها وحضارتها قبل أن تتصدع آثارها وتنهار بين الرمال .

(*) فى ٣ أكتوبر سنة ١٨٩٩ تفكك أحد عشر عمود من معبد الكرنك بتأثير الماء وهوت إلى الأرض .

الفصل الثاني

البناءون العظام

١ — كشف مصر

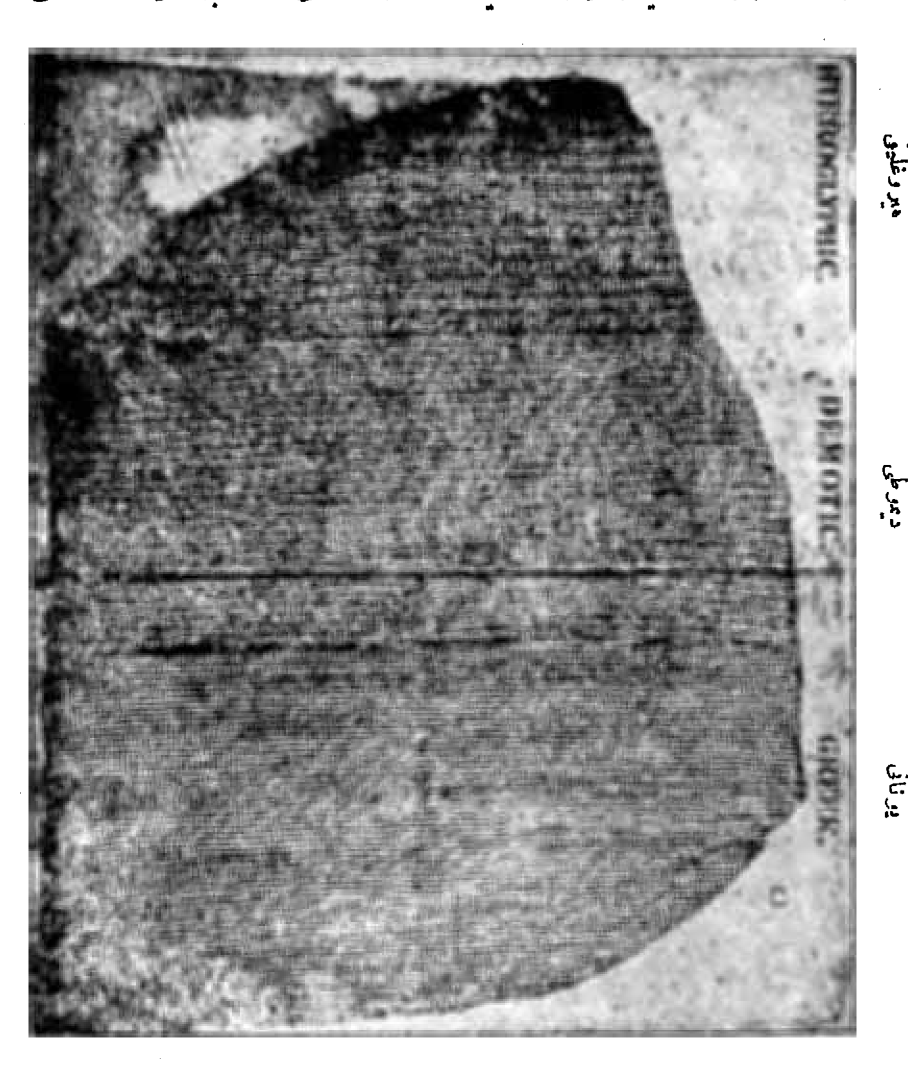
شمبليون وحجر رشيد

إن الكشف عن تاريخ مصر لهو أروع فصل فى كتاب علم الآثار . لقد كان كل ما تعرفه العصور الوسطى عن مصر أنها مستعمرة رومانية وموطن من مواطن المسيحية ، وكان الناس فى زمن النهضة يظنون أن الحضارة بدأت فى بلاد اليونان وحتى عصر الاستنارة(*) لم يكن يعرف من مصر أبعد من الأهرام . وكان علم الآثار المصرية نتيجة ثانوية من نتائج حروب نابليون الاستعمارية . ذلك أن القائد القورسيقى العظيم ، لما قاد الحملة الفرنسية على مصر فى عام ١٧٩٨ ، اصطحب معه طائفة من الرسامين والمهندسين ليرتادوا الأرض ويرسموها ، وشملت هذه الحملة أيضاً بعض العلماء الذين كانوا يهتمون بمصر اهتماماً يظنه الناس سخيفاً فى تلك الأيام ، ويسعون لفهم التاريخ فهماً أوفى وأفضل مما كان يفهمه المؤرخون وقتئذ . وكانت هذه العصبة من الرجال هى التى كشفت للعالم الحديث عن هياكل الأقصر والكرنك : كما كان كتاب « وصف مصر » المحكم المفصل (١٨٠٩ — ١٨١٣) الذى أعدوه للمجمع العلمى الفرنسى أول خطوة هامة خطاها العلماء فى دراسة هذه الحضارة المنسية(١٠) .

على أن هؤلاء العلماء ظلوا سنين طوالا عاجزين عن قراءة النقوش الباقية على الآثار المصرية . وليس مابذله شمبليون أحد هؤلاء العلماء من جد وصبر أن

(*) يطلق هذا اللفظ على عصر الفلاسفة الفرنسيين فى القرن الثامن عشر . (المترجم)

حل رموز الكتابة الهيروغليفية إلا شاهداً من شواهد كثيرة على الروح العلمى الذى امتاز به علماء تلك الحملة . وعثر شمپليون آخر الأمر على مسلة مغطاة بهذه « الرموز المقدسة » مكتوبة باللغة المصرية ولكن فى أسفلها نقوشاً باللغة اليونانية عرف منها أن هذه الكتابة ذات صلة ببطليموس وكليوبطرة . وخطر له أن إحدى العبارات الهيروغليفية الكثيرة التكرار والتى يحيط بها الإطار الملكى



شكل (١٠) حجر رشيد
الأصل محفوظ فى المتحف البريطانى

(الخرطوش) هى اسم الملك والملكة ، فهدتْه هذه الفكرة (فى عام ١٨٢٢) إلى تمييز أحد عشر حرفاً من الحروف المصرية ؛ ولكن ذلك كان مجرّد حدس ولم يكن يقيناً . وكان هذا الكشف أول دليل على أن مصر كانت لها حروف هجائية . ثم طبق هذه الحروف على رموز وجدها على حجر أسود عثر عليه جنود نابليون قرب مصب رشيد . وكان على « حجر رشيد » هذا(*) نقوش كتبت بثلاث لغات أولاها الهيروغليفية وثانيتها « الديموطية » — الكتابة المصرية الدارجة — والثالثة هى اليونانية . واستطاع شمپليون ، بفضل علمه باللغة اليونانية وبالأحد عشر حرفاً التى عرفها من المسلة الأولى وبعد جهد متواصل دام أكثر من عشرين عاماً ، أن يحل رموز هذا النقش كلها وأن يعرف الحروف الهجائية المصرية بأجمعها . وأن يمهد السبيل للكشف عن عالم عظيم مفقود . وكان هذا الكشف من أعظم الكشوف فى تاريخ التاريخ(**)(١١) .

٢ — مصر فى عصر ما قبل التاريخ

العصر الحجرى القديم — العصر الحجرى الحديث
عصر البدارى — عصر ما قبل الأسر — جنس المصريين

إن المتطرفين فى عصر من العصور هم أنفسهم الرجعيون فى العصر الذى يليه ، ومصداقاً لهذه القاعدة نقول إنه لم يكن ينتظر من الرجال الذين أنشأوا علم الآثار المصرية أن يكونوا أول من يؤمن بأن ما فى مصر من مخلفات العصر الحجرى القديم ينتمى حقاً إلى ذلك العصر . ذلك أن العالم بعد الأربعين لا يظل طلعة تياها ولما أن كشفت أولى أدوات الظران فى وادى النيل قال سير

(*) وهذا الحجر محفوظ الآن فى المتحف البريطانى .

(**) وقد ساعد على هذا الكشف أكربلاد السياسى السويدى (١٨٠٢) وتومس ينج العالم الطبيعى الإنجليزى صاحب الكفايات المتعددة (١٨١٤) بحلهما بعض رموز حجر رشيد(١٢) .

فلندرزپيترى وهو الذى لا يتردد عادة فى قبول أكبر الأرقام فى تاريخ مصر ، إنها من صنع ما بعد الأسر . وعزا مسبيرو ، الذى لم يفسد علمه الغزير أسلوبه الممتع الجميل ، الفخار المصرى الباقى من العصر الحجرى الحديث إلى الدولة الوسطى . ولكن ده مورجان كشف فى عام ١٨٩٥ عن سلسلة متدرجة تكاد تكون متصلة الحلقات من حضارات تنتمى إلى العصر الحجرى القديم — تطابق فى أكثر نواحيها الحضارات المماثلة لها والتى جاءت فى أوربا بعدها بزمن طويل . وكان ما كشفه من مخلفات هذه الحضارات المصرية رءوس معاول يدوية ، ومطارد ، ورءوس سهام ، ومطارق عثر عليها على طول مجرى النيل[١٣] وتتدرج مخلفات العصر الحجرى القديم تدرجا غير ملحوظ إلى مخلفات العصر الحجرى الحديث على أعمال تدل على أنها تنتمي إلى العهد المحصور ما بين ١٠٠٠٠ ، ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد[١٤] . وترقى صناعة الأدوات الحجرية شيئاً فشيئاً ، وتزداد تهذيباً ، وتصل إلى درجة من الحدة والصقل ودقة الصنع لا تضارعها فيها أى ثقافة أخرى وصل إلينا علمها من ثقافات العصر الحجرى الحديث[١٥] وقبيل أواخر هذا العهـــد تظهر صناعة المعادن فى صور مزهريات ومثاقب ودبابيس من النحاس وحلى من الفضة والذهب[١٦] .

ثم يتدرج ذلك العصر إلى العصور التاريخية وتظهر الزراعة فى أثناء هذا التدرج . وكان أول ما كشف من آثار عصر الانتقال فى مصر ١٩٠١ حين عثر فى بلدة البدارى الصغيرة (وهى فى منتصف المسافة بين القاهرة والكرنك) على جثث بين أدوات تنتمى إلى عهد يرجع إلى ما قبل المسيح بنحو أربعين قرناً . ووجدت فى أمعاء هذه الجثث ، التى أبقى عليها جفاف الرمال وحرارتها ستة آلاف عام ، قشور من حب الشعير[١٧] غير المهضوم . ولما كان الشعير لا ينبت بريا فى مصر فقد استدل من وجودها على أن البداريين كانوا يعرفون زراعة الحبوب . وقد بدأ سكان وادى النيل من ذلك العهد السحيق أعمال الرى

وقطعوا الأدغال ، وجففوا المستنقعات ، وتغلبوا على تماسيح النهر وأفراسه ، ووضعوا أسس الحضارة على مهل .

وتوحى إلينا هذه البقايا وبقايا أخرى غيرها بشيء من العلم عن حياة المصريين قبل الأسر الأولى التي عاشت في الأزمنة التاريخية . لقد كانت ثقافة ذلك العهد ثقافة وسطاً بين الصيد والزراعة ، بدأت منذ قليل باستبدال الأدوات المعدنية بالحجرية ؛ وكان الناس في أيامها يصنعون القوارب ، ويطحنون الْحَبّ ، وينسجون الكتان والبسط ، ويتحلون بالحلي ، ويتعطرون بالعطور ، لهم حلاّقون وحيوانات مستأنسة ، وكانوا يحبون التصوير وبخاصة تصوير ما يصيدون من الحيوان[18] ، وكانوا يرسمون على خزفهم الساذج صوَر النساء الحزانى وصوَراً أخرى تمثل الحيوانات والآدميين ، وأشكالا هندسية ، وينحتون آلات غاية في الدقة والأناقة يشهد بها سكين جبل الأراك ، وكانت لهم كتابة مصورة وأختام أسطوانية شبيهة بأختام السومريين[19] .

وما من أحد يعرف من أين جاء هؤلاء المصريون الأوّلون ، ويميل بعض العلماء الباحثين إلى الرأي القائل بأنهم مولدون من النوبيين والأحباش واللوبيين من جهة ، ومن المهاجرين الساميين والأرمن من جهة أخرى[20] ، فالأرض حتى في هذا العهد السحيق لم تسكنها سُلالات نقية . ويرجح أن الغزاة أو المهاجرين الذين وفدوا من غرب آسية قد جاءوا معهم بثقافة أرقى من ثقافة أهل البلاد[21] ، وأن تزاوجهم مع هؤلاء الأهلين الأقوياء قد أنجب سلالة هجينة كانت مطلع حضارة جديدة كما هو الشأن في جميع الحضارات . وأخذت هذه السلالات تمتزج امتزاجاً بطيئاً حتى تألف من امتزاجها فيما بين عام ٤٠٠٠ و ٣٠٠٠ ق . م شعب واحد هو الشعب الذي أوجد مصر التاريخية .

٣ — الدولة القديمة

الأقسام الإدارية – الشخصية التاريخية الأولى – كيوبس. – « خفرن »
الغرض من بناء الأهرام – فن المقابر – التحنيط

وقبل أن يحل عام ٤٠٠٠ ق . م كان هؤلاء الأقوام الذين يقيمون على ضفاف النيل قد أنشأوا لهم حكومة من نوع ما . فقد انقسم الأهلون المقيمون على شاطئ النهر أقساماً ينتسب سكان كل قسم منها إلى أصل واحد . وكان لهم شعار واحد ، ويخضعون لرئيس واحد ، ويعبدون إلها واحداً بمراسم وطقوس واحدة . وظلت هذه الوحدات الإقليمية قائمة طوال تاريخ مصر القديم ، وظل لحكامها نوع من السلطات يختلف قوة وضعفاً واستقلالا باختلاف قوة الملك الأعظم وضعفه . وإذ كان كل نظام مطرد النمو تجنح أجزاؤه لأن يعتمد بعضها على بعض فإن هذه الأقسام أخذت تنظم نفسها مدفوعة إلى هذا التنظيم بحاجات التجارة النامية وتكاليف الحرب المتزايدة حتى تكونت منها مملكتان واحدة في الجنوب وأخرى في الشمال ، ولعل هذا التقسيم كان صورة أخرى من النزاع القائم بين الإفريقيين أهل الجنوب والمهاجرين الأسيويين أهل الشمال .

وقد سوى هذا النزاع الذى زاد من أثر الاختلافات الجغرافية والعنصرية تسوية مؤقتة حين ضم مينا (مينيس) — وهو شخصية لا تزال يكتنفها بعض الغموض — القطرين تحت سلطانه الموحد ، وأعلن في البلاد قانوناً عاماً أوحى إليه به الإله تحوت[٢٢] ، وأقام أولى الأسر المالكة التاريخية ، وشاد عاصمة جديدة لملكه في منف (منفيس) و(علّم الناس) كما يقول مؤرخ يونانى قديم استخدام النضد والأسرة ... وأدخل فى البلاد وسائل النعيم والحياة المترفة[٢٣] .

ولم تكن أعظم شخصية حقيقية عرفها التاريخ شخصية ملك ، بل كانت شخصية فنّان وعالم ، وتلك هي شخصية إمحوتب الطبيب والمهندس ، وكثير

مستشاري الملك زوسر (حوالى ٣١٥٠ ق . م) وكان له على الطب المصرى من الفضل ما جعل الأجيال التالية تعبده وتتخذه إلها للعلم ومنشئ علومها وفنونها . ويلوح فى الوقت نفسه أنه هو الذى أوجد طائفة المهندسين التى أمدت الأسرة التالية بأعظم البنائين فى التاريخ .

وتقول الرواية المصرية إن أول بيت من الحجر قد أقيم بإشرافه ، وإنه هو الذى وضع تصميم أقدم بناء مصرى قائم إلى هذه الأيام وهو هرم سقارة المدرج ، وذلك الهرم بناء مدرج من الحجر ظل عدة قرون الطراز المتبع فى تشييد المقابر . ويلوح كذلك أنه هو الذى وضع تصميم هيكل زوسر الجنازى وأعمدته الجميلة الشبيهة بزهرة الأزورد (اللوطس)(*) وجدرانه المكسوة المقامة من حجر الجير[٢٤] . وفى هذه الآثار القديمة القائمة فى سقارة ، والتى تكاد تكون بداية الفن المصرى فى العهود التاريخية ، نجد الأعمدة الأسطوانية المنقوشة التى لا تقل جمالا عما شاده اليونان منها فيما بعد[٢٥] كما نجد فيها نقوشاً بارزة تفيض واقعية وحيوية[٢٦] ، وخزفاً أخضر ، وفخاراً ملوناً مطلياً بطبقة زجاجية — يضارع ما أنتجته إيطاليا فى العصور الوسطى[٢٧] . ونجد هناك أيضاً تمثالا قوياً من الحجر لزوسر نفسه عدا عليه الدهر فطمس بعض معالمه التفصيلية ، ولكنه يكشف عن وجه ذى نظرات حادة ثاقبة وعقل مفكر[٢٨] .

ولسنا نعلم حقيقة الأحوال التى جعلت الأسرة الرابعة أهم الأسر الحاكمة فى تاريخ مصر قبل الأسرة الثامنة عشرة ، فقد تكون الثروة المعدنية العظيمة التى استخرجت من أرض مصر فى عهد آخر ملك من ملوك الأسرة الثالثة ، وقد تكون ما أحرزه التجار المصريون من تفوق فى تجارة البحر المتوسط ، وقد تكون قسوة خوفو(**) أول ملوك هذا البيت الجديد . وقد ترك لنا هيردوت ما قاله له

(*) عن ابن البيطار .

(**) هو الذى يسميه هيرودوت كيوبس (حوالى ٣٠٩٨ — ٧٥ . . . ق . م) .



شكل (١١) رأس خفرع منحوت من حجر الديوريت

الكهنة المصريون عن منشئ أول هرم من أهرام الجيزة فقال :

« وهم يقولون لى الآن إن العدالة ظلت توزع بالقسطاس ، وإن الرخاء عم جميع أنحاء مصر إلى أيام حكم رحيسنتس ، ثم حكم بعده كيوپس فارتكب كل أنواع الخبائث ، ذلك بأنه أغلق جميع الهياكل . . . وسخر المصريين لخدمته وحده . . . فعين طائفة منهم لقطع الأحجار من المحاجر فى جبال العرب ونقلها إلى النيل ، وأمر طائفة أخرى باستقبال الحجارة بعد أن تنقل فى النهر على سفن . . . وكان يعمل منهم مائة ألف فى كل نوبة ، وكل نوبة تعمل ثلاثة أشهر ، وظل هؤلاء يكدحون عشر سنين فى إنشاء الطريق الذى كانت تنقل عليه الحجارة ، وهو عمل أرى أنه لا يقل مشقة عن تشييد الهرم نفسه[٢٩] » .

أما خفرع (*) خليفته على العرش ومنافسه فى البناء فلدينا عنه معلومات مستقاة من الآثار نفسها . وذلك أن تمثاله المصنوع من حجر الديوريت والمحفوظ فى متحف القاهرة يصوره لنا بالصورة التى يمثل بها خيالنا من أنشأ هذا الهرم الثانى وحكم مصر ستاً وخمسين سنة إن لم يكن بالصورة التى كان عليها فعلا : فعلى رأسه الباشق رمز السلطة الملكية ، ولو لم يكن هذا الباشق على رأسه لأدركنا من هيبته ومن كل جزء صغير من جسمه أنه ملك(**) ؛ فالتمثال يصوره إنساناً مزدهياً ، صريحاً ، جريئاً ، ثاقب النظرات أشم الأنف ، قوياً فى تحفظ وهدوء . ويتضح من صورته هذه أن الطبيعة قد عرفت من زمن طويل كيف تصوغ الرجال ، وأن الفن قد عرف كيف يصورهم(+) .

ولم بنى هؤلاء الرجال الأهرام ؟ لقد كان هدفهم الدين لا فن العمارة ، فقد كانت الأهرام مقابر نشأت وتدرجت من القبور البدائية . ذلك أن الملك كان

(*) وهو الذى يسميه هيرودوت خفرن (وقد حكم بين ٣٠٦٨ و ٣٤١١ ق م) .

(**) يردد المؤلف فى هذا الوصف ما قاله مسپيرو عن هذا التمثال . (المترجم)

(+) لعل اللفظ الأجنبى للهرم بيراميد مشتق من الكلمة المصرية بيروموس ومعناها ارتفاع لا من الكلمة اليونانية پير ــ ومعناها النار .

يعتقد كما يعتقد السوقة من شعبه أن فى كل جسم حى تستقر قرينة — كما — لا تموت حتما إذا لفظ الجسم آخر أنفاسه ، وأن هذه القرينة يُضمن بقاؤها بقاء كاملا إذا ما احتفظ بالجسم آمناً من الجوع والتمزيق والبلى . وكانت وسيلته للبقاء ومقاومة الموت هى الهرم لعلوه وضخامته وشكله وموقعه . وإذا نحن ضربنا صفحاً عن أركانه فقد كان شكله هو الشكل الطبيعى الذى تصير إليه طائفة متجانسة من المواد الصلبة إذا ما تركت تسقط على الأرض من غير أن يعوقها عائق ما . وإذا كان يقصد بها كذلك البقاء والخلود فقد وضعت الحجارة فى صبر لا يكاد يطيقه إنسان كأنما هى قد علت من تلقاء نفسها على جانب الطريق ، ولم تقتطع وتنقل من محاجر تبعد عن مكانها الحالى مئات الأميال . ويتكوّن هرم خوفو من مليونين ونصف مليون من الكتل الحجرية التى يبلغ وزن بعضها مائة وخمسين طناً(٣٠) ومتوسط وزنها طنين ونصف طن ، وتبلغ مساحة قاعدته أكثر من نصف مليون قدم مربع ، ويعلو فى الهواء إلى ارتفاع ٤١١ قدماً . وحجارته مندمجة بعضها فى بعض ولم يترك بينها إلا موضع لبعض كتل ليكون طريقاً سرياً تنقل فيه جثة الملك . ويرشد الدليلُ السائح الذى يسير مرتجفاً على أربع إلى الكهف الذى احتوى جثة الملك على ارتفاع مائة خطوة من القاعدة فى قلب الهرم . وهناك فى مكان رطب مظلم ساكن فى أعماق ذلك الصرح لا يهتدى إليه إنسان استقرت فيما مضى من الأيام عظام الملك خوفو وزوجته ، ولا يزال تابوت الملك المنحوت من الرخام مستقراً فى مكانه ، ولكنه محطم وفارغ لأن تلك الحجارة على ضخامتها لم تنج الجثة من أيدى اللصوص كما لم تنجها جميع لعنات الآلهة .

ولما كانت القرينة فى رأى المصريين الأقدمين صورة مصغرة للجسم نفسه فقد كان لا بد من أن يقدم لها الطعام والكساء وما يلزمها من الخدمات بعد موت الجسد . ومن أجل هذا كانت تعد فى بعض المقابر الملكية دورات مياه لتنتفع بها الروح بعد فراق الجسد ، وتحتوى بعض النصوص الجنازية فقرات تعبر عن قلق

كاتبها وخوفهم من أن تضطر القرينة إذا أعوزها الطعام إلى أن تطعم من فضلاتها[٣١] ، ومن الطبيعي أن يخطر بالبال أن عادات الدفن عند المصريين الأقدمين إذا ما تتبعناها إلى بدايتها قد تؤدى بنا إلى تلك العادة البدائية عادة دفن أسلحة المحارب وعدده مع جثته ، أو إلى نظام شبيه بما كان يتبعه الهنود وهو دفن زوجات الرجل وعبيده معه ، لكي يقوموا على خدمته وقضاء حاجاته بعد موته . وإذ كان فى اتباع هذه العادات كثير من المشقة على الأزواج والعبيد فقد عمد المصريون الأقدمون إلى استخدام الرسامين والمثالين لرسم الصور وحفر النقوش وصنع التماثيل الصغيرة التى تمثل الزوجات والعبيد . وقد جرت عاداتهم على أن ينقشوا عليها عبارات سحرية تبدل الصور والرسوم فتجعلها قادرة على أداء كل ما يحتاجه الميت من خدمات كأنها أجسام وأشياء حقيقية . ولعل أبناء الميت قد ركنوا إلى التكاسل والاقتصاد فى النفقات فجنحوا إلى إهمال الواجبات التى كان الدين يفرضها عليهم فى أول الأمر ومنها تقديم الطعام للميت حتى فى الحالات التى وقف فيها من ثروته ما يفى بهذه النفقات . ومن أجل هذا كانت الصور المتخذة بديلا من الحقائق احتياطاً قائماً على الحكمة وحسن التدبير ، فقد كان فى وسعها أن تمد قرينة الميت بالحقول الخصبة ، والثيران الثمينة ، والعدد الجم من الخدم والصناع النشطين بنفقة قليلة مغرية . ولما كشف المصريون عن هذا المبدإ أخذ الفنانون ينتجون الشيء الكثير من روائع الفن . ففى أحد القبور صورة لحقل يُحرث ، وفى قبر آخر ترى المحصول يحصد أو يدرس ، وفى غيرهما ترى الخبز يسوّى ، وفى رابع ترى الثور يلقح البقرة ، وفى غيره ترى العجل يولد ، وفى آخر ترى الماشية التى كبرت تذبح ، أو اللحم يقدم ساخناً فى الصحاف[٣٢] . ويمثل نقش جميل على حجر جيرى عثر عليه فى قبر الأمير راع حوتب الميت يستمتع بمختلف الأطعمة على مائدة مبسوطة أمامه[٣٣] . لعمرك إن الفن لم يفعل للإنسان فى عصر من العصور ما فعله لهؤلاء المصريين القدامى .

على أنهم لم يكتفوا بهذا بل رأوا أن يضمنوا للقرينة طول الأجل بدفن الجثة فى تابوت من أقسى الحجارة ، وبتحنيطها تحنيطاً كلفهم بلا شك أعظم الجهد والمشقة . وقد برعوا فى هذا الفن براعة أبقت على قطع من الشعر واللحم عالقة بالعظام الملكية . وما أجمل وأوضح ما وصف به هيرودوت فن التحنيط حين قال :

« أول ما يفعله المحنطون أن يخرجوا المخ من المنخرين بخطاف من الحديد ، فإذا ما انتزعوا جزءاً منه بهذه الطريقة أخرجوا ما بقى منه بإدخال بعض العقاقير فيه ، ثم فتحوا فتحة فى جنب الميت بحجر حاد وأخرجوا منها جميع أحشائه ، فإذا ما غسلوا البطن ونظفوه بنبيذ النخل رشوا عليه العطور المسحوقة ، ثم ملأوا البطن بالمر النقى وبعطر العشبة وغيره من العطور ، وأعادوه بالخياطة إلى ما كان عليه من قبل ، فإذا ما فعلوا هذا كله غمروه فى منقوع النظرون(*) وتركوه فيه سبعين يوماً ، وتركه أكثر من هذا الوقت مخالف للقانون . فإذا انقضت هذه الأيام السبعون غسلوا الجثة ولفوها كلها فى أحزمة من القماش المشمع ، وغطوا هذا القماش بطبقة من الصمغ الذى يستعمله المصريون عادة بدل الغراء . وبعد أن يتم هذا كله يسترد أهل الميت الجثة ويصنعون لها صندوقاً من الخشب على صورة إنسان ، فإذا ما أتموا صنعه وضعوا الجثة فيه ، وأحكموا إغلاقه ، وأودعوه لحداً وهو واقف مستند إلى جداره ؛ وبهذه الطريقة يعالجون الأجسام التى يزيدون الاحتفاظ بها علاجاً يكلفهم أبهظ النفقات[٣٤] » .

ويقول أحد الأمثال المصرية المأثورة : « إن العالم كله يرهب الزمان ، ولكن الزمان نفسه يرهب الأهرام[٣٥] » ؛ غير أن هرم خوفو رغم هذا قد نقص من ارتفاعه عشرون قدماً ، وزال عنه كل غطائه الرخامى . ولعل الزمان لا يرهبه كل الرهبة بل يفعل به ما يفعل بغيره ، وكل ما فى الأمر أنه يبليه على مهل . وإلى

(*) سلكات الصوديوم والألومنيوم .

بجانب هذا الهرم الأكبر يقوم هرم خفرع ، وهو أصغر من الأول قليلا ، ولكن قمته لا يزال يكسوها غشاء من الحجر الأعبل (الجرانيت) الذى كان من قبل يغطيه كله ، وعلى مسافة من هذا الهرم الثانى يقوم هرم آخر متواضع هو هرم منقورع خليفة خفرع على عرش مصر(*) . وهذا الهرم لا يغطيه الحجر الأعبل بل تغطيه طبقة وضيعة من الآجر كأنها تعلن للعالم أن الدولة القديمة كانت تؤذن بالزوال حين كان الملك يشيد هذا الهرم : ويصور ما وصل إلينا من تماثيل منقورع هذا الملك فى صورة رجل أكثر رقة وتهذيباً وأقل قوة من خفرع(**) . إن الحضارة كالحياة تُفنى ما بلغت به حد الكمال ، ولعل النعيم والترف حتى فى هذا العهد السحيق ، ولعل ما طرأ على العادات والأخلاق من تطور ورقّ ، لعل هذا كله قد جعل الناس يحبون السلم ويبغضون الحرب . وقام فجأة إنسان جديد ، اغتصب عرش منقورع وقضى على أسرة بُناة الأهرام .

٤ — الدولة الوسطى

عهد الإقطاع — الأسرة الثانية عشرة — سيطرة الهكسوس

لم يكن الملوك فى بلد من البلاد بالكثرة التى كانوا بها فى مصر القديمة ؛ والتاريخ يضمهم جميعاً فى أسر ، تشمل كل أسرة ملوكاً من بيت واحد أو ذرية واحدة ؛ ولكن عدد هذه الأسر نفسها يثقل الذاكرة التى لا تطيق كثرتها(†).

(*) وهو الذى يسميه هيرودوت ميسرنيس (حكم من ٣٠١١-٢٩٨٥ق . م تقريبا)

(**) انظر تمثال منقورع وزوجته فى متحف الفن بنيويورك .

(†) وقد أراد المؤرخون أن يسهلوا الأمر على أنفسهم فجعلوا الأسر فى عصور هى (١) عصر الدولة القديمة وتشمل الأسر من الأولى إلى السادسة (٣٥٠٠ — ٢٦٣١ ق . م) وتليها فترة من الفوضى وتعقبها (٢) الدولة الوسطى وتشمل الأسر من الحادية عشرة إلى الرابعة عشرة (٢٣٧٥ — ١٨٠٠ ق . م) ثم تأتى بعدها فترة أخرى من الاضطراب والفوضى يليها (٣) عصر الإمبراطورية أو الدولة الحديثة ، وتشمل الأسر من الثامنة عشرة إلى العشرين (١٥٨٠ — ١١٠٠ ق . م) . وأعقبها عصر انقسمت فيه البلاد أقساما وكان لها عدة عواصم . ثم جاء (٤) عصر ساو (التى يسميها اليونان سايس والتى تسمى الآن صا الحجر)=

وحكم سصر پپى الثانى أحد هؤلاء الفراعنة أربعاً وتسعين سنة (٢٧٣٨ — ١٦٤٤ ق . م) وحكمه هذا أطول حكم فى التاريخ كله ، فلما مات عمت الفوضى البلاد وأدت إلى الانحلال وخسر خلفه عرشه ، وحكم أمراء الإقطاع المقاطعات حكماً مستقلا . وهذا التعاقب بين السلطة المركزية وغير المركزية من الظواهر التاريخية تتوالى بانتظام ، كأن الناس يملّون الحرية المفرطة تارة والنظام المسرف تارة أخرى . وطغى على البلاد «عصر مظلم» سادته الفوضى أربعة قرون ، ثم قام بعدها رجل قوى الإرادة شبيه بشارلمان فى عصور أوربا المظلمة ، فقبض بيد من حديد على زمام الأمور ، وأعاد النظام إلى البلاد ، ونقل العاصمة من منف إلى طيبة ، وتسمى باسم أمينمحيت الأول ، وأسَّس الأسرة الثانية عشرة . وفى عهد هذه الأسرة ازدهرت الفنون جميعها — مع جواز استثناء فن العمارة — وبلغت من الإتقان درجة لم تبلغها فيما نعرفه من تاريخ مصر قبل هذه الأسرة أو بعدها . ويتحدث إلينا أمينمحيت فى أحد النقوش القديمة بقوله :

كنت رجلا زرع البذور وأحب إله الحصاد ؛
وحيانى فى النيل وكل وديانه ؛
ولم يكن فى أيامى جائع ولا ظمآن ؛
وعاش الناس فى سلام بفضل ما عملت وتحدثوا عنى .

وكان جزاؤه أن ائتمر عليه مَن أعلى شأنهم ووضعهم فى المراكز السامية من الوزراء والمستشارين . وقضى أمينمحيت على هذه المؤامرة ، وبطش بالمتآمرين ، ولكنه خلف لابنه — كما فعل پولونيوس من بعده — ملفاً من الأوراق يحوى نصيحة مُرَّة ، هى فى واقع أمرها قاعدة عجيبة للحكم المطلق ، ولكنها ثمن باهظ يبتاع به الملك عرشه :

= ويشمل الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٣ — ٥٢٥ ق م) . وكل التواريخ الواردة هنا ما عدا الأخير منها تواريخ تقريبية . ويجد علماء الآثار بعض التسلية فى تأخير هذه التواريخ أو تقديمها عدة قرون .

استمع إلى ماسأقوله لك ،
حتى تكون ملك الأرض . . . ،
وتزيد فيها الخير
اقس على جميع من هم دونك —
فإن الناس لا يعنون إلا بمن يرهبهم ،
ولا تقترب منهم بمفردك ،
ولا تملأ قلبك بالمودة لأخ ،
ولا تعرف صديقا . . . ،
وإذا نمت فاحرس بنفسك قلبك .
لأن الإنسان لا صديق له فى أيام الشر(٣٦) .

ولقد أقام هذا الملك الصارم الذى يبدو لنا من خلال أربعة آلاف من السنين حاكماً رحيما ، نظاماً من الحكم والإدارة دام خمسمائة عام ، أثرت فيه البلاد مرة أخرى ، وعاد فيه الفن إلى سابق عهوده الزاخرة . واحتفر سنوسريت الأول قناة تصل النيل بالبحر الأحمر ، وصد الغزاة النوبيين وشاد الهياكل العظيمة فى عين شمس والعرابة والكرنك . ولقد نجت من عبث الدهر عشرة تماثيل ضخمة تمثله جالساً ، وهى الآن فى متحف القاهرة . وبدأ سنوسريت آخر هو سنوسريت الثالث يخضع فلسطين لحكم مصر ، ورد النوبيين الذين لم يكونوا ينقطعون عن الإغارة على حدودها الجنوبية ، ووضع لوحة عند تلك الحدود كتب عليها أنه لم يضعها « رغبة فى أن تعبدوها ، بل طمعاً فى أن تحاربوا من أجلها »(٣٧) . وكان أمنمحيت الثالث إدارياً حازماً فى بحفر الترع وتنظيم وسائل الرى ، وقضى (ولعله قد أسرف فى هذا القضاء) على أمراء الإقطاع ، وأحل محلهم موظفين معينين من قبل الملك . وبعد ثلاثة عشر عاماً من موته عاد الاضطراب إلى مصر على أثر النزاع الذى قام بين المتنافسين المطالبين بالعرش ، وانقضى عهد الدولة الوسطى فى حال من الفوضى

والتفكك دامت مائتى عام . ثم غزا الهكسوس ، وهم بدو من آسية ، مصر المتقطعة الأوصال ، فأحرقوا مدنها وهدموا هياكلها وبددوا ما تجمع من ثروتها ، وقضـــوا على كثير من معالم فنونها ، وأخضعوا وادى النيل مدى قرنين لحكم « ملوك الرعاة »(*) . لقد كانت المدنيات القديمة جزائر صغرى فى بحار من الهمجية ، أو محلات رخية يحيط بها الجياع والحساد من الصيادين والرعاة ذوى النزعة الحربية . وكانت حصونها عرضة للتصدع والانهيار من حين إلى حين . بهذه الطريقة أغار الكاشيون على دولة بابل ، وهاجم الغاليون بلاد اليونان والرومان ، واجتاح الهون إيطاليا ، وهاجم المغول بيجنج .

لكن الفاتحين لم يلبثوا هم أيضاً أن سمنوا وأترفوا وفقدوا سلطانهم ، وجمع المصريون شملهم وشنوا حرباً عواناً يبغون بها تحرير بلادهم ، فطردوا الهكسوس ، وأسسوا الأسرة الثامنة عشرة التى بلغت البلاد فى أيامها درجة من القوة والمجد لم تبلغها قط من قبل .

٥ — الإمبراطورية

الملكة العظيمة — تحتمس الثالث — ذروة المجد

لعل هذا الفتح قد جدد شباب مصر بما أدخله فيها من دم جديد ، ولكنه كان إيذاناً بابتداء كفاح طويل مرير بين مصر وغربى آسية دام ألف عام . ذلك أن تحتمس الأول لم يعزز قوى الدولة الجديدة فحسب ولكنه غزا سوريا أيضاً بحجة أن مصر يجب أن تسيطر على غربى آسية لكى تمنع الاعتداء على أراضيها فيما بعد ، وأخضع كل البلاد الواقعة بين ساحل البحر وقرقيش فى الداخل ، ووضع فيها حاميات من عنده ، وفرض عليها الجزية ، ثم عاد إلى طيبة مثقلا بالغنائم ومكللا بالمجد الذى يكلل على الدوام هامة من يقتل بنى الإنسان . وفى آخر العام الثلاثين

(*) يعتقد كثيرون من المؤرخين أن ترجمة كلمة هكسوس بالرعاة ترجمة خاطئة وأنهم لم يكونوا رعاة بل « ملوك أقاليم » . (المترجم)

من حكمه رفع ابنته حتشبسوت إلى العرش لتكون شريكة له فى الملك . وحكم من بعده زوجها وأخوها لأبيها باسم تحتمس الثانى ، وأوصى وهو على فراش الموت أن يخلفه تحتمس الثالث ابن تحتمس الأول من إحدى سراريه[٣٨] . ولكن حتشبسوت نحّتْ هذا الشاب الذى علا نجمه فيما بعد ، واستأثرت دونه بالملك ، وأثبتت أنها لا تختلف عن الملوك فى شىء إلا فى أنها أنثى .

على أنها لم تعترف حتى بهذا الفرق . ذلك أن التقاليد المقدسة كانت تتطلب من كل ملك مصرى أن يكون ابن الإله العظيم أمون ، ومن أجل هذا أعدّت حتشبسوت العدة لأن تكون ذكراً وأن تكون مقدسة ، فاخترعت لها سيرة نصت على أن أمون نزل على أحْمَسى أم حتشبسوت فى فيض من العطر والنور ، فأحسنت هذه استقباله ، ولما خرج من عندها أعلن أن أحمسى ستلد ابنة تشع على الأرض كل ما يتصف به الإله من قوة وبسالة[٣٩] . وأرادت الملكة العظيمة بعدئذ أن ترضى أهواء شعبها ، ولعلها أرادت أيضاً أن تشبع رغبة كامنة فى صدرها ، فعملت على أن ترسم على الآثار فى صورة محارب ملتح من غير ثديين ؛ ومع أن النقوش الباقية من عهدها تتحدث عنها بضمير المؤنث ، فإنها تسميها « ابن الشمس » و « سيد القطرين » . وكانت حين تظهر أمام شعبها تلبس ملابس الرجال ، وتلتحى لحية مستعارة[٤٠] ؛

ولعلها كان من حقها أن تقرر بنفسها أتكون رجلا أم امرأه ، وذلك لأنها أضحت من خير الحكام الذين جلسوا على عرش مصر — وهم كثيرون — ومن أعظمهم نجاحاً . فلقد وطدت دعائم الأمن والنظام داخل البلاد من غير أن تسرف فى الاستبداد ، وحافظت على السلم خارج مصر من غير خسارة ، وأرسلت بعثة عظيمة إلى پونت (ويرجح أن پونت هذه هى شاطئ أفريقية الشرقى) ، وافتتحت سوقاً جديدة لتجارة مصر ، وجاءت بكثير من الطابات لشعبها . وعملت على تجميل الكرنك بأن أقامت فيها مسلتين كبيرتين جميلتين ، وشيدت فى الدير



شكل (١٢) هيكل الدير البحرى

البحرى الهيكل الفخم الذى اختطه أبوها ، وأصلحت بعض ما خربه ملوك الهكسوس من الهياكل القديمة ، وقالت فى أحد نقوشها تفخر بأعمالها : « لقد أصلحت ما كان من قبل مخربا ؛ وأكملت ما لم يكن قد تم تشييده حين كان الأسيويون فى وسط الأرض الشمالية يهدمون فيها ما كان قائماً قبلهم[٤١] » . ثم أنشأت لنفسها آخر الأمر قبراً سرياً مزخرفاً بجوار الجبال التى تطغى عليها الرمال على الضفة الغربية للنيل فى المكان الذى سمى فيما بعد « وادى مقابر الملوك » . وحذا خلفاؤها فى ذلك حذوها ، حتى كان عدد القبور المنحوتة فى التلال قرابة ستين قبراً ملكياً ، وحتى أخذت مدينة الموتى تنافس فى عدد سكانها طيبة مدينة الأحياء ، وكانت « الحافة الغربية » فى المدن المصرية القديمة مواطن الموتى من الطبقة العليا ؛ وكانوا إذا قالوا إن فلاناً « ذهب غرباً » قصدوا بقولهم أنه مات .

ودام حكم هذه الملكة اثنتين وعشرين سنة كان فيها حكماً سلميا حكيما .
ثم خلفها تحتمس الثالث وكان حكمه مليئاً بالحروب ، فقد انتهزت بلاد سوريا فرصة موت حتشبسوت فثارت على مصر ، وظن أهلها أن تحتمس الثالث ، وهو شاب فى الثانية والعشرين من عمره ، لن يستطيع الاحتفاظ بالدولة التى أقامها أبوه . ولكن تحتمس لم يقعد عن العمل فسار على رأس جيشه فى السنة الأولى من حكمه عن طريق القنطرة وغزة بسرعة عشرين ميلا فى كل يوم ، والتحم بالقوات الثائرة عند هار مجدو (أى جبل مجدو) ، وهى بلدة صغيرة ذات موقع حربى منيع بين سلسلتى جبال لبنان على الطريق الممتد بين مصر ونهر الفرات ، وهى بعينها مجدن التى وقعت فيها عدة وقائع حربية من ذلك اليوم إلى أيام ألِنبِي . وفى نفس الممر الذى هزم فيه الإنجليز الأتراك فى عام ١٩١٨ أثناء الحرب العالمية الأولى هزّم تحتمس الثالث السوريين وحلفاءهم قبل ذلك بثلاثة آلاف وثلثمائة وسبعة وتسعين عاماً . ثم سار تحتمس مظفراً مخترقاً غربى آسية يخضع أهلها ويفرض عليهم الضرائب ويجمع منهم الخراج : وعاد بعدئذ إلى طيبة منتصراً بعد ستة أشهر من بداية زحفه (*)(٤٢) .

وكانت هذه الحملة أولى حملات بلغت عدتها خمس عشرة أخضع فيها تحتمس الباسل بلاد البحر المتوسط الشرقى لحكم مصر . ولم يكن عمله عمل الفاتح فحسب ، بل إنه عمل أيضاً على تنظيم فتوحه ، فأقام فى جميع البلاد المفتوحة حاميات قوية وأنشأ فيها حكماً منظماً قديراً . وكان تحتمس أول رجل فى التاريخ أدرك ما للقوة البحرية من شأن عظيم ، فأنشأ أسطولا أخضع لسلطانه بلاد الشرق الأدنى . وكان ما ظفر به من الغنائم عماد الفن المصرى فى عهد الإمبراطورية ، كما كان الخراج الذى أخذ ينصب فى مصر من بلاد الشام منشأ حياة الدعة والنعيم التى تمتع بها شعبه ، فوجدت فى مصر طبقة جديدة من الفنانين غمرتها بروائع الفن . وفى وسعنا أن نتصور إلى حد ما ثروة الحكومة الإمبراطورية الجديدة إذا عرفنا

(*) تطلب هذا العمل نفسه من ألنبى ضعفى هذا الزمن ، وحاول نابليون أن يقوم بمثله فى عكا وأخفق .

أن خزانة الدولة استطاعت فى يوم من الأيام أن تخرج منها ما زنته تسعة آلاف رطل من سبائك الذهب والفضة[43] . وراجت التجارة فى طيبة رواجاً لم تعهده من قبل ، وناءت الهياكل بالقربان ، وارتفع صرح بهو الاحتفالات الملكية فى الكرنك ، وأنشئ فيها المتنزه العظيم بما يتفق مع عظمة الإله والملك . ثم عاد الملك من ميدان القتال ووجّه عنايته للفن وإدارة شئون البلاد . ومن أجمل آثار ذلك العهد المزهريات البديعة النقش . وقال عنه وزيره ماكان أمناء سر نابليون المتعبون المنفيون يقولون عنه « إن جلالته كان يعرف كل ما يحدث ، فما من شيء كان يجهله ؛ فقد كان إله المعرفة فى كل شيء ؛ ولم تكن هناك مسألة لا نفصل فيها بنفسه[43] » . وتوفى الملك بعد أن حكم اثنتين وثلاثين سنة (ويقول بعضهم إنها خمسا وأربعين) ، وبعد أن أتم لمصر زعامتها فى عالم البحر المتوسط ؛

وجاء من بعده فاتح آخر هو أمنحوتب الثانى فأخضع مرة أخرى بعض عشاق الحرية فى سوريا ، وعاد إلى طيبة وفى ركابه سبعة ملوك أسرى أحياء مطأطئ الرءوس فى مقدم السفينة الإمبراطورية . وقدم الملك ستة منهم قرباناً لآمون ضحى بهم بيده[44] . ثم خلفه تحتمس آخر خامل الذكر ، جلس بعده على العرش فى عام ١٤١٢ أمنحوتب الثالث فحكم البلاد حكماً طويلا ارتفعت مصر فى خلاله إلى ذروة المجد بفضل ما تجمع فيها من الثروة خلال سيادتها التى دامت قرناً كاملا . وفى المتحف البريطانى تمثال نصفى لهذا الملك يمثله فى صورة رجل يجمع بين الرقة والقوة ، فى وسعه أن يقبض بيد من حديد على زمام الأمور فى إمبراطوريته التى ورثها ، وأن يعيش مع هذا فى جو من الدعة والنعيم لعل بترونيس أو آل مديشى كانوا يحسدونه عليه . ولولا ما كشف من مخلفات توت عنخ أمون لما صدقنا ما تقصه الروايات وما تدوّنه السجلات من ثراء أمنحوتب ومظاهر ترفه . وقد بلغت طيبة فى عهده من العظمة والفخامة ما بلغته أية مدينة أخرى فى عهود التاريخ كلها . فكانت شوارعها غاصة بالتجار ، وأسواقها مملوءة بالبضائع الواردة من جميع أنحاء العالم المعروف وقتئذ ، ومبانيها ، تفوق فى فخامتها جميع

مبانى العواصم القديمة والحديثة ،[٤٥] وقصورها الرائعة تستقبل الخراج من طائفة لا حصر لها من الولايات الخاضعة لسلطانها ، وهياكلها الضخمة ومحلاة كلها بالذهب ،[٤٦] ومزينة بروائع الفنون على اختلاف أنواعها ، وبيوتها ذات الحدائق وقصورها الفخمة ومتنزهاتها المظللة وبحيراتها الصناعية التى كانت مسرحاً لكل ما هو جديد من الأزياء والأنماط ، كما كانت رومة فى عهد الإمبراطورية[٤٧] ، هذه هى عاصمة مصر فى أيام مجدها وفى أيام مليكها الذى بدأ من بعده اضمحلالها وسقوطها .

الفصل الثالث

حضارة مصر

١ — الزراعة

كان من وراء هؤلاء الملوك والملكات بيادق مجهولون ، ومن وراء تلك الهياكل والقصور والأهرام عمال المدن وزراع الحقول(*) . ويصفهم هيرودوت كما وجدهم حوالى عام ٤٥٠ ق . م وصفاً تسوده روح التفاؤل فيقول :

« إنهم يجنون ثمار الأرض بجهد أقل مما يبذله غيرهم من الشعوب » . . لأنهم لا يضطرون إلى تحطيم أخاديد الأرض بالمحراث أو إلى عزقها أو القيام بعمل كالذى يضطر غيرهم من الناس إلى القيام به لكى يجنوا من ورائه محصولا من الحَبّ ، ذلك بأن النهر إذا فاض من نفسه وأروى حقولهم ، ثم انحسر ماؤه عنها بعد إروائها ، زرع كل رجل أرضه وأطلق عليها خنازيره ؛ فإذا ما دفنت هذه الخنازير الحَبّ فى الأرض بأرجلها انتظر حتى يحين موعد الحصاد ، ثم . . . جمع المحصول(٤٩) » .

وكما كانت الخنازير تدوس الحب بأرجلها كذلك أُنِّست القردة ودربت على قطف الثمار من الأشجار(٥٠) ، وكان النيل الذى يروى الأرض يحمل لها فى أثناء فيضانه مقادير كبيرة من السمك يتركها فى المناقع الضحلة : وكانت الشبكة التى يصطاد بها السمك هى بعينها التى يحيط بها رأسه أثناء الليل ليتقى بها شر لذع البعوض(٥١) . على أنه لم يكن هو الذى يفيد من سخاء النهر ، ذلك بأن كل فدان من الأرض كان ملكاً لفرعون لا يستطيع غيره من الناس أن ينتفعوا به إلا بإذن

(*) كان سكان مصر فى القرن الرابع قبل المسيح يقدرون بنحو سبعة ملايين نسمة .

منه . وكان على كل زارع أن يؤدى له ضريبة سنوية عينية تتراوح ما بين عُشر[٥٢] المحصول وخُمسه[٥٣] . وكان أمراء الإقطاع وغيرهم من الأثرياء يملكون مساحات واسعة من الأرض . وفى وسعنا أن نتصور ما كانت عليه أملاكهم من الاتساع إذا علمنا أن واحداً منهم كان يملك ألفاً وخمسمائة بقرة[٥٤] ؛ وكانت الحبوب والسمك واللحوم أهم الأطعمة . وقد عثر على بقية من نقش يحدد ما يسمح للتلميذ أن يأكله ويشربه ، وقد ذكر فيه ثلاثة وثلاثون نوعاً من لحم الحيوان والطير ، وثمانية وأربعون صنفاً من الشواء ، وأربعة وعشرون نوعاً من الشراب[٥٥] . وكان الأغنياء يبلعون طعامهم بالنبيذ والفقراء بشراب الشعير المخمر[٥٦] .

وكانت معيشة الفلاحين معيشة ضنكاً . فأما من كان منهم مزارعاً « حراً » فلم يكن يخضع إلا للوسيط والجابى ، وكان هذان الرجلان يعاملانه على أساس المبادئ الاقتصادية التى ثبتت تقاليدها على مدى الأيام ، فكانوا يأخذون من محصول الأرض « كل ما تتحمله وسائل النقل » . وإلى القارئ رأى أحد الكتبة الظرفاء فى حياة معاصريه من الرجال الذين كانوا يطعمون مصر القديمة :

« هلا استعدْت فى خيالك صورة الزارع حين يجبى منه عُشر حبّه ؟ لقد أتلفَتْ الديدان نصف القمح ، وأكلَتْ أفراس البحر ما بقى له منه ، وهاجمتْها فى الحقول جماعات كبيرة من الجرذان ، ونزلَتْ بها الصراصير ؛ والماشية النهمة ، والطيور الصغيرة تختلس منها الشىء الكثير ، وإذا غفل الفلاح لحظة عما يبقى له فى الأرض ، عدا عليه اللصوص . يضاف إلى هذا أن السيور التى تربط الحديد والمعزقة قد بليت ، وأن الثورين قد ماتا من جرّ المحراث . وفى هذه اللحظة يخرج الجابى من القارب عند المرسى ليطلب العشور ، ثم يأتى حُرّاس أبواب مخازن (الملك) بعصيّهم ، والزنوج بجريد النخل ، يصيحون : تعالوا الآن ، تعالوا ! فإذا لم يأتهم أحد طرحوا الزارع أرضاً ، وربطوه ، وجرّوه إلى القناة وألقوه فيها

مبتدئين برأسه ، وزوجته مربوطة معه ، ثم يسلك أطفاله فى السلاسل ، ويفرّ جيرانه من حوله لينقذوا حبوبهم[٥٧] » .

تلك بطبيعة الحال قطعة أدبية فيها كثير من المبالغة ، ولكن كاتبها كان فى وسعه أن يضيف إليها أن الفلاح كان معرضاً فى وقت إلى أن يسخَّر فى العمل لخدمة الملك ، يطهر قنوات الرى ، وينشئ الطرق ، ويحرث الأراضى الملكية ، ويجرّ الحجارة الضخمة لإقامة المسلاّت وتشييد الأهرام والهياكل والقصور . وأكبر ظننا أن كثرة العاملين فى الحقول كانت قانعة راضية بفقرها صابرة عليه . وكان كثيرون منهم عبيداً من أسرى الحرب أو المدينين ؛ وكانت الغارات تنظم أحياناً للقبض على العبيد ، وكان يؤتى بالنساء والأطفال من خارج البلاد ليبعن فى البلاد لمن يؤدى فيهن أغلى الأثمان . وفى متحف ليدن نقش بارز قديم يصور موكباً طويلا من الأسرى الأسيويين يسيرون مكتئبين إلى أرض الأسر ، ويراهم الإنسان أحياء على هذا الحجر الناطق وأياديهم موثقة خلف ظهورهم أو رءوسهم ، أو موضوعة فى أصفاد قوية من الخشب ، وعلى وجوههم إمارات الحقد المنبعثة من اليأس .

٢ — الصناعة

المعدنون ــ الصناع ــ العمال ــ المهندسون ــ
النقل ــ البريد ــ التجارة وشئون المال ــ الكتبة

وازداد الفائض من الثروة شيئاً فشيئاً نتيجة عمل الزراع ، وادخر الطعام لمن يعملون فى التجارة والصناعة . وكانت مصر تستورد المعادن من بلاد العرب والنوبة لقلتها فيها . وكان بُعد مراكز التعدين مما لا يغرى الأهالى باستغلالها لحسابهم الخاص ، ولذلك ظلت صناعة التعدين قروناً كثيرة محتكرة للحكومة[٥٨] ، وكانت مناجم النحاس تغل مقادير قليلة منه[٥٩] ، أما الحديد فكان يستورد من بلاد الحثيين ، وكانت مناجم الذهب منتشرة على طول الضفة الشرقية للنيل وفى

بلاد النوبة ، كما كان يؤتى به من خزائن جميع الولايات الخاضعة لسلطان مصر . ويصف ديودور الصقلى (٥٦ ق . م) المعدنين المصريين وهم يتبعون بالمصباح والمعول عروق الذهب فى الأرض ، والأطفال وهم يحملون المعدن الخام ، والمهارس الحجرية وهى تطحنه ، والشيوخ والعجائز وهم يغسلونه . ولسنا نعرف بالضبط ما فى هذه الفقرة الشهيرة من تزييف مبعثه النعرة القومية العارمة :

« إن ملوك مصر يجمعون السجناء الذين أدانهم القضاء ، وأسرى الحرب وغيرهم ممن وجهت إليهم التهم الباطلة وزجوا فى السجون فى سورة من الغضب . وهؤلاء كلهم يرسلون إلى مناجم الذهب تارة وحدهم وتارة مع جميع أسرهم ، ليقتص منهم عن جرائم ارتكبها المجرمون منهم ، أو ليستخدموا فى الحصول على دخل كبير نتيجة كدهم . . . وإذ كان هؤلاء العمال عاجزين عن العناية بأجسامهم ، وليس لهم ثياب تستر عريهم ، فإن كل من يرى هؤلاء البائسين المنكودى الحظ تأخذه الرحمة بهم لفرط شقائهم . ذلك أنه لا يرى أحداً يرحم المرضى والمشوهين والعجزة والضعاف من النساء ، أو يخفف العمل عنهم . ولكن هؤلاء كلهم يُلزمون بالدأب على العمل حتى تخور قواهم ، فيموتوا فى ذل الأسر . ولهذا فإن هؤلاء البائسين المساكين يرون مستقبلهم أتعس من ماضيهم لقسوة العقاب الذى يوقع عليهم ، وهم من أجل ذلك يفضلون الموت على الحياة[٦٠] » .

وعرفت مصر فى عهد الأسرات الأولى كيف تصنع البرنز بمزج النحاس بالقصدير ، وصنعت منه فى أول الأمر أسلحة برنزية كالسيوف ، والخوذ ، والدروع ، ثم صنعت منه بعدئذ أدوات برنزية كالعجلات ، والمراسات ، والرافعات ، والبكرات ، وآلات رفع الأثقال ، والأوتاد ، والمخارط ، واللوالب ، والمثاقب التى تثقب أقسى أحجار الديوريت ، والمناشير التى تقطع ألواح الحجارة الضخمة لصنع التوابيت . وكان العمال المصريون يصنعون الآجر والأسمنت والمصيص ويطلون الفخار بطبقة زجاجية ، ويصنعون الزجاج وينقشو هو والفخار بمختلف

الألوان . وقد برعوا فى حفر الخشب يصنعون منه كل ما يصلح لصنعه من قوارب وعربات وكراسى ، وأسرة ، وتوابيت جميلة تكاد تغرى الأحياء بالموت ، واتخذوا من جلود الأنعام ملابس وكنانات ودروعا ومقاعد . وقد صورت على جدران المقابر كل الفنون المتصلة بدبغ الجلود ، ولا يزال الأساكفة إلى الآن يستخدمون السكاكين المقوسة المصورة على تلك الجدران فى أيدى دابغى الجلود[٦١] . وصنع المصريون من نبات البردى الحبال والحصر والأخفاف والورق . وابتدعوا فن الطلاء بالميناء والورنيش ، واستخدموا الكيمياء فى الصناعة . ومن الصناع من كان يعمل فى نسج القماش من أدق الخيوط المعروفة فى تاريخ النسيج كله . وقد عثر المنقبون على نماذج من الكتان منسوجة من أربعة آلاف عام ، وعلى الرغم من عوادى الأيام فإن « خيوطها قد بلغت من الدقة حداً لا يستطيع الإنسان معه أن يميزها من خيوط الحرير إلا بمجهر . وإن أحسن ما أخرجته المناسج الآلية فى هذه الأيام ليعد خشناً غليظا إذا قيس إلى هذا النسيج الذى كان يصنعه المصريون الأقدمون بأنوالهم اليدوية[٦٢] . وفى هذا يقول بسكل : « إذا فاضلنا بين قدرة المصريين الفنية وقدرتنا نحن ، تبين لنا أننا كنا قبل اختراع الآلة البخارية لا نكاد نفوقهم فى شىء[٦٣] » .

وكانت الكثرة الغالبة من الصناع من الأحرار ، وقلتهم من الرقيق . وكان العاملون فى كل صناعة من الصناعات يؤلفون طبقة خاصة كما هى الحال فى الهند اليوم . وأن يطلب إلى الأبناء أن يتخذوا صناعات آبائهم[٦٤](*) . وقد جاءتهم الحروب بآلاف من الأسرى فكانوا عونا على إنشاء الضياع الواسعة وعلى رقى فن الهندسة . وقد أهدى رمسيس الثالث فى أثناء حكمه ١٣,٠٠٠ أسير إلى الهياكل[٦٦] . وكان النظام المألوف للصناع الأحرار أن تؤلف منهم فرق تتبع

(*) ويضيف د. دور إلى هذا قوله : « إذا اشترك صانع فى الشئون العامة ضرب ضربا موجعا[٦٥] » .

رئيساً منهم أو مشرفاً عليهم يؤجر على عملها جملة ويؤدى هو لأفرادها أجورهم . وفى المتحف البريطانى لوحة طباشيرية سجل فيها أحد رؤساء العمال أسماء ثلاثة وأربعين عاملا ودوّن أمام أسمائهم أيام غيابهم وأسباب هذا الغياب من «مرض» أو «تضحية للإله» أو مجرد «الكسل» . وكان الإضراب كثير الحدوث ، وقد حدث مرة أن تأخر صرف الأجور للعمال زمناً طويلا فحاصروا رئيسهم وأنذروه بقولهم له : «لقد ساقنا إلى هذا المكان الجوع والعطش ، وليست لنا ثياب ، وليس عندنا زيت ولا طعام ؛ فاكتب إلى سيدنا الملك فى هذا الأمر ، واكتب إلى الحاكم (حاكم المقاطعة) الذى يشرف على شئوننا حتى يعطيانا ما نقتات به[٦٧] » . وتروى إحدى القصص اليونانية المتواترة خبر فتنة صماء اندلع لهيبها فى مصر واستولى فيها العبيد على إحدى المديريات ، وظلت فى أيديهم زمناً طويلا كانت نتيجته أن الزمن ، الذى يجيز كل شىء ، أقرَّ امتلاكهم إياها . لكن النقوش المصرية لا تذكر شيئاً قط عن الفتنة[٦٨] . ومن أغرب الأشياء أن حضارة كانت تستغل العمال هذا الاستغلال القاسى لم تعرف أو لم تسجل إلا عدداً ضئيلا من الثورات .

وكان فن الهندسة عند المصريين أرقى من كل ماعرفه منه اليونان أو الرومان ، أو عرفته أوربا قبل الانقلاب الصناعى ؛ ولم يتفوق عليهم فيه إلا عصرنا الحاضر ، وحتى فى هذا القول الأخير قد نكون مخطئين . مثال ذلك سنوسريت الثالث شاد[*] سوراً حول بحيرة موريس طوله سبعة وعشرون ميلا ليجمع فيها ماء منخفض الفيوم ، وأصلح بعمله هذا ٢٥٫٠٠٠ فدان كانت من قبل مناقع ، فأصبحت صالحة للزراعة ، هذا إلى أنه اتخذ من هذه البحيرة خزاناً واسعاً لماء الرى[٦٩] . واحتفرت قنوات عظيمة منها مايصل النيل بالبحر الأحمر ، واستخدمت الصناديق الغاطسة للحفر تحت الماء[٧٠] ، ونقلت المسلاَّت التى تزن ألف طن من

(*) إذا قلنا شاد الملك فإنا نقصد بطبيعة الحال أنه قد شيد فى عهده .

أماكن قاصية . وإذا جاز لنا أن نصدق ما ينقله لنا هيرودوت ، أو نحكم على أعمال السابقين بما نشاهده من صورها فى النقوش الباردة التى خلفتها الأسرة الثامنة عشرة ، قلنا إن هذه الحجارة الضخمة كان يجرها آلاف من العبيد على عروق من الخشب مطلية بالشحم ، ثم ترفع إلى أماكنها فى البناء على طرق طويلة تبدأ من أماكن بعيدة[71] . ولقد كانت الآلات نادرة لأن الجهد العضلى كان رخيصاً ، وليس أدل على هذا الرخص من نقش بارز صور فيه ثمانمائة من المجدفين يدفعون سبعة وعشرين قارباً تجر وراءها صندلا للنقل يحمل مسلتين[72] . هذا هو العصر الذهبى الذى يريد من ينادون بتحطيم الآلات أن يعودوا إليه . وكانت سفن يبلغ طول الواحدة منها مائة قدم وعرضها خمسين قدماً تمخر عباب النيل والبحر الأحمر ، ثم انتقلت آخر الأمر إلى البحر المتوسط ، أما فى البر فقد كانت البضائع ينقلها الحاملون ، ثم استخدمت فى نقلها الحمير ثم الخيل ، وأكبر الظن أن الهكسوس هم الذين جاءوا بالخيل إلى مصر . ولم يظهر الجمل فى مصر إلا فى عهد البطالمة[73] ، وكان الفقراء من أهل البلاد يتنقلون مشياً على الأقدام أو يستخدمون قواربهم البسيطة ، أما الأغنياء فكانوا يركبون رجازات(*) يحملها العبيد ثم صاروا فيما بعد يركبون عربات غير أنيقة الصنع يقع ثقلها كله أمام محور العجل[74] .

وكان لدى المصريين بريد منتظم ؛ فقد جاء فى بردية قديمة : « أكتب إلىّ مع حامل الرسائل »[75] . إلا أن وسائل الاتصال لم تكن مع ذلك ميسرة ، فقد كانت الطرق قليلة غير معبدة ما عدا الطريق الحربى الممتد من نهر الفرات ماراً بغزة[76] . وكان التواء النيل — وهو أهم وسائل الانتقال وقتئذ — مما ضاعف البعد بين المدن المختلفة . وكانت التجارة الداخلية بدائية نسبياً ، يتم معظمها بطريق المقايضة فى أسواق القرى ، ونمت التجارة الخارجية نمواً بطيئاً ،

(*) الرجازة الهودج الصغير . (المترجم)

وعاقها ما كان يفرض عليها من قيود شديدة أشبه ما تكون بأحدث الحواجز الجمركية المفروضة على التجارة الخارجية فى هذه الأيام . ذلك أن ممالك الشرق الأدنى كانت قوية الإيمان بمبدأ « الحماية التجارية » لأن الضرائب الجمركية كانت مورداً للخزائن الملكية . على أن مصر مع هذا قد أثرت بما كانت تستورده من المواد الغفل وتصدره من المصنوعات . وكانت أسواق مصر غاصة بالتجار السوريين والكريتيين والقبرصيين ، كما كانت السفن الفينيقية تجرى فى النيل من مصبه فى الشمال إلى أرصفة طيبة الكثيرة الحركة فى الجنوب(٧٧) .

ولم تكن النقود قد بدأت تستعمل فى البيع والشراء ، ولذلك كان كل شىء ، حتى مرتبات أكبر الموظفين ، يؤدى سلعاً ، حبًّا أو خبزاً ، أو خميرة ، أو بيرة أو نحوها . وكانت الضرائب تجبى عيناً ، ولم تكن خزائن الملك غاصة بالنقد بل كانت مخازن تتكدس فيها آلاف السلع من منتجات الحقول وبضائع الحوانيت . ولما أخذت المعادن الثمينة تتدفق على مصر بعد فتوح تحتمس الثالث شرع التجار يؤدون ثمن ما يبتاعونه من البضائع حلقات أو سبائك من الذهب تقدر قيمتها بالوزن فى كل عملية تجارية ، ولم تضرب نقود ذات قيمة محددة تضمنها الدولة لتسهيل هذه العمليات . على أن نظام الائتمان قد نشأ بينهم وارتقى ، وكثيراً ما كانت التحاويل والصكوك المكتوبة تحل محل المقايضة أو الدفع فوراً ؛ وجد الكتبة فى كل مكان يعجلون الأعمال بوثائق المبادلة القانونية ، وأعمال المحاسبة والأعمال المالية .

وما من أحد زار متحف اللوفر إلا شاهد تمثال الكاتب المصرى الجالس مطوى الساقين ، وجسمه كله يكاد يكون عارياً ، ومن خلف أذنه قلم احتياطى غير القلم الذى يمسكه بيده ، وهو يدون مايقوم به ويسجل مايؤدى من العمل ، وما يسلم من البضائع ، وأثمانها وأكلافها ، ومكسبها وخسارتها . يحصى الماشية الذاهبة إلى المذبح . والحبوب وهى تكال للبيع ، ويكتب العقود والوصايا ، ويقدر ما يجب على سيده أن يؤديه من ضريبة الدخل . والحق أنه لا جديد تحت الشمس .

وهو رجل حريص مغنى بعمله يجد فيه نشيطاً نشاطاً آلياً ، أوتى قسطاً من الذكاء ولكنه ذكاء يقف عند الحد الذى يمنعه أن يكون خطراً ، حياته رتيبة مملة ، ولكنه يواسى نفسه بكتابة المقالات عما يكتنف حياة العامل اليدوى من صعاب ،



شكل (١٣) تمثال الكاتب
المحفوظ فى متحف اللوفر

وما يحيط بأولئك الذين طعامهم الورق ودماؤهم المداد من عزة وكرامة لا تقلان عن عزة الأمراء وكرامتهم .

٣ — نظام الحكم

الموظفون — الشرائع — الوزير — الملك

وكان الملك وأعيان الأقاليم يستعينون بهؤلاء الكتبة للمحافظة على النظام وسلطان القانون فى الدولة . وتصور بعض الألواح القديمة الكتبة يقومون بعملية الإحصاء ويحسبون ما دخل الخزانة من ضريبة الدخل . ويستعينون بالمقاييس النيلية التى تسجل ارتفاع ماء النهر على معرفة ماسيكون عليه موسم الحصاد ، فيقدّرون منه إيراد الحكومة فى العام المقبل ، ويخصصون لكل مصلحة من المصالح ما سيكون لها من نصيب فى هذا الإيراد ، وكان عليهم فوق ذلك أن يشرفوا على شئون الصناعة والتجارة . ولقد أفلحوا من بداية التاريخ تقريبا فى وضع نظام اقتصادى تشرف الدولة عليه[٧٨] .

وكانت القوانين المدنية والجنائية غاية فى الرقى ، كما كانت قوانين الملكية والميراث من أيام الأسرة الخامسة قوانين مفصلة دقيقة[٧٩] . وكان الناس جميعاً متساوين مساواة تامة أمام القانون كما هم متساوون أمامه فى هذه الأيام — أى متى كان الطرفان المتنازعان متساويين فى الموارد وفى النفوذ . وأقدم وثيقة قانونية فى العالم كله عريضة دعوى محفوظة الآن فى المتحف البريطانى تعرض على المحكمة قضية من قضايا الميراث المعقدة . وكان القضاة يطلبون أن يترافع فى القضايا ، وأن يرد على حجج المترافعين ، وأن يناقش أصحابها ويحاجون ، على ألا يكون ذلك كله خطباً تلقى بل مذكرات مكتوبة تقدم للقضاة — وهو نظام لا يقل فى شأنه عن نظام التقاضى المعقد فى هذه الأيام . وكان الحانث فى يمينه يعاقب بالإعدام[٨٠] . وكان للمصريين محاكم منظمة مختلفة الدرجات تبدأ من

مجالس الحكم المحلية فى المقاطعات وتنتهى بالمحاكم العليا فى منف أو طيبة أو عين شمس[٨١] . وكانوا يلجئون إلى التعذيب فى بعض الأحيان لحمل المجرم على الاعتراف بالحق[٨٢] . وكان الضرب بالعصا من أنواع العقاب الشائعة ، وكانوا يلجئون فى بعض الأحيان إلى عقاب المذنب بجدع أنفه أو صلم أذنه أو قطع يده أو لسانه[٨٣] ، أو نفيه إلى أقاليم المناجم ، أو إعدامه بالشنق أو بالخزق ، أو بقطع رأسه أو بإحراقه مصلوباً ، وكان أشد ضروب العقاب هو تحنيط المعاقب حياً ، أو إحاطته بطبقة من النطرون القارض تأكل جسمه أكلا بطيئاً[٨٤] ؛ وكان المجرمون من علية القوم يجتنبون عار الإعدام علناً بأن يُسمح لهم بقتل أنفسهم بأيديهم كما تفعل طبقة الساموراى فى اليابان[٨٥] . ولم يُعثر على شواهد يستدل منها على وجود نظام للشرطة ، وحتى الجيش العامل — وقد كان على الدوام صغير الحجم لأن فى عزلة مصر وموقعها بين الصحراء والبحر ما يرد عنها المغيرين — قلما كان يستخدم لحفظ النظام فى داخل البلاد .

ذلك أن الحياة والملكية والاطمئنان إلى سلطان القانون والحكومة تكاد تعتمد كل الاعتماد على هيبة الملك . وكانت المدارس والهياكل دعامة هذه الهيبة وليس فى العالم كله أمة غير مصر — إذا استثنينا الأمة الصينية — جرؤت على أن تعتمد كل هذا الاعتماد على العوامل النفسية لحفظ الأمن فى البلاد .

لقد كانت الحكومة المصرية من أحسن الحكومات نظاماً وكانت أطول حياة من أية حكومة أخرى فى التاريخ . وكان الوزير على رأس الإدارة كلها ، يشغل منصب رئيس الوزراء ، وقاضى القضاة ، ورئيس بيت المال ، وكان الملجأ الأخير للمتقاضين لا يعلو عليه فى هذا إلا الملك نفسه . وترى الوزير فى نقش على أحد القبور يخرج من بيته فى الصباح الباكر « ليستمع إلى مظالم الفقراء ، ويصغى » كما هو وارد فى النقش « إلى ما يقول الناس فى مظالمهم ، لا يميز فيها بين الحقير والعظيم »[٨٦] . وقد وصلت إلينا بردية مدهشة من عهد الإمبراطورية

تحتوى كما تقول هى نفسها على صورة الخطاب الذى كان يلقيه الملك حين يعيّن الوزير فى منصبه (ولربما كان هذا الخطاب قطعة أدبية من وضع كاتبها نفسه) :

« اجعل عينك على مكتب الوزير ، وراقب كل ما يحدث فيه . واعلم أنه هو الدعامة التى تستند إليها جميع البلاد . . . ليست الوزارة حلوة ، بل هى مرّة . واعلم أنها ليست إظهار الاحترام الشخصى للأمراء والمستشارين ، وليست وسيلة لاتخاذ الناس أيا كانوا عبيداً . انظر ؛ إذا جاءك مستنصف من مصر العليا أو السفلى ، فاحرص على أن يجرى القانون مجراه فى كل شىء ، وأن يتبع فى كل شىء العرف السائد فى بلده ، وأن (يعطى كل إنسان) حقه . . . واعلم أن المحاباة بغيضة إلى الإله . . . فانظر إلى من تعرفه نظرتك إلى من لا تعرفه وإلى المقربين إلى الملك نظرتك إلى البعيدين عن (بيته) . انظر ؛ إن الأمير الذى يفعل هذا سيبقى هنا فى هذا المكان . وليكن ما يخافه الناس من الأمير أنه يعدل فى حكمه . ارع القواعد المفروضة عليك »[87].

وكان الملك نفسه هو المحكمة العليا ، يستطاع رفع كل قضية إليه فى أحوال معينة ، إذا لم يعبأ المدعى بما يتطلبه رفعها إليه من النفقات . وتمثل بعض النقوش القديمة « البيت الأعظم » الذى يجلس فيه للحكم والذى تتجمع فيه دواوين الحكومة . وقد اشتقت من اسم هذا البيت الأعظم الذى كان المصريون يطلقون عليه لفظ « پيرو » والذى ترجمه اليهود إلى فرعوه ، اشتق من اسمه هذا لقب الملك نفسه . وفى هذا البيت كان الملك يضطلع بواجبه الشاق الرتيب من الأعمال التنفيذية ، التى كانت فى بعض الأحيان لا تقلّ فى كثرتها وفيما تتطلبه من جهود عن أعمال شندرا جويتا(*) أو لويس الرابع عشر أو نابليون[88] . وكان الملك إذا سافر قابله أمراء الإقطاع عند حدود إقطاعاتهم ، وساوروا فى ركابه ، وأولوا له

(*) رأس أسرة الموريا التى حكمت الهند والأفغان بعد الإسكندر ، وسيرد تاريخه مفصلا عند الكلام على الهند . (المترجم)

الولائم ، وقدموا له من الهدايا ما يتناسب مع ما ينتظرونه منه . وقد جاء فى أحد النقوش أن نبيلاً من النبلاء أهدى أمنحوتب الثانى « عربات من الفضة والذهب وتماثيل من العاج والأبنوس ، وجواهر ، وأسلحة ، وتحفاً فنية » و٦٨٠ درعاً ، و١٤٠ خنجراً من البرنز ومزهريات كثيرة من المعادن الثمينة[٨٩] . وجازاه الملك على هذا بأن أخذ ابنه معه ليعيش فى قصره — وهذه طريقة ماكرة لاتخاذه رهينة يضمن بها ولاء هذا الشريف . وكان يتألف من أكبر رجال البلاط سنّاً مجلس شيوخ يسمى سارو ، أى مجلس العظماء ، مهمته أن يكون مجلساً استشارياً للملك[٩٠] . على أن هذه الاستشارة لم تكن فى الواقع ضرورية لأن الملك ومن ورائه الكهنة كان يدعى أنه من سلالة الآلهة وأن الآلهة نفسها قد وهبته السلطة والحكمة . وكان اتصاله بالآلهة على هذا النحو مصدر نفوذه وهيبته . ومن أجل هذا كانت تخلع عليه إذا خوطب صفات من الإجلال يدهش لها الإنسان أحياناً . من ذلك ما جاء فى قصة سنوحى إذ يحييه مواطن صالح بقوله : « أيها الملك الطويل العمر ، أرجو أن تهب الواحدة الذهبية (أى الإلهة حتحور) الحياة لأنفك »[٩١] .

وكان يقف على خدمة الملك — كما يليق بشخصٍ هذه عظمته — عدد كبير من مختلف الأعوان ، منهم القوّاد ، وغاسِلو الملابس ، وقصّارها ، وحراس خزائنها ، وغيرهم من ذوى المراتب الرفيعة « وكان عشرون من الموظفين يشتركون فى تزيينه ، منهم حلاّقون لا يُسمح لهم إلا بقص شعره وحلْق لحيته ، وآخرون لإلباسه قلنسوته وتاج رأسه ، ومدرمون يقصون أظافره ويدرمونها ، ومعطّرون يعطّرون جسمه ويكحلون جفون عينيه ، ويحمرون خدّيه وشفتيه بالصبغة الحمراء[٩٢] . وجاء فى نقش على أحد القبور أن صاحب القبر كان « المشرف على صندوق دهان الشعر والوجه ، المسيطر على الدهان ، حامل خُفّى الملك ، الذى يعنى بخفّيه العناية التى يرضاها القانون »[٩٣] . وكان الانحلال والضعف عاقبة هذا التنعم المفرط ، وكان الملك يلجأ فى بعض الأحيان إلى الترويح عن نفسه وإزالة ما يعتريه من ملل

وسآمة بحشد طائفة من الفتيات فى قاربه الملكى وليس عليهن من الثياب إلا نوع من الشباك ذات الثقوب الواسعة . وكان الترف الذى انغمس فيه أمنحوتب الثالث هو الذى مهد السبيل لثورة إخناتون .

٤ — القانون الأخلاقى

مضاجعة الملك لأقاربه ـ الحريم ـ الزواج – مركز المرأة ـ سلطان الأم فى مصر – القوانين الأخلاقية الخاصة بعلاقة الرجال والنساء

لقد كانت حكومة مصر شبيهة بحكومة نابليون حتى فى مضاجعة الملك لأقاربه ، وكثيراً ما كان الملك يتزوج أخته ، بل كان يحدث أحياناً أن يتزوج ابنته ، ليحتفظ بالدم الملكى نقياً خالصا من الشوائب . وليس من اليسير أن نحكم هل أضعفت هذه العادة قوة نسل الملوك أو لم تضعفه ؟ لكنا لا نشك فى أن مصر لم تكن تعتقد هذا بعد أن ظلت تسير عليه عدة آلاف من السنين ، وانتقلت عادة الزواج بالأخوات من الملوك إلى عامة الشعب حتى لقد وجد فى القرن الثانى بعد الميلاد أن ثلثى سكان أرسينوئى يسيرون على هذه السُّنّة[٩٤] . وكان معنى لفظى أخ وأخت فى الشعر المصرى القديم كمعنى حبيب وحبيبة فى أيامنا هذه[٩٥] . وكان للملك فضلا عن أخواته عدد كبير من النساء من أسيرات الحروب وبعضهن من بنات الأعيان أو ممن أهداهن إليه الأقيال الأجانب . من ذلك أن أحد أمراء بلاد « نهرينا » أهدى إلى أمنحوتب الثالث ابنته الكبرى وثلثمائة من صفوة الفتيات[٩٦] . وقد حذا بعض النبلاء حذو الملوك فى هذا الإسراف وإن لم يبلغوا فيه مبلغهم ، فقد كان عليهم أن يوفقوا فى هذه الناحية بين مبادئهم الخلقية ومواردهم المالية .

أما عامة الشعب فكان شأنهم شأن ذوى الدخل المتوسط فى سائر الأمم ، يقنعون بزوجة واحدة . ويلوح أن الحياة العائلية كانت منظمة ، ذات مستوى

رفيع من الوجهة الأخلاقية ومن حيث سلطان الأبوين ، ولا تقل في هذا عنها في أرقى الحضارات في هذه الأيام . وكان الطلاق نادراً إلا في عهد الاضمحلال . وكان في مقدور الزوج أن يخرج زوجته من داره دون أن يعوضها بشيء إذا زنت ، أما إذا طلقها لغير هذا السبب فكان عليه أن يخصص لها جزءاً كبيراً من أملاك الأسرة .

كذلك كان الأزواج يبذلون قصارى جهدهم في الإخلاص لزوجاتهم — على قدر ما يستطيع الإنسان أن يحكم في هذه الأمور الخفية . ولم يكن مستواهم في هذا أقل منه في المدنيات اللاحقة ، وكان مركز المرأة عندهم أرقى من مركزها عند كثير من الأمم في هذه الأيام . وفي ذلك يقول ماكس ملر : « ليس ثمة شعب قديم أو حديث قد رفع منزلة المرأة مثل ما رفعها سكان وادي النيل »[٩٧] . فالنقوش تصور النساء يأكلن ويشربن بين الناس ، ويقضين ما يحتجنه من المهام في الشوارع من غير رقيب عليهن ولا سلاح بأيديهن ، ويمارسن الأعمال الصناعية والتجارية بكامل حريتهن . ولشد ما دهش الرحالة اليونان — وقد اعتادوا أن يضيقوا على نسائهم السلطات — من هذه الحرية ، وأخذوا يسخرون من الأزواج المصريين الذين تتحكم فيهم زوجاتهم . ويقول ديودور الصقلي — ولعله يهدف بقوله هذا إلى السخرية من المصريين — إن طاعة الزوج لزوجته في وادي النيل كانت من الشروط التي تنص عليها عقود الزواج[٩٨] . وهو شرط لا ضرورة للنص عليه في أمريكا ! وكان النساء يمتلكن ويورثن ، كما تشهد بذلك وثيقة من أقدم الوثائق في التاريخ ، وهي وصية من عهد الأسرة الثالثة توصي فيها السيدة نب — سنت بأراضيها لأبنائها[٩٩] . وقد ارتقت حتشبسوت وكليوبطرة عرش مصر وحكمتا وخربتا كما يحكم الملوك ويخربون .

على أننا نجد أحياناً نغمة ساخرة في الآداب المصرية . من ذلك ما كتبه رجل من رجال الأخلاق الأقدمين يحذر قراءه منهن .

احذر المرأة التى تأتيك من الخارج ، والتى لا يعرفها أهل مدينتها . فلا ترفع بصرك إليها إذا أتت ، ولا تعرفها ، فهى كالدُّردور فى الماء العميق ، لا تستطيع أن تسبر غورها . وإن المرأة التى غاب زوجها لتكتب إليك فى كل يوم ، وإذا لم يكن معها شاهد عليها قامت ونشرت حولك شباكها . وما أشنعها من جريمة إذا أصغى إليها الإنسان(١٠٠) ! » .

أما النغمة المصرية الخالصة فهى التى نسمعها فى نصيحة بتاح حوتب لابنه والتى يقول فيها :

إذا كنت ناجحاً ، وأثثت بيتك ، وكنت تحب زوجة قلبك ، ماملأ بطنها واكس ظهرها . . . وأدخل السرور على قلبها طوال الوقت الذى تكون فيه لك ، ذلك أنها حرث نافع لمن يملكه . . . وإن عارضتها كان فى ذلك خرابك(١٠١) .

وتحذر بردية بولاق الطفل تحذيراً يشهد بالحكمة البالغة فتقول :

ينبغى لك ألا تنسى أمك . . . فقد حملتك طويلا فى حنايا صدرها وكنت فيها حملا ثقيلا ؛ وبعد أن أتممتَ شهورك ولدتك . ثم حملتك على كتفها ثلاث سنين طوالا وأرضعتك ثديها فى فمك ، وغذتك ، ولم تشمئز من قذارتك . ولما دخلت المدرسة وتعلمت الكتابة كانت تقف فى كل يوم إلى جانب معلمك ومعها الخبز والجعة جاءت بهما من البيت(١٠٢) .

ويرجح أن هذه المكانة السامية التى كانت للمرأة إنما نشأت من أن المجتمع المصرى كان أميل إلى تغليب سلطان الزوجة على سلطان الزوج بعض الشىء . وشاهد ذلك أن المرأة لم تكن لها السيادة الكاملة فى بيتها وكفى ، بل إن الأملاك الزراعية كلها كانت تنتقل إلى الإناث ، وفى ذلك يقول پترى : « لقد كان الزوج حتى فى العهود المتأخرة ينزل لزوجته فى عقد زواجه عن جميع أملاكه ومكاسبه المستقبلة(١٠٣) » ولم يكن سبب زواج الأخ بأخته أن وجودها معه قد ملأ بحبها قلبه ، بل كان سببه أن الرجال كانوا يبغون أن يستمتعوا بميراث الأسرة الذى كان ينحدر

من الأم إلى البنت ، ولا يريدون أن ينعم الغرباء بهذه الثروة[١٠٤] . على أن سلطان المرأة قد نقص قليلا على مر الزمن ، ولعل سبب هذا النقص هو أثر التقاليد الأبوية التى أدخلها الهكسوس ، وأثر انتقال البلاد من عزلتها الزراعية ومن حال السلم إلى طور الاستعمار والحرب . وزاد نفوذ اليونان فى أيام البطالمة زيادة أصبحت معها حرية الطلاق ، وهى التى كانت تطالب بها المرأة فى الأزمنة السابقة ، حقاً خالصاً للزوج لا ينازعه فيه منازع . بيد أنه حتى فى ذلك الوقت لم يقبل هذا التطور إلا الطبقات العليا من أهل البلاد ، أما عامة الشعب فقد ظلت مستمسكة بالتقاليد القديمة[١٠٥] . ولعل سيطرة المرأة على شئونها الخاصة هى التى جعلت قتل الأطفال أمراً نادر الحدث . ويرى ديودور الصقلى أن من خواص المصريين أن كل طفل يولد لهم يلقى حظه الكامل من التربية والرعاية ، ويقول إن القانون كان يقضى على الأب الذى يرتكب جريمة قتل طفله بأن يحتضن الطفل القتيل ثلاثة أيام وثلاث ليال كاملة[١٠٦] . وكانت الأسر كبيرة ، والأطفال تغص بهم الأكواخ والقصور على السواء ، وكان الأثرياء منهم يلاقون صعاباً جمة فى إحصاء نسلهم[١٠٧]

وحتى فى مسائل الخطبة كانت المرأة هى البادئة . وشاهد ذلك أن ما وصل إلينا من قصائد الغزل ورسائل الحب أغلبه موجه من المرأة إلى الرجل ، فهى التى تطلب تحديد مواعيد اللقاء ، وهى التى تتقدم بالخطبة إلى الرجل مباشرة ، وهى التى تعرض عليه الزواج صراحة[١٠٨] . وقد جاء فى إحدى هذه الرسائل : « أى صديقى الجميل ؛ إنى أرغب فى أن أكون ، بوصفى زوجتك ، صاحبة كل أملاكك[١٠٩] » . ومن ثم نرى أن الحياء — وهو أمر يختلف عن الوفاء — لم يكن من صفات المصريين البارزة ، فقد كانوا يتحدثون عن الشئون الجنسية بصراحة لم نعهدها فى التقاليد الأخلاقية المتأخرة عن عهدهم ، وكانوا يزينون هياكلهم بصور ونقوش قليلة البروز تظهر فيها أجزاء الجسم كلها واضحة أتم وضوح ، وكانوا يقدمون لموتاهم من الأدب الفاحش ما يسليهم فى قبورهم[١١٠] . لقد كان

الدم الذي يجرى فى عروق سكان وادي النيل دماً حاراً ، ومن أجل ذلك كانت البنات يصلحن للزواج فى سن العاشرة ، وكان اتصال الفتيان والفتيات قبل الزواج حراً ميسراً ؛ ويقال إن إحدى السرارى فى أيام البطالمة استطاعت أن تدخر من الأموال ما بنت به هرماً . وحتى اللواط لم يكن معدوماً فى مصر(١١١) . وكانت الفتيات الراقصات الشبيهات بأمثالهن فى اليابان يُقبلن فى أرقى مجتمعات الرجال ليقدمن للمجتمعين ضروب التسلية والمتعة الجسمية ، وكن يرتدين ملابس شفافة أو يكتفين أحياناً بالتزين بالخلاخل والأساور والأقراط(١١٢) ولدينا شواهد على الفسوق الديني فى نطاق ضيق . وكان من العادات المتبعة التى ظلت باقية إلى عهد الفتح الرومانى أن تختار أجمل بنات الأسر الشريفة فى طيبة وتنذر لأمون . فإذا أضحت لكبر سنها عاجزة عن رضاء الإله أخرجت من خدمتـــه بمظاهر التشريف والتعظيم ، وتزوجت ولقيت الترحيب والإجلال فى أرقى الأوساط(١١٣) . لقد كانت لهذه الحضارة آراؤها ونزواتها التى تختلف عن آرائنا نحن ونزواتنا .

٥ — العادات

الأخلاق الشخصية — الألعاب — المظهر الخارجى — الأصباغ والأدهان — الملابس — الحلى

إذا شئنا أن نستعيد فى مخيلتنا صورة من الأخلاق الشخصية للمصريين الأقدمين ، وجدنا أن ليس من السهل أن نفرق بين هذه الأخلاق كما نقرأ عنها فى آدابهم وبين ما كان يحدث فى الحياة الواقعية . فما أكثر ما نقرأ عنه من العواطف النبيلة فى كتاباتهم . من ذلك ما كتبه أحد الشعراء ينصح مواطنيه :

أطعم الخبز لمن لا حقل له .
واترك وراءك ذكراً طيباً يبقى أبد الدهر(١١٤) .

وكثيراً ما يســـدى بعض الكبار إلى أبنائهم نصائح حميدة ، ففى المتحف

البريطانى بردية تعرف باسم : « حكمة أمنحوتب » (حوالى ٩٥٠ ق ٠ م) وهى تُعِد أحد الطلاب لتولى منصب عام بطائفة من النواهى لا يبعد قط أن كان لها أثر فى واضع « أمثال سليمان » أو واضعيها :

لا تطمع فى ذراع من الأرض ،
ولا تعتد على حدود أرملة . . . ،
واحرث الحقل حتى تجد حاجاتك ،
وخذ خبزك من بيدرك ،
وإن قدحاً من الحب يعطيكه الله
لخير من خمسة آلاف تنالها بالعدوان . . . ،
وإن الفقر فى يد الله
لخير من الغنى فى المخازن ؛
وإن الرغيف والقلب مبتهج
لخير من الغنى مع الشقاء . . . (١١٥) » .

على أن ما تحويه هذه الآداب من دلائل التقوى والصلاح لم يحل دون المطامع البشرية . ولم يكن المصريون الأقدمون إلا خلقاً لهما لسائر الخلق من مطامح . لقد وصف أفلاطون الأثينيين بأنهم محبون للمعرفة ، والمصريين بأنهم محبون للثروة . ولعل فى هذا الوصف كثيراً من المغالاة دفعته إليها النعرة الوطنية ، ولكننا لا نعدو الحقيقة إن قلنا إن المصريين هم أمريكيو العالم القديم . فهم قوم مولعون بضخامة الحجم ، يحبون المبانى الفخمة الكبيرة وهم مجدون نشطون جماعون للثروة ، عمليون حتى فى خرافاتهم الكثيرة عن الدار الآخرة . وهم أشد الأمم الماضية استمساكاً بالقديم ، لم تتبدل حالهم رغم ماطرأ عليهم من أحداث ، وظل فنانوهم يقلدون ما جرى به العرف القديم تقليداً كأنه أمر من أوامر الدين ، إذا نظرنا إلى آثارهم بدا لنا أنهم قوم واقعيون لا يعنون بالسخافات التى لا صلة لها

بالأمور الدينية . ولا يقدرون الحياة تقديراً أساسه العاطفة ، يقتلون وضميرهم مستريح لأنهم لم يفعلوا ما يخالف الطبيعة البشرية . ولقد كان الجندى المصرى يقطع يمين العدو المقتول أو عورته ويأتى بها إلى الكاتب المختص ليسجل له عمله هذا فى صحيفة حسناته[١١٦] . وفقد الناس فى عهد الأسر المتأخرة عاداتهم وصفاتهم الحربية لطول ما أخلدوا إلى الأمن فى الداخل وإلى السلام فيما عدا الحروب البعيدة عن ديارهم ؛ وكانت نتيجة هذا أن فئة قليلة من جنود الرومان استطاعت أن تسيطر على مصر كلها[١١٧] .

وإذ كان أكثر ما نعرفه عن المصريين مستمدا من الآثار التى كشفت مقابرهم أو النقوش التى على جدران هياكلهم ، فقد خدعتنا هذه المصادفة المحضة فبالغنا فيما كانوا يتصفون به من جد ووقار. والحق أن بعض ما خلفوه من تماثيل ونقوش ، ومن قصص هزلية عن آلهتهم[١١٨] : ليشهد بأنهم كانوا على جانب غير قليل من المرح والفكاهة ، وقد كان لهم كثير من الألعاب والمهاريات العامة والخاصة « كالداما » والنرد[١١٩] ، وكانوا يقدمون اللعب والدمى لأطفالهم كالبلى والكرة النطاطة والخذروف ، وكانوا يعقدون مباريات فى المصارعة والملاكمة وصراع الثيران[١٢٠] ، وكان خدمهم يمسحون لهم فى أعيادهم ونزهتهم أجسامهم بالزيوت . وكانوا يضعون على رءوسهم أكاليل الزهر ويسقون الخمور وتقدم لهم الهدايا .

ونستطيع استناداً إلى ما لدينا من رسومهم الملونة وتماثيلهم أن نصورهم خلقاً أقوياء الأجسام ، مفتولى العضلات ، عريضى المناكب ، مستلقى الصدور ، ممتلئى الشفاه ، منبسطى الأقدام لاعتيادهم الحفاء . وهذه الرسوم والتماثيل تمثل الطبقات العليا نحيفة القوام ، طويلة فى هيبة ، ذات وجوه بيضاء وجباه متحدرة منتظمة ، وأنوف طويلة مصفحة ، وعيون نجل ؛ وكانت بشرتهم بيضاء وقت مولدهم (تشهد بأنهم من أصل أسيوى لا إفريقى) ، ولكنها سرعان ما تلفحها شمس مصر فتسمر[١٢١] . وقد جرى

العرف بين الفنانين المصريين على أن يرسموا الرجال حمراً والنساء صفراوات ؛ ولربما كان هذان اللونان مجرد طرازين من الزينة للرجال والنساء. هذا شأن الطبقات العليا . أما الرجل من عامة الشعب فكان يمثل بالصورة التى نراها فى تمثال شيخ البلد ، قصير القامة ، ممتلئ الجسم ، كاسى القصب ، وذلك لطول كده وطعامه غير المتزن . وكانت ملامحه خشنة ، وكان أفطس الأنف أخشمه ، ذكياً ولكنه خشن الطباع . ولربما كان الشعب وحكامه من سلالتين مختلفتين ، شأنهم فى هذا شأن كثير من الشعوب : فلعل الحكام كانوا من أصل أسيوى وعامة الشعب من أصل إفريقى . وكان شعرهم أسود ، أبحجن فى بعض الأحيان، وقلما كان قَطَطاً . وكان النساء يقصصن شعورهن كأحسن مايقصصنه فى هذه الأيام ؛ وكان الرجال يحلقون لحاهم ويحفون شواربهم ويزينون أنفسهم بشعور مستعارة فخمة . وكثيراً ما كانوا يقصون شعر رأسهم ليسهل عليهم لبس هذه الشعور المستعارة . وحتى زوجة الملك نفسها كانت تقص شعرها كله ليسهل عليها لبس التاج والشعر الملكى المستعار (كما ترى هذا فى صورة تى أم إخناتون) . وكان من المراسم التى لا يستطيع الملك الخروج عليها أن يلبس أكبر ضفيرة مستعارة(١٢٢) .

وكانوا يستعينون بفنون التجميل على إصلاح عيوب أجسامهم كل منهم حسب موارده . فكانوا يحمرون أوجههم وشفاههم ويلونون أظافرهم، ويدهنون أعضاء أجسامهم بالزيت ، وحتى تماثيل المصريات كانت تكحل عيونها . وكان ذوو اليسار منهم يضعون فى قبور موتاهم سبعة أنواع من الأدهان ونوعين من الصبغة الحمراء . وقد وجدت بين آثارهم كميات كبيرة من أدوات الزينة، والمرايا ، والمواسى ، وأدوات تجعيد الشعر ، ودبابيسه ، والأمشاط ، وصناديق الأدهان ، والصحاف والملاعق – مصنوعة من الخشب ، أو العاج ، أو المرمر ، أو البرنز ، ذات أشكال جميلة تتفق والأغراض التى تستخدم فيها . ولا تزال بعض أصباغ العيون باقية فى أنابيبها إلى يومنا هذا ، وليس الكحل الذى تستعمله النساء فى هذه الأيام لتزيين حواجبهن ووجوههن إلا صورة أخرى من الزيت الذى كان المصريون

يستخدمونه فى غابر الأيام ؛ وقد وصلت إلينا هذه العادة عن طريق العرب ، واشتق من اسمه العربى « الكحل » لفظ « الكحول » الذى نستخدمه الآن ؛ وكانت العطور على اختلاف أنواعها تستخدم لتعطير الجسم والثياب ، كما كانت المنازل تبخر بالبخور والمر[١٢٣] .

وسارت ملابسهم فى جميع مراحل التطور من عرى البدائيين إلى أفخم ملابس عصر الإمبراطورية ؛ ففى أول الأمر كان الأطفال ذكوراً وأناثاً يظلون حتى الثالثة عشرة من عمرهم عراة الأجسام إلا من الأقراط والقلائد . غير أن البنات كن يظهرن شيئاً من الخفر الخليق بهن فيتمنطقن بمنطقة من الخرز فى أوساطهن[١٢٤] . وكان الخدم والزراع يقتصرون على قطعة من القماش تستر عوراتهم . فلما كان عهد الدولة القديمة كان الأحرار من الرجال والنساء يسيرون وأجسامهم عارية من فوق السرة ، مغطى ما تحتها إلى الركبة بإزار قصير ضيق من الكتان الأبيض[١٢٥] ؛ ولما كان الحياء وليد العادة لا الطبيعة فإن هذه الثياب البسيطة كانت ترضى ضمير هؤلاء القوم ، كما كان الإنجليز فى العصر الفكتورى يرتضون النقبة (الجونيلا) والحصار(*) أو ثياب السهرة التى يلبسها الرجال من الأمريكيين فى هذه الأيام . وما أصدق القول المأثور : « ليست فضائلنا إلا معانى تخلعها الأيام على الأفعال والعادات » ؛ وحتى القساوسة أنفسهم فى عصر الأسر المصرية الأولى كانوا يكتفون بستر عوراتهم كما تشاهد ذلك فى تمثال رنوفر[١٢٦] . فلما زادت الثروة كثرت الملابس ، فأضفت الدولة الوسطى إزاراً ثانياً فوق الإزار الأول وأكبر منه ، وأضافت الدولة الحديثة غطاء للصدر ودثاراً للكتفين كان يلبس من حين إلى حين . وكان سائقو المركبات وسائسو الخيل يرتدون حللا فخمة كاملة ويعدون فى الشوارع بحللهم هذه ليفسحوا الطريق لمركبات أسيادهم . ونبذت النساء المئزر الضيق فى عصور الرخاء المتأخرة واستبدلن به ثوباً فضفاضاً

(*) مشد الخصر (الكورسيه) .

ينزل من الكتفين ويربط بمشبك تحت الثدى الأيمن . وظهرت الأثواب المطرزة ذات الأهداب المختلفة التى لا يحصى عديدها ، وتسربت الأنماط والطراز الحديثة إلى البيوت تسرب الأفاعى لتفسد على أصحابها جنة العرى البدائية(١٢٧) .

وكان الرجال والنساء سواء فى الشغف بالحلى والزينة ، فكانوا يحلون بالجواهر أعناقهم وصدورهم ، وأذرعهم ، ومعاصمهم ، وأرساغهم . ولما عم الرخاء البلاد وزاد ثراء أهلها بما جاءها من خراج أملاكها فى آسية ، ومن مكاسب تجارة بلاد البحر المتوسط ، أصبح التحلى بالجواهر مطلباً يهواه جميع المصريين ، ولم يعد ميزة للطبقات الموسرة ؛ فكان لكل كاتب وتاجر خاتمه المصنوع من الفضة أو الذهب ، ولكل رجل خاتم فى إصبعه ، ولكل امرأة قلادة تزينها . وكانت هذه القلائد من أنماط لا حصر لها كما يدل على ذلك ما نراه منها اليوم فى المتاحف ، فمنها ما لا يزيد طوله على بوصتين أو ثلاث بوصات ، ومنها ما يبلغ طوله خمس أقدام ؛ ومنها ما هو سميك ثقيل ، ومنها ما يضارع « أجمل مخرمات مدينة البندقية خفة ولينا(١٢٨) » . وأضحت الأقراط فى الأسرة الثامنة عشرة حلية لا غنى عنها . فكان لا بد لكل شخص أن تخرق أذنه لتحلى بقرط ، ولم تختص بالأقراط النساء والبنات ، بل كان يتحلى بها أيضاً الأولاد والرجال(١٢٩) . وكان الرجال والنساء على السواء يزينون أجسامهم بالأساور والخواتم والأنواط والقلائد من الخرز والحجارة الثمينة . وملاك القول أن نساء مصر القديمة لن يتعلمن منا شيئاً عن أدهان الشعر والوجه والجواهر لو أنهن بعثن بيننا فى هذه الأيام .

٦ — القراءة والكتابة والتعليم

التعليم — مدارس الحكومة — الورق والحبر — مراحل
تطور الكتابة — أشكال الكتابة المصرية

كان الكهنة يلقنون أبناء الأسر الغنية مبادئ العلوم فى مدارس ملحقة بالهياكل كما هى الحال فى أبرشيات طوائف الكاثوليك الرمان فى هذه الأيام(١٣٠)

ويطلق أحد الكهنة — وقد كان يشغل المنصب الذى يصح أن نسميه فى هذه الأيام وزير المعارف — على نفسه اسم « رئيس الاصطبل الملكى للتعليم[١٣١] » ؟ وقد عثر فى خرائب إحدى المدارس التى يبدو أنها كانت جزءاً من بناء الرمسيوم على عدد كبير من المحار لا تزال دروس المعلم القديم ظاهرة عليها . وكان عمل المدرس فى تلك الأيام هو تخريج الكتبة للقيام بأعمال الدولة ، وكان المدرسون يستحثون تلاميذهم على الإقبال على التعلم بتدبيج المقالات البليغة يشرحون فيها مزاياه . من ذلك ما جاء فى إحدى البرديات : « أفرغ قلبك للعلم وأحبه كما تحب أمك ، فلا شىء فى العالم يعدل العلم فى قيمته » . وتقول بردية أخرى : « ليس ثمة وظيفـــة إلا لها من يسيطر عليها . لكن العالم وحده هو الذى يحكم نفسه » . وكتب أحد المولعين بمطالعة الكتب يقول : « إن من سوء الحظ أن يكون الإنسان جندياً ، وإن حرث الأرض لعمل ممل ، أما السعادة فلا تكون إلا فى توجيه القلب إلى الكتب فى النهار والقراءة فى الليل[١٣٢] » :

وقد وصلت إلينا كراسات من عهد الدولة الحديثة وفيها إصلاح المدرسين لأخطاء التلاميذ يزين هوامشها ، وهذه الأخطاء تبلغ من الكثرة حداً يجد فيه تلميذ اليوم كثيراً من السلوى[١٣٣] . وكان الإملاء ونقل النصوص أهم طرق التعليم ، وكانت هذه الدروس تكتب على الشقف أو على رقائق من حجر الجير[١٣٤]. وكان أكثر ما يعلم هو الموضوعات التجارية ، وذلك لأن المصريين كانوا أول الأقوام النفعيين ، وأعظمهم استمساكاً بالنظرية النفعية ، وكانت الفضيلة أهم الموضوعات التى يكتب فيها المعلمون وكانت مشكلة النظام أهم المشاكل التعليمية فى تلك الأيام ، كما هى أهم مشاكله فى الوقت الحاضر . وقد جاء فى إحدى الكراسات : « لا تضع وقتك فى التمنى ، وإلا ساءت عاقبتك ؛ اقرأ بفمك الكتاب الذى بيدك ، وخذ النصيحة ممن هو أعلم منك » . ولعل هذه العبارة الأخيرة من أقدم ما عرف من الحكم فى أية لغة من اللغات . وكان

النظام صارماً يقوم على أبسط المبادئ . وقد جاءت تلك العبارة المنمقة اللفظ فى إحـــدى المخطوطات : « إن للشباب ظهراً ، وهو يلتفت للدرس إذا ضرب . . . لأن أذنى الشاب فى ظهره » . وكتب تلميذ إلى مدرس سابق يقول : « لقد ضربت ظهرى ، فوصل تعليمك إلى أذنى » ومما يدل على أن هذا التدريب الحيوانى لم يفلح على الدوام ما جاء فى إحدى البرديات التى يأسف فيها مدرس لأن تلاميذه السابقين لا يحبون الكتب بقدر ما يحبون الخمر(١٣٥) .

لكن عدداً كبيراً من طلبة الهياكل تخرجوا رغم هذا على أيدى الكهنة ودخلوا المدارس العليا الملحقة بمكاتب خزانة الدولة . وفى هذه المدارس ، وهى أقدم ما عرف من المدارس التى تعلم نظم الحكم ، كان الكتبة يدرسون نظم الإدارة العامة ، حتى إذا ما أتموا دراستهم قضوا مدة التمرين عند بعض الموظفين يعلمونهم بكثرة ما يعهدون إليهم من الأعمال . ولعل هذه الطريقة فى الحصول على الموظفين العموميين وتدريبهم أفضل من الطريقة التى تتبعها نحن فى هذه الأيام طريقة اختيار الموظفين على أساس أقوال الناس فيهم ، واستعدادهم للطاعة والخضوع ، وما يثار حولهم من دعاوة . وعلى هذا النمط أنشأت مصر وبابل فى عصر واحد تقريباً أقدم ما عرف من النظم المدرسية فى التاريخ(١٣٦) ، ولم يرق نظام التعليم العام للشبان فيما بعد إلى هذا المستوى الذى بلغه فى أيام المصريين الأقدمين إلا فى القرن التاسع عشر .

وكان يسمح للطالب فى الفرق الراقية أن يستعمل الورق — وهو من أهم السلع فى التجارة المصرية ومن أعظم النعم الخالدة التى أنعم بها المصريون على العالم وكانت طريقة صنعه أن تقطع سوق نبات البردى شرائح توضع متقاطعة بعضها فوق بعض ثم تضغط ويصنع منها الورق عماد المدنية(١٣٧) ، (وأعظمها سخفاً) . وحسبنا دليلا على حسن صنعه أن ما كتب عليه من المخطوطات منذ خمسة آلاف عام لا يزال حتى الآن باقياً متماسكاً سهل القراءة . وكانت الكتب تصنع

من الأوراق بضمها بعضها إلى بعض وإلصاق الطرف الأيمن من واحدة بالطرف الأيسر من التي تليها ، فتكون منها ملفات يبلغ طول الواحد منها أحياناً نحو أربعين ياردة ، وقلما كانت تزيد على هذا في الطول لأن مصر لم يكن فيها مؤرخون مولعون بالحشو واللغو . وكانوا يصنعون حبراً أسود لا يتلاشى بمزج الصناج والصمغ النباتي بالماء على لوحة من الخشب . أما القلم فكان قطعة بسيطة من الغاب يعالج طرفها ليكون كقلم الرسام[١٣٨] ؛

وبهذه الأدوات الحديثة الطراز كان المصريون يكتبون أقدم الآداب ؛ ويرجح أن لغتهم قد جاءت من آسية ، وشاهد ذلك أن أقدم نماذج منها بينها وبين اللغات السامية شبه كبير[١٣٩] . ويبدو أن أقدم الكتابات المصرية كانت تصويرية — تعبر عن الشيء برسم صورة له . فكانت كلمة بيت مثلاً (وهي في اللغة المصرية بر) يرمز لها بشكل مستطيل ذي فتحة في أحد طوليه . ولما كانت بعض المعاني مجردة إلى حد يصعب معه تصويرها تصويراً حرفياً فقد استعيض عن التصوير بوضع رموز للمعاني ، فكانت بعض الصور تتخذ بحكم العادة والعرف للتعبير عن الفكرة التي توحي بها لا عن الشيء المصور نفسه ، فكان مقدم الأسد يعبر عن السيادة (كما هو في تمثال أبي الهول) ، وكان الزنبور يعبر عن الملكية ، وفرخ الضفدع عن الآلاف . ثم تطورت هذه الطريقة تطوراً جديداً في هذا الطريق نفسه ، فأصبحت المعاني المجردة التي عجزوا في بادئ الأمر عن تصويرها يعبر عنها برسم صور لأشياء تشبه أسماؤها مصادفة الألفاظ التي تعبر عن هذه المعاني . من ذلك أن صورة المِزْهر لم تكن تعني المزهر نفسه فحسب بل كان معناها أيضاً طيِّب أو صالح لأن منطق اسم المزهر في اللغة المصرية — نِـفِر — شبيه بمنطق اللفظ الذي يعبر عن معنى طيب أو صالح — نُفِر — . ولنشأت من هذا الجناس اللفظي ، أي من الألفاظ المتفقة في اللفظ ، والمختلفة المعنى — تراكيب غاية في الغرابة . من ذلك أن فعل الكينونة كان يعبر عنه في لغة الكلام بلفظ **خوبيرو** . وقد عجز الكاتب

المصرى فى أول الأمر عن إيجاد صورة يمثل بها هذا المعنى الشديد التجريد ، حتى اهتدى أخيراً إلى تقطيع الكلمة إلى ثلاثة مقاطع خو – پى – رو . ثم عبّر عن هذه المقاطع الثلاثة بصوَر الغربال (الذى يعبر عنه فى لغة الكلام بلفظ خو) وبالحصيرة (پى) وبالفم (رو) . وسرعان ما جعل العرف والعادة ، اللذان يخلعان القدسية على كثير من السخافات ، هذا الخليط العجيب من الحروف يوحى بفكرة الكينونة . وعلى هذا النحو عرف الكاتب المصرى مقاطع الكلمة ، والصوة التى ترمز لكل مقطع ، ومجموعة الصور التى ترمز لكل لفظ ، فكان الكُتّاب يقطعون الكلمة الصعبة مقاطع ، ويبحثون عن الألفاظ المشابهة لهذه المقاطع نفسها فى النطق والمغايرة لها فى المعنى ، ويرسمون مجموعة الأشياء المادية التى توحى بها أصواتها ، حتى استطاعوا فى آخر الأمر أن يعبروا بالعلامات الهيروغليفية عن كل ما يريدون ، فلا يكاد يوجد معنى من المعانى لا يستطيعون التعبير عنه بعلامة أو بمجموعة من العلامات .

ولم يكن بين هذا وبين اختراع الحروف الهجائية إلا خطوة واحدة . لقد كانت العلامة الدالة على البيت تعنى أولا كلمة البيت – بِرْ . ثم أصبحت رمزاً للصوت بِرْ ، ثم لهذين الحرفين أيا كانت حركاتهما وفى أية كلمة جاءتا ، ثم اختصرت الصورة واستخدمت للدلالة على الباء أيا كانت حركتها وفى أية كلمة كانت . وإذ كانت الحركات لا تكتب عقب الحروف بل تهمل كلية فإن هـــذه الصورة أصبحت تمثل حرف الباء . وعلى هذا النمط عينه أصبحت العلامة الدالة على اليد (وتنطق باللغة المصرية دُتْ) تعنى دُ ، دَ ثم أصبحت هى حرف د ، وكذلك صارت العلامة الدالة على الفم (رُ ، رَ) ثم أصبحت حرف ر ، والعلامة الدالة على الثعبان هى حرف ز ، وعلامة البحيرة (شى) هى حرف ش – الخ . وكانت نتيجـــة هذا التطور أن وجدت حروف هجائية عدتها أربعة وعشرون حرفاً انتقلت مع التجارة المصرية الفينيقية إلى جميع البلاد الواقعة حول البحر

المتوسط ، ثم انشرت عن طريق اليونان ورومة حتى صارت أثمن ما ورثته الحضارة من بلاد الشرق[١٤٠] . والكتابة الهيروغليفية قديمة قدم الأسر المصرية الأولى ، أما الحروف الهجائية فكان أول ظهورها فى النقوش التى خلفها المصريون فى مناجم سيناء ، ويرجعها بعض المؤرخين إلى عام ٢٥٠٠ ق . م وبعضهم إلى عام ١٥٠٠ ق . م[١٤١](*) .

ولم يتخذ المصريون لهم كتابة قائمة كلها على الحروف الهجائية وحدها لحكمة فى ذلك أو لغير حكمة ، بل ظلوا إلى آخر عهود حضارتهم يخلطون بين حروفهم وبين الصور الدالة على الرموز وعلى الأفكار وعلى مقـاطع الكلمات . ومن أجل هذا صعب على العلماء أن يقرأوا الكتابة المصرية ، ولكن من السهل علينا أن نتصور أن هذا الخلط بين الكتابة بالطريقة المعتادة وبطريقة الاختزال قد سهل عملية الكتابة للمصريين الذين كانوا يجدون فسحة من الوقت لتعلمها . وإذ كانت أصوات الكلمات الإنجليزية لا تعد مرشداً أميناً لهجائها ، فإن الشـاب الذى يريد أن يتعلم أساليب الهجاء الإنجليزية يجد فيها من الصعوبة ما كان يجده الكاتب المصرى فى حفظ الخمسمائة رمز هيروغليفى ، ومعانيها المقطعية ، واستعمالاتها حروفاً هجائية . ومن أجل هذا نشأ شكل سريع سهل من أشكال الكتابة استخدم فى الكتابات العادية ، واحتفظ بالطراز الأول منها ليستخدم فى « النقوش المقدسة » على الآثار . وإذ كان الكهنة وكتبة الهياكل هم أول من مَسخ الكتابة الهيروغليفية على هذا النحو فقد أطلق اليونان عليها اسم الكتابة الهيراطية (المقدسة) ، ولكنها سرعان ما عم استخدامها فى الوثائق العامة والتجارية والخصوصية . ثم نشأ على يد الشعب نفسه نمط آخر من الكتابة أكثر من النمط الثانى اختصاراً

(*) يعتقد سير تشارلس مارستن معتمدا على أبحاثه الحديثة فى فلسطين أن الحروف الهجائيه من اختراع الساميين ، ويعزوها إلى إبراهم الخليل نفسه[١٤١] ويذكر لهذا أسبابا وهمية إلى أبعد حدود الوهم .

وأقل منه عناية ؛ ولذلك سمي بالكتابة الديموطيـــة (الشعبية) . لكن المصريين كانوا يصرون على ألا ينقشوا على آثارهم إلا الرموز الهيروغليفية الفاخرة الجميلة — ولعلها أجمل نمط من الكتابة عرف حتى الآن ؛

٧ — الآداب

النصوص ودور الكتب — السندباد المصرى — قصة سنوحى — الروايات الخيالية — قطعة غرامية — أشعار الحب — التاريخ — ثورة فى الأدب

إن معظم ما بقى من آداب مصر القديمة مدون بالكتابة الهيراطية ، وهذا القدر الباقى قليل لا يغنى ؛ ولهذا فإننا لا نستطيع الحكم على الأدب المصرى القديم إلا من هذه البقايا القليلة ، وهو حكم أعمى للمصادفة فيه النصيب الأوفر . ولعل الزمان قد عدا على أعظم شاعر فى مصر ، ولم يبق إلا شعراء البلاط . وقد كان للمصريين دور كتب وخزنة عليها ؛ فقد كتب على قبر موظف كبير فى الأسرة الرابعة أنه « كاتب دار الكتب[١٤٢] » . ولسنا نعرف أكانت هذه الدار البدائية مستودعاً للأدب ، أم أنها لم تكن إلا مخزناً مترباً للسجلات والوثائق العامة . وأقدم ما بقى من الأدب المصرى القديم هو « نصوص الأهرام » وهى موضوعات دينية ورعة منقوشة على جدران خمسة من أهرام الأسرتين الخامسة والسادسة(*)[١٤٣] . وقد وصلت إلينا مكتبات يرجع تاريخها إلى عام ٢٠٠٠ ق . م وتحوى برديات مطوية ومحفوظة فى جرار معنونة ومصفوفة على رفوف[١٤٥] . وعثر فى إحدى هذه الجرار على أقدم صورة من صور السندباد البحرى ، أو لعلنا نكون أقرب إلى الحقيقة إذا أسميناها أقدم صورة من صور قصة رُبنسن كروزو ؛

(*) ووجدت طائفة أخرى من النقوش الجنازية من عصر متأخر عن هذا مكتوبة بالحبر على السطح الداخلى لبعض التوابيت الخشبية التى صنعت لتوضع فيها جثث بعض النبلاء وكبار الموظفين فى أيام الدولة الوسطى . وقد أطلق بريستد وغيره من العلماء عليها كلها اسم « نصوص التوابيت (١٤٤) » .

وهذه القصة « قصة الملاح الذى حطمت سفينته » قطعة من ترجمة ذاتية لحياة ملاح تفيض حياة وشعوراً . ويقول هذا الملاح القديم فى أحد سطورها قولا يذكرنا بقول دانتي : « ما أعظم سرور من يقص ما وقع له حين ينجو من كارثة حلت به ! » . يقول هذا الملاح فى مطلع هذه القصة :

« سأقص عليك شيئاً حدث لى حين يممت شطر مناجم الملك ونزلت البحر فى سفينة طولها مائة وثمانون قدماً وعرضها ستون، وفيها مائة وعشرون من صفوة الملاحين المصريين ، خبيرين بمعالم الأرض ومعالم السماء ، وقلوبهم أشد بأساً . . . من قلوب الآساد ، يتنبأون بأعاصير البحر وعواصف البر قبل أن تثور .

وهبت علينا عاصفة ونحن لا نزال فى البحر . . . ودفعتنا الرياح حتى كنا نطير أمامها . . . وثارت موجة علوها ثمان أذرع . . .

ثم تحطمت السفينة ، ولم ينج أحد ممن كان فيها ، وألقت بى موجة من أمواج البحر فى جزيرة ، قضيت فيها ثلاثة أيام بمفردى لا رفيق لى إلا قلبى ؛ أنام تحت شجرة وأعانق الظلال ، ثم مددت قدمى أبحث عما أستطيع أن أضعه فى فمى ؛ فوجدت أشجار التين والكروم وجميع صنوف الكراث الجميل . . . وكان فيها سمك ودجاج ولم ينقصها شىء قط . . . وبعد أن صنعت لنفسى جهازاً أوقد به النار أشعلتها وقربت للآلهة قرباناً مشوياً[146] » .

وتروى قصة أخرى مغامرات سنوحى ، وهو موظف فر من مصر على أثر وفاة أمنمحيت الأول ، وأخذ يتنقل من بلد إلى بلد فى الشرق الأدنى ، وحظى فيها بضروب من النعيم والشرف ولكنه رغم هذا لم يطق صبراً على ما حل به من آلام الوحدة والحنين إلى وطنه . وبرح به الألم آخر الأمر حتى ترك ثروته وعاد إلى مصر وقاسى فى طريقه إليها كثيراً من الشدائد والأهوال . وقد جاء فيها :

« ألا أيها الإله ، أياً كنت ، يا من قدرت على هذا الفرار ، أعدنى إلى البيت (أى الملك) . ولعلك تسمح لى أن أرى الموضع الذى يقيم فيه قلبى ،

وأى شيء أعظم من أن تدفن جثتى فى الأرض التى ولدت فيها ؟ أعنّى على أمرى ! وليصبنى الخير ، وليرحمنى الله ! » .

ثم نراه بعدئذ وقد عاد إلى وطنه ، متعباً ، يعلوه العثير من طول السفر فى الصحراء ، يخشى أن ينتهره الملك لطول غيابه عن بلد يراه أهله — كما يرى الناس بلادهم سائر الأزمان — البلد المتحضر الوحيد فى العالم . ولكن الملك يعفو عنه ويحسن استقباله ويحبوه بكل أنواع العطور والأدهان :

« وأقمت فى بيت أحد أبناء الملك ، حيث توجد أفخر ضروب الأثاث ، وكان فيه حمام . . . وزالت عن جسمى آثار السنين الطوال ؛ وقص شعرى ، ومشط ، وطرح فى الصحراء حمل (من الأقذار ؟) وأعطيت الملابس (القذرة) لروّاد الرمال . وجىء لى بأرق الملابس الكتانية وعطّر جسمى بأحسن الزيوت »(١٤٧) .

أما القصص القصيرة فكثيرة متنوعة فيما وصل إلينا من بقايا الأدب المصرى القديم . ومن هذه قصص عجيبة بديعة عن الأطياف والمعجزات والتلفيقات العجيبة التى تخلب الألباب والتى لا تقل فى سبكها وقربها من الحقائق عن قصص الشرطة السرية التى يصدقها رجال الحكم فى هذه الأيام . ومنها روايات غرامية مكتوبة بعبارات طنانة رنانة عن الأمراء والأميرات ، والملوك ، والملكات ، ومن بينها أقدم مثال معروف لقصة سندرلا ، وقدمها الصغيرة الجميلة ، وحذاؤها الجوال ، وانتهاء القصة بزواجها من ابن الملك(١٤٨) . وفيها قصص خرافية على لسان الطير والحيوان تفصح عن نقائص الآدميين وشهواتهم وعواطفهم ، وتهدف فى حكمة وتعقل إلى معان خلقية سامية(١٤٩) ، كأنما هى منقولة عن خرافات إيزوب ولافنتين .

ومن القصص المصرية التى تمزج الحوادث الطبيعية المعقولة بخوارق الطبيعة ، والتى تعد نموذجاً لغيرها من القصص المصرية ، قصة أنوپو وبيتيو ، وهما أخوان صغير وكبير ظلا يعيشان عيشة راضية سعيدة فى مزرعة لهما حتى هامت زوجة

أنوپو بحب بيتيو ، فردها عن نفسه ، فانتقمت منه بأن وشت به إلى أخيه واتهمته بأنه أراد بها سوءاً . وجاءت الآلهة والتماسيح لتعين بيتيو على أنوپو ولكن بيتيو ينفر من بنى الإنسان ويضيق بهم ذرعاً ويبتر نفسه ليبرهن بذلك على براءته ، ويعتزل العالم إلى الغابات كما فعل تيمن الأثيني(*) فيما بعد ، ويعلق قلبه فى أعلى زهرة فى شجرة لا يستطيع الوصول إليها أحد . وتشفق عليه الآلهة فى وحدته فتخلق له زوجة رائعة الجمال يشغف النيل بحبها لفرط جمالها ، ويختلس غديرة من شعرها . وتحمل مياه النهر هذه الغديرة فيعثر عليها الملك ، فيسكره عطرها ، ويأمر أتباعه بالبحث عن صاحبتها . ويعثر هؤلاء عليها ويأتونه بها ، ويتزوجها ، وتدب فى قلبه الغيرة من بيتيو فيرسل رجاله ليقطعوا الشجرة التى علق عليها بيتيو قلبه ، ويقطعها هؤلاء ولا تكاد الزهرة تلمس الأرض حتى يموت بيتيو[١٥٠] . ألا ما أقل الفرق بين أذواقنا وأذواق من سبقونا من الخلق !

وكانت معظم الآداب المصرية الأولى آداباً دينية ، وأقدم القصائد المصرية ترانيم نصوص الأهرام . وصيغتها هى أيضاً أقدم الصيغ المعروفة لنا ، وهى عبارة عن تكرار المعنى الواحد بعبارات مختلفة ، وقد أخذ الشعراء العبرانيون عن المصريين والبابليين هذه الطريقة وخلدوها فى المزامير[١٥١] . وفى عصر الانتقال من الدولة القديمة إلى الدولة الوسطى تصطبغ الآداب تدريجاً بالصبغة الدنيوية « الدنسة » . وفى قطعة من بردية قديمة لمحة خاطفة تشير إلى طائفة من الأدب الوجدانى بقيت لنا لأن كاتباً من كتبة الدولة القديمة قد منعه الكسل أن يتم محو ما على هذه البردية من كتابة فبقى عليها خمسة وعشرون سطراً تستطاع قراءتها ، وتروى قصة لقاء بين راع وإحدى الإلهات . وتقول هذه القصة « إن الإلهة التقت بالراعى وهو سائر فى طريقه إلى البركة ، وكانت قد خلعت ملابسها وأرخت شعرها » . ويروى الشاعر ما حدث بعدئذ رواية الحذر الحريص فيقول :

(*) انظر قصة تيمن الأثينى فى ترجمتنا العربية لكتاب « قصص من شيكسبير » .

« إليك ما حدث حين نزلت إلى المستنقع. . . رأيت فيه امرأة لم تكن صورتها كصورة الخلائق الفانين . وانتصب شعرى قائماً على أطرافه حين أبصرت غدائرها ، وذلك لفرط جمالها وبهائها . ولن أفعل قط ما قالته لى ، فقد تملكت الرهبة منها جسدى »(١٥٢) .

ولدينا من أغانى الحب الجميلة عدد كبير ، ولكن معظمها يتحدث عن غرام الإخوة والأخوات(*) ، ولهذا تسخر منه أذن السامع فى هذه الأيام وتصطك لسماعه . ومن هذه الأغانى مجموعة سميت « الأغانى الجميلة السارة التى غنتها أختك حبيبة قلبك ، التى تسير فى الحقول » .

ولدينا وثيقة من عهد الأسرة التاسعة عشرة أو العشرين تضرب نغمة حديثة على أوتار الحب القديمة جاء فيها :

إن غرام حبيبتى يقفز على شاطئ الغدير ؛
وفى الظلام تمساح رابض ؛
ولكننى أنزل إلى الماء وأواجه الأمواج ،
ويشتد بأسى فوق الغدير
ويكون الماء هو والأرض تحت قدمى سواء ،
لأن حبها يملأ قلبى قوة .
فهى لى كتاب من الرقى والتعاويذ .
وإذا رأيت حبيبتى مقبلة ابتهج لمرآها قلبى
وفتحت ذراعى ومددتهما لأضمها إلى صدرى
وينشرح قلبى أبد الدهر . . . لأن حبيبتى قد أقبلت .

(*) يظن بعض المؤرخين أن لفظى الأخ والأخت اللذين يردان فى الأغانى الغزلية المصرية لا يقصد بهما دائما أن الفتى والفتاة ابنا أب واحد أو أم واحدة ، بل قد يكونان لفظى إعزاز يطلق على المحب أو المحبوبة . (المترجم)

فإذا ما ضممتها كنت كمن فى أرض البخور ،
وكمن يحمل العطور ،
وإذا قبلتها انفرجت شفتاها
وسكرتُ من غير خمر ،
يا ليتنى كنت جاريتها الزنجية التى تقف بين يديها
حتى أرى لون أعضائها كلها(١٥٣) .

وقد قسمنا نحن هذه السطور من عندنا على غير قاعدة ، وليس بى وسعنا أن نستدل من الصورة الأصلية لهذه الوثيقة على أن ما عليها شعر أو نثر . لقد كان المصريون يعرفون أن النغمة الموسيقية والعاطفة القلبية هما جوهر الشعر وقوامه ، فإذا ما وجدت النغمة والعاطفة فلن تهمهم الصورة الخارجية قط . على أن العبارات فى بعض الأحيان كان لها وزن يقاس بالنبرات . وكان الشاعر فى بعض الأحيان يبدأ كل جملة أو مقطوعة بنفس الكلمة التى بدأ بها غيرها من الجمل أو المقطوعات السابقة ، وكان يعمد أحياناً إلى الجناس اللفظى فيأتى بالألفاظ المتشابهة فى أصواتها ذات المعانى المختلفة أو المتناقضة ، وتدل النصوص على أن تجنيس الأحرف فى أوائل الكلمات المتتابعة قديم قدم الأهرام نفسها(١٥٤) . وكان حسب المصريين هذه الصيغ البسيطة ، فقد كان فى مقدور شاعرهم أن يعبر بها عن كل لون من ألوان الحب العذرى الذى يظن نيتشه أنه من اختراع شعراء الفروسية الغزلين فى أوربا فى العصور الوسطى وتدل بردية هرسى على أن المرأة كانت تستطيع أن تعبر عن هذه العواطف كما يعبر عنها الرجل :

أنا أختك الأولى ،
وأنت لى كالروضة
التى زرعت فيها الأزهار
والأعشاب العطرة جميعها ؛

وأجريتُ فيها غديراً
لكى تضع فيها يدك
إذا ما هبت ريح الشمال باردة .
وهى المكان الجميل الذى نتنزه فيه
حين تكون يدى فى يدك .
يفكر عقلانا ويبتهج قلبانا
لأننا نسير معاً ؛
إن سماع صوتك ليسكرنى ،
وحياتى كلها فى سماعك ،
وإن رؤيتك
لأحب إلىّ من الطعام والشراب(١٥٥) .

وإذا نظرنا إلى هذه القطع الباقية فى مجموعها اعترتنا الدهشة من تباين موضوعاتها ، فهى تشمل رسائل رسمية ، ووثائق قانونية ، وقصصاً تاريخية ، وطلاسم سحرية ، وترنيمات مجهدة ، وكتباً دينية مليئة بعبارات التقى والورع ، وأغانى الحب والحرب ، وأقاصيص غرامية قصيرة ، ونصائح تحضّ على حُسن الخلُق ، ومقالات فلسفية ، وجملة القول أن فيها مثلا من كل شىء عدا الملاحم والتمثيليات ، وحتى هذه يستطيع الإنسان أن يقول مع بعض التجاوز إن فيها أمثلة منها . وإن قصة النصر الذى أحرزه رمسيس الثانى بجرأته المدهشة والتى نقشت شعراً على حجارة أبواب الأقصر العظيمة لهى ملحمة على الأقل فى طولها وفيما تبعثه فى نفس قارئها من ملل . ويتباهى رمسيس الرابع فى نقش آخر بأنه فى بعض الألعاب قد حمى أوزير من ست وأعاد الحياة إلى أوزير(١٥٦) . وليس لدينا من المعلومات ما نستطيع به أن نبسط القول فى معنى هذه الإشارة .

وكتابة التاريخ فى مصر قديمة قدم التاريخ نفسه ، بل إن ملوك عصر ما قبل

الأسر كانوا يحتفظون بسجلات تاريخية تفاخراً وإعجاباً بأنفسهم[١٥٧] . وكان المؤرخـــون الرسميون يصحبون الملوك فى حملاتهم ، ولكنهم لا يبصرون هزائمهم ، بل يسجلون ، أو يخترعون من عندهم ، تفاصيل نصرهم ، لأن كتابة التاريخ كانت قد أضحت حتى فى ذلك العصر البعيد للزينة والتجمل . وأخذ العلماء المصريون من عام ٢٥٠٠ ق . م يكتبون قوائم بأسماء ملوكهم ، ويؤرخون السنين بحكمهم ، ويذكرون الحوادث الهامة فى كل حكم وفى كل عام . فلما تولى تحتمس الثالث الملك كانت هذه الوثائق قد أصبحت تواريخ بحق ، تفيض بالعواطف الوطنية[١٥٨] . وكان فلاسفة الدولة الوسطى يرون أن الإنسان والتاريخ نفسه قد تقادم بهما العهد وأضناهما الشيخوخة ، وأخذوا يندبون ما انقضى من شباب جنسهم الفنى . وشكا عالم فى عهد سنوسريت الثانى أى حوالى ٢١٥٠ ق . م من أن كل ما يمكن أن يقال قد قيل من عهد بعيد ، ومن أن الأدب لم يبق له ما يقوله إلا التكرار . وقال فى أسى وحسرة : « ألا ليتنى أجد ألفاظاً لم يعرفها الناس ، وعبارات وأقوالا بلغة جديدة لم ينقض عهدها ، وليس فيها تلوكه الألسن أقوال لم تصبح تافهة مملة ، ولم يقلها آباؤنا من قبل »[١٥٩] .

ولقد أخفى تقادم العهد ما فى الأدب المصرى من تباين كما يخفى ما بين أفراد الشعوب غير المألوفة للإنسان من فروق . بيد أن الآداب المصرية فى خلال تطورها الطويل قد مرّت بحركات ونزعات لا تقل فى تباينها عن الحركات والنزعات التى اضطرب بها تاريخ الآداب الأوربية . وتغيرت لغة الكلام فى مصر تغيراً تدريجياً على مرّ الزمان ، كما تغيرت لغة الكلام فى أوربا من بعد ، حتى أصبحت هذه اللغة فى آخر الأمر وكأنها لغة أخرى غير التى دُوّنت بها كتب الدولة القديمة . وظل المؤلفون وقتاً ما يكتبون باللغة الأولى ، وظل العلماء يدرسونها فى المدارس والطلاب لا يجدون مندوحة من دراسة « الآداب القديمة » مستعينين بكتب النحو والمعاجم وبالتراجم التى « بين السطور » فى بعض الأحيان . فلما كان القرن الرابع عشر قبل الميلاد ثار

المؤلفون المصريون على هذا الخضوع المزرى للتقاليد ، وفعلوا مثل ما فعل دانتى وتشوسر من بعد ، فأقدموا على الكتابة بلغة الشعب ، ولقد كتبت ترنيمة إخناتون للشمس ، وهى الترنيمة الذائعة الصيت ، باللغـــة الدارجة .

وكان الأدب الجديد أدباً واقعياً ، فتياً ، مبهجاً . وكان يسر منشئيه أن يسخروا من الأدب القديم ويصفوا الحياة الجديدة . ثم فعل الزمن فعله بهذه اللغة الجديدة فأصبحت هي أيضاً لغة أدبية لها أصولها وقواعدها رقيقة دقيقة ، جامدة مقيدة فى ألفاظها وتعبيراتها بما جرى عليه العرف . واختلفت مرة أخرى لغة الكتابة عن لغة الكلام وانتشر التحذلق ، حتى كانت المدارس المصرية فى عصر ملوك ساو تقضى نصف وقتها فى دراسة « الآداب القديمة » آداب عهد إخناتون وترجمتها[١٦٠] . وحدث مثل هذا التطور فى اللغات القومية فى عهد اليونان والرومان والغرب ، ولا يزال يجرى فى مجراه فى هذه الأيام ، ذلك أن كل شيء يسير ولا يبقى جامداً لا يتغير إلا العلماء .

٨ – العلوم

منشأ العلوم المصرية – الرياضيات – علم الفلك والتقويم – التشريح ووظائف الأعضاء – الطب والجراحة والقوانين الصحية

كان معظم علماء مصر من الكهنة ، وذلك لأنهم بعيدون عن صخب الحياة وضجيجها ، يتمتعون بما فى الهياكل من راحة وطمأنينة ، فكانوا هم الذين وضعوا أسس العلوم المصرية رغم ما كان فى عقائدهم من خرافات . وهم يقولون فى أساطيرهم إن العلوم قد اخترعها من ١٨٫٠٠٠ سنة قبل الميلاد تحوت إله الحكمة المصرى فى خلال حكمه على ظهر الأرض البالغ ثلاثة آلاف من الأعوام ، وإن أقدم الكتب فى كل علم من العلوم كانت من بين العشرين ألف مجلد التى وضعها هذا الإله

العالم[١٦١] (*) : وليس لدينا من العلم ما نستطيع به أن نفصل القول فى نظرية نشأة العلوم فى مصر .

وحسبنا أن نقول إنا نجد العلوم الرياضية متقدمة أعظم تقدم منذ بداية تاريخ مصر المدوّن ؛ وشاهِد ذلك أن تصميم الأهرام وتشييدها يتطلبان دقة فى القياس لا يستطاع الوصول إليها بغير معرفة واسعة العلوم الرياضية ، وقد أدى اعتماد الحياة فى مصر على ارتفاع النيل وانخفاضه إلى العناية بتسجيل هذا الارتفاع والانخفاض وإلى حسابهما حساباً دقيقاً . وكان المساحون والكتبة لا ينقطعون عن قياس الأراضى التى محا الفيضان معالم حدودها ، وما من شك فى أن القياس كان منشأ فن الهندسة ، وشاهِد ذلك أن اسمه الأجنبى (gsometry) مشتق من كلمتين معناهما قياس الأرض[١٦٣] . والأقدمون كلهم تقريباً مجمعون على أن هذا العلم من وضع المصريين[١٦٤] ، وإن كان يوسفوس يظن أن إبراهيم قد جاء بالحساب من كلديا (أى من أرض الجزيرة) إلى مصر[١٦٥] ، وليس من المستحيل أن يكون الحساب وغيره من العلوم والفنون قد جاءت إلى مصر من « أور الكلدان » أو من غيرها من مراكز آسيا الغربية .

وكانت الأرقام سمجة متعبة ــ فقد كان رقم ١ يمثل له بشرطة ، ورقم ٢ بشرطتين ، و٣ بثلاث شرط . . و٩ بتسع شرط ، وتمثل العشرة بعلامة خاصة والعشرون باثنتين من هذه العلامات والثلاثون بثلاث منها .. والتسعون بتسع والمائة بعلامة أخرى جديدة والمائتين بعلامتين والثلثمائة بثلاث علامات . . . والتسعمائة كفًا بكف فوق رأسه كأنه يعبر عن دهشته من وجود مثل هذا العدد

(*) وهذا ما يؤكده لنا يمبلكس (حوالى ٣٠٠ ب . م) أما منيثون المؤرخ المصرى الذى عاش حوالى عام ٣٠٠ ق . م فيرى أن هذا التقدير لا ينصف الإله ، ويقدر عدد ما وضع تحوت من الكتب بستة وثلاثين ألف كتاب . وكان اليونان يعظمون تحوت ويسمونه هرمس ترسمجستس ــ هرمس (عطارد) المثلث العظمة[١٦٢] .

الكبير[١٦٦] . وكاد المصريون أن يصلوا إلى الطريقة العشرية فى الأعداد ؛ وإن لم يعرفوا الصِّفْرَ أو يصلوا قط إلى فكرة التعبير عن جميع الأعداد بعشرة أرقام ، بل كانوا يعبرون عن رقم ٩٩٩ مثلا بسبع وعشرين علامة[١٦٧] . وكانوا يعرفون الكسور الاعتيادية ، ولكن بسط هذه الكسور كان رقم ١ على الدوام ؛ فكانوا إذا أرادوا كتابة $\frac{3}{4}$ كتبوها $\frac{1}{2}$ + $\frac{1}{4}$ (*) . وجداول الضرب والقسمة قديمة قِدم الأهرام ، وأقدم رسالة فى الرياضة عرفت فى التاريخ هى بردية أحمس التى يرجع تاريخها إلى ما بين عام ألفين وألف وسبعمائة قبل الميلاد ؛ ولكن هذه البردية نفسها تشير إلى كتابات رياضية أقدم منها بخمسمائة عام . وهى تحسب سعة مخزن للغلال أو مساحة حقل وتضرب لهذا الحساب أمثلة ، ثم تنتقل من هذا إلى معادلات جبرية من الدرجة الأولى[١٦٨] . ولم تقتصر الهندسة المصرية على قياس مساحات المربعات والدوائر والمكعبات ، بل كانت تقيس أيضاً أحكام الاسطوانات والكرات ، وقد وصلت إلى تقدير النسبة التقريبية بـ ١٦ر٣[١٦٩]. وما أعظم فخرنا إذا استطعنا فى أربعة آلاف عام أن نتقدم فى حساب هذه النسبة التقريبية من ١٦ر٣ إلى ١٤١٦ر٣ .

ولسنا نعرف شيئاً عما وصل إليه المصريون فى علمى الطبيعة والكيمياء ، ولا نكاد نعرف شيئاً عما وصلوا إليه فى علم الفلك . ويلوح أن راصدى النجوم فى الهياكل كانوا يظنون الأرض صندوقاً مستطيلا تقوم فى أركانه الجبال لتمسك السماء[١٧٠]. ولم يشيروا بشىء إلى الخسوف والكسوف ، وكانوا فى هذا العلم بوجه عام أقل رقيا من معاصريهم فى أرض النهرين ، ولكنهم مع هذا كانوا يعرفون منه ما يكفى للتنبؤ باليوم الذى يرتفع فيه النيل ، وأن يتجهوا بها كلهم نحو الشرق فى النقطة التى تشرق منها الشمس فى صباح يوم الانقلاب الصيفى[١٧١]. ولربما كانوا

(*) لقد ظل الكتبة فى التفاتيش الزراعية إلى عهد قريب يعبرون عن ال $\frac{3}{4}$ فيما يسمونه صورة الفدان بقولهم $\frac{1}{2}$ ، $\frac{1}{4}$. (المترجم)

يعرفون أكثر مما عنوا بإذاعته بين شعب كانت خدماته عظيمة القيمة لحكامه . وكان الكهنة يرون أن دراساتهم الفلكية من العلوم السرية الخفية التي لا يحبون أن يكشفوا أسرارها للسوقة من الناس[١٧٢] . وظلوا قروناً طوالا متتالية يتتبعون مواقع الكواكب وحركاتها حتى شملت سجلاتهم في هذه الناحية آلاف السنين . وكانوا يميزون الكواكب السيارة من النجوم الثوابت ، وذكروا في فهارسهم نجوماً من القدر الخامس (وهى لا تكاد ترى بالعين العادية) وسجلوا ما ظنوه أثر نجوم السماء فى مصائر البشر . ومن هـــذه الملاحظات أنشأوا التقويم الذى أصبح فيما بعد من أعظم ما أورثه المصريون بنى الإنسان .

وبدأوا تقسيم السنة إلى ثلاثة فصول فى كل واحد منها أربعة شهور ، أولها فصل ارتفاع النيل وفيضه وانحساره ، وثانيها فصل الزرع ، وثالثها فصل الحصاد . وكانت عدة كل شهر من شهورهم ثلاثين يوماً لأن هذا العدد هو أقرب الأعداد السهلة إلى طول الشهر القمرى الذى يبلغ تسعة وعشرين يوماً ونصف يوم . وكان لفظ الشهر فى لغتهم كما هو فى اللغة الإنجليزية مشتقاً من رمزهم للقمر(*) . وكانوا يضيفون بعد آخر الشهر الثانى عشر خمسة أيام حتى تتفق السـنة فى الحساب مع فيضان النهر ومع مواقع الشمس[١٧٤] . واختاروا لبدء السنة اليوم الذى يصل فيه النيل عادة إلى أقصى ارتفاعه والذى كانت فيه الشعرى العظيمة (وكانوا يسمونها سوثيس) تشرق مع الشمس فى وقت واحد . ولما كان التقويم المصرى يجعل السـنة ٣٦٥ يوماً بدل ٣٦٥¼ ، فإن الفرق بين شروق الشعرى وشروق الشمس وهو الذى كان فى أول الأمر صـغيراً لا يكاد يدرك قد ازداد حتى

(*) لقد كانت الساعة المائية معروفة عند المصريين من زمن بعيد ، ومن أجل هـذا كانوا يعزون اختراعها إلى تحوت إلهم المتعدد الكفايات . وأقدم الساعات الموجودة لدينا يرجع عهدها إلى أيام تحتمس الثالث ، وهى الآن فى متحف برلين . وتتكون من قضيب من الخشب مقسم ستة أقسام تمثل ست ساعات وفوقه قطعة مستعرضة وضعت بحيث يدل ظلها الواقع على القضيب على الساعة قبل الظهر أو بعده(١٧٣) .

بلغ يوماً كاملا فى كل أربع سنين . وبذلك كان التقويم المصرى يختلف عن التقويم السماوى الحقيقى بست ساعات فى كل عام . ولم يصحح المصريون قط هذا الخطأ ، حتى جاء فلكيو الإسكندرية اليونان فأصلحوه بأمر يوليوس قيصر (فى عام ٤٦ ق . م) وذلك بإضافة يوم بعد كل أربع سنين . وهذا هو ما يسمونه التقويم اليوليسى . ثم صحح التقويم تصحيحاً أدق فى عهد البابا جريجورى الثالث عشر (١٥٨٢) وذلك بحذف هذا اليوم الزائد (وهو اليوم التاسع والعشرون من فبراير) من السنين المتممة للمئات التى لا تقبل القسمة على ٤٠٠ ، وهذا هو « التقويم الجريجورى » الذى نستخدمه اليوم . وجملة القول أن تقويمنا فى جوهره من وضع الشرق الأدنى القديم[175](*) .

(*) لما كان شروق الشعرى منسوبا إلى الشمس يتأخر يوماً كاملا فى كل أربع سنين عما ينطلبه التقويم المصرى ليكون الشروقان متفقين على الدوام ، فإن هذا الخطأ يبلغ ٣٦٥ يوماً فى كل ١٤٦٠ عاماً . وحين تكمل هذه الدورة السوثية (كما كان المصريون الاقدمون يسمونها) يعود التقويم المكتوب والتقويم السماوى إلى الاتفاق . وإذ كنا نعرف من سنسوريس المؤلف اللاتينى أن شروق الشعرى الشمسى (منسوباً إلى شروق الشمس) وقد اتفق فى عام ١٢٩ ق . م مع بداية سنة التقويم المصرى القديم ، فإن من حقنا أن نفترض أن هذا التوافق بعينه كان يحدث فى كل ١٤٦٠ سنة قبل ذلك التاريخ الأخير ، أى فى عام ١٣٢١ ق . م ، وفى عام ٢٧٨١ ق . م ، وفى عام ٤٢٤١ ق . م الخ الخ . ولما كان من الواضح أن التقويم المصرى قد وضع فى سنة كان فيها شروق الشعرى الشمسى (أى المنسوب إلى الشمس) قد وقع فى أول يوم من أول شهور السنة ، فإننا نستدل من هذا على أن ذلك التقويم قد بدأ العمل به فى سنة كانت فاتحة دورة سوثية . وقد ورد ذكر التقويم المصرى الأول مرة فى النصوص الدينية المنقوشة فى أهرام الأسرة الرابعة . ولما كان عهد تلك الأسرة يرجع بلا جدال إلى ما قبل عام ١٣٢١ ق . م ، فإن التقويم لا بد أن يكون قد وضع فى عام ٢٧٨١ ق . م أو فى عام ٤٢٤١ ق . م أو قبل هاتين السنتين . وكان الاعتقاد السائد أن أقدم العامين أى عام ٤٢٤١ ق . م هو أول ما حدد من الأعوام فى تاريخ العالم ، ولكن الأستاذ شارف **Scharf** يعارض فى هذا ، وليس ببعيد أن نضطر إلى الأخذ بالرأى الثانى وهو أن عام ٢٧٨١ أو عاما قريباً منه هو مولد التقويم المصرى القديم . فإن صح هذا وجب أن نصحح التواريخ السالفة الذكر والتى حددناها لحكم الأسرة الأولى وتشييد الأهرام العظيمة بحيث تكون أقرب إلينا بنحو ثلثمائة عام أو أربعمائة ولما كان هذا الموضوع لا يزال مثاراً للجدل فقد اعتمدنا فى هذا الكتاب على التواريخ الواردة فى كتاب التاريخ القديم لجامعة كبردج **(Cambridge Ancient History)**

ولم يتقدم المصريون فى دراسة جسد الإنسان تقدماً يستحق الذكر رغم ما أتاحه لهم فن التحنيط من فرص لهذه الدراسة . فقد كانوا يظنون أن الأوعية الدموية تحمل هواء وماء ونفايات من السوائل . وكانوا يعتقدون أن القلب والأمعاء مركز العقل . ولعلنا إذا عرفنا ما كانوا يقصدونه بهذه المصطلحات لا نجدهم يختلفون عنا كثيراً فى معتقداتنا الأكيدة التى لا نثبت عليها إلا قليلا . ولكنهم وصفوا بكثير من الدقة العظام الكبرى والأمعاء ، وعرفوا أن القلب هو القوة الدافعة فى الكائنات الحية ، وأنه مركز الدورة الدموية . وقد جاء فى بردية إيبرز[١٧٦] أن « أوعيته تتفرع إلى جميع أعضاء الجسد ، فسواء وضع الطبيب إصبعه على جبهة الإنسان ، أو على موخر الرأس ، أو على اليدين ... أو على القدمين فإنه يلتقى بالقلب فى كل مكان » . ولم يكن بين هذا وبين أقوال ليوناردو وهارفى إلا خطوة واحـــدة — ولكنها خطوة تطلبت ثلاثة آلاف عام .

أما أكبر مفخرة علمية للمصريين فهى علم الطب . وكان الكهنة هم البادئين به كما أن فيه من الشواهد ما يدل على أن هذه البداية قد نبتت من السحر . وشأن الطب فى هذا يكاد يكون شأن كل شىء آخر فى حياة مصر الثقافية . وكانت التمائم أكثر شيوعاً بين الناس من حبوب الدواء لعلاج الأمراض أو للوقاية منها . وكان المرض فى اعتقادهم هو تقمص الشياطين الجسم ، وعلاجه هو تلاوة العزائم ؛ فقد كان الزكام مثلا يعالج بمثل هذه العبارات السحرية : « اخرج أيها البرد يا ابن البرد ، يا من تهشم العظم ، وتتلف الجمجمة ، وتمرض مخارج الرأس السبعة . اخرج على الأرض . دفر . دفر . دفر ! »[١٧٧] — وأكبر الظن أن هذا علاج لا يقل فى مفعوله عن أى علاج نعرفه اليوم لهذا المرض القديم .

ثم نرتفع فى مصر من هذه الأعماق إلى الأطباء العظام والجراحين والإخصائيين الذين ساروا فى صناعة الطب على قانون أخلاقى ظل يتوارث جيلا بعد جيل حتى وصل إلى القسَم الذائع الصيت قسم أبقراط[١٧٨] . وكان

من المصريين إخصائيون فى التوليد وفى أمراض النساء ، ومنهم من لم يكن يعالج إلا اضطرابات المعدة ، ومنهم أطباء العيون . وقد بلغ من شهرة هؤلاء أن قورش استدعى واحداً منهم إلى بلاد الفرس[١٧٩] . أولئك هم الإخصائيون . أما غير الإخصائيين منهم فقد ترك لهم جمع الفتات بعد هؤلاء وعلاج الفقراء من الناس ؛ وكان من عملهم فوق هذا أن يحضروا أدهان الوجه ، وصبغات الشعر ، وتجميل الجلد ، وأعضاء الجسم ومبيدات البراغيث[١٨٠] .

وقد وصلت إلينا عدة برديات تبحث فى الشئون الطبية . وأعظمها قيمة بردية إدون اسمث ، وسميت كذلك نسبة إلى مستكشفها ؛ وهى ملف طوله خمس عشرة قدماً ، ويرجع تاريخها إلى عام ١٦٠٠ ق . م تقريباً وتعتمد على مراجع أقدم منها كثيراً . وحتى لو ضربنا صفحاً عن هذه المراجع الأولى لظلت هذه البرية نفسها أقدم وثيقة علمية معروفة فى التاريخ . وهى تصف ثمانى وأربعين حالة من حالات الجراحة التطبيقية تختلف عن كسر فى الجمجمة إلى إصابة النخاع الشوكى . وكل حالة من الحالات الواردة فيها مبحوثة بحثاً دقيقاً فى نظام منطقى ذى عناوين مرتبة من تشخيص ابتدائى موقت ، وفحص ، وبحث فى الأعراض المشتركة بين أمراض مختلفة ، وتشخيص العلة ، والاستدلال بأعراضها على عواقبها وطريقة علاجها ، ثم تعليقات على المصطلحات العلمية الواردة فيها وشروح لها . ويشير المؤلف فى وضوح لا نجد له مثيلا قبل القرن الثامن عشر الميلادى إلى أن المركز المسيطر على الطرفين السفليين من أطراف الجسم كائن فى المخ » . وتلك أول مرة يظهر فيها هذا اللفظ فى عالم الطب[١٨١] .

وكان المصريون يستمتعون بطائفة كبيرة من الأمراض المتنوعة ، وإن كانوا قد قضى عليهم أن يموتوا بها من غير أن يعرفوا أسماءها اليونانية . وتحدثنا بردياتهم وأجسامهم المحنطة عن تدرن النخاع الشوكى وتصلب الشرايين ، والحصوات الصفراوية ، والجدرى وشلل الأطفال ، وفقر الدم ، والتهاب المفاصل ، والصرع

والنقرس ، والتهاب النتوء الحلمى ، والتهاب الزائدة الدودية ، وبعض الأمراض العجيبة . كالالتهاب الفقرى الأشوه ، وما يعترى نمو كراديس العظام الطويلة من نقص . وليست لدينا دلائل تثبت إصابتهم بالزهرى أو السرطان ، ولكن تقيح اللثة وتسوس الأسنان وهما اللذان لا أثر لهما فى أقدم الجثث المحنطة القديمة يظهران بكثرة فى الجثث المحنطة الباقية من العهود المتأخرة ؛ وذلك دليل على تقدم الحضارة فى هذه العهود . وكان ضمور عظم الإصبع الصغرى من أصابع القدم وانعدامها – وهى حالة كثيراً ما يعزى سببها إلى الأحذية الحديثة – من الحالات المنتشرة فى مصر القديمة ، حيث كان الأهلون على اختلاف أعمارهم وطبقاتهم يسيرون كلهم تقريباً حفاة[١٨٢] .

وكان لدى الأطباء المصريين عدة وافية من القراباذينات (دساتير الأدوية) لمقاومة هذه الأمراض كلها . ففى بردية إيبرز ثبت بأسماء سبعمائة دواء لكل الأدواء المعروفة ، من عضة الأفعى إلى حمى النفاس ، وتصف بردية كاهون (ويرجع عهدها إلى حوالى عام ١٨٥٠ ق . م) أقماع اللبوس ولعلها كانت تستخدم لمنع الحمل[١٨٢] . وقد عثر فى قبر إحدى ملكات الأسرة الحادية عشرة على صندوق للأدوية يحتوى على مزهريات ، وملاعق ، وعقاقير جافة ، وجذور . وكانت الوصفات الطبية تتذبذب بين الطب والسحر . وكان مفعول الخليط فى رأيهم يتناسب مع اشمئزاز النفس منه . ومما تصفه تذاكر الأطباء دم العظاية (السحلية) وأذن الخنزير وأسنانه ، واللحم والدهن النتن ، ومخ السلحفاة ، وكتاب قديم مقلى فى الزيت ، ولبن النفساء ، وماء المرأة الطاهرة وبراز الرجال والحمير والكلاب والآساد والقطط والقمل – كل هذه واردة فى تذاكر الأطباء . وكان الصلع يعالج بتدليك الرأس بدهن الحيوان . وقد انتقلت بعض هذه الوسائل العلاجية من المصريين إلى اليونان ، ثم انتقلت من اليونان إلى الرومان ، ومن الرومان إلينا . ولا نزال إلى اليوم نتجرع فى ثقة واطمئنان كثيراً من الأدوية التى خلطها

وجهزها لنا المصريون على شاطئ النيل فى أقدم الأزمان[١٨٣] .

ولقد حاول المصريون أن يحافظوا على صحة أجسامهم باتباع الوسائل الصحية العامة(*) ، وبختان الذكور[١٨٥](**) وبتعويد الناس أن يكثروا من استخدام الحقن الشرجية . ويقول ديودور الصقلى فى هذا المعنى :

وهم يتقون الأمراض بالمحافظة على صحة أجسامهم وذلك باستخدام المليِّنات وبالصوم وبالمقيئات ، كل يوم فى بعض الأحيان وكل ثلاثة أيام أو أربعة فى البعض الآخر ، وذلك لأنهم يقولون إن الجزء الأكبر مما يدخل فى الجسم من طعام يزيد على حاجته ، وإن الأمراض إنما تنشأ من هذا القدر الزائد(†)

ويعتقد بلنى أن المصريين قد تعلموا عادة استخدام الحقن الشرجية من الطائر المعروف « بأبى منجل » ، وهو طائر يقاوم الإمساك الناشئ من طبيعة ما يتناوله من الطعام بإدخال منقاره الطويل فى دبره واستخدامه كالمحقن[١٨٨] . ويروى هيرودوت أن المصريين كانوا « يظهرون أجسامهم مرة فى كل شهر ثلاثة أيام متوالية ، ويعملون على حفظ صحتهم بالمقيئات والحقن الشرجية ، لأنهم يظنون أن جميع ما يصيب الناس من الأمراض إنما ينشأ مما يأكلون من الطعام ، وهذا المؤرخ — وهو أول مؤرخ للحضارة — يصف المصريين بأنهم بعد اللوبيين أصح شعوب العالم أجساماً[١٨٩] :

(*) وقد كشفت أعمال الحفر عن طريقة كانت تتبع لجمع ماء المطر وتصريف الفضلات بأنابيب من النحاس .

(**) وفى أقدم القبور شواهد دالة على هذه العادة

(†) إن المثل الحديث الذى يقول إننا نعيش على ربع ما نأكل وإن الأطباء يعيشون على الثلاثة الأرباع الباقية لمن أقدم الأمثال .

٩ — الفن

العمارة — النحت فى الدولة القديمة والدولة الوسطى والإمبراطورية وفى عهد الملوك الساويين — النقوش القليلة البروز — التصوير — الفنون الصغرى — الموسيقى — الفنون

كان الفن أعظم عناصر هذه الحضارة ؛ فنحن نجد فى هذه البلاد ، وفى عهد يكاد يكون عهد بداية الحضارات ، فنًّا قوياً ناضجاً أرقى من فن أية دولة حديثة ، ولا يضارعه إلا فن اليونان . لقد كان ما امتازت به مصر فى أول عهودها من عزلة وسلم ، ثم ما تدفق فيها بعدئذ من مغانم الظلم والحرب فى عهد تحتمس الثالث ورمسيس الثانى ، مما أتاح لها الفرصة المواتية والوسائل الكافية لتشييد المبانى الضخمة ، ونحت التماثيل المتينة ، والبراعة فى عدة فنون أخرى صغيرة ، كادت تبلغ حد الكمال فى هذا العهد السحيق . وإن المرء ليقف حائراً مشدوهاً لا يكاد يصدق ما وضعه الباحثون من نظريات لتطوّر الرقى البشرى إلى منتجاب الفن المصرى القديم .

وكانت العمارة(*) أفخم الفنون المصرية على الإطلاق ، وذلك لما تجمع فيها من روعة وضخامة وصلابة وجمال ومنفعة . وقد بدأ هذا الفن بداية متواضعة بتزيين المقابر ونقش الوجهة الخارجية لجدران المنازل . وكانت كثرة المساكن تبنى من الطين تتخللها فى بعض الأحيان أعمال بسيطة من الخشب (كالنوافذ الشبكية اليابانية أو الأبواب الجميلة الحفر) ، والسقف المقامة على جذوع النخل السهلة العلاج . وكان يحيط بالدار عادة سور يضم فناء ، تصعد منه درج إلى سطح البيت ، ومنه ينزل السكان إلى الحجرات . وكان للموسرين من الأهلين حدائق خاصة يعنون بتنسيقها ؛ وكان فى الحواضر حدائق عامة للفقراء ، ولا يكاد يخلو بيت من أزهار

(*) اقرأ فى القسمين الأول والثالث من الجزء الأول من هذا الفصل وصف العمارة فى أيام الدولة القديمة .

الزينة ، وكانت جدران المنزل تزيّن من الداخل بحُصر ملوّنة ، وتفرش أرضه بالطنافس ، إذا كان ربّ الدار ذا سعة . وكان السكان يفضلون الجلوس على هذه الطنافس عن الجلوس على الكراسي . وكان المصريون فى عهد الدولة القديمة يتناولون الطعام وهم جالسون مرتبعون وأمامهم موائد لا يزيد ارتفاعها على ست بوصات كما يفعل اليابانيون فى هذه الأيام ، وكانوا يأكلون بأيديهم على طريقة شيكسپير ، فلما كان عهد الإمبراطورية وقلّ ثمن العبيد أصبح أفراد الطبقات العليا يجلسون على كراسي عالية ذات وسائد ، ويقدّم لهم خدمهم أصناف الطعام صنفاً بعد صنف(١٩٠) .

وكانت أحجار البناء أغلى من أن تستخدم فى تشييد المنازل ، ولهذا كانت من مواد الترف الخاصة بالكهنة والملوك . وحتى النبلاء أنفسهم — وهم الطائفة الكثيرة الطموح — آثروا المعابد بأكبر قسط من الثروة وبأحسن مواد البناء ، ومن هذا فإن القصور التى كانت تطل على النيل والتى لم يكد يخلو ميل من واحد منها فى عهد أمنحوتب الثالث قد تهدمت كلها وعفت آثارها ، على حين أن أضرحة الآلهة ومقابر الموتى قد بقيت إلى أيامنا هذه . ولما جاءت الأسرة الثانية عشرة لم يعُد الهرم الطراز المحبب لمدافن الأموات ، ولهذا اختار ختوم حوتب (حوالى ١١٨٠ ق . م) لمدفنه عند بنى حسن شكلا أهدأ من أشكال الهرم وهو قبر ذو عمد فى أحضان الجبل ؛ وما كادت هذه الفكرة تثبت وتستقر حتى اتخذت آلاف الأشكال المختلفة بين التلال الممتدة على جانب النيل الغربى . وهكذا خرجت من رمال مصر ما بين عهد الأهرام والعهد الذى شيد فيه هيكل حتحور عند دندرة — أى فى خلال ثلاثة آلاف عام أو نحوها — ضروب من العمائر المختلفة لم تفقها قط عمائر أية حضارة من الحضارات الأخرى .

ففى الكرنك والأقصر أيكة من الأعمدة أقامها تحتمس الأول والثالث ، وأمنحوتب الثالث ، وسيتى الأول ، ورمسيس الثانى وغيرهم من الملوك ما بين

الأسرة الثانية عشرة والأسرة الثانية والعشرين ، وفى مدينة حبو (حوالى ١٣٠٠ ق . م) صرح متسع الأرجاء ، وإن كان لا يضارع الصروح السابقة الذكر فى فخامتها ، قامت عليه فيما بعد قرية عربية وظلت جاثمة على صدره عدة قرون ؛ وفى أبيدوس (العرابة) شُيِّد هيكل سيتى الأول الذى لم يبق منه إلا خرائب ضخمة قاتمة كئيبة ، وفى إلفنتين معبد صغير هو معبد ختوم (حوالى ١٤٠٠ ق . م) « اليونانى فى دقة بنائه ورشاقته »[١٩١] ؛ وفى الدير البحرى بهو الأعمدة الذى شادته الملكة حتشبسوت ، وبالقرب منه الرمسيوم وهى أيكة أخرى من العمد والتماثيل الضخام شادها المهندسون والعبيد الذين سخرهم رمسيس الثانى ، وفى جزيرة فيلة هيكل إيزيس الجميل (حوالى ٢٤٠ ق . م) المهجور الموحش فى هذه الأيام لأن خزان أسوان قد غمر قواعد عمده التى بلغت فى عمارتها حد الكمال — وهذه البقايا القليلة المتفرقة إن هى إلا نماذج من الآثار القديمة التى لا تزال تجمل وادى النيل وتنطق خرابها نفسها بما كان عليه الشعب الذى شادها من قوة وبسالة . ولعل فى هذه الصروح إفراطاً فى الأعمدة وتقاربها بعضها من بعض لاتقاء حر الشمس اللافح ، ولعل فيها بعداً عن التناسب هو من خصائص الشرق الأقصى ، وافتقاراً إلى الوحدة ، وهياماً همجياً بالضخامة كهيام أهل هذه الأيام . فإن كان ذلك كذلك فإن فيها أيضاً عظمة وسمواً وجلالا وقوة ؛ فيها الأقواس والعقود[١٩٢] وهى إن قلت فما ذلك إلا لقلة الحاجة إليها ، ولكنها من حيث المبادئ التى شيدت عليها تسير فى طريق الانتقال إلى المبادئ التى شيدت عليها العمد والأقواس فى بلاد اليونان والرومان وفى أوربا الحديثة ؛ وفيها نقوش للزينة لا يفوقها غيرها من النقوش فى تاريخ العالم كله[١٩٣] ؛ وفيها عمد على صورة أعواد البردى والأزورد (اللوطس) ، وعمد من الطراز الدُّورى(*) الأول[١٩٤] وعمد فى صورة نساء[١٩٥] ، وتيجان للعمد منها ما هو فى صورة حتحور

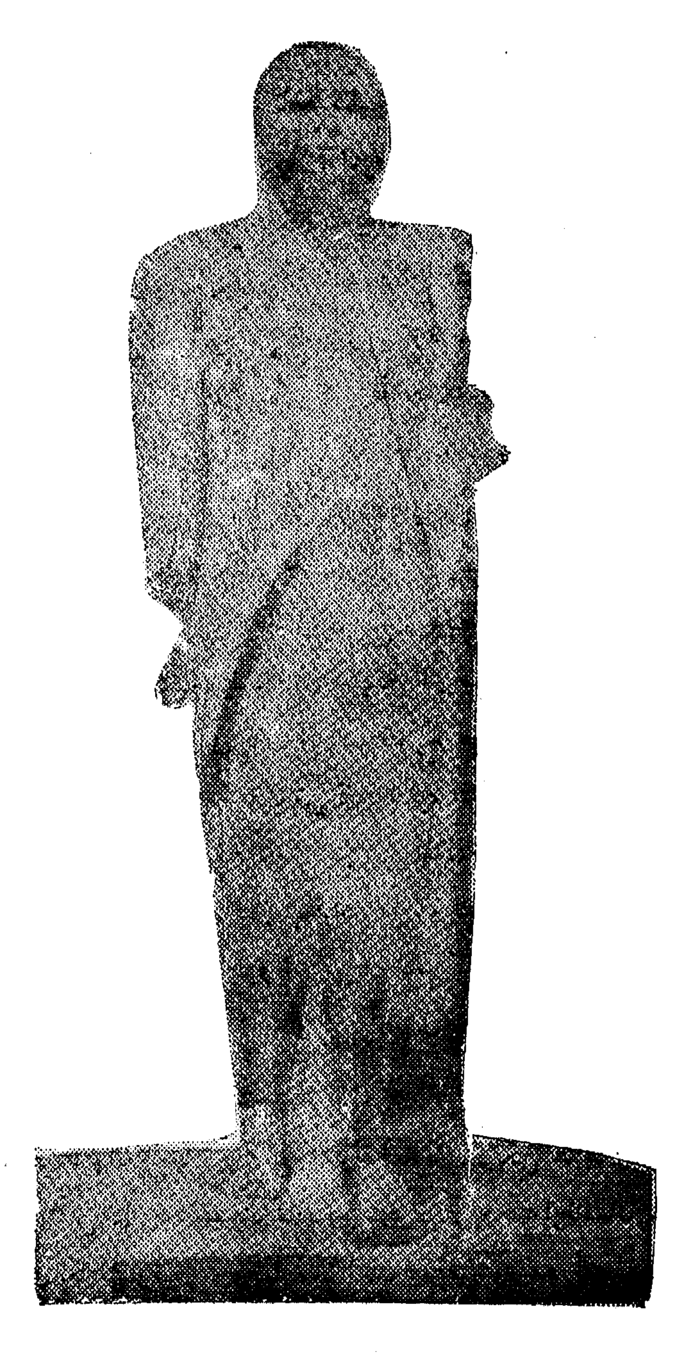
(*) نسبة إلى الفن الدورى اليونانى الذى يمتاز ببساطته وصلابته . (المترجم)

ومنها ما هو على صورة النخيل ؛ وفيها قصور ذات نوافذ قرب السقوف ؛ وفيها عتبات فخمة تمتاز بالقوة والثبات اللذين هما روح الجاذبية القوية فى فن العمارة . لعمرى إن المصريين لهم أعظم البنائين فى التاريخ كله بلا جدال .

ومن الناس من يضيف إلى هذا أنهم أيضاً أعظم المثالين ، فلقد أنشأوا فى بداية تاريخهم تمثال أبى الهول . ذلك التمثال الذى يرمز إلى الصفات الأبدية التى اتصف بها أحد الفراعنة الأقوياء ، ولعل هذا الفرعون هو خفرع . والتمثال لا ينم عن القوة فحسب ، بل يفصح كذلك عن الصفات الخلقية . ولقد حطمت طلقة من مدافع المماليك أنف التمثال وحلقت لحيته ، ولكن ملامحه القوية الضخمة تعبر أحسن تعبير وأقواه عما اتصف به ذلك الملك من قوة ومهابة وهدوء ونضوج ، وكلها صفات يجب ألا تفارق الملوك . ولقد علت هذه الملامح الساكنة ابتسامة خفيفة لم تفارقها منذ خمسة آلاف من السنين ، كأنما الفنان المجهول الذى صاغه أو الملك المجهول الذى يرمز التمثال له ، كان يفهم كل ما يريد الخلق أن يفهموه عن الخلق . والحق أنه هو « مونا ليزا » من الصخر الأصم .

وما من شىء فى تاريخ النحت أجمل من تمثال خفرع المصنوع من حجر الديوريت والذى يقوم فى متحف القاهرة . لقد كان هذا التمثال قديماً فى أيام بركستليز ، قدم بركستليز نفسه بالنسبة إلينا . ومع هذا فقد اجتاز حقبة من الزمان طولها خمسون قرناً ، ثم وصل إلينا ولم تكد تؤثر فيه عوادى الدهر ونوائبه . لقد صنع هذا التمثال من أصلب الحجارة وأشدها استعصاء على الإنسان ، ولكنه ينقل إلينا أكمل ما يكون النقل قوة الملك (أو الفنان) البدنية ، وسلطانه وعناده وصلابة رأيه وبسالته وذكاءه . ويجلس بالقرب منه تمثال عابس متجهم لملك أقدم من صاحب التمثال الأول عهداً هو تمثال الملك زوسر المصنوع من حجر الجير . ومن بعده يكشف لك الدليل بعود الثقاب عن شفافية تمثال رائع من المرمر هو تمثال منقورع .

ويضارع تمثالا شيخ البلد والكاتب تماثيل الملوك من ناحية الإبداع



شكل (١٤) تمثال « شيخ البلد » من الخشب
فى متحف القاهرة

والإتقان الفنى الذى ليس بعده إتقان : ولقد وصل إلينا تمثال الكاتب فى عدة أشكال ، وكلها من عهود لا نعلمها علم اليقين ، ولكن أشهرها كلها تمثال الكاتب المتربع المحفوظ فى متحف اللوفر(*) . وليس تمثال شيخ البلد لشيخ بحق ولكنه تمثالُ مشرفٍ على الفعلة بيده عصا السلطة ، يخطو إلى الأمام كأنه يلاحظ عماله أو يصدر إليهم أوامره ويبدو أن اسمه هو كعبيرو ولكن العمال المصريين الذين أخرجوه من قبره فى سقارة قد أدهشهم ما رأوه من تشابه بينه وبين شيخ البلد الذى يسكنونه ، فأوحت إليهم فكاهتهم بهذا اللقب الذى اشتهر به والذى لا يزال إلى اليوم ملازماً له . وهذا التمثال مصنوع من الخشب المعرض للبلى ولكن الزمان لم يقو على تشويه جسمه الملىء ، أو ساقية الغليظتين ، وينم وسط جسمه على ما يتمتع به الملاك فى جميع الحضارات من سعة فى الرزق وقلة فى الكدح ، وينطق وجهه المستدير بقناعة الرجل الذى يعرف مكانته ويفخر بها . ويشعرنا رأسه الأصلع وثوبه المتهدل على واقعية الفن الذى كان فى ذلك الوقت قد بلغ من القدم درجة أجازت له أن يثور على التقاليد التى جعلت من الفن القديم مثلا أعلى يحتذى ، ولكن فيه أيضاً بساطة جميلة وإنسانية كاملة عبر عنها المثال بلا حقد ولا مرارة ، وعبر عنها فى يسر ورشاقة ، تمتاز بهما اليد الواثقة الصَّناع . وفى ذلك يقول مسبيرو « لو أن معرضاً أنشئ لروائع الفن فى العالم كله لاخترت هذا التمثال رمزا لعظمة الفن المصرى(١٩٦) — أو هل أصدق من هذا أن تختص بهذا الشرف تمثال خفرع ؟

هذه هى الروائع الفنية من تماثيل الدولة القديمة . ولكن هناك آيات فنية أخرى كثيرة أقل منها روعة ، منها تمثالا روع حوتب وزوجته الجالسان ، ومنها التمثال القوى للكاهن رنوفر ، ومنها تمثالا الملك فيوبس وولده المصبوبان من

(*) انظر وصفه السابق فى ص ٧٩ وتزين المتحف المصرى بالقاهرة ومتحف الدولة فى برلين تماثيل أخرى للكاتب .

النحاس ، ومنها رأس باشق من الذهب ، ومنها الصورتان الهزليتان لعاصر الخمر وللقزم كنمحوتب ، وكلها إلا واحـداً منها فى المتحف المصرى بالقاهرة ، وكلها ـ بلا استثناء ـ صور ناطقة بأخلاق أصحابها . ولسنا ننكر أن القطع المبكرة منها خشنة غير مصقولة الصنع ، وأن التماثيل قد صنعت وأجسامها وعيونها متجهة إلى الأمام ، على حين أن الأيدى والأقدام قد رسمت من أحد الجانبين ، وذلك جرياً وراء عرف غريب متبع فى جميع ضروب الفن المصرى(*) ، وأن الجسم لم يلق من الفنان عناية كبيرة ، وأنه مثل فى معظم الأحيان فى صورة راسخة مقننة لا تتفق مع الواقع ـ فكانت أجسام تماثيل النساء كلها تصوّرهن فتيات فى شرخ الشباب وتماثيل الملوك تظهرهم كلهم أقوياء ، وأن للفردية وإن كانت قد بلغت فى فهم درجة عالية قد احتفظ بها عادة فى الرءوس دون الأجسام . ولكن مهما يكن من الجمود والتماثل اللذين لحقا فنون النحت والتصوير والنقش البارز ، وما فرضه عليها الكهنة من قيود العرف ، ومن سلطان لهم شديد ، بالرغم من هذا كله فإن هذا النقص قد عوضه عمق فى التفكير ، وقوة ودقة فى التنفيذ ، وما تمتاز به الصناعة من طابع خاص واتجاه وصقل ؛ والحق أن فن النحت لم يكن فى بلد من البلاد أكثر حيوية مما كان فى مصر . إن تمثال الشيخ ليخرج على كل سلطان ، وإن المرأة التى تطحن الحبّ لتقبل عليه بكل ما فى نفسها من أحاسيس وما فى جسمها من عضلات ، وإن الكاتب ليهم بالكتابة ، وإن آلاف الدمى الصغيرة التى وضعت فى المقابر لتقوم بالواجبات الضرورية للموتى قد صيغت كلها بحيث يبدو عليها من مظاهر النشاط والجد ما نكاد معه أن نعتقد ـ كما كان يعتقد المصريون الأتقياء ـ أن الموتى لا يمكن أن يشقوا ما دام هؤلاء الخدم من حولهم .

(*) هناك تماثيل كثيرة تشذ عن هذه القاعدة العامة منها تمثال شيخ البلد والكاتب ، وما من شك فى أن هذا العرف لم يكن ناشئاً عن عجز أو جهل بأصول الفن .

ولم تصل منتجات فن النحت المصرى بعد عهد الأسر الأولى إلى ما كانت عليه فى عهدها إلا بعد أن مضت عليها قرون كثيرة . وإذ كان معظم التماثيل إنما صنع للهياكل أو المقابر فقد كان الكهنة هم الذين يقررون إلى حد كبير الأنماط التى يلتزمها الفنان . ومن هذه السبيل تسربت إلى الفن النزعة الدينية المحافظة .



شكل (١٥) رأس من حجر الخرسان وجد فى مصنع المثال تحتمس فى تل العمارنة وهو الآن فى متحف الدولة ببرلين



شكل (١٦) رأس ملك لعله سنوسريت الثالث فى المتحف الفنى بنيويورك

فجثم على قلب الفن بسببها كابوس التقاليد ، وكان سبباً فى تدهوره . فلما أن تولى الحكم ملوك الأسرة الثانية عشرة الأقوياء عادت الروح الدنيوية غير الدينية إلى الظهور وأثبتت وجودها ، واستعاد الفن شيئاً من قوته القديمة ، وفاق الفنانون ما كان عليه أسلافهم الأولون من براعة . ويوحى رأس أمنمحيت الثالث المنحوت من حجر الديوريت[١٩٧] ببعث جديد للفن وبعث للأخلاق . ذلك أن الناظر إلى هذا الرأس يستشف منه صلابة هذا المليك القدير ، ويدرك أن الذى نحته فنان قدير أيضاً . وثمة تمثال ضخم لسنوسريت الثالث يزينه رأس ووجه لا تقل الفكرة التى أوحت به ، ولا القدرة التى أخرجته ، عما أوحت به وأخرجته

أية صورة أخرى فى تاريخ فن النحت كله ، وإن الجذع الباقى من تمثال سنوسريت الأول فى متحف القاهرة ليضارع جذع تمثال هرقول فى متحف اللوفر . وتكثر تماثيل الحيوانات فى كل عصر من عصور التاريخ المصرى ، وهى كلها تفيض بالحياة ، فهنا نجد فأراً يمضغ بندقة ، وهناك نرى قرداً يضرب على وتر ويكشف عن كل ما لديه من مهارة فى هذا الضرب ، أو قنفذاً ليس فى أشواكه كلها شوكة غير متنفشة . ثم جاء ملوك الهكسوس وانعدم الفن المصرى إلا قليلا مدى ثلاثة قرون .



شكل (١٧) الصقر الملكى والأفعى
نقش فى حجر الجير من الأسرة الأولى
فى متحف اللوفر



شكل (١٨) رأس تحتمس الثالث
فى متحف القاهرة

وبعث الفن بعثاً ثانياً على ضفاف النيل فى حكم حتشبسوت وتحتمس

وأمنحوتب ومن تسمى باسميهما من الملوك . ذلك أن الثروة أخذت تتدفق على مصر من سوريا ، وتحول مجراها إلى الهياكل وقصور الملوك ، وتقطرت منها لتغذى الفنون عن اختلاف أنواعها ، وقامت تماثيل تحتمس الثالث ورمسيس الثانى تناطح السماء ، وغصَّت أركان الهياكل كلها بمختلف التماثيل ، وكثرت روائع الفن كثرة لم يسبق لها مثيل على أيدى هذا الشعب الذى تماكته نشوة بعثها فيه ما بلغه فى زعمه من سيادة على العالم بأسره . وإن التمثال النصفى لتلك الملكة العظيمة المنحوت من الحجر الأعبل والمحفوظ فى المتحف الفنى بنيويوك ، وتمثال تحتمس الثالث المصنوع من البازلت والمحفوظ فى متحف القاهرة ، وتماثيل أبى الهول المصنوعة فى عهد أمنحوتب الثالث والمحفوظة فى المتحف البريطانى ، وتمثال إخناتون الجالس المصنوع من حجر الجير والمحفوظ فى متحف اللوفر ، وتمثال رمسيس الثانى المنحوت من الحجر الأعبل والمحفوظ فى تورين ، وتمثال هذا الملك نفسه الجاثم وهو يقدم القربان للآلهة جثوماً لا يكاد يصدق الإنسان أنه يفعله ، والذى مثل الجثوم أكمل تمثيل[١٩٩] ، والبقرة المفكرة فى الدير البحرى التى يرى مسبيرو « أنها تضارع أروع آيات الفن اليونانى والرومانى المماثلة لها »[٢٠٠] وأسدَىْ أمنحوتب الثالث اللذين قال عنهما رسكن إنهما أحسن ما خلفه القدماء على بكرة أبيهم من تماثيل للحيوانات[٢٠١] ، والتماثيل الضخمة التى صنعها فى الصخر عند أبى سمبل مثالو رمسيس الثانى ، والآثار العجيبة الرائعة التى وجدت فى خرائب متْنحتِ الفنان تحتمس فى تل العمارنة — والتى تشـــمل نموذجاً من الجبس لرأس إخناتون ينطق بما كان هذا العهد الملىء بالمآسى من نزعة شعرية وتصوفية — والتمثال النصفى الجميل المصنوع من حجر الجير لنفرتيتى زوجة الملك إخناتون ، ورأس هذه الملكة الجميلة المصنوع من حجر الخراسان وهو أجمل من التمثال النصفى السالف الذكر[٢٠٢] ، هذه الأمثلة المنتشرة فى بلاد العالم تصور للقارئ صورة من أعمال النحت الكثيرة الرائعة التى يفيض بها عصر

الإمبراطورية . ولم تفقد الفكاهة منزلتها بين هذه الروائع الفنية العظيمة ، فالمثالون المصريون يلهون بالتماثيل الهزلية المضحكة للإنسان والحيوان ، وحتى تماثيل الملوك فى عصر إخناتون محطم الأصنام قد جعلها الفنان المصرى تبتسم وتلعب(*) .



شكل (١٩) رمسيس الثانى يقرب قربانا
صورة تمثال فى متحف القاهرة

على أن جذوة النهضة الفنية لم تلبث أن خمدت بعد عهد رمسيس الثانى وظل الفن المصرى من بعده قروناً كثيرة يقنع بتكرار الأعمال والأشكال القديمة . وحاول الفن أن ينهض من كبوته فى عهد ملوك ساو ، وأن يعود إلى ما كان ينزع إليه كبار الفنانين فى عهد الدولة القديمة من إخلاص وبساطة فى التصوير . وقد عالج المثالون فى عهدهذه الدولة أقسى الحجارة كأحجار البازلت والسربنتين (الحية) والبريشيا والديوريت — ونحتوا منها تماثيل واقعية حية نذكر منها تمثال منتيوميحيت(٢٠٣) ورأسا أصلع من البازلت الأخضر لايعرف صاحبه يطل الآن على جدران متحف الدولة فى برلين . ومما صنعوه من البرنز صورة جميلة للسيدة تكوسشت(٢٠٤) ، وقد أولعوا أيضاً بتصوير ملامح الناس والحيوان وحركاتهم على حقيقتها ، فنحتوا تماثيل مضحكة لحيوانات غريبة ،

(*) وإن المرء ليذكر بهذه المناسبة ما قاله سياسى مصرى بعد زيارته معارض أوربا « لقد انتهبتم بلادى » .

ولعبيد وآلهة ، وصنعوا من البرنز رأسى قطة وعنزة هما الآن من منهوبات برلين(٢٠٥) . ثم انقض الفرس بعدئذ على البلاد انقضاض الذئاب الكاسرة على الحملان الوديعة المسالمة ، ففتحوا مصر وخربوا الهياكل وكبتوا روح البلاد وقضوا على فنونها .



شكل (٢٠) تمثال من البرنز لنلدوبشت فى متحف أثينة



شكل (٢١) تمثال منتيوميحيت الجالس فى متحف الدولة ببرلين

والعمارة والنحت(*) أهم الفنون المصرية ، ولكنا إذا أدخلنا الوفرة فى حسابنا كان علينا أن نضيف إليهما النقوش البارزة . فليس من شعوب العالم شعب جد فى حفر تاريخه وأساطيره كما جد فى ذلك قدماء المصريين . وإنا ليدهشنا لأول وهلة ما بين القصص المنقوشة على الحجارة الكريمة من تشابه ممل ، كما يدهشنا ازدحامها وكثرتها ، وما فيها من انعدام التماثل وعدم مراعاة قواعد المنظور ، أو المحاولات غير الموفقة التى بذلوها لمراعاتها بتمثيل الأشياء البعيدة فى المنظر فوق القريبة ؛ ونحن ندهش حين نرى طول قامة الملك وقصر قامة أعدائه . هذا فى النقش والتصوير ، وفى النحت يصعب علينا أن نألف رؤية عيون وصدور مرسومة كأنما ننظر إليها من الأمام على حين أن الأنوف والذقون والأقدام مرسومة كأنما ننظر إليها من أحد الجانبين — ولكننا فى مقابل هذا يَرُوعنا جمال الباشق والأفعى المنقوشين على قبر الملك ونيفيس(٢٠٦) ، ونقوش الملك زوسر الجيرية على هرم سقارة المدرج ، ونقوش الأمير هزيريه الخشبية التى استخرجت من قبره فى هذا الموضع نفسه(٢٠٧) . وصورة اللوبى الجريح المحفورة على قبر من قبور الأسرة الخامسة فى أبى صير(٢٠٨) . وهى دراسة دقيقة لعضلات الجسم المتوترة من شدة الألم . ولا يسعنا أخيراً إلا أن نتأمل فى أناة وهدوء النقوش الطويلة التى تقص علينا كيف اجتاح تحتمس الثالث ورمسيس الثانى فى حروبهما كل ما اعترض سبيلهما ، وندرك روعة النقوش التى حفرت لسيتى الأول فى العرابة وفى الكرنك ، ونتبين ما بلغته من كمال ، ونتتبع بعظيم الشوق واللذة النقوش المحفورة على جدران معبد الملكة حتشبسوت فى الدير البحرى ، والتى يقص علينا ناقشوها قصة البعثة التى أرسلتها هذه الملكة إلى أرض بنت المجهولة (ولعلها بلاد السومال) . وفى هذه النقوش نرى السفن الطويلة منشورة الشراع تدفعها إلى

(*) سنقصر كلمة النحت فى هذا الكتاب على النحت المدور كالتماثيل ، أما ما كان محفوراً على شىء آخر صوراً كان أو كتابة فسنطلق عليه اسم النقوش — البارزة أو القليلة البروز .

الجنوب مجاذيفها المصفوفة ، وتمخر المياه المملوءة بحيوان الأخطبوط والحيوانات القشرية وغيرها من دواب البحر ، ونرى الأسطول يصل إلى شواطئ بنت ويرحب به شعب البلاد ومليكها ، وهم ذاهلون ولكنهم مفتتنون . ونرى الملاحين يأتون إلى السفن بآلاف من ضروب المأكولات الشهية ؛ ونقرأ فكاهة العامل البنتي في قوله : — « إياك أن تزل قدماك أيها الواقف هنا ؛ كن على حذر ! » ثم نصحب السفائن الموقرة بأحمالها وهي عائدة نحو الشمال مملوءة (كما يقول النقش) بعجائب أرض بنت ، من ذهب ، وأخشاب مختلفة الأنواع ، وأدهان للعيون ، وقردة ، وكلاب ، وجلود نمورة . . . مما لم يُعد به أحد الملك من الملوك منذ بداية العالم . وتخترق السفن القناة العظيمة بين البحر الأحمر والنيل ، ونرى البعثة ترسو سفنها في أحواض طيبة ، وتفرغ ما فيها من بضائع مختلفة عند قدمي الملكة . ثم نبصر آخر الأمر ، كأنما قد مضى على وضوها بعض الوقت ، كل هذه السلع



شكل (٢٣) الراقصة

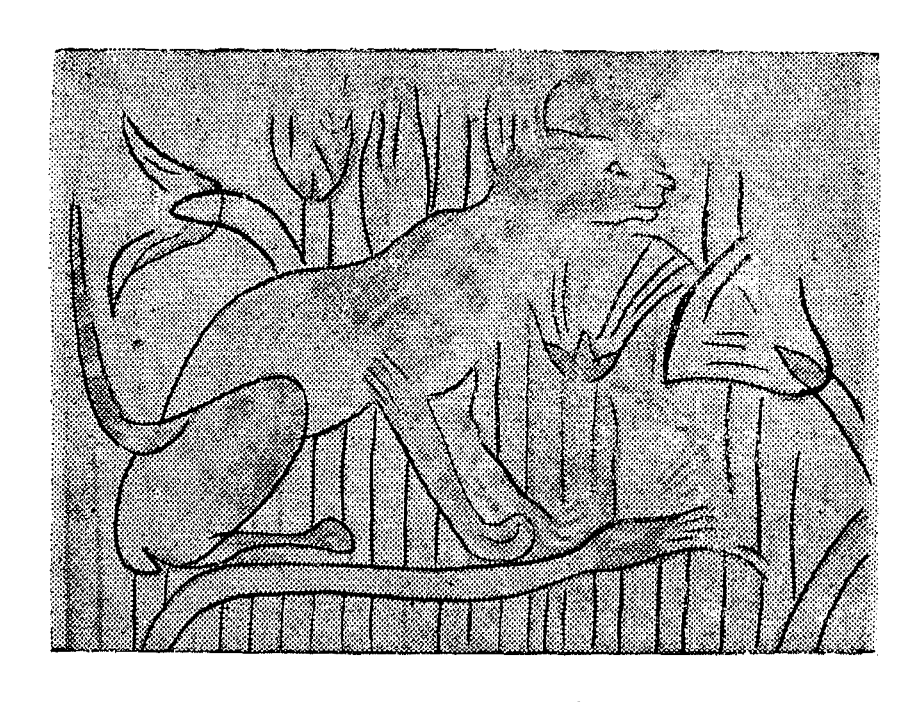
صورة في متحف تورين بإيطاليا

المستوردة تزين مصر . فى كل ناحية حلى من ذهب وأبنوس وصناديق عطور وأدهان وأسنان فيلة وجلود حيوان ؛ والأشجار التى جيء بها من بنت وكأنها قد أينعت فى أرض مصر كما كانت فى بلادها الأصلية حتى كانت النيران تتفيأ ظلال أغصانها . إن هذا النقش بلا ريب لمن أعظم النقوش فى تاريخ الفن(٢٠٩)(*) .

والنقش البارز هو همزة الوصل بين النحت والرسم بالألوان . على أن الرسم الملون لم يرق فى مصر إلى منزلة الفن المستقل إلا فى عهد البطالمة وبتأثير بلاد اليونان ، أما فيما عدا ذلك العهد فقد كان فناً ثانوياً تابعاً لفنون العمارة والنحت والنقش — وكان عمل الرسام هو ملء الخطوط الخارجية التى حفرتها عُدد غيره من الفنانين ؛ ولكنه كان رغم منزلته الثانوية واسع الانتشار يُراه الإنسان أينما حل ، فقد كانت معظم التماثيل تدهن ، والسطوح كلها تلون . وإذ كان هذا الفن سريع التأثر بالزمن ينقصه ثبات فى النحت والبناء ، فإنا لا نكاد نجد الآن من الرسوم الملونة التى أخرجها رجال الدولة القديمة إلا صورة رائعة لست إوزّات أخرجت من قبر فى ميدوم(٢١٠) ، ولكننا يحق لنا أن نستنتج من هذه الصورة وحدها أن هذا الفن أيضاً قد بلغ فى عصر الأسر الأولى مبلغاً يدنيه من الكمال . فإذا انتقلنا إلى عهد الدولة الوسطى وجدنا رسوماً بالألوان المائية(**) فى قبرى أميني وخنوحوتب ببنى حسن ، وهى تزين القبرين زينة جميلة تبعث فى الناظر إليها السرور والبهجة ، كما أن صورة « الظباء والزراع(٢١١) وصورة « القطة ترقب فريستها »(٢١٢) لتعدان من أروع الأمثلة لهذا الفن . وقد تنبه الفنان فى هاتين الصورتين أيضاً إلى العنصر الرئيسى فى التصوير ، وهو أن يجعل من

(*) ونرى نموذجاً منقولا عن هذا النقش فى الحجرة المصرية الثانية عشرة من حجرات متحف الفنون بمدينة نيويورك .

(**) وكانت الألوان التى ترسم بها هذه الصور تخلط بصفار البيض والغراء المخفف وبياض البيض .



شكل (٢٤) قطة ترقب فريستها
صورة ملونة على جدار قبر خنمحوتب فى بنى حسن

رسومه كائنات حية تتحرك وتعيش . فلما كان عصر الإمبراطورية غصت القبور بالرسوم الملونة ، وكان الفنان المصرى قد توصل إلى صنع كل لون من ألوان الطيف ، وتاقت نفسه إلى أن يظهر للناس حذقه فى استخدامها ، فأخذ يحاول تصوير الحياة النشيطة المنتعشة فى الحقول المشمسة على جدران المنازل والهياكل والقصور والمقابر وعلى سـقوفها كلها ، فصور عليها طيوراً تطير فى الهواء ، وسمكا يسبح فى الماء ، وحيواناً يعيش فى الآجام ، وصورها كلها فى بيئاتها التى تعيش فيها . ونقش الأرض لتبدو كأنها برك شفافة ، وحاول أن يجعل السقف تضارع فى بهائها ورونقها كواكب السماء ، وأحاط هذه الصور كلها بأشكال هندسية وأخرى مركّبة من أوراق الشجر تتفاوت من أبسـط الرسوم الهادئة إلى أعقدها وأكثرها فتنة(٢١٣) . « فضورة الفتاة الراقصـة »(٢١٤) وفيها أكبر قسط من قوة

الابتداع وروح الفن ، و « صيد الطيور فى قارب »[٢١٥] ، والصورة المرسومة بالمغرة والتى تمثل الفتاة الجميلة الهيفاء العارية بين الموسيقيين فى قبر نحت بطيبة[٢١٦] ؛ كل هذه نماذج متفرقة من سكان القبور المصورين ؛ ونلاحظ فى هذه الرسوم كما لاحظنا فى النقوش البارزة أن الخطوط جميلة ، ولكن التركيب ضعيف ، وأن المشتركين فى عمل واحد يمثلون متفرقين[٢١٧] واحداً بعد واحد وهم الذين يجب أن يمثلوا مختلطين . ونرى الرسام هنا يفضل أن يضع أجزاء الصورة بعضها على بعض بدل أن يراعى فى وضعها قواعد المنظور ؛ على أن الجمود الناشئ عن المحافظة على القواعد الشكلية وعلى التقاليد فى فن النحت المصرى كان هو السائد فى ذلك الوقت ، ولذلك لا يكشف لنا هذا الفن عن الفكاهة الباعثة على البهجة ، أو عن الواقعية ، وهما الصفتان اللتان يمتاز بهما فن النحت فيما بعد ذلك العصر ، ولكن الصور كلها تسرى فيها مع ذلك جدة فى التفكير ، ويسر فى رسم الخطوط وفى التنفيذ ، وإخلاص لحياة الكائنات الحية وحركاتها ، وغزارة فى اللون والزينة تبعث فى النفوس البهجة ، وتجعل الصور متعة للعين والروح . وملاك القول أن فن الرسم المصرى – رغم ما فيه من عيوب – لم يسبقه فن مثله فى أية حضارة شرقية إلا فى عصر الأسر الوسطى فى بلاد الصين ؛

أما الفنون الصغرى فكانت أعظم الفنون فى مصر : ذلك أن الحذق والجد اللذين شيدا الكرنك والأهرام ، واللذين ملأ الهياكل بتماثيل الحجارة ، قد انصرفا أيضاً إلى تجميل المنازل من داخلها ، وتزيين الأجسام ، وابتكار جميع متع الحياة ونعمها . فالنساجون قد صنعوا الطنافس والقماش المزركش الذى يزين الجدران ، والوسائد الغنية بألوانها والرقيقة فى نسجها رقة لا يكاد يصدقها العقل ، وانتقلت الرسوم التى ابتدعوها منهم إلى سوريا ولا تزال منتشرة فيها إلى هذه الأيام . ولقد كشفت مخلفات توت عنخ أمون عما كان عليه أثاث قدماء المصريين من ترف عجيب ، وعما بلغته كل قطعة وكل جزء من قطعه من صقل بديع ، سواء فى ذلك

كراسيه المكسوة بالفضة والذهب البراقين ، والسرر ذات الرسوم الفخمة والصناعة الدقيقة ، وصناديق الجواهر وعلب العطور الدقيقة الصنع الجميلة النقش ،



شكل (٢٥) كرسي توت عنخ أمون
في متحف القاهرة

والمزهريات التى لا تضارعها إلا مزهريات الصين . وكانت موائدهم تحمل آنية ثمينة من الفضة والذهب والبرنز وكئوساً من البللور ، وجفاناً براقة من حجر الديوريت صقلت ورقت حتى كاد الضوء ينفذ من خلال جدرانها الحجرية . وإن ما اشتملت عليه مخلفات توت عنخ آمون من آنية المرمر ، وما عثر عليه المنقبون فى خرائب بيت أمنحوتب الثالث فى طيبة من أقداح على هيئة الإزورد (اللوطس) ومن طاسات الشراب ، ليدل على ما بلغته صناعة الخزف من مستوى رفيع . وآخر ما نذكره من هذا جواهر الدولة الوسطى والدولة الحديثة ، وقد كان لهذين العهدين من الحلل الثمينة الكثيرة ما لا يكاد يفوقه شىء فى جمال الشكل ودقة الصنع . وتشمل المجاميع الباقية من تلك الأيام قلائد ، وتيجاناً ، وخواتم ، وأساور ، ومرايا ، وحليات للصدر ، وسلاسل ، ورصائع ، صيغت من الذهب والفضة والعقيق والفلسپار واللازورد والجمست ، وكل ما نعرفه من الحجارة الكريمة . وكان سراة المصريين كسراة اليابانيين يسرهم جمال ما يحيط بهم من التحف الصغيرة ، فكان كل مربع صغير من العاج فى علب حليهم ينقش ويزين أجمل زينة وأدقها . لقد كانوا يلبسون أبسط الملابس ، ولكنهم كانوا ينعمون بأحسن عيشة ، وكانوا إذا فرغوا من عملهم اليومى يمتعون أنفسهم بنغمات الموسيقى الهادئة الشجية على العود(*) والقيثارة والصلاصل والناى . وكان للهياكل والقصور فرق من العازفين والمغنين ، وكان من موظفى قصر الملك « مشرف على الغناء » يقوم بتنظيم العازفين والموسيقيين الذين يسلون الملك . وليس لدينا ما يدل على وجود علامات موسيقية فى مصر ، ولكن هذا قد يكون مجرد نقص فيما كشف من آثار المصريين . وكان استنفرو نفر ، وريمرى بتاح نابغتى الغناء فى أيامهما ، وإنا لنستمع من خلال القرون الطويلة صوتهما

(*) وكان العود يصنع من عدد قليل من الأوتار تمتد على لوحة ضيقة رنانة . أما الصلاصل فكانت طائفة من الأقراص الصغيرة تهتز على أسلاك .

وهما ينادیان بأنهما كانا « يجيبان كل رغبة من رغبات الملك بغنائهما الشجى »(٢١٨)



شكل (٢٦) رأس نفرتيتى
فى متحف الدولة ببرلين

ومن الأمور الشاذة غير المألوفة أن يبقى اسما هذين الفنانين ، وذلك لأن الفنانين الذين خلدوا بجهودهم ذكريات الأمراء والقساوسة والملوك أو ملاحمهم لم يكن لديهم من الوسائل ما ينقلون به ذكرهم إلى من يجيء بعدهم ، وإن كنا نسمع بإمحوتب مهندس عهد زوسر ، وهو رجل يكاد أن يكون اسمه أسطورة من الأساطير القديمة ، ونسمع عن إنيني الذي أعد رسوم المباني العظيمة أمثال معبد الدير البحري لتحتمس الأول ، وعن بويمر ، وحبوسنب ، وستموت الذين شادوا المباني العظيمة للملكة حتشبسوت(*) ؛ وعن الفنان تحتمس الذي كشف في بقايا مرسمه كثير من روائع الفن ، وعن بك المثال الفخور الذي يقول لنا إنه لولاه لعفى على اسم إخناتون الزمان[221] . وكان لأمنحوتب الثالث مهندس معماري يسمى أيضاً أمنحوتب بن حابو ، وكان الملك يضع تحت تصرف هذا المهندس الموهوب ثروة يخطئها الحصر ، وذاع اسم هذا الفنان الشهير حتى عبدته مصر فيما بعد واتخذته إلها من آلهتها . لكن الفنانين على الرغم من هذا كانوا يعملون وهم فقراء مغمورون . ولم تكن لهم عند القساوسة والكبراء الذين يستخدمونهم مكانة أسمى من مكانة الصناع أو أرباب الحرف العاديين .

ولقد تعاون الدين المصري مع الثروة المصرية على الإيحاء بالفن وإنمائه ، وتعاون مع غنى مصر وضياع إمبراطوريتها على إماتته . لقد كان الدين يقدم للفنانين الحوافز والأفكار ، ويوحي إليهم بروائع فنهم ، ولكنه فرض عليهم من العرف والقيود ما شده إلى الكنيسة بأقوى الروابط . فلما أن مات بين الفنانين الدين الخالص ، ماتت بموته الفنون التي كانت تعيش على هذا الدين . تلك هي المأساة التي لا تكاد تنجو من شرها أية مدنية — وهي أن روحها في عقيدتها ، وأن هذه الروح قلما تبقى بعد فناء فلسفتها .

(*) لقد كان ستموت يلقى من مليكه من ضروب التعظيم ما أنطقه بقوله : « لقد كنت أعظم العظماء في العالم كله » . وكانت هذه عقيدة شائعة ولكنها لم تكن دائماً ينطق بها .

١٠ — الفلسفة

« تعاليم بتاح حوتب » – « تحذيرات إيبور » –
« محاورات كاره المجتمع » – أسفار الحكمة المصرية

لقد اعتاد مؤرخو الفلسفة أن يبدأوا قصتهم باليونان ، وإن الهنود الذين يعتقدون أنهم مخترعو الفلسفة ، والصينيين الذين يعتقدون أنهم بلغوا بها حد الكمال ، إن هؤلاء وأولئك يسخرون من ضيق عقولنا وتعصبنا . ولعلنا كلنا مخطئون فى ظننا ، لأننا نجد بين أقدم القطع المتناثرة التى خلفها لنا المصريون الأقدمون كتابات تمت بصلة بعيدة إلى الفلسفة الأخلاقية . ولقد كانت حكمة المصريين مضرب المثل عند اليونان الذين كانوا يعتقدون أنهم أطفال بالقياس إلى هذا الشعب القديم(٢٢٢) . وأقدم ما لدينا من المؤلفات الفلسفية « تعاليم بتاح حوتب » ، وتاريخه يرجع فيما يبدو لنا إلى عام ٢٨٠٠ ق . م أى إلى ما قبل كنفوشيوش وسقراط وبوذا بألفى عام وثلثمائة(٢٢٣) . وكان بتاح حوتب هذا حاكماً على منف وكبير وزراء الملك فى أيام الأسرة الخامسة . فلما اعتزل منصبه قرر أن يترك لولده كتاباً يحتوى على الحكمة الخالدة : ثم نقل بعض العلماء المصريين قبل عهد الأسرة الثامنة عشرة هذا الكتاب باعتباره من أمهات كتب القدماء . ويقول الوزير فى كتابه :

« أى مولاى الأمير ، إن الحياة تقترب من آخرها ، ولقد حل بى الضعف وعدت إلى مرحلة الطفولة الثانية ، والمسن يلاقى البؤس فى كل يوم من أيامه . فعيناه صغيرتان ، وأذناه لا تستمعان ، ونشاطه يقل ، وقلبه لا يعرف الراحة . . . فمر خادمك إذن أن يخلع سلطانى الواسع على ولدى ، واسمح لى أن أحدثه بألفاظ الذين يستمعون إلى رجال الأيام الغابرة ، أولئك الذين استمعوا إلى الآلهة فى يوم من الأيام . أتوسل إليك أن تسمح بأن يُفعل هذا » .

ويتفضل جلالة الملك فيأذن له ولكنه مع ذلك ينصحه بأن « يتحدث دون

أن يبعث الملل » فى نفس سامعيه ، وهى نصيحة ليست إلى الآن عديمة النفع للفلاسفة . فلما أذن له أخذ بتاح حوتب ينصح ولده بقوله :

« لا تزه بنفسك لأنك عالم ، بل تحدث إلى الجاهل كما تتحدث إلى الحكيم ، لأن الحذق لا حد له ، كما أن الصانع لا يبلغ حد الكمال فى حذق صناعته ؛ والكلام الجميل أندر من الزمرد الذى تعثر عليه بين الحصا . . . فعش إذن فى بيت اللطف يقبل عليك الناس طائعين ويقدموا لك الهدايا . . واحذر أن تخلق لنفسك الأعداء بأقوالك . . . ولا تتخط الحق ولا تكرر ما قاله إنسان غيرك ، أميراً كان أو فلاحاً ، ليفتح به قلوب الناس له ، لأن ذلك بغيض إلى النفس . . .

« وإذا أردت أن تكون حكيما ، فليولد لك ولد لتسر بذلك الإله . . . فإذا سار فى سبيله مقتدياً بك ، وإذا نظم أمورك على أحسن وجه ، فقدم له كل الخير . . . أما إذا كان عديم المبالاة ، وخالف قواعد السلوك الطيب ، وكان عنيفاً ؛ وإذا كان كل ما يخرج من فيه هو فحش القول ، فاضربه ، حتى يكون حديثه صالحاً . . . وفضيلة الابن من أثمن الأشياء للأب ، وحسن الأخلاق شىء لا ينسى قط . . .

« وحيثما ذهبت فاحذر الاتصال بالنساء . . . وإذا شئت أن تكون حكيما فمون بيتك وأحب زوجك التى بين ذراعيك . . . واعلم أن السكوت أنفع لك من كثرة الكلام . وفكر فى أنك قد يعارضك خبير ممن يتحدثون فى المجلس ، ولذلك كان من السخف أن تتكلم فى كل نوع من أنواع العمل . . .

« وإذا كنت ذا سلطان فاسع لأن تنال الشرف عن طريق العلم ورقة الطباع . . . واحذر أن تقاطع الناس ، وأن تجيب عن الأقوال بحرارة ، أبعد ذلك عنك ، وسيطر على نفسك »

ويختم بتاح حوتب نصائحه بهذه العبارة المليئة بالفخر والإعجاب :

« لن يمحى من هذه البلاد إلى أبد الدهر لفظ من الألفاظ المدونة هنا ، ولكنها ستتخذ نماذج وسيتحدث عنها الأمراء أحسن الحديث . . . إن كلماتى ستعلم الرجل كيف يتحدث ، . . . أجل إنه سيصبح إنساناً حاذقاً فى الطاعة بارعاً فى الحديث ، وسيصيبه الحظ الحسن ؛ . . . وسيكون ظريفاً إلى آخر أيام حياته ، وسيكون راضياً على الدوام »(٢٢٤) .

ولكن هذه النغمة السارة المستبشرة لا تدوم فى التفكير المصرى ، بل تسرع إليها الشيخوخة فتداهمها وتحيلها إلى نكد وكآبة . ويأتى حكيم آخر هو إبوور فيندب ما فى البلاد من خلل واضطراب وعنف وقحط وانحلال يكتنف أخريات أيام الدولة القديمة ، ويتحدث عن المتشككين الذين « يقربون القرابين إذا عرفوا مكان الإله » ويعلق على ازدياد حوادث الانتحار ويقول كما قال شوبنهور من بعده : « ألا ليت الناس يقضى عليهم حتى لا يكون فى الأرض حمل ولا ولادة ، ألا ليت الأرض ينقطع منها الضجيج ويبطل منها النزاع » — وواضح من هذه الأقوال أن إبوور كان قد شاخ ومل الحياة ، وهو يحلم فى آخر أيامه بملك — فيلسوف ينجى الناس من الفوضى والظلم :

« يبرِّد لهيب (الحريق الاجتماعى ؟) ويقال إنه راعى الناس جميعاً قلبه خال من الشر ، فإذا كانت قطعانه قليلة العدد قضى يومه فى جمعها ، لأن قلوبها محمومة . ألا ليته قد تبين أخلاقهم منذ الجيل الأول ! إذن لقضى على الشر ، ولمد ذراعه لمقاومته ، ولسحق بذرته وما يخرج منها . . . أين هو اليوم ؟ هل هو نائم بالصدفة ؟ أنظروا إن قوته لا ترى(٢٢٥) » .

هذه هى أصوات الأنبياء فى العهد القديم ، وقد صيغت سطورها صياغة الأمثال والحكم ككتابات أنبياء اليهود ؛ ويقول برستد وقوله الحق « إن هذه التحذيرات هى أقدم ما ظهر فى العالم من المثل العليا الاجتماعية التى يطلق عليها

عند العبرانين اسم المسيحية(٢٢٦)(*) . وثمة ملف من أيام الدولة الوسطى يندد بما فى ذلك العهد من فساد بعبارات يكاد الإنسان يسمعها فى كل جيل :

لمن أتحدث اليوم ؟
الإخوة أشرار
وأصدقاء اليوم ليسوا أصدقاء حب .
لمن أتحدث اليوم ؟
القلوب قلوب لصوص
وكل رجل يغتصب ما عند جاره .
لمن أتحدث اليوم ؟
إن الرجل اللطيف يهلك
والصفيق الوجه يسير فى كل مكان
لمن أتحدث اليوم ؟
إذا ما أثار الإنسان الغضب بسوء مسلكه .
فإنه يدفع كل الناس إلى الضحك ، وإن كان إثمه خبيثاً . . .

ثم ينطلق هذا الشاعر المصرى الشبيه بالشاعر سونبرن الإنجليزى فى مدح الموت فيقول :

الموت أمامى اليوم
كشفاء الرجل المريض ،
كالخروج إلى حديقة بعد المرض .

* * *

الموت أمامى اليوم
كشذا المر ،

(*) العقيدة القائلة بأن رسولا سيرسل إلى الأرض ليطهرها مما فيها من فساد وظلم . (المترجم)

أو كالجلوس تحت الشراع فى يوم عاصف .

الموت أمامى اليوم
كرائحة أزهار الإزورد
كالجلوس على شواطئ السكر .
الموت أمامي اليوم
كتدفق السيل الجارف ،
كرجوع الرجل من سفينة حربية إلى بيته . . .
الموت أمامى اليوم
كاشتياق الرجل إلى رؤية موطنه
بعد أن قضى السنين فى الأسر[٢٢٧] .

وأشد من هذا كآبة قصيدة منقوشة على لوحة محفوظة فى متحف ليدن يرجع تاريخها إلى ٢٢٠٠ ق . م ، وهى تضرب على النغمة المألوفة نغمة تمتع بيومك :

لقد سمعت ألفاظ أمحوتب وهارديف
وهى ألفاظ ذائعة الصيت نطقا بها .
انظر إلى مكانيهما
إن جدرانهما قد جردت
ومواضعهما قد اندثرت .
كأن لم تغن بالأمس .

* * *

إن أحداً لا يأتى من هناك
ليحدثنا عما حل بهما . . .
حتى يرضى قلوبنا ،
إلى أن يحين وقت ارتحالنا

إلى المكان الذى ذهبا إليه
شجع قلبك على نسيانه
واجعل من أسباب سرورك أن تسير وراء رغباتك
ما دمت حياً ترزق .
وضع المر على رأسك ،
والبس على جسمك نسج التيل اللطيف ،
وانعم بوسائل الترف العجيبة
أشياء الآلهة . الحقة

* * *

وزد فى مباهجك أكثر من ذى قبل ،
ولا تترك قلبك يذبل ،
وسر وراء رغباتك وما فيه الخير لك ،
وهيئ أمورك على ظهر الأرض
حسب ما يأمر به قلبك أنت ،
حتى يأتيك يوم النحيب .
حين لا يسمع ذوو القلوب الساكنة (الموتى) نحيبهم ،
وحين لا يصغى من فى القبور إلى حزنهم ،
واحتفل بيوم السرور
ولا تمل منه
انظر ، ليس ثمة من يأخذ أمتعته معه .
أجل ، ولا يعود ممن ذهبوا إلى هناك(٢٢٨)

ولعل هذا التشاؤم وذاك التشكك كانا نتيجة لتحطيم روح أمة أخضعها الغزاة الهكسوس وأذلوها ، وشأنهما فى مصر كشأن الرواقية والأبيقورية عند

اليونان المهزومين المستعبدين(*) ، وهذه الكتابات تمثل فيما تمثل إحدى الفترات التي يغلب فيها التفكير زمناً ما على العقيدة ، والتي لا يعرف فيها الناس كيف يعيشون ولماذا يعيشون ، وهي فترات تتوسط عندنا اليوم عهدين تسود كليهما مبادئ خلقية غير التي تسود العهد الآخر . وتلك الفترات الوسطى لا تدوم ، لأن الأمل سرعان ما يتغلب على التفكير ، فتنحط القوة المفكرة إلى مكانها الوضيع المألوف ، ويرتفع منار الدين فيوحي إلى الناس بذلك الباعث الخيالي الذي لا غنى لهم عنه في حياتهم وأعمالهم . وليس لنا أن نظن أن هذه القصائد تعبر عن آراء طائفة كثيرة من المصريين ، بل ينبغي أن نعتقد أنه كان من وراء الأقلية الصغيرة النشيطة الحية التي كانت تفكر في مسائل الموت والحياة بعبارات دنيوية طبيعية ، نقول إنه كان من وراء هذه الأقلية ملايين من السذج ، رجالا كانوا أو نساء ، ظلوا أوفياء مخلصين لآلهتهم لا يشكون قط في أن الحق سوف يسود ، وأن ما يقاسونه على ظهر الأرض من آلام وأحزان سوف يعرضون عنه بسخاء يوم يستقرون في دار النعيم والسلام .

١١ — الدين

آلهة السماء — آلهة الشمس — آلهة الزرع — الآلهة الحيوانية — آلهة العلاقات الجنسية — الآلهة البشرية — أوزير — إيزيس وحورس — الآلهة الصغرى — الكهنة — عقيدة الخلود — « كتاب الموتى » — « الاعترافات السلبية » — السحر — الفساد .

لقد كان الدين في مصر من فوق كل شيء ومن أسفل منه . فنحن نراه فيها في كل مرحلة من مراحله وفي كل شكل من أشكاله . من الطواطم إلى علم اللاهوت . ونرى أثره في الأدب وفي نظام الحكم وفي الفن ، وفي كل شيء عدا الأخلاق . وليس هو مختلف الصور والأنواع فحسب ، بل هو أيضاً غزير موفور.

(*) ويقول أبورر إن الحرب الأهلية لا تأتي بإيراد(٢٢٩) .

ولسنا نجد فى بلد من البلاد – إذا استثنينا بلاد الرومان والهند – ما نجده من الآلهة الكثيرة فى مصر ، وليس فى وسعنا أن ندرس المصرى – بل ليس فى وسعنا أن ندرس الإنسان على الإطلاق – إلا إذا درسنا آلهته .

يقول المصرى إن بداية الخلق هى السماء ؛ وقد ظلت هى والنيل أكبر أربابه إلى آخر أيامه . ولم تكن الأجرام السماوية العجيبة ، فى اعتقاده ، مجرد أجرام ، بل كانت هى الصور الخارجية لأرواح عظيمة ، لآلهة ذوات إرادات – لم تكن متفقة على الدوام – توجه حركاتها المختلفة المعقدة[٢٣٦] ، وكانت السماء قبة تقف فى فضائها الواسع بقرة عظيمة هى الإلهة حتحور ، والأرض من تحت أقدامها ، وبطنها يكسوه جمال عشرة آلاف نجم ، وكانت للمصريين عقيدة أخرى (لأن الآلهة والأساطير كانت تختلف من إقليم إلى إقليم) تقول إن السماء هى الإله سيبو النائم فى لطف على الأرض ، وهى الإلهة نويت ، ومن تزاوج الربين المهولين ولدت كل الأشياء[٢٣٠] . ومن عقائدهم أن الأبراج والنجوم قد تكون آلهة ، من ذلك أن ساحو وسيديت (أى كوكبى الجبار والشعرى) كانا إلهين مهولين ، وأن ساحو كان يأكل الآلهة ثلاث مرات فى اليوم بانتظام . وكان يحدث فى بعض الأحيان أن إلهاً من هذه الآلهة المهولة يأكل القمر ، ولكن ذلك لن يدوم إلا قليلاً ، لأن دعاء الناس وغضب الآلهة الأخرى لا يلبثان أن يضطرا الخنزير النهم إلى أن يتقايأه مرة أخرى[٢٣١] . وعلى هذا النحو كان عامة المصريين يفسرون خسوف القمر .

وكان القمر إلهاً ولعله كان أقدم ما عبد من الآلهة فى مصر ، ولكن الشمس فى الدين الرسمى كانت أعظم الآلهة . وكانت تعبد فى بعض الأحيان على أنها الإله الأعلى رع أو رى الأب اللامع الذى لقح الأم الأرض بأشعة الحرارة والضوء النافذة . وكانت تصور أحياناً على أنها عجل مقدس يولد مرة فى فجر كل يوم ، ويمخر عباب السماء فى قارب سماوى ثم ينحدر إلى الغرب فى كل مساء كما

ينحدر الشيخ المسن مترنحاً إلى قبره ؛ أو أن الشمس كانت هى الإله حورس مصوراً فى صورة باشق رشيق يطير فى عظمة وجلال فى السماوات يوماً بعد يوم كأنه يشرف من عليائه على مملكته : ولقد أصبح فيما بعد رمزاً متواتراً من الرموز الدينية والملكية . وكان رع أو الشمس هو الخالق على الدوام . ولما أشرق أول مرة ورأى الأرض صحراء جرداء غمرها بأشعته فبعث فيها النشاط فخرجت من عيونه كل الكائنات الحية من نبات وحيوان وإنسان — مختلطة بعضها ببعض . ولما كان أول من خُلق من الرجال والنساء أبناء رع الأدنين فقد كانوا مكملين سعداء . ولكن أبناءهم انحدروا شيئاً فشيئاً إلى طريق الضلال ، فخسروا ما كانوا عليه من سعادة وكمال . وغضب رع من أجل ذلك على خلقه ، فأهلك عدداً كبيراً من الجنس البشرى . على أن العلماء المصريين كانوا يشكون فى هذه العقائد الشعبية ويؤكدون (كما كان يؤكد بعض العلماء السومريين) أن الخلائق الأولين كانوا كالبهائم لا يستطيعون النطق بألفاظ مفهومة ، ولا يعرفون شيئاً من فنون الحياة[٢٢٢] . وقصارى القول أن هذه الأساطير كانت فى جملتها أساطير دالة على الذكاء تعبر فى تقوى وصلاح عن اعتراف الإنسان بفضل الأرض والشمس .

وكانت هذه الروح الدينية غزيرة خصبة بلغ من خصبها أن المصريين لم يعبدوا مصدر الحياة فحسب بل عبدوا مع هذا المصدر كل صورة من صور الحياة . فكانت بعض النباتات مقدسة لديهم ، فالنخلة التى تظلل الناس فى قلب الصحراء ، وعين الماء التى تسقيهم فى الواحة ، والغيضة التى يلتقون عندها ويستريحون ، والجميزة التى تترعرع ترعرعاً عجيباً فى الرمال ، كانت هذه عندهم ، لأسباب قوية لا يستطيع أحد أن ينكرها عليهم ، أشياء مقدسة . ولقد ظل المصرى الساذج إلى آخر أيام حضارته يقرب إليها قرابين الخيار والعنب والتين[٢٢٣] . ولم يكن هذا كل شىء بل إن الخضر الوضيعة قد وجدت لها من يعبدها ، حتى لقد أخذ تين Taine يلهو بالتدليل على أن البصل

الذى أغضب بوسويه Bossuet وأحفظه كان من المعبودات على ضفاف النيل(٢٣٤) .

وكانت الآلهة من الحيوان أكثر ذيوعاً بين المصريين من آلهة النبات ؛ وكانت هذه الآلهة من الكثرة بحيث غصت بها هياكلها كأنها معرض حيوانات صاخبة . وعبد المصريون فى هذه المقاطعة أو تلك وفى هذا الوقت أو ذاك العجل والتمساح والصقر والبقرة والإوزّة والعنزة والكبش والقط والكلب والدجاجة والخطاف وابن آوى والأفعى ؛ وتركوا بعض هذه الدواب تجوس خلال الهياكل ولها من الحرية ما للبقرة المقدسة فى الهند حتى هذه الأيام(٢٣٥) . ولما تحولت الآلهة إلى آدميين ظلت محتفظة بصورتها الحيوانية المزدوجة وبرموزها ، فكان أمون يمثل بإوزّة أو بكبش ، ورع يرمز له بصرصور أو عجل ، وأوزير بعجل أو كبش ، وسبك بتمساح ، وحورس بصقر أو بازى ، وحتحور ببقرة ، وتحوت إله الحكمة برباح(٢٣٦) . وكانت النساء يقدمن أحياناً لهذه الآلهة ليكنّ زوجات لهن ، وكان العجل – وهو الذى يتقمصه أوزير – صاحب هذا الشرف العظيم بنوع خاص . ويقول أفلوطرخس إن أجمل النساء فى منديس كنّ يقدّمن لمضاجعة التيس المقدس(٢٣٧) . وقد بقيت هذه الشعائر الدينية من بداية الأمر إلى نهايته عنصراً أساسياً قومياً فى الديانة المصرية . أما الآلهة من بنى الإنسان فقد جاءت إلى مصر فى وقت متأخر كثيراً ، ولعلها جاءتها هدايا من غرب آسية(٢٣٨) .

وكان المصريون يقدسون المعز والعجل تقديساً خاصاً ويعدونهما رمز القدرة الجنسية الخالقة . ولم يكونا مجرد رمزين لأوزير بل كانا تجسيداً له(٢٣٩) . وكثيراً ما كان أوزير يرسم وأعضاؤه التناسلية كبيرة بارزة دلالة على قوّته العظمى ، وكان المصريون فى المواكب الدينية يحملون له نماذج بهذه الصورة ، أو أخرى ذات ثلاثة قضبان . وكان النساء فى بعض المناسبات يحملن مثل هذه الصور الذكرية ويحركنها تحريكاً آلياً بالخيوط(٢٤٠) . والعبادة الجنسية لا تظهر فقط فى الرسوم الكثيرة التى نراها فى نقوش الهياكل ذات قضبان منتصبة ، بل إنا فضلا عن هذا

نراها كثيراً فى الرموز المصرية على هيئة صليب ذى مقبض كان يتخذ رمزاً للاتصال الجنسى وللحياة القوية[٢٤١].

ثم صار الآلهة فى آخر الأمر بشراً — أو بعبارة أصح أصبح البشر آلهة. ولم يكن آلهة مصر من الآدميين إلا رجالا متفوقين أو نساء متفوقات خلقوا فى صور عظيمة باسلة، ولكنهم خلقوا من عظام وعضلات ولحم ودم؛ يجوعون ويأكلون، ويظمأون ويشربون؛ ويحبون ويتزوجون، ويكرهون ويقتلون، ويشيخون ويموتون[٢٤٢]، شأنهم فى هذا شأن آلهة اليونان سواء بسواء. من ذلك أن أوزير إله النيل المبارك كان يحتفل بموته ولقبه فى كل عام، وكان يرمز بموته وبعثه لانخفاض النيل وارتفاعه، ولعلهما كانا يرمزان أيضاً لموات الأرض وحياتها وكان فى مقدور كل مصرى فى عهد الأسرة المتأخرة أن يقص كيف غضب سِتْ (أوسيت) إله الجفاف الخبيث الذى أيبس الزرع بأنفاسه المحرقة، كيف غضب هذا الإله الخبيث من أوزير (النيل) لأنه يزيد (بفيضه) من خِصب الأرض؛ فقتله وحكم بجفافه الجبار فى مملكة أوزير. (ويقصدون بهذا أن النهر لم يرتفع ماؤه فى سنة من السنين)، وظل الأمر كذلك حتى قام حورس الباسل ابن إيزيس فغلب ست ونفاه من الأرض. وعاد أوزير بعدئذ إلى الحياة بفضل ما فى حب إيزيس من حرارة، وحكم مصر حكماً صالحاً، وحرم أكل لحم الآدميين ونشر لواء الحضارة، ثم صعد إلى السماء ليحكم فيها ويكون إلهاً[٢٤٣]. وكانت هذه أسطورة ذات معنى عميق، ذلك بأن التاريخ — كدين الشرق — ثنائى، فهو سجل للنزاع بين الخلق والدمار، وبين الخصب والجفاف، وبين الشباب المتجدد والفناء، بين الخير والشر، بين الحياة والموت.

ومن أعمق الأساطير أيضاً أسطورة إيزيس الأم العظمى. ولم تكن إيزيس أخت أوزير وزوجته الوفية فحسب، بل كانت من بعض الوجوه أجل منه قدراً، لأنها قهرت الموت بالحب شأنها فى ذلك شأن النساء بوجه عام. كذلك

لم يكن فضلها مقصوراً على أرض النهر السوداء التى أخصبها مس أوزير (النيل) فأغنت مصر كلها بإنتاجها — لم يكن فضلها مقصوراً على هذه الأرض ، بل كان لها فضل أعظم من هذا وأنفع ، لقد كانت رمز القوة الخالقة الخفية التى أوجدت الأرض وكل ما عليها من الكائنات الحية ، وأوجدت ذلك الحنو الأموى الذى يحيط بالحياة الجديدة حتى يتم نموها مهما كلفها من جهد وعناء . وكانت ترمز فى مصر — كما ترمز كالى ، وإستير ، وسيبيل فى آسية ، وكما تزال ديمتر فى بلاد اليونان ، وسيريز فى رومة — كما ترمز هذه كلها إلى ما للعنصر النسوى من أسبقية وأفضلية واستقلال فى الخلق ، وفى الميراث ، وإلى ما كان للمرأة أول الأمر من زعامة فى حرث الأرض ؛ ذلك أن إيزيس (كما تقول الأسطورة) هى التى عثرت على القمح والشعير حين كانا ينموان نمواً برياً فى أرض مصر ، وكشفت عنهما لأوزير[٢٤٤] . وكان المصريون يعبدونها عبادة قائمة على الحب والإخلاص ، فصوروا لها صوراً من الجواهر لأنها فى اعتقادهم أم الإله . وكان كهنتها الحليقون ينشدون لها الأناشيد ويسبحون بحمدها فى العشى والإبكار ، وكانت صورة قدسية لها تمثالها وهى ترضع فى ريبة طفلها الذى حملت فيه بمعجزة من المعجزات توضع فى معبد ابنها المقدس حورس (إله الشمس) فى منتصف فصل الشتاء من كل عام ، أى فى الوقت الذى يتفق ومولد الشمس السنوى فى أواخر شهر ديسمبر . ولقد كان لهذه الأساطير والرموز الشعرية الفلسفية أعمق الأثر فى الطقوس المسيحية وفى الدين المسيحى ، حتى أن المسيحيين الأولين كانوا أحياناً يصلون أمام تمثال إيزيس الذى يصورها وهى ترضع طفلها حورس ، وكانوا يرون فيهما صورة أخرى للأسطورة القديمة النبيلة أسطورة المرأة (أى العنصر النسوى) الخالقة لكل شىء والتى تصبح آخر الأمر أم الإله[٢٤٥] .

وكانت هذه الآلهة — رع (أوأمون كما كان يسميه أهل الجنوب) وأوزير ، وإيزيس وحورس — أعظم أرباب مصر . ولما تقادم العهد امتزج رع

وأمون وإله آخر هو فتاح فأصبحت ثلاث صور أو مظاهر لإله واحد أعلى يجمعها هي الثلاثة[٢٤٦] . وكان للمصريين عدد لا يحصى من صغار الآلهة منها أنوبيس بن آوى ، وشو ، وتفنوت ، ونفثيس ، وكث ، وثت ؛ . . . ولكننا لا نريد أن نجعل من هذه الصحف متحفاً للآلهة الأموات . إن الملك نفسه كان إلهاً في مصر وكان على الدوام ابن أمون – رع لا يحكم مصر بحقه الإلهي فحسب بل يحكمها أيضاً بحق مولده الإلهي ، فهو إله رضى أن تكون الأرض موطنا له إلى حين .

وكان يرسم على رأسه الصقر رمز حورس وشعار القبيلة ، وتعلو جبهته الأفعى رمز الحكمة والحياة وواهبة القوى السحرية للتاج[٢٤٧] ، وكان الملك هو الرئيس الديني الأعلى يرأس المواكب والحفلات العظيمة التي تمجد أعياد الآلهة . وبفضل هذه الدعاوى ، دعاوى قدسية المولد وقدسية السلطان ، استطاع الملوك أن يحكموا حكمهم الطويل غير مستندين فيه إلا إلى قوات ضئيلة .

ومن أجل هذا كان الكهنة في مصر دعامة العرش كما كانوا هم الشرطة السرية القوامة على النظام الاجتماعي . وتطلب هذا الدين الكثير التعقيد أن تقوم عليه طبقة بارعة في فنون السحر والطقوس الدينية لا يمكن الاستغناء عن قدرتها وبراعتها في الوصول إلى الآلهة . وكان منصب الكاهن ينتقل في الواقع إن لم يكن بحكم القانون ، من الأب إلى الابن ، ومن ثم نشأت طبقة أصبحت على مر الزمن ، بفضل تقوى الشعب وكرم الملوك السياسي ، أعظم ثراء وأقوى سلطاناً من أمراء الإقطاع ومن الأسرة المالكة نفسها . وكان الكهنة يحصلون على طعامهم وشرابهم من القرابين التي تقدم للآلهة ، كما كانت لهم موارد عظيمة من إيراد أطيان الهياكل ، ومن صلواتهم وخدماتهم الدينية . وإذ كانوا معفين من الضرائب التي تجبى من سائر الناس ومن السخرة والخدمة العسكرية فقد كان لهم

من المكانة والسلطان ما تحسدهم عليه سائر الطبقات . والحق أنهم كانوا جديرين بقسط وافر من السلطان لأنهم هم الذين جمعوا علوم مصر واحتفظوا بها ، وهم الذين علموا الشعب وفرضوا على أنفسهم نظاماً دقيقاً قوامه القوة والغيرة . وقد وصفهم هيرودوت وصفاً يكاد يشعرنا بأنه كان يهابهم ويرهبهم قال :

« وهم أكثر الناس اهتماماً بعبادة الآلهة ، ولا يتحللون قط من المراسم الآتية ؛ . . يلبسون ثياباً من نسيج الكتان نظيفة حديثة الغسل على الدوام . . ويختتنون حرصاً منهم على النظافة لأنهم يعتقدون أن النظافة أفضل من الجمال ، ويحلقون شعر أجسامهم بأجمعه مرة فى كل ثلاثة أيام ، حتى لا يجد القمل أو غيره من الأقذار مكاناً فى أجسامهم . . وهم يغتسلون بالماء البارد مرتين فى النهار ومرتين فى الليل[٣٤٨] » .

وكان أهم ما يميز هذا الدين توكيده فكرة الخلود . فالمصريون يعتقدون أنه إذا أمكن أن يحيا أوزير النيل ، ويحيا النبات كله ، بعد موتهما ، فإن فى مقدور الإنسان أيضاً أن يعود إلى الحياة بعد موته ، وكان بقاء أجسام الموتى سليمة بصورة تسترعى النظر فى أرض مصر الجافة مما ساعد على تثبيت هذه العقيدة التى ظلت مسيطرة على الديانة المصرية آلاف السنين ، والتى انتقلت منهم إلى الدين المسيحى[٣٤٩] . لقد كان المصريون يعتقدون أن الجسم تسكنه صورة أخرى مصغرة منه تسمى القرينة ــ الكا ــ كما تسكنه أيضاً روح تقيم فيه إقامة الطائر الذى يرفرف بين الأشجار . وهذه الثلاثة مجتمعة ــ الجسم والقرينة والروح ــ تبقى بعد ظاهرة الموت ، وكان فى استطاعتها أن تنجو منه وقتاً يطول أو يقصر بقدر ما يحتفظون بالجسم سليما من البلى ، ولكنهم إذا جاءوا إلى أوزير مبرئين من جميع الذنوب سمح لهم أن يعيشوا مخلدين فى « حقل الفيضان السعيد » أى فى الحقائق السماوية حيث توجد الوفرة والأمن على الدوام . وفى وسع الإنسان

أن يحكم على ما كان عليه من يعللون أنفسهم بهذه الآمال من فقر ونكد . إلا أن هذه الحقول الفردوسية لا يمكن الوصول إليها إلا باستخدام صاحب المِعْبر الذى كان للمصريين كما كان شارون ، ولم يكن هذا الشيخ الطاعن فى السن يقبل فى قاربه إلا الرجال والنساء الذين لم يرتكبوا فى حياتهم ذنباً ما ، وكان أوزير يحاسب الموتى ويزن قلب كل من يريد الركوب فى كفة ميزان تقابله فى الكفة الأخرى ريشة ليتأكد بذلك من صدق قوله . والذين لا ينجحون فى هذا الاختبار فى النهاية يحكم عليهم بأن يبقوا أبد الدهر فى قبورهم يجوعون ويظمئون ، ويطعمون من التماسيح البشعة ، ولا يخرجون منها أبداً ليروا الشمس .

وكان الكهنة يقولون إن ثمة طرقاً ماهرة لاجتياز هذه الاختبارات ، وكانوا على استعداد لتعريف الناس بهذه الطرق نظير ثمن يؤدونه لهم . ومن هذه الطرق أن يهيأ القبر بما يحتاجه الميت لغذائه من الطعام والشراب ، وبمن يستطيع الاستعانة بهم من الخدم . ومن تلك الطرق أيضاً أن يملأ القبر بالطلاسم التى تحبها الآلهة : من أسماك ، ونسور ، وأفاعى ، وبما هو خير من هذه كلها وهو الجعران — والجعارين ضرب من الخنافس كانت فى رأيهم رمزاً لبعث الروح لأنها تتوالد كما كان يبدو لهم بعملية التلقيح . فإذا ما بارك الكاهن هذه الأشياء حسب الطقوس الصحيحة أخافت كل معتد على الميت وقضت على كل شر . وكان خيراً من هذه وتلك أن يشترى كتاب الموتى(*) ، وهو قراطيس ملفوفة أودع فيها

(*) ذلك اسم حديث أطلقه لِبسيوس على نحو ألفى ملف من ورق البردى وجدت فى عدة قبور ، وتمتاز عن غيرها من الأوراق باحتوائها صيغاً لإرشاد الموتى . واسمها المصرى هو : الخروج (من الموت) بالنهار . ويرجع تاريخها إلى عهد الأهرام ، ولكن بعضها أقدم منها . ويعتقد المصريون الأقدمون أن هذه النصوص من تأليف تحوت إله الحكمة . وقد جاء فى الفصل الرابع والخمسين منها أن هذا الكتاب قد عثر عليه فى عين شمس وأنه كان « بخط الإله نفسه(٢٥٠) » ولقد عثر هوشع على ما يشبه هذا الكتاب بين اليهود (انظر الفصل الخامس من الباب الثانى عشر من هذا الكتاب) .

الكهنة أدعية وصلوات وصيغاً وتعاويذ من شأنها أن تهدئ من غضب أوزير ، بل أن تخدعه . فإذا ما وصلت روح الميت إلى أوزير بعد أن تجتاز العدد الكبير من الصعاب والأخطار ، خاطبت القاضى الأكبر بما يشبه هذه الأقوال :

أيا من يعجل سير جناح الزمان ،
يا من يسكن فى كل خفايا الحياة ،
يا من يحصى كل كلمة أنطق بها —
انظر إنك تستحى منى ، وأنا ولدك ؛
وقلبك مفعم بالحزن والخجل ،
لأنى ارتكبت فى العالم من الذنوب ما يفعم القلب حزناً ،
وقد تماديت فى شرورى واعتدائى .
ألا فسالمنى ، ألا فسالمنى ،
وحطم الحواجز القائمة بينك وبينى !
ومُر بأن تمحى كل ذنوبى وتسقط
منسية عن يمينك وشمالك !
أجل ، امح كل شرورى
وامح العار الذى يملأ قلبى
حتى تكون أنت وأنا من هذه اللحظة فى سلام(٢٥١) .

ومن الطرق الأخرى أن تعلن الروح براءتها من الذنوب الكبرى فى صورة « اعتراف سلبى » . وهذا الاعتراف من أقدم وأنبل ما عبر به الإنسان عن مبادئه الأخلاقية :

« سلام عليك ، أيها الإله الأعظم ، رَبّ الصدق والعدالة ! لقد وقفت أمامك ، يا رب ؛ وجىء بى لكى أشاهد ما لديك من جمال . . . أحمل إليك

الصدق . . . إنى لم أظلم الناس . . . لم أظلم الفقراء . . . لم أفرض على رجل حرّ عملا أكثر مما فرضه هو على نفسه . . . لم أهمل ، ولم أرتكب ما تبغضه الآلهة . . . ولم أكن سبباً فى أن يسيء السيد معاملة عبده ، ولم أمت إنساناً من الجوع ، ولم أبك أحداً ولم أقتل إنساناً . . . ولم أخن أحداً . . . ولم أنقص شيئاً من مؤونة الهيكل ، ولم أتلف خبز الآلهة . . . ولم أرتكب عملا شهوانياً داخل أسوار المعبد المقدسة . . . ولم أكفر بالآلهة . . . ولم أغش فى الميزان . . . ولم أنتزع اللبن من أفواه الرضع . . . ولم أصطد بالشباك طيور الآلهة . . . أنا طاهر ، أنا طاهر ، أنا طاهر[٢٥٢] .

على أن الدين المصرى لم يكن فيه ما يقوله عن الأخلاق إلا الشيء القليل ، ذلك أن الكهنة قد صرفوا كل همهم إلى بيع الرقى ، وغمغمة العزائم ، وأداء المراسم والطقوس السحرية ، فلم يجدوا متسعاً من الوقت لتعليم الناس المبادئ الخلقية . بل إن كتاب قصة الموتى نفسه ليعلم المؤمنين أن الرقى التى باركها الكهنة تتغلب على جميع ما عساه أن يعترض روح الميت من صعاب فى طريقها إلى دار السلام ، وأهم ما يؤكده هذا الكتاب هو تلاوة الأدعية لا الحياة الطيبة الصالحة وقد جاء فى أحد هذه اللفات : « إذا ما عرف الميت هذا خرج فى النهار » أى حيي الحياة الخالدة . ووضعت صيغ التمائم والرقى وبيعت لتخلص الناس من كثير من الذنوب ؛ وتضمن للشيطان نفسية دخول الجنة . وكان من واجب المصرى التقى أن يتلو فى كل خطوة من خطواته صيغاً عجيبة يتقى بها الشر ويستنزل بها الخير . استمع مثلا إلى ما تقوله أم والهة تريد أن تبعد « الشياطين » عن طفلها :

« اخرج يا من تأتى فى الظلام ، وتدخل خلسة . . . هل أتيت لتقبل هذا الطفل ؟ لن أسمح لك بتقبيله . . . هل أتيت لتأخذه ؟ لن أسمح لك بأخذه منى لقد حصنته منك بعشب — إفيت الذى يؤلمك ، وبالبصل الذى يؤذيك ، وبالشهد الذى هو حلو المذاق للأحياء ومر فى فم الأموات ، وبالأجزاء الخبيثة من سمك الإبدو ، وبالسلسلة الفقرية من سمك النهر[٢٥٣] .

وكانت الآلهة نفسها تستخدم السحر والرقى ليؤذى بعضها بعضاً . وأدب مصر القديم نفسه يفيض بذكر السحرة — السحرة الذين يجففون البحيرات بكلمة ينطقون بها ، أو يجعلون الأطراف المقطوعة تقفز إلى أماكنها ، أو يحيون الموتى(٢٥٤) . وكان للملك سحرة يعينونه ويرشدونه ، وكان الاعتقاد السائد أن له هو نفسه قوة سحرية ينزل بها المطر ، أو يرفع بها الماء فى النهر(٢٥٥) . وكانت الحياة مملوءة بالطلاسم والعزائم ، والرجم بالغيب ، وكان لا بد لكل باب من إله يخيف الأرواح الخبيثة ، أو يطرد ما عساه يقترب منه من أسباب الشؤم ، وكانوا يعتقدون اعتقاداً ثابتاً أن الأطفال الذين يولدون فى اليوم الثالث والعشرين من شهر توت سيموتون لا محالة وهم صغار ، وأن الذين يولدون فى اليوم العشرين من شهر شرياخ سيفقدون أبصارهم فى مستقبل أيامهم(٢٥٦) . ويقول هيرودوت إن كل يوم وكل شهر مخصص لإله من الآلهة ، وإن المصريين كانوا يعينون ما سوف يقع لكل شخص منهم فى حياته حسب اليوم الذى ولد فيه ، فيعرفون كيف يموت ، وماذا سيكون فى مستقبل أيامه(٢٥٧) . ونسى الناس على مر الزمن ما بين الدين والأخلاق من صلات فلم تكن الحياة الصالحة هى السبيل إلى السعادة الأبدية ، بل كانت السبيل إليها هى السحر والطقوس وإكرام الكهنة . وإلى القارئ ما يقوله فى هذا عالم كبير من علماء الآثار المصرية :

« ومن ثم تضاعفت الأخطار التى تكتنف الدار الآخرة ، وكان فى وسع الكاهن أن يمد الموتى فى كل موقف من المواقف الخطرة برقية قوية تنقذه منه لا محالة . وكان لديهم ، فضلا عن الرقى الكثيرة التى يستطيع بها الموتى أن يصلوا إلى الدار الآخرة ، رقى أخرى تمنع الميت أن يفقد فمه أو رأسه أو قلبه ، ورقى غيرها يستطيع بها أن يذكر اسمه ، وأن يتنفس ، ويأكل ويشرب ويتقى أكل فضلاته ، ومنها ما يمنع الماء الذى يشربه أن يستحيل لهباً ، ومنها ما يحيل الظلام نوراً ، ومنها ما يرد عنه الأفاعى وغيرها من الهولات المعادية ؛ وما إلى ذلك . . »

وهكذا فوجئنا بانقطاع أسباب التدرج فى نمو المبادئ الأخلاقية التى نستطيع تبينها فى الشرق القديم أو على الأقل بوقف هذا النمو إلى حين ويرجع هذا إلى الأساليب البغيضة التى لجأت إليها طائفة فاسدة من الكهنة حريصة كل الحرص على الكسب من أهون سبيل »(٢٥٨) .

تلك كانت حال الدين فى مصر حين ارتقى العرش إخناتون الشاعر المارق وأجج نار الثورة الدينية التى قضت على الإمبراطورية المصرية ،

الفصل الرابع

الملك المـــارق

أخلاق إخناتون – الدين الجديد – ترنيمة الشمس – التوحيد –
العقيدة الجديدة – الفن الجديد – الارتكاس – نفرتيتى
تفكك الإمبراطورية – موت إخناتون

فى عام ١٣٨٠ ق . م مات أمنحوتب الثالث الذى خلف تحتمس الثالث على عرش مصر ، بعد حياة حافلة بالعظمة والنعيم الدنيوى ، وخلفه ابنه أمنحوتب الرابع الذى شاءت الأقدار أن يعرف باسم إخناتون . ولدينا تمثال نصفى لهذا الملك واضح المعارف ، عثر عليه فى تل العمارنة ، ومنه نحكم بأنه كان شخصاً نحيل الجسم إلى أبعد حد لا يكاد يصدقه العقل ، ذا وجه نسائى فى رقته ، شاعرى أحاسيسه . وكانت له جفون كبيرة كجفون الحالمين الخياليين ، وجمجمة طويلة شوهاء ، وجسم نحيل ضعيف . وملاك القول أنه كان شاعراً شاءت الأقدار أن تجعل منه ملكاً .

ولم يكد يتولى الملك حتى ثار على دين أمون وعلى الأساليب التى يتبعها كهنته . فقد كان فى الهيكل العظيم بالكرنك طائفة كبيرة من النساء يتخذن سرارى لأمون فى الظاهر ، وليستمتع بهن الكهنة فى الحقيقة[٢٥٨] .

وكان الملك الشاب فى حياته الخاصة مثالا للطهر والأمانة ، فلم يرضه هذا العهر المقدس ، وكانت رائحة دم الكبش الذى يقدم قرباناً لأمون كريهة نتنة فى خياشيمه كما كان اتجار الكهنة فى السحر والرقى ، واستخدامهم نبوءات أمون للضغط على الأفكار باسم الدين ، ولنشر الفساد السياسى[٢٥٩] ، مما تعافه نفسه ، فثار على ذلك كله ثورة عنيفة ، وقال فى هذا : « إن أقوال الكهنة لأشد إثماً من

كل ما سمعت حتى السنة الرابعة (من حكمه) وهى أشد إثماً مما سمعه الملك أمنحوتب الثالث[٢٦٠] » ، وثارت روحه الفتية على الفساد الذى تدهور إليه دين شعبه ، وكره المال الحرام والمراسم المترفة التى كانت تملأ الهياكل ، وأحفظه ما كان لطائفة الكهنة المرتزقة من سيطرة على حياة الأمة . ثار الرجل على هذا كله ثورة الشعراء ، فلم يقبل تراضيا ولم يقنع بأنصاف الحلول ، وأعلن فى شجاعة أن هاتيك الآلهة وجميع ما فى الدين من احتفالات وطقوس كلها وثنية منحطة ، وأن ليس للعالم إلا إله واحد هو — أتون .

ورأى إخناتون — كما رأى أكبر فى الهند من بعده بثلاثين قرناً — أن الألوهية أكبر ما تكون فى الشمس مصدر الضوء وكل ما على الأرض من حياة .

ولسنا نعلم هل أخذ نظريته هذه عن بلاد الشام ، أو ابتدعها من عنده ، وهل كان أتون مجرد صورة أخرى لأدنيس . وأياً كان أصل هذا الإله فقد ملأ نفس الملك بهجة وسروراً ، فاستبدل باسمه الأول أمنحوتب المحتوى على أمون اسم إخناتون ومعناه « أتون راض » ، واستعان ببعض الترانيم القديمة ، وبعض قصائد فى التوحيد — نشرت فى أيام سلفه(*) — فألف أغانى حماسية فى مدح أتون ، أحسنها وأطولها جميعاً القصيدة الآتية . وهى أجمل ما بقى لدينا من الأدب المصرى القديم :

ما أجمل مطلعك فى أفق السماء !
أى أتون الحى ، مبدأ الحياة ،
فإذا ما أشرقت فى الأفق الشرقى
ملأت الأرض كلها بجمالك .

(*) فى أيام أمنحوتب الثالث نقش المهندسان سوتى وحور نشيداً توحيدياً للشمس على لوحة محفوظة الآن فى المتحف البريطانى[٢٦١] . وقد كانت العادة المتبعة فى مصر من زمن طويل أن يخاطب إله الشمس أمون — رع باسم أعظم الآلهة[٢٦٢] ، ولكنه لم يكن فى اعتقادهم إلا إله مصر وحدها .

إنك جميل ، عظيم براق ، عال فوق كل الرءوس ،
أشعتك تحيط بالأرض ، بل بكل ما صنعت ،
إنك أنت رِى ، وأنت تسوقها كلها أسرة ؛
وإنك لتربطها جميعاً برباط حبك .
ومهما بعدت فإن أشعتك تغمر الأرض ؛
ومهما علوت ، فإن آثار قدميك هى النهار ؛
وإذا ما غربت فى أفق السماء الغربى
خيم على الأرض ظلام كالموت ،
ونام الناس فى حجراتهم ،
وعصبت رءوسهم ،
وسدت خياشيمهم ،
ولم ير واحد منهم الآخر ،
وسُرق كل متاعهم ،
الذى تحت رءوسهم ،
ولم يعرفوا هم هذا ،
وخرج كل أسد من عرينه
ولدغت الأفاعى كلها . . .
وسكن العالم بأجمعه
لأن الذى صنعها يستريح فى أفق سمائه .
ما أبهى الأرض حين تشرق فى الأفق ،
حين تضىء يا أتون بالنهار
تدفع أمامك الظلام
وإذا ما أرسلت أشعتك

أضحت الأرضان فى أعياد يومية ...
واستيقظ كل من عليهما ووقفوا على أقدامهم
حين رفعتهم .
فإذا غسلوا أجسامهم ، لبسوا ملابسهم ،
ورفعوا أيديهم يمجدون طلوعك ،
وأخذوا فى جميع أنحاء العالم يؤدون أعمالهم ،
واستراحت الأنعام كلها فى مراعيها .
وازدهر الشجر والنبات ،
ورفرفت الطيور فى مناقعها ،
وأجنحتها مرفوعة تسبّح بحمدك .
ورقصت كل الأغنام وهى واقفة على أرجلها .
وطار كل ذى جناحين ،
كلها تحيا اذا ما أشرقت عليها ،
وأقلعت السفائن صاعدة ونازلة ،
وتفتحت كل الطرق لأنك قد طلعت ،
وإن السمك فى النهر ليقفز أمامك ،
وإن أشعتك لفى وسط البحر العظيم الأخضر ،
يا خالق الجرثومة فى المرأة ،
ويا صانع النطفة فى الرجل ،
ويا واهب الحياة للابن فى جسم أمه ،
ويامن يهدئه فلا يبكى ،
يا من يغذيه وهو فى الرحم ،
يا واهب الأنفاس ، يا من ينعش كل من يصنعه

وحين يخرج من الجسم . . . فى يوم مولده
تفتح أنت فاه لينطق ،
وتمده بحاجاته .

والفرخ حين يزقزق فى البيضة
تهبه النفس فيها لتحفظ له حياته
فإذا ما وصلت به
إلى النقطة التى عندها تُكسر البيضة .
خرج من البيضة ،
ليغرد بكل ما فيه من قوة
ويمشى على قدميه
ساعة يخرج منها .
ألا ما أكثر أعمالك
الخافية علينا !
أيها الإله الأوحد الذى ليس لغيره سلطان كسلطانه .
يا من خلقت الأرض كما يهوى قلبك
حين كنت وحيداً :
إن الناس والأنعام كبيرها وصغيرها ،
وكل ما على الأرض من دابة ،
وكل ما يمشى على قدمين
وكل ما هو فى العلا
ويطير بجناحيه ،
والبلاد الأجنبية من سوريا إلى كوش
وأرض مصر ؛
إنك تضع كل إنسان فى موضعه

وتمدهم بحاجاتهم ٥٥٥
أنت موجد النيل فى العالم السفلى ،
وأنت تأتى به كما تحب
لتحفظ حياة الناس . . .
ألا ما أعظم تدبيرك
يا رب الأبدية !
ن فى السماء نيلاً للغرباء
ولما يمشى على قدميه من أنعام كل البلاد ؛
إن أشعتك تغذى كل الحدائق ،
فإذا ما أشرقت سرت فيها الحياة ،
أنت الذى تنميها ،
أنت موجد الفصول
لكى تخلق كل أعمالك :
خلقت الشتاء لتأتى إليها بالبرد ،
وخلقت الحرارة لكى تتذوقك .
وأنشأت السماء البعيدة ، وأشرقت فيها
لتبصر كل ما صنعت ،
أنت وحدك تسطع فى صورة أتون الحى .
تطلع ، وتسطع ، وتبتعد ، وتعود ،
إنك تصنع آلاف الأشكال
منك أنت وحدك ؛
من مدائن ، وبلاد ، وقبائل ؛
وطرق كبرى وأنهار ؛

كل الأعين تراك أمامها ،
لأنك أنت أتون النهار فوق الأرض . . .

* * *

إنك فى قلبى
وما من أحد يعرفك
إلا ابنك إخناتون .
لقد جعلته حكيما
بتدبيرك وقوتك ،
إن العالم فى يدك
بالصورة التى خلقته عليها ،
فإذا أشرقت دبت فيه الحياة
وإذا غربت مات ؛
لأنك أنت نفسك طول الحياة
والناس يستمدون الحياة منك ،
ما دامت عيونهم تتطلع إلى سناك
حتى تغيب .
فتقف كل الأعمال
حين تتوارى فى المغرب ؟ . .

* * *

أنت أوجدت العالم ؛
وأقمت كل ما فيه لابنك . . .
إخناتون ، ذى العمر المديد ؛
ولزوجه الملكية الكبرى محبوبته ،

سيدة القطرين
نفر – تفرو – أتون ، نفرتيتى ،
الباقية المزدهرة أبد الآبدين[٢٦٣] ».

وليست هذه القصيدة من أولى قصائد التاريخ الكبرى فحسب ، بل هى فوق ذلك أول شرح بليغ لعقيدة التوحيد ، فقد قبلت قبل أن يجىء إشعيا بسبعمائة عام(*) كاملة . ولعل عقيدة التوحيد هذه كانت صدى لوحدة عالم البحر المتوسط تحت حكم مصر فى عهد تحتمس الثالث ، كما يقول برستد[٢٦٥] . ويرى إخناتون أن إلهه رب الأمم كلها ؛ بل إنه فى مديحه ليذكر قبل مصر غيرها من البلاد التى يوليها الإله عنايته . ألا ما أعظم الفرق بين هذا وبين العهد القديم عهد آلهة القبائل ! ثم انظر إلى ما فى القصيدة من مذهب حيوى : إن أتون لا يوجد فى الوقائع والانتصارات الحربية ، بل يوجد فى الأزهار والأشجار وفى جميع صور الحياة والنماء ، وأتون هو الفرحة التى تجعل الخراف الصغرى « ترقص فوق أرجلها » والطير « ترفرف فى مناقعها » .

وليس الإله إنساناً فى صورة البشر دون غيرها من الصور ، بل إن هذا الإله الحق هو خالق حرارة الشمس ومغذيها ، وليس ما فى الكرة المشرقة والآفلة من مجد ملتهب إلا رمزاً للقدرة الغائبة . على أن هذه الشمس نفسها تصبح فى نظر إخناتون « رب الحب » لما لها من قدرة شاملة مخصبة مباركة ، وهى فوق ذلك المرضع الحنون التى « تخلق فى المرأة الطفل – الرجل » والتى « تملأ قطرى مصر بالحب » . وهكذا يصبح أتون آخر الأمر رمزاً للأبوة الجزعة القلقة الرحيمة الرقيقة القلب ؛ ولم يكن كيهوه ، رب الجيوش ، بل كان رب الرحمة والسلام[٢٦٦] .

(*) ما بين هذه القصيدة وبين المزمور الرابع بعد المائة من تشابه يعقل عنه الناس لا يترك مجالا للشك فيما كان لمصر من أثر فى الشاعر العبرانى[٢٦٤] .

ومن مآسي التاريخ أن إخناتون ، بعد أن حقق حلمه العظيم حلم الوحدانية العامة التي سمت بالبشرية إلى الدرجات العلى ، لم يترك ما في دينه الجديد من صفات نبيلة يسرى في قلوب الناس ويستميلها إليه على مهل ، بل عجز عن أن يفكر في الحقائق التي جاء بها تفكيراً يتناسب مع الواقع . لقد خال أن كل دين وكل عبادة عدا عقيدته وعبادته فحش وضلال لا يطاق . فأصدر أمره على حين غفلة بأن تمحى من جميع النقوش العامة أسماء الآلهة كلها إلا اسم أتون ، وشوه اسم أبيه بأن محا كلمة أمون من مئات الآثار ، وحرم كل دين غير دينه ، وأمر أن تغلق جميع الهياكل القديمة . وغادر طيبة لأنها مدينة نجسة ، وأنشأ له عاصمة جديدة جميلة في أخناتون « مدينة أفق أتون » .

وما لبثت طيبة أن تدهورت بعد أن أخرجت منها دور الحكومة — وخسرت رواتب الموظفين ، وأضحت أخناتون حاضرة غنية أقيمت فيها المباني الجديدة — ونهض الفن بعد أن تحرر من أغلال الكهنة والتقاليد . ولقد دشف سيرو وليم فلندرز بترى في تل العمارنة — وهي قرية حديثة أنشئت في موقع أخناتون القديمة — طواراً جميلا تزينه صور الطيور ، والسمك وغيرهما من الحيوانات ، رسمت كلها أدق رسم وأجمله[٢٦٧]. ولم يفرض إخناتون على الفن قيوداً بل كان ما فعله من هذا القبيل أن حرم على الفنانين أن يرسموا صوراً لأتون ، لأن الإله الحق في اعتقاده لا صورة له ، وما أسمى هذه من عقيدة[٢٦٨] . ثم ترك الفن بعدئذ حراً طليقاً ، عدا شيئاً واحداً آخر ، وهو أنه طلب إلى فنانيه : بك ، وأوتا ، ونتموز ، أن يمثلوا الأشياء كما يرونها ، وأن يغفلوا العرف الذي جرى عليه الكهنة . وصدع هؤلاء بأمره ، وصوروه هو نفسه في صورة شاب ذي وجه ظريف رقيق رقة تكاد تبلغ حد الوجل ، ورأس مستطيل مسرف في الطول ، واسترشدوا في تصويرهم بعقيدته الحيوية في إلهه ، فصوروا كل الكائنات الحية نباتية كانت أو حيوانية في تفصيل ينم عن حب وعطف عظيمين ؛ ودقة لا تسمو عليها دقة

فى أى مكان أو زمان[٢٦٩] . وكان من أثر هذا أن ازدهر الفن أعظم ازدهار لأن الفن فى جميع العصور يحس بآلام المسغبة والقتام

ولو أن إخناتون كان ذا عقل ناضج لأدرك أن ما يريده من خروج على تعدد الآلهة القديم المتأصل فى عادات الناس وحاجاتهم ، إلى وحدانية فطرية تخضع الخيال للعقل ، لأدرك أن هذا تغيير أكثر من أن يتم فى زمن قصير ، وإذن لسار فى عمله على مهل وخفف من حدة الانتقال بأن جعله على مراحل تدريجية . ولكنه كان شاعراً لا فيلسوفاً ، فاستمسك بالحقيقة المطلقة فتصدع بذلك جميع بناء مصر وانهار على أم رأسه .

ذلك أنه ضرب ضربة واحدة جرد بها طائفة غنية قوية من ثرائها فأغضبها عليه ، وحرم عبادة الآلهة التى جعلتها العقيدة والتقاليد عزيزة على الناس . ولما أن محا لفظ أمون من اسم أبيه خيل إلى الناس أن هذا العمل زيغ وضلال ، إذ لم يكن شىء أعز عليهم من تعظيم الموتى من أسلافهم . وما من شك فى أن إخناتون قد استخف بقوة الكهنة وعنادهم وتغالى فى قدرة الشعب على فهم الدين الفطرى . وقام الكهنة من وراء الستار يأتمرون ويتأهبون ، وظل الناس فى دورهم وعزلتهم يعبدون آلهتهم القديمة المتعددة . وزاد الطين بلة أن مئات الحرف التى لم تكن لها حياة إلا على حساب الهياكل أخذت تزمجر فى السر غضباً على الملك الزنديق ، بل إن وزراءه وقواده بين جدران قصوره كانوا يحقدون عليه ويتمنون موته . ألم يكن هو الرجل الذى ترك الدولة تنهار وتنقطع أوصالها بين يديه ؟ .

وكان الشاعر الفتى فى هذه الأثناء يعيش عيشة البساطة والاطمئنان . وكانت له سبع بنات ، ولكنه لم يكن له ولد ذكر . ومع أن القانون كان يجيز له أن

يطلب له وارثا ذكراً من زوجة ثانية ، فإنه لم يقدم على هذا الحل ، وآثر أن يظل وفياً لنفرتيتى . ولقد وصلت إلينا تحفة صغيرة من عهده تظهره يحتضن الملكة ؛ كما أجاز لمصوريه أن يرسموه فى عربة يسير بها فى الشوارع يلهو ويطرب مع زوجته وبناته . وكانت الملكة تجلس إلى جانبه فى الاحتفالات وتمسك بيده . كما كانت بناته يلعبن إلى جانب عرشه . وكان يصف زوجته بأنها « سيدة سعادته » ويقول « إن الملك يبتهج قلبه حين يسمع صوتها » ؛ وكان فى قسمه يقسم بهذه الصيغة : « بقدر ما تسعد وقلبى الملكة أطفالها[٢٧٠] . لقد كان حكم هذا الملك فترة من الحنو والعطف وسط ملحمة القوة والسلطان فى تاريخ مصر .

وجاءت الرسائل المروعة من الشام(*) تنغص على الملك هذه السعادة الساذجة البريئة ، فقد غزا الحثيون وغيرهم من القبائل المجاورة لهم البلاد التابعة لمصر فى الشرق الأدنى . وأخذ الحكام المعينون من قبل مصر يلحون فى طلب النجدة العاجلة . وتردد إخناتون فى الأمر ؛ ذلك أنه لم يكن على ثقة من أن حق الفتح يبرر إخضاع هذه الولايات لحكم مصر ؛ وكان يكره أن يرسل المصريين ليهلكوا فى ميادين القتال البعيدة دفاعاً عن قضية لا يثق بعدالتها . ولما رأت الولايات أنهـا لا تطلب النجدة من ملك حاكم بل تطلبها من ولى صالح ، خلعت حكامها المصريين ، وامتنعت فى غير جلبة عن أداء شىء من الخراج ، وأصبحت حرة مستقلة فى جميع شؤونها . ولم يمض من الزمن إلا أقصره حتى خسرت مصر إمبراطوريتها الواسعة ، وانكمشت حتى عادت دولة صغيرة ضيقة الرقعة . وسرعان ما أقفرت الخزانة المصرية التى ظلت قرناً كاملا تعتمد أكثر ما تعتمد على ما يأتيها من

(*) فى عام ١٨٩٣ عثر سير فلندرز بترى فى تل العمارنة على أكثر من ثلثمائة وخمسين لوحة هى رسائل مكتوبة بالخط المسمارى معظمها طلبات ملحة للنجدة موجهة إلى إخناتون من بلاد الشرق .

الجزية الخارجية ، ونقصت الضرائب المحلية إلى أقصى حد ، ووقف العمل فى مناجم الذهب ، وعمت الفوضى جميع فروع الإدارة الداخلية . وألفى إخناتون نفسه معدماً فقيراً لا صديق له ولا معين فى عالم كان يخيل إليه من قبل أنه كله ملك له . واندلع لهيب الثورة فى جميع الولايات التى كانت تابعة لمصر وقامت جميع القوى الداخلية فى وجهه تناوئه وتترقب سقوطه .

ولم يكد يتم الثلاثين من عمره حتى توفى فى عام ١٣٦٢ ق . م محطم القلب بعد أن أدرك عجزه من أن يكون ملكاً ، وأيقن أن شعبه غير جدير به .

الفصل الخامس

اضمحلال مصر وسقوطها

توت عنخ أمون – جهود رمسيس الثانى – ثروة الكهنة –
فقر الشعب – فتح مصر – خلاصة فى فضل مصر على الحضارة

وبعد عامين من وفاته جلس على العرش توت عنخ أمون زوج ابنته وحبيب الكهنة. وما لبث أن بدل اسمه توت عنخ أتون الذى سماه به حموه. وأعاد عاصمة المُلك إلى طيبة، وتصالح مع السلطات الكهنوتية، وأعلن إلى الشعب المبتهج عودته إلى عبادة الآلهة القديمة. وأزيلت من جميع الآثار القديمة كلمتا أتون وإخناتون، وحرَّم الكهنة على الشعب أن ينطقوا باسم الملك المارق. وكان الناس إذا تحدثوا عنه سمَّوه «المجرم الأكبر». ونقشت على الآثار الأسماء التى محاها إخناتون، وأعيدت أيام الأعياد التى ألغاها. وهكذا عاد كل شىء إلى ما كان عليه قبل.

وفيما عدا هذا حكم توت عنخ أمون حكماً لا ميزة له ولا فضل، ولولا ما كشف فى قبره من كنوز لا عهد للناس بها من قبل لما سمع العالم به. وجاء من بعده قائد باسل يدعى حار محب سير جيوشه على طول الشاطئ وأعاد إلى مصر أملاكها الخارجية وسلمها الداخلية. وجنى سيتى الأول بحكمته ثمار عودة النظام والثروة، وشيد بهو الأعمدة فى الكرنك[272]. وشرع فى نحت هيكل عظيم فى صخور أبى سنبل، وخلد عظمته فى الأعقاب بالنقوش الفخمة، وكان له الحظ الأكبر فى أن رقد آلاف السنين فى قبر من أحسن قبور مصر زخرفاً وتنميقاً.

ثم ارتقى العرش رمسيس الثانى صاحب الشخصية الروائية العجيبة وآخر العظام. وقلما عرف التاريخ ملكاً أبهى منه منظراً، فقد كان وسيما

شجاعاً ، أضاف إلى محاسنه إحساسه فى شبابه بهذه المحاسن ، ولم تكن جهوده الموفقة فى الحرب ليضارعها غير مغامراته فى الحب . وبعد أن نحى رمسيس عن العرش أخاً له ذا مطالب جاءت فى غير وقتها المناسب ، سير حملة إلى بلاد النوبة ليفتح ما فيها من مناجم الذهب ، ويملأ به خزانة مصر ، واستخدم ما جاء به هذه الحملة من أموال لإخضاع الولايات الأسيوية التى خرجت على مصر . وقضى ثلاث سنين فى إخضاع فلسطين ثم واصل زحفه والتقى عند قادش (١٢٨٨ ق م) بجيش عظيم جمعه الأحلاف الأسيويون . وبدل بشجاعته وبراعة قيادته ، هزيمة محدقة به نصراً مؤزراً . ولربما كان من نتائج هذه الحملات أن جيء إلى مصر بعدد كبير من اليهود عبيداً أو مهاجرين ؛ ويعتقد بعضهم أن رمسيس الثانى هو بعينه فرعون موسى الذى ورد ذكره فى سفر الخروج[٢٧٣] . وأمر أن تخلد انتصاراته بغير قليل من المبالغة والتحيز على خمسين جداراً أو نحوها ، وكلف أحد الشعراء بأن يشيد بذكره فى ملحمة شعرية ، وكافأ نفسه على أعماله ببضع مئات من الزوجات ، وخلف بعد وفاته مائة وخمسين ابناً ليبرهن على رجولته بعدد هؤلاء الأبناء وبنسبة الذكور منهم إلى الإناث . وتزوج عدداً من بناته حتى يكون لهن أيضاً أبناء عظماء ، وكان أبناؤه ومن تناسل منهم من الكثرة بحيث تألفت منهم طبقة خاصة فى مصر بقيت على هذه الحال أربعة قرون ، وظل حكام مصر يختارون من هذه الطبقة أكثر من مائة عام .

والحق أنه كان جديراً بهذا كله ، فقد حكم مصر كما يلوح حكماً موفقاً . ولقد أسرف فى البناء إسرافاً كان من نتائجه أن نصف ما بقى من العمائر المصرية يعزى إلى أيام حكمه . وأتم بناء البهو الرئيسى فى الكرنك ، وأضاف أبنية جديدة إلى معبد الأقصر ، وشاد ضريحه الكبير المعروف بالرمسيوم فى غرب النهر ، وأتم الهيكل العظيم المنقور فى الجبل عند أبى سنبل ، ونثر تماثيل له ضخمة فى طول البلاد وعرضها . وراجت التجارة فى عهده عن طريق

برزخ السويس والبحر المتوسط ، واحتفر ترعة أخرى توصل النيل بالبحر الأحمر ، ولكن الرمال السافية طمرتها بعد وفاته بزمن قليل . وأسلم رمسيس الروح فى عام ١٢٢٥ ق . م وهو فى التسعين من عمره ، بعد عهد يعد من أشهر العهود فى التاريخ .

ولم يكن فى البلاد كلها سلطة بشرية تعلو فوق سلطته إلا سلطة الكهنة . ثم قام النزاع فى مصر ، كما قام فى غيرها من البلاد خلال جميع العهود ، بين الدولة والدين . فقد كانت أسلاب كل حرب والجزء الأكبر من خراج البلاد المفتوحة تتدفق فى أثناء حكمه وحكم خلفائه الذين تولوا الملك بعده مباشرة فى خزائن الهياكل والكهنة . وبلغت هذه الثروة غايتها فى عهد رمسيس الثالث . فكان للمعابد من العبيد ١٠٧٫٠٠٠ وهم جزء من ثلاثين جزءاً من سكان مصر . وكان لها من أرض مصر ٧٥٠٫٠٠٠ فدان أى سبع أرض مصر الصالحة للزراعة ، وكانت تمتلك ٥٠٠٫٠٠٠ رأس من الماشية ، وتستحوذ على إيراد ١٦٩ مدينة من مدن مصر والشام . وكانت هذه الثروة الضخمة كلها معفاة من الضرائب(٢٧٤) . وأغدق رمسيس الثالث الكريم ، وإن شئت فقل الوهاب ، من الهدايا على كهنة أمون ما لم يسبق له فى كثرته مثيل . وكان من هذه الهدايا ٣٢٫٠٠٠ كيلوجرام من الذهب ، ومليون كيلو جرام من الفضة(٢٧٥) . وكان يهبهم كل سنة ١٨٥٫٠٠٠ كيس من الحبوب . ولما حان الوقت لأداء أجور العمال الذين تستخدمهم الدولة فى مرافقها وجد الخزانة مقفرة(٢٧٦) . وجاع الشعب واشتد جوعه يوماً بعد يوم لكى يتخم الآلهة .

وكان شأن هذه السياسة أن يصبح الملوك خدام الآلهة عاجلا كان ذلك أو آجلا . فلما أن جلس على العرش آخر الملوك الذين تسموا باسم رمسيس اغتصب المُلْكَ الكاهن الأكبر للإله أمون ، وحكم حكماً كان له فيه السلطان الأعلى . وأمست الإمبراطورية المصرية حكومة دينية راكدة ازدهر فيها البناء

والتخريف ، واضمحل فيها كل ما عدا الدين من مقومات الحياة القومية . ووضعت الرقى لتصبغ كل قرار يصدره الكهنة بالصبغة المقدسة الإلهية . وامتص الآلهة كل ما فى مصر من مصادر الحياة حتى نضب معينها فى الوقت الذى كان فيه الغزاة الأجانب يعدّون العدة للانقضاض على كل هذه الثروة المتجمعة .

وثار نقع الفتنة فى جميع أطراف البلاد . وكان من أهم موارد مصر موقعها الهام على الطريق الرئيسى لتجارة البحر المتوسط ، كانت معادنها وثروتها قد جعلت لها السيادة على بلاد لوبيا فى الغرب وعلى بلاد فينيقية وسوريا وفلسطين فى الشمال والشرق . لكن أمماً جديدة فى بلاد أشور وبابل وفارس كانت آنئذ تتمرد وتشتد ويقوى سلطانها فى الطرف الآخر من طرفى هذا الطريق التجارى ، وكانت تدعم قوتها بالمخترعات والمغامرات وتجرؤ على منافسة المصريين الأتقياء الراضين عن أنفسهم فى ميادين التجارة والصناعة . وكان الفينيقيون وقتئذ يتمون صنع السفائن ذات الثلاثة الصفوف من المجاذيف لكى يصلوا بها إلى ما يبغون من كمال ، وأخذوا بفضل هذه السفائن ينتزعون من مصر السيطرة على البحر شيئاً فشيئاً . وكان الدوريون والآخيون قد استولوا على كريت وجزائر بحر إيجه (حوالى ١٤٠٠ ق . م) وكانوا ينشئون لهم إمبراطورية تجارية . وأخذت التجارة يقل سيرها شيئاً فشيئاً فى قوافل بطيئة فى طرق الشرق الأدنى الجبلية والصحراوية المعرضة لهجمات اللصوص ، وبدأت تنقل بوسيلة أقل من هذه كلفة على ظهر سفن تخترق البحر الأسود وبحر إيجه إلى طروادة وكريت وبلاد اليونان ، وأخيراً إلى قرطاجنة وإيطاليا وأسبانيا . وعلا نجم الأمم الواقعة على شواطئ البحر المتوسط الشمالية وازدهرت ، أما الأمم المقيمة على شواطئه الجنوبية فضعفت واضمحلت . وفقدت مصر تجارتها وذهبها وسلطانها وفنونها ، ثم فقدت آخر الأمر كبرياءها نفسه ، وزحفت على أرضها الأمم المنافسة لها واحدة بعد واحدة وعدت عليها واجتاحت أرضها وخربتها .

فانقض عليها اللوبيون من الغرب فى عام ٩٤٥ ق . م وعاثوا فيها فساداً يخربون ويدمرون ، وفى عام ٧٢٢ ق . م غزاها الأحباش من الجنوب وثاروا لعبوديتهم القديمة ؛ وفى عام ٦٧٤ اجتاحها الأشوريون من الشمال وأخضعوا لسلطانهم مصر التى كان يستبد بها الكهنة ، وألزموها بأداء الجزية لهم واستطاع أبسماتيك أمير شاو أن يرد الغزاة وقتاً ما ويضم أجزاء مصر كلها تحت زعامته . وحدثت فى أثناء حكمه وحكم خلفائه نهضة فى الفن ، وشرع مهندسو مصر ومثالوها وشعراؤها يجمعون ما كان لمدارسهم من تقاليد فى الفن والذوق ، ويعدونها ليلقوها فيما بعد تحت أقدام اليونان . لكن الفرس بقيادة قمبيز عبروا برزخ السويس فى عام ٥٢٥ ق . وقضوا مرة أخرى على استقلال مصر ، وفى عام ٣٣٢ ق . م اجتاحها الإسكندر من آسية وأخضعها لحكم مقدنية(*) . وأقبل قيصر فى عام ٤٨ ق م ليستولى على الإسكندرية عاصمة مصر الجديدة ، وليستولد كليوباترة ابناً ووارثاً كانا يأملان أملا لم يتحقق أن يتوجاه ملكاً تخضع لسلطانه أكبر الإمبراطوريات القديمة . وفى عام ٣٠ ق . م أمست ولاية تابعة لرومة واختفت من التاريخ القديم .

ونهضت البلاد مرة أخرى نهضة قصيرة الأجل حين عمر القديسون الصحراء وجرسيرل هيپاشيا لتلقى حتفها فى الشوارع (٤١٥ ب. م) ، وحين فتحها المسلمون (حوالى ٦٥٠ ب . م) وبنوا القاهرة من أنقاض منفيس وملأوها بالقلاع والقباب الزاهية الألوان . ولكن هذه الثقافة وتلك كانتا فى واقع الأمر ثقافتين أجنبيتين غير مصريتين ولم تلبثا أن زالتا .

. . . .

(*) وتاريخ الحضارة المصرية القديمة فى عهد البطالمة والقياصرة من الموضوعات التى سترد فى مجلد تال .

واليوم يوجد مكان يسمى مصر ، ولكن المصريين ليسوا سادته(*) ؛ فلقد حطمتهم الفتوح من زمن بعيد ، واندمجوا عن طريق اللغة والزواج في الفاتحين العرب ، وأضحت مدنهم لا تعرف إلا المسلمين والإنجليز ، وأقدام السياح المتعبين ، الذين يأتون من أقاصي الأرض ليروا أهرامها فلا يجدوها إلا أكواماً من الحجارة . ولربما رجعت إلى مصر عظمتها إذا ما أثرت آسية مرة أخرى فأصبحت مصر مركز التجارة العالمية ومستودعها . ولكن أحداً لا يستطيع أن يتنبأ بما سيكون وهو واثق مما يتنبأ به ، وكل ما نعلمه علم اليقين أن آثار مصر القديمة قد خربت وتهدمت ؛ فالسائح أينما سار يجد خربات ضخمة ، وآثاراً وقبوراً تذكره بجهود عظيمة جبارة ، ومن حولها قفر ودمار ، ونضوب للدم القديم . ويحيط بهذا كله رمال سافية لا تنفك الرياح الحارة تحملها من كل جانب ، كأنها قد اعتزمت أن تغطي بها آخر الأمر كل شيء(**).

لكن هذه الرمال لم تخرب من مصر القديمة إلا الجسد ، أما روحها فلا تزال باقية فيما ورثه الجنس البشري من علم ومن ذكريات مجيدة .

وحسبنا أن نذكر من معالم حضارتها نهوضها بالزراعة والتعدين والصناعة والهندسة العملية ، وأنها في أغلب الظن هي التي اخترعت الزجاج ، ونسيج

(*) كتب هذا قبل الثورة المباركة بنحو ثلاثين عاما وقد أصبح المصريون بفضل هذه الثورة وتأييدهم لها سادة في بلادهم .

(**) آثرنا أن ننقل هذا الجزء كما كتبه المؤلف حرصاً منا على الأمانة في النقل وإن كنا لا نوافقه على الكثير منه ، ورغبة في أن يعرف المصريون كل ما يقال عنهم حقاً كان ذلك أو باطلا . وقل أن يوجد في بلاد العالم شعب إلا وقد امتزج دمه بدم غيره من الشعوب . فسلمو مصر وأقباطها وإن اختلفوا في الدين يؤلفون معاً أمة متجانسة ذات عادات وتقاليد وآمال واحدة . ومن الخطأ أن يقال إن مدنهم لا تعرف إلا المسلمين والإنجليز . إنها تضم أبناء مصر من مسلمين وأقباط ، أما الإنجليز فإن الذي تعرفه عنهم أنهم احتلوا البلاد سبعين عاما ولكنهم ظلوا فيها قوماً أجانب غرباء عن أهلها حتى أخرجتهم من أرضها . وها هي ذي مصر قد عاد حكمها إلى أيدي أبنائها وأخذت تسير بخطى جبارة لاستعادة مجدها . (المترجم)

الكتان ، وأنها هي التي أحسنت صنع الملابس والحلى والأثاث والمساكن ، وأصلحت أحوال المجتمع وشئون الحياة ، وأن المصريين أول من أقام حكومة منظمة نشرت لواء السلام والأمن فى البلاد ، وأنهم أول من أنشأ نظام البريد والتعداد والتعليم الابتدائى والثانوى ، بل إنهم هم أول من أوجد نظام التعليم الفني لإعداد الموظفين ورجال الإدارة .

وهم الذين ارتقوا بالكتابة ، ونهضوا بالآداب والعلوم والطب ، والمصريون على ما نعرف أول من وضع دستوراً واضحاً للضمير الفردى ، والضمير العام ، وهم أول من نادى بالعدالة الاجتماعية ، وبالاقتصار على زوجة واحدة ، وأول من دعا إلى التوحيد فى الدين ، وأول من كتب فى الفلسفة ، وأول من نهض بفن العمارة والنحت ، وارتقى بالفنون الصغرى إلى درجة من الإتقان والقوة لم يصل إليها (فيما نعرف) أحد من قبلهم ، وقلما باراهم فيها من جاء بعدهم . وهذا الفضل كله لم يذهب هباء حتى فى الوقت الذى كان خير ما فيه مطموراً تحت رمال الصحراء أو ملقى على الأرض بفعل الاضطرابات الأرضية(*) ، فقد انتقلت الحضارة المصرية على أيدى الفينيقيين والسوريين واليهود وأهل كريت واليونان والرومان ، حتى أضحت من التراث الثقافى للجنس البشرى . وإن ما قامت به مصر من الأعمال فى فجر التاريخ لا تزال آثاره أو ذكرياته مخلدة عند كل أمة وفى كل جيل ، « ولعل مصر » كما يقول فور « بفضل تماسكها ووحدتها ، وتنوع منتجاتها الفنية تنوعاً أساسه دقة التنسيق والتنظيم ، وبفضل ما بذلت من جهود جبارة دامت أطول العهود ، لعل مصر بهذا كله تعرض على العالم أعظم ما ظهر على الأرض من حضارات إلى يومنا هذا[٢٧٧] » . وأن من الخير لنا أن نعمل نحن لكى نبلغ ما بلغت .

(*) لقد دمر طيبة عن آخرها زلزال حدث فى عام ٢٧ ب . م .

الباب التاسع

بابل

الفصل الأول

من حمورابي إلى نبوخد نصر

فضل بابل على المدنية الحديثة – أرض ما بين النهرين – حمورابي – عاصمة ملكه – سيطرة الكاشيين – رسائل تل العمارنة – فتح الأشوريين لبابل – نبوخد نصر – بابل فى أيام مجدها

الحضارة كالحياة صراع دائم مع الموت ، وكما أن الحياة لا يتسنى لها أن تحتفظ بنفسها إلا إذا خرجت عن صورها البالية القديمة واتخذت لها صوراً أخرى فتية جديدة ، فكذلك الحضارة تستطيع البقاء مزعزعة الأركان بتغيير موطنها ودمها ، ولقد انتقلت الحضارة من أور إلى بابل ويهوذا ، ومن بابل إلى نينوى ، ومن هذه كلها إلى پرسبوليس وسارديس وميليتس ومن هذه الثلاثة الأخيرة ومصر وكريت ، إلى بلاد اليونان وروما .

وما من أحد ينظر الآن إلى موقع مدينة بابل القديمة ثم يخطر بباله أن هذه البطاح الموحشة ذات الحر اللافح الممتدة على نهر الفرات كانت من قبل موطن حضارة غنية قوية كادت تكون هى الخالقة لعلم الفلك ، وكان لها فضل كبير فى تقدم الطب ، وأنشأت علم اللغة ، وأعدت أول كتب القانون الكبرى ، وعلمت اليونان مبادىء الحساب ، وعلم الطبيعة والفلسفة ، وأمدت اليهود بالأساطير القديمة التى أورثوها العالم . ونقلت إلى العرب بعض المعارف العلمية والمعمارية التى

أيقظوا بها روح أوربا من سباتها فى العصر الوسيط . وإذا ما وقف الإنسان أمام دجلة والفرات الساكنين فإنه يتعذر عليه أن يعتقد أنهما النهران اللذان أرويا سومر وأكد وغذيا حدائق بابل المعلقة .

والحق أنهما إلى حد ما ليسا هما النهرين القديمين ، وذلك لأن النهرين القديمين قد اختطا لهما من زمن بعيد مجريين جديدين[٢] ، « وقطعا بمناجلهما البيض شطآناً أخرى » . وكان نهرا دجلة والفرات كما كان نهر النيل فى مصر طريقاً تجارياً عظيماً يمتد آلاف الأميال ، وكانا فى مجريهما الأدنيين يفيضان كما يفيض نهر النيل فى فصل الربيع ويساعدان الزراع على إخصاب الأرض ؛ ذلك أن المطر لا يسقط فى بلاد بابل إلا فى أشهر الشتاء ، أما فيما بين مايو ونوفمبر فإنه لا يسقط أبداً ، ولولا فيضان النهرين لكانت أرضهما جرداء كما كان الجزء الشمالى من أرض الجزيرة فى الأيام القديمة وكما هو فى هذه الأيام . ولكن بلاد بابل قد أضحت بفضل ماء النهرين الغزير ، وكد الأهلين أجيالا طوالا ، جنة الساميين وحديقة بلاد آسية القديمة وهريها(*) .

وكانت بابل من حيث تاريخها وجنس أهلها نتيجة امتزاج الأكديين والسومريين . فقد نشأ الجنس البابلى من تزاوج هاتين السلالتين ، وكانت الغلبة فى السلالة الجديدة للأصل السامى الأكدى ، فقد انتهت الحروب التى شبت بينهما بانتصار أكد وتأسيس مدينة بابل لتكون حاضرة أرض الجزيرة السفلى بأجمعها . وتطل علينا من بداية هذا التاريخ شخصية قوية هى شخصية حورابى (٢١٢٣ — ٢٠٨١ ق . م) الفاتح المشترع الذى دام حكمه ثلاثاً وأربعين سنة . وتصوره الأختام والنقوش البدائية بعض التصوير ، فنستطيع فى ضوئها أن نتخيله شاباً يفيض حماسة وعبقرية ، عاصفة هوجاء فى الحرب ، يقلم أظافر الفتن ويقطع أوصال

(*) مما جاء فى سفر التكوين أن الفرات واحد من أربعة أنهار تجرى فى الجنة (تكوين : ٢ : ١٤) .

الأعداء ، ويسير فى شعاب الجبال الوعرة ، ولا يخسر فى حياته واقعة ؛ وحد الدويلات المتحاربة المنتشرة فى الوادى الأدنى ، ونشر لواء السلام على ربوعها وأقام فيها منار الأمن والنظام بفضل كتاب قوانينه التاريخى العظيم .

وقد كُشف قانون حورابى فى أنقاض مدينة السوس فى عام ١٩٠٢ . ووجد هذا القانون منقوشاً نقشاً جميلا على أسطوانة من حجر الديوريت نقلت من بابل إلى عيلام (حوالى عام ١١٠٠ ق . م) فيما نقل من مغانم الحرب (*) ، وقيل عن هذه الشرائع إنها منزلة من السماء . فترى الملك على أحد أوجه الاسطوانة يتلقى القوانين من شمش إله الشمس نفسه . وتقول مقدمة القوانين :

ولما أن عهد أنو الأعلى ملك الأنوناكى وبِل رب السماء والأرض الذى يقرر مصير العالم ، لما أن عهدا حكم بنى الإنسان كلهم إلى مردوك ؛ . . . ولما أن نطقا باسم بابل الأعلى ، وأذاعا شهرتها فى جميع أنحاء العالم ، وأقاما فى وسطه مملكة خالدة أبد الدهر قواعدها ثابتة ثبات السماء والأرض — فى ذلك الوقت نادانى أنو وبل ، أنا حورابى الأمير الأعلى ، عابد الآلهة ، لكى أنشر العدالة فى العالم ، وأقضى على الأشرار والآثمين ؛ **وأمنع الأقوياء أن يظلموا الضعفاء . . . وأنشر النور فى الأرض وأرعى مصالح الخلق .** أنا حورابى ، أنا الذى اختاره بل حاكماً ، والذى جاء بالخير والوفرة ، والذى أتم كل شىء لنِبورودُريلو ، . . . والذى وهب الحياة لمدينة أرك ؛ والذى أمد سكانها بالماء الكثير ، . . . والذى جمل مدينة بارسيا ؛ . . . والذى خزن الحب لأوراش العظيم ؛ . . . والذى أعان شعبه فى وقت المحنة ؛ وأمن الناس على أملاكهم فى بابل ؛ حاكم الشعب ، **الخادم** الذى تسر أعماله أنونيت(٤) .

إن الألفاظ التى أكدناها نحن فى هذه العبارة لذات نغمة حديثة ؛ وإن المرء ليتردد قبل أن يصدق أن قائلها حاكم شرقى « مستبد » عاش فى عام ٢١٠٠

(*) وهى الآن فى متحف اللوفر .

ق . م ، أو أن يتوهم أن القوانين التى تمهد لها استمدت أصولها من قوانين سومرية مضى عليها الآن ستة آلاف عام . وهذا الأصل القديم مضافاً إلى الظروف التى كانت تسود بابل وقتئذ هو الذى جعل قانون حمورابى شريعة مركبة غير متجانسة . فهى تفتتح بتحية الآلهة ، ولكنها لا تحفل بها بعدئذ فى ذلك التشريع الدستورى البعيد كل البعد عن الصبغة الدينية . وهى تمزج أرقى القوانين وأعظمها استنارة بأقصى العقوبات وأشدها وحشية ، وتضع قانون النفس بالنفس والتحكيم الإلهى(*) إلى جانب الإجراءات القضائية المحكمة والعمل الحصيف على الحد من استبداد الأزواج بزوجاتهم . على أن هـــذه القوانين البالغة عدتها ٢٨٥ قانوناً ، والتى رتبت ترتيباً يكاد يكون هو الترتيب العلمى الحديث ، فقسمت إلى قوانين خاصة بالأملاك المنقولة ، وبالأملاك العقارية ، وبالتجارة ، والصـــناعة ، وبالأسرة ، وبالأضرار الجسمية ، وبالعمل ؛ نقول إن هذه القوانين تكون فى مجموعها شريعة أكثر رقيًا وأكثر تمدينًا من شريعة أشور التى وضعت بعد أكثر من ألف عام من ذلك الوقت ، وهى من وجوه عدة « لا تقل رقياً عن شريعة أية دولة أوربية حديثة[٥] » ؛ وقلّ أن يجد الإنسان فى تاريخ الشرائع كله ألفاظاً أرق وأجمل من الألفاظ التى يختتم بها البابلى العظيم شريعته .

« إن الشرائع العادلة التى رفع منارها الملك الحكيم حمورابى والتى أقام بها فى الأرض دعائم ثابتة وحكومة طاهرة صالحة . . أنا الحاكم الحفيظ الأمين عليها ، فى قلبى حملت أهل أرض سومر وأكد . . . وبحكمتى قيدتهم ، حتى لا يظلم الأقوياء الضعفاء ، وحتى ينال العدالة اليتيم والأرملة ... فليأت أى إنسان مظلوم له قضية أمام صورتى أنا ملك العدالة ، وليقرأ النقش الذى على أثرى ، وليلق

(*) قانون النفس بالنفس معروف ، وقد ورد مفصلا فى التوراة ، وأشارت إليه الآية القرآنية الكريمة : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس الخ » أما التحكيم الإلهى فقد كان من العادات الشائعة عند بعض الأمم وهو إثبات الجريمة على المتهم أو نفيها عنه بإلقائه فى الماء أو فى النار لينجو منهما إن كان بريئاً فإن لم ينج فهو مذنب . (المترجم)

باله إلى كلماتى الخطيرة ! ولعل أثرى هذا يكون هادياً له فى قضيته ، ولعله يفهم منه حالته ! ولعله يريح قلبه (فينادى) : « حقاً أن حمورابى حاكم كالوالد الحق لشعبه ... لقد جاء بالرخاء إلى شعبه مدى الدهر كله ، وأقام فى الأرض حكومة طاهرة صالحة(*) . . .

ولعل الملك الذى يكون فى الأرض فيما بعد وفى المستقبل يرعى ألفاظ العدالة التى نقشتها على أثرى[8] ! » .

ولم يكن هذا التشريع الجامع إلا عملا واحداً من أعمال حمورابى الكثيرة . فلقد أمر بحفر قناة كبيرة بين كش والخليج الفارسى أروّت مساحات واسعة من الأراضى ، ووقت المدن الجنوبية ما كان ينتابها بسبب فيضانات نهر دجلة المخربة . ولقد وصل إلينا من عهده نقش آخر يفخر فيه بأنه أجرى فى البلاد الماء (تلك المادة القيمة التى لا نقدّرها اليوم والتى كانت فى الأيام الماضية إحدى مواد الترف) ، ونشر الأمن والحكم الصالح بين كثير من القبائل . وإنا لنستمع من ثنايا هـذا النقش ومن بين عبارات الفخر (وهو خلة شريفة من خلال الشرقيين) صـوت الحاكم الماهر والسياسى القدير .

« لما وهب لى أنو وتليل (إلها آرك ونپور) بلاد سومر وأكد لأحكمها ، ووضعا فى يدى هذا الصولجان ، حفرت قناة حمورابى — نخوش — نيشى (حمورابى المفيض — على — الشعب) التى تحمل الماء الغزير لأرض سومر وأكد . وحولت شاطئيها الممتدين على كلا الجانبين إلى أراضى زراعية ؛ وجمعت أكداساً من الحب ، وسيرت الماء الذى لا ينضب إلى الأرضين . . . وجمعت الأهلين المشتتين ، وهيأت لهم المرعى والماء ، وأمددتهم بالمراعى الموفورة وأسكنتهم مساكن آمنة[9] .

(*) يبدو أن « شرائع موسى » تستمد من هذه الشرائع أو تستمد هذه وتلك من مصدر مشترك . وترجع عادة بصم العقد القانونى بخاتم رسمى إلى زمن حمورابى[7] .

وبلغ من حذق حورابى أن خلع على سلطانه خلعة من رضاء الآلهة بالرغم من أن قوانينه كانت تمتاز بصبغتها الدنيوية غير الدينية . ومن ذلك أنه شاد المعابد كما شاد القلاع ، واسترضى الكهنة بأن أقام لمردوك وزوجته (إلهى البلد القوميين) فى مدينة بابل هيكلا ضخما ومخزناً واسعاً ليخزن فيه القمح للإلهين وللكهنة . وكانت هاتان الهديتان وأمثالها فى واقع الأمر بمثابة مال يستثمر أبرع استثمار ، جنى منه ربحاً وفيراً هو الطاعة الممتزجة بالرهبة التى يقدمها إليه الشعب . واستخدم ما حصل عليه من الضرائب فى تدعيم سلطان القانون والنظام ، واستخدم ما تبقى بعد ذلك فى تجميل عاصمة ملكه ، فأنشئت القصور والهياكل فى جميع نواحيها ، وأقيم جسر على نهر الفرات حتى تمتد المدينة على كلتا ضفتيه ، وأخذت السفن التى لا يقل بحارتها عن تسعين رجلا تمخر عباب النهر صاعدة فيه ونازلة ، وأضحت بابل قبل ميلاد المسيح بألفى عام من أغنى البلاد التى شهدها تاريخ العالم قديمه وحديثه(*) .

وكان البابليون ساميين فى مظهرهم سود الشعر سمر البشرة ، رجالهم ملتحون ، ويضعون على رءوسهم أحياناً شعراً مستعاراً ، وكانوا رجالا ونساء على السواء يطيلون شعور رءوسهم ، وحتى الرجال كانوا أحياناً يرسلون شعرهم فى ضفائر تنوس على أكتافهم ، وكثيراً ما كان رجالهم ونساؤهم يتعطرون . وكان لباس الجنسين المألوف مئزراً من نسيج الكتان الأبيض يغطى الجسم حتى القدمين ، ويترك إحدى كتفى المرأة عارية ، ويزيد عليه الرجال دثاراً وعباءة . ولما زادت ثروة السكان تذوقوا حب الألوان ،

(*) « لقد وصلت بابل من حيث المقومات الأساسية للحضارة فى عصر حورابى بل فيما قبله إلى درجة من الحضارة المادية لم يصل إليها غيرها من مدن آسية إلى وقتنا هذا » . من كتاب كرستفر دوسن « بحوث فى الدين والحضارة » Enquiries into Religion and Culture المطبوع فى نيويورك سنة ١٩٣٣ ص ١٠٧ . ولعل من الصواب أن نستثنى من هذا التعميم عصر خشيار شاى (اكزركس) الأول فى فارس ، ومنغ هوانج فى الصين ، وأكبر فى الهند .

فصبغوا أثوابهم باللون الأزرق فوق الأحمر . أو بالأحمر فوق الأزرق ، فى صورة خطوط أو دوائر أو مربعات أو نقط . ولم يكونوا كالسومريين حفاة الأقدام بل اتخذوا لهم أخفافاً ذات أشكال جسنة ، وكان الذكور فى عصر حمورابى يتمتعون ، وكان النساء يتزين بالقلائد والأساور والتمائم ، ويحلين شعرهن المصفف بعقود من الخرز. وكان الرجال يمسكون فى أيديهم عصياً ذوات رءوس منحوتة منقوشة ، ويحملون فى مناطقهم الأختام الجميلة الشكل التى كانوا يبصمون بها رسائلهم ووثائقهم ؛ وكان كهنتهم يلبسون فوق رءوسهم قلانس طويلة مخروطية الشكل ليخفوا بها صفتهم الآدمية(١٠) .

وزادت الثروة فأنتجت فى بابل ما تنتجه فى سائر بلاد العالم . ذلك أن من السنن التاريخية التى تكاد تنطبق على جميع العصور أن الثراء الذى يخلق المدنية هو نفسه ينذر بانحلالها وسقوطها ؛ فالثراء يبعث الفن كما يبعث الخمول ، وهو يرفق أجسام الناس وطباعهم ، ويمهد لهم طريق الدعة والنعيم والترف ، ويغرى أصحاب السواعد القوية والبطون الجائعة بغزو البلاد ذات الثراء(*) . وكان على الحدود الشرقية لهذه الدولة الجديدة قبيلة قوية من أهل الجبال هى قبيلة الكاشيين تحسد البابليين على ما أوتوا من ثروة ونعيم . فلم يمض على موت حمورابى إلا ثمان سنين حتى اجتاح رجالها دولته ، وعاثوا فى أرضها فساداً يسلبون وينهبون ، ثم ارتدوا عنها ، ثم شنوا عليها الغارة تلو الغارة ؛ واستقروا آخر الأمر فيها فاتحين حاكمين ، وهذه هى الطريقة التى تنشأ بها عادة طبقة السراة فى البلاد . ولم يكن هؤلاء الفاتحون من نسل الساميين ، ولعلهم كانوا من نسل جماعة المهاجرين الأوربيين جاءوا إلى موطنهم الأول فى العصر الحجرى الحديث . ولم تكن غلبتهم على أهل بابل الساميين إلا حركة أخرى من حركات الهجوم والارتداد التى طالما حدثت فى غربى آسية . وظلت بلاد بابل بعد هذا الغزو عدة قرون

(*) وازن بين هذا وبين ماجاء فى مقدمة ابن خلدون فى هذا المعنى . (المترجم)

مسرحاً للاضطراب العنصرى والفوضى السياسية اللذين وقفا فى سبيل كل تقدم فى العلوم والفنون[11] . ولدينا صورة واضحة من هذا الاضطراب الخانق فى رسائل تل العمارنة التى يستغيث فيها أقيال بابل وسوريا بمصر التى كانوا يؤدون إليها خراجاً متواضعاً بعد انتصارات تحتمس الثالث ، ويتوسلون إليها أن تمد إليهم يدها لتعينهم على الثوار والغزاة . وفيها أيضاً يتجادلون فى قيمة ما يتبادلونه من الهدايا مع أمنحوتب الثالث الذى يترفع عليهم ، ومع إخناتون الذى أهملهم وانهمك فى غير شئون الحكم (*) .

وأخرج الكاشيون من أرض بابل بعد أن حكموها ما يقرب من ستة قرون اضطربت فيها أحوال البلاد ، وتمزقت كما اضطربت أحوال مصر وتمزقت فى عهد الهكسوس . ودام الاضطراب بعد خروجهم أربعمائة عام أخرى حكم بابل فى أثنائها حكام خاملون ليس فى أسمائهم الطويلة اسم واحد جدير بالذكر (**). ودام عهدهم حتى قامت دولة أشور فى الشمال فبسطت سيادتها على بابل وأخضعتها لملوك نينوى . ولما ثارت بابل على هذا الحكم دمرها سنحريب تدميراً لم يكد يبقى منها على شىء ؛ ولكن عسر هدون ، المستبد الرحيم أعاد إليها رخاءها وثقافتها . ولما قامت دولة الميديين (†) وضعف الأشوريون استعان نبوپولصر بالدولة الناشئة على تحرير

(*) رسائل تل العمارنة رسائل مملة فى صيغتها ملئت كلها ملقاً ودهانا ، وجدلا وتوسلا وشكاية . استمع مثلا إلى ما كتبه بربورياش الثانى ملك كردنياش (فى الجزيرة) إلى أمنحوتب الثالث فى موضوع تبادل بعض الهدايا الملكية التى غبن فيها بربورياش فيما يظهر « منذ اليوم الذى توطدت فيه أواصر الصداقة بين أبى وأبيك ، تبادل الاثنان الهدايا القيمة ، ولم يأب أحدهما على الآخر أحسن ما يرغب فيه . أما الآن فإن أخى (أمنحوتب) قد أهدانى (فقط) منحين من الذهب . إن عليك أن ترسل لى من الذهب بقدر ما أرسله أبوك ؛ فإن كان لابد أن يقل عنه ، فليكن نصف ما كان يرسله . لم لم ترسل إلى إلا منحين من الذهب ؟ »[12] (المنح قدر من الذهب) .

(**) مردك – شبيك – زيرى ، نتورا – تدين – سام ، أنليل – تدين – أپل ، مردك – شبيك زرماتى ، الخ ، وما من شك فى أن أسماءنا الكاملة إذا وصلت كما وصلت هذه الأسماء تبدو مثلها متنافرة النغمات فى آذننا .

(†) تكتب أحياناً الماديين وهكذا وردت فى التوراة . (المترجم)

بابل من حكم الأشوريين ، وأقام فيها أسرة حاكمة مستقلة . ولما مات خلفه في حكم الدولة البابلية الثانية ابنه نبوخذ نصر الثاني الذي يسميه كتاب دانيال[13] بالرجل الوغد حقداً عليه وانتقاماً منه . وفي وسع المرء أن يستشف من خطبة نبوخذ نصر الافتتاحية لمردُك كبير آلهة بابل مرامى الملك الشرقي وأخلاقه :

« إني أحب طلعتك السامية كما أحب حياتي الثمينة ! إني لم أختر لنفسي بيتاً في المواطن كلها الواقعة خارج مدينة بابل » . . ليت البيت الذي شدته يدوم إلى الأبد أيها الإله الرحيم . ولعلي أشبع ببهائه وجلاله ، وأبلغ فيه الشيخوخة ، ويكثر ولدي ، وتأتي إليّ فيه الجزية من ملوك الأرض كلها ومن بني الإنسان أجمعين »[14] .

وعاش هذا الملك حتى كاد يبلغ السن التي يطمع فيها ، وكان أقوى ملوك الشرق الأدنى في زمانه وأعظم المحاربين والبنائين والحكام السياسيين من ملوك بابل كلهم لا تستثنى منهم إلا حمورابي نفسه . هذا مع أنه كان أميا ، ومع أن عقله لم يكن يخلو من خبال . ولما تآمرت مصر مع أشور لكي تخضع الثانية بابل إلى حكمها مرة أخرى ، التقى نبوخذ نصر بالجيوش المصرية عند قرقيش (على نهر الفرات الأعلى) وكاد يبيدها عن آخرها . وسرعان ما وقعت فلسطين وسوريا في قبضته ، وسيطر التجار البابليون على جميع مسالك التجارة التي كانت تعبر غربي آسية من الخليج الفارسي إلى البحر المتوسط .

وأنفق نبوخذ نصر ما كان يفرضه على هذه التجارة من مكوس وما كان يجبيه من خراج البلاد الخاضعة لحكمه ، وما كان يدخل خزائنه من الضرائب المفروضة على شعبه — أنفق هذا كله في تجميل عاصمته وفي تخفيف نهم الكهنة : « أليست هذه بابل العظيمة التي بنيتها ؟ »[15] وقاوم ما كان عساه أن تنزع إليه نفسه من أن يكون فاتحاً عظيما فحسب . نعم إنه كان يخرج بين الفينة والفينة ليلقى على رعاياه درساً في فضائل الطاعة والخضوع ، ولكنه كان يصرف جلّ وقته في

قصبة ملكه حتى جعل بابل عاصمة الشرق الأدنى كله بلا منازع ، وأكبر عواصم العالم القديم وأعظمها أبهة وفخامة[16] . وكان نبوپولصر قد وضع الخطط لإعادة بناء المدينة ، فلما جاء نبوخذ نصر صرف سنى حكمه الطويل التى بلغت ثلاثاً وأربعين فى إتمام ما شرع فيه سلفه . وقد وصف هيرودوت بابل ، وكان قد زارها بعد قرن ونصف من ذلك الوقت ، بأنها « مقامة فى سهل فسيح يحيط بها سور طوله ستة وخمسون ميلا[17] ويبلغ عرضه حداً تستطيع معه عربة تجرها أربعة جياد أن تجرى فى أعلاه ، ويضم مساحة تقرب من مائتى ميل مربع »(*)[18] . وكان يجرى فى وسط المدينة نهر الفرات يحف بشاطئيه النخيل وتنتقل فيه المتاجر رائحة غادية بلا انقطاع ، ويصل شطريها جسر جميل(**)[19] . وكانت المبانى الكبيرة كلها تقريباً من الآجر ، وذلك لندرة الحجر فى أرض الجزيرة ، ولكن هذا الآجر كان يغطى فى كثير من الأحيان بالقرميد المنقوش البراق ذى اللون الأزرق أو الأصفر أو الأبيض المزيّن بصوَر الحيوان وغيره من الصور البارزة المصقولة اللامعة ، ولا تزال تلك الصور حتى هذه الأيام من أحسن ما أخرجته الصناعة من نوعها . وكل آجرة من الآجر الذى استخرج من موقع بابل القديم تحمل هذا النقش الذى يتباهى به الملك الفخور : « أنا نبوخذ نصر ملك بابل »[21] .

وكان أولَ مايشاهده القادم إلى المدينة ـــ صرح شامخ كالجبل يعلوه برج عظيم مدرج من سبع طبقات ، جدرانه من القرميد المنقوش البرّاق ، يبلغ ارتفاعه ٦٥٠ قدماً ، فوقه ضريح يحتوى على مائدة كبيرة من الذهب المصمت

(*) وأكبر الظن أن هذه المساحة لم تكن تشمل مبانى بابل نفسها فحسب ، بل كانت تشمل أيضاً فى داخل هذا السور مساحة أخرى خلفها من الأراضى الزراعية يراد بها أن تمد العاصمة الكثيرة السكان بما يلزمها من الزاد فى أيام الحصار .

(**) وإذا كان لنا أن نصدق ما قاله ديودور الصقلى فإن نفقا عرضه خمس عشر قدما وارتفاعه اثنتا عشرة كان يمتد بين الشاطئين [20] .

وعلى سرير مزخرف تنام عليه كل ليلة إحدى النساء فى انتظار مشيئة الله[٢٢].
وأكبر الظن أن هذا الصرح الشامخ الذى كان أعلى من أهرام مصر ، وأعلى من جميع مبانى العالم فى كل العصور إلا أحدثها عهداً ، هو « برج بابل » الذى وود ذكره فى القصص العبرى ، والذى أراد به أهل الأرض ممن لا يعرفون يهوه أن يظهروا به كبرياءهم ، فبلبل رب الجيوش ألسنتهم(*). وكان فى أسفل الصرح هيكل عظيم لمردُك رب بابل وحاميها . ومن أسفل هذا المعبد تمتد المدينة نفسها من حوله يخترقها عدد قليل من الطرق الواسعة النيرة ، وكثير من القنوات والشوارع الضيقة الملتوية التى كانت بلا ريب تعج بالأسواق والحركة التجارية وبالغادين والرائحين . وكان يمتد بين الهياكل القائمة فى المدينة طريق واسع مرصوف بالآجر المغطى بالأسفلت يعلوه بلاط من حجر الجير ، ومجمعات من الحجارة الحمراء تستطيع الآلهة أن تسير فيه دون أن تتلوث أقدامها . وكان على جانبى هذا الطريق الواسع جدران من القرميد الملوّن تبرز منهما تماثيل لمائة وعشرين أسداً مطلية بالألوان الزاهية تزمجر لترهب الكفرة فلا يقتربون من هذا الطريق . وكان فى أحد طرفيه مدخل فخم هو باب إستير ، ذو فتحتين من القرميد الزاهى المتألق ، تزينه نقوش تمثل أزهاراً وحيوانات جميلة الشكل زاهية اللون ، يخيل إلى الناظر أنها تسرى فيها الحياة(**) .

وكان على بعد ستمائة ياردة من برج بابل وإلى شماله ربوة تسمى القصر ، شاد عليها نبوخد نصر أروع بيت من بيوته . ويقوم فى وسط هذا البناء مسكنه الرئيسى ذو الجدران الجميلة المشيدة من الآجر الأصفر ، والأرض المفروشة بالخرسان الأبيض والمبرقش ، تزين سطوحها نقوش بارزة واضحة زرقاء

(*) ليس لفظ بابل مشتقا من البلبلة أو الاضطراب كما تقول بعض الأساطير بل معناه كما فى « بابلون » باب الإله[٢٣] .

(**) فى متحف الفن الأسيوى فى برلين نموذج لباب إستير بحجمه الطبيعى .

اللون ، مصقولة برّاقة ، وتحرس مدخله آساد ضخمة من حجر البازلت؛ وكان بالقرب من هذه الزهوة حدائق بابل المعلقة الذائعة الصيت التى كان يعدّها اليونان إحدى عجائب العالم السبع ، مقامة على أساطين مستديرة متتالية كل طبقة منها فوق طبقة ؛ وكان سبب إنشائها أن نبوخذ نصر تزوج بابنة سياخار (سيكسارس) ملك الميديين ، ولم تكن هذه الأميرة قد اعتادت شمس بابل الحارة وثراها ، فعاودها الحنين إلى خضرة بلادها الجبلية ودفعت الشهامة والمروءة نبوخذ نصر فأنشأ لها هذه الحدائق العجيبة ؛ وغطى سطحها الأعلى بطبقة من الغرين الخصيب يبلغ سمكها جملة أقدام ، لا تتسع للأزهار والنباتات المختلفة ولا تسمح بتغذيتها . وكانت المياه ترفع من نهر الفرات إلى أعلى طبقة فى الحديقة بآلات مائية مخبأة فى الأساطين تتناوب إدارتها طوائف من الرقيق[٢٤] ؛ وفوق هذا السطح الأعلى الذى يرتفع عن الأرض خمساً وسبعين قدماً كان نساء القصر يمشين غير محجبات آمنات من أعين السوقة ، تحيط بهن النباتات الغريبة والأزهار العطرة ، ومن تحتهن فى السهول وفى الشوارع كان السوقة من رجال ونساء يحرثون وينسجون ويبنون ، ويحملون الأثقال ، ويلدون أبناء وبنات يخلفونهم فى عملهم بعد موتهم .

الفصل الثاني

الكادحون

الصيد – الحرث – الطعام – الصناعة – النقل –
أخطار التجارة – المرابون – الرقيق

كان بعض أجزاء البلاد لا يزال على حاله البرية الموحشة الخطرة ؛ فكانت الأفاعى تهيم فى العشب الكثيف ، وكان ملوك بابل وأشور يلهون بصيد الآساد تجول فى الغابات والتى تقف هادئة للمصورين ، ولكنها تفر إذا اقترب منها الصائدون : حقاً أن المدنية ليست إلا فترة عارضة موقوتة تتخلل وحشية الغابات .

وكانت أكثر الأراضى الزراعية يفلحها المستأجرون أو الرقيق وأقلها يحرثها ملاكها الفلاحون(٢٥) . وكانت كلها فى العهود الأولى تفتتها معازق من الحجر كما كان يفعل المزارعون فى العصر الحجرى الحديث . وأقدم صورة لدينا تمثل المحراث فى بابل هى الصورة المنقوشة على خاتم يرجع عهده إلى حوالى عام ١٤٠٠ ق . م ؛ ولعل هذه الآلة الكريمة النافعة كان وراءها فى ذلك الوقت تاريخ طويل فى أرض النهرين ، ومع هذا فإنها كانت من طراز حديث إلى حد ما . فقد كانت تجرها الثيران كما كان يفعل آباؤنا ، ولكنها كانت كمحراث السومريين ذات أنبوبة متصلة بها يخرج منها الحب إلى الأرض كمحاريث أبنائنا(٢٦) . ولم يكن أهل بابل يتركون الماء يفيض على الأرض كما كان يتركه أهل مصر ، بل كانت كل مزرعة تحميها من الفيضان جسور من التراب لا يزال باقياً إلى اليوم . وكان الماء الزائد على حاجة الأرض ينصرف إلى شبكة من المصارف أو يخزن فى خزانات لها فتحات يخرج منهـا إلى الحقول وقت الحاجة أو يرفع فوق الحواجز بشواديف . وقد امتاز حكم نبوخذ نصر بحفر عدد كبير من

قنوات الرى وبتخزين الزائد من الماء فى خزان كبير يبلغ محيطه مائة وأربعين ميلا ، تخرج منه قنوات تروى مساحات واسعة من الأرض[٢٧] . ولا تزال بقايا هذه القنوات فى أرض الجزيرة إلى اليوم . وكأنما أرادت الأقدار أن تربط الأحياء والأموات برباط آخر ، فأبقت إلى الآن على الشادوف البدائى فى وادي نهرى الفرات واللوار[٢٨] .

وكانت الأرض التى تروى على هذا النحو تنبت أنواعاً مختلفة من الحبوب والبقول ، كما كانت بها بساتين واسعة تنتج الفاكهة والنُّقل ، ولكن أكثر ما كانت تنتجه البلح . وكان البابليون يستثمرون ما أنعمت عليهم به الطبيعة من شمس ساطعة وأرض خصبة فى صنع الخبز وجمع العسل وعمل الكعك وغيره من أطايب الطعام . وكانوا يصنعون من مزيج العسل والدقيق كثيراً من أشهى الأطعمة . وكانوا يلقحون النخل بحمل الطلع من ذكورها إلى إناثها[٢٩] . وانتقل الكرم والزيتون من أرض الجزيرة إلى بلاد اليونان والرومان ، ثم انتقل منهما إلى غربى أوربا . أما الخوخ فقد انتقل إلى أوربا من بلاد الفرس القريبة من أرض الجزيرة ، وجاء لوكلس بشجر الكرز من شواطئ البحر الأسود إلى رومة ، وأصبح اللبن ، وهو الذى كان نادراً فى بلاد الشرق ، من الأطعمة الرئيسية فى بلاد الشرق الأدنى . وكان اللحم قليلا غالي الثمن ، ولكن السمك كان يصاد من المجارى المائية العظيمة ، ويصل إلى بطون أفقر الطبقات . فإذا أقبل المساء وخشى الفلاح أن يقلق باله التفكير فى الحياة والموت ، عمد إلى تهدئة هـذه الأفكار بالنبيذ المعصور من البلح أو بالجعة المتخذة من الحب .

وكان غير الفلاحين من الأهلين يحفرون الأرض ، ويعثرون فيها على الزيت ، ويستخرجون من باطنها النحاس والرصاص والحديد والفضة والذهب . ويصف لنا استرابون كيف كان ما يسميه « النفط والأسفلت السائل » يستخرج من

أرض الجزيرة كما يستخرج منها اليوم ، ويقولون إن الإسكندر حين سمع بأن السائل العجيب ماء يحترق أراد أن يتثبت من هذا القول الذى لم يكد يصدقه ، فطلى به جسد غلام وأوقد فيه النار بمشعل[٣٠] . وفى مستهل الألف السنة الأولى قبل ميلاد المسيح بدأ الأهلون يصنعون الآلات من البرنز ثم من الحديد ، وكانت لا تزال تصنع من الحجر فى أيام حمورابى ، كما بدأت أيضاً صناعة صهر المعادن وسبكها . وكانوا ينسجون القطن والصوف ، وكانت الأقمشة تصبغ وتطرز بمهارة جعلتها من أثمن السلع التى تصدرها بابل إلى خارج بلادها ، والتى وصفها كتاب اليونان والرومان أحسن وصف وأثنوا عليها أجمل الثناء[٣١] . كذلك نجد نول النسّاج وعجلة الفخرانى فى أقدم عهود التاريخ البابلى ، ويكاد النول والعجلة أن يكونا الآلتين الوحيدتين عند البابليين .

وكانت مبانيهم تقام من الطين المخلوط بالقش أو من اللبنات التى كانت توضع بعضها فوق بعض وهى طرية رطبة وتترك حتى تجف وتتماسك بفعل الشمس . ولما رأى القوم أن اللبنات إذا جففت فى النار كانت أصلب وأبقى على الزمن منها إذا جففت فى الشمس عمدوا إلى حرقها فى قمائن ، ومن ثم انتشرت صناعة الآجر بفضل هذا التطور الطبيعى انتشاراً سريعاً . وكانت الصناعات والحرف كثيرة متباينة ، وكثر المهرة من الصناع ، وتألفت منهم من عهد حمورابى نقابات كانت تسمى (القبائل) يشترك فيها الصبيان والمعلمون[٣٢] .

وكانت تستخدم فى النقل عربات تجرى على عجل يجرها الحمير[٣٣] ، وأول ما ذكر الحصان فى السجلات البابلية كان فى عام ٢١٠٠ ق . م ، وورد ذكره باسم « الحمار القادم من الشرق » ، ويظهر أنه جاء من هضاب آسية الوسطى وأنه غزا بابل مع الكاشيين ، كما وصل إلى مصر مع الهكسوس[٣٤] . ولما استخدمت هذه الوسيلة من وسائل الانتقال والحمل انتشرت التجارة وامتدت من داخل البلاد إلى خارجها ، وأثرت بفضلها بابل وأصبحت مركز تجارة الشرق الأدنى ، وكان انتشارها سبباً فى ارتباط أمم البحر المتوسط القديمة ارتباطاً

سجنت من ورائه الخير والشر على السواء . وسهل نبوخذ نصر التجارة بإصلاح الطرق الرئيسية ، وقال فى هذا يُذكِّر المؤرِّخين بأعماله :

لقد جعلت من الممرات الوعرة غير المطروقة طرقاً ممهدة صالحة[٣٥] » .
وكانت القوافل التجارية الكثيرة تحمل إلى أسواق بابل وحوانيتها غلات نصف العالم المعروف ، فكانت تأتيها من الهند مارة بكابول وهيرات وإكبتانا ، ومن مصر مارة ببلوزيم وفلسطين ، ومن آسية الصغرى عن طريق صور وصيدا وسارديس إلى قرقميش ، ثم تنحدر جنوباً مع نهر الفرات. وكان لهذه التجارة كلها أثر كبير فى عظمة مدينة بابل ، فأضحت فى أيام نبوخذ نصر سوقاً عظيمة تعج بالبضائع والتجار ، فخرج منها الأثرياء ينشدون الراحة فى مساكن أقاموها فى الضواحى . وجدير بالقارئ أن يلاحظ تلك النغمة الحديثة المكتوبة بها الرسالة التى بعث بها أحد سكان الضواحى إلى قورش ملك الفرس (حوالى عام ٥٣٩ ق . م) : « لقد بدت لى ضيعتنا أجمل ضياع العالم ، ذلك أنها كانت قريبة من بابل قرباً يمكننا من أن تستمتع بمزايا المدن العظمى ، وكان فى وسعنا مع هذا أن نعود إلى بيتنا وننجو مما فيها من تزاحم وقلق[٣٦] » .

ولم تفلح الحكومة فى إقامة نظام اقتصادى فى أرض الجزيرة كالذى أقامه الفراعنة فى مصر . فقد كانت التجارة تصادف كثيراً من الأخطار وتفرض عليها شتى الإتاوات . ولم يكن التجار يعرفون أى الأمرين يخشونه أشد من الآخر — أيخشون اللصوص الذين قد يهاجمونهم فى طريقهم. أم يخشون المدن والإقطاعيات التى تفرض عليهم الإتاوات نظير السماح لهم باستخدام طرقها . وكان آمن لهم أن يسيروا كلما استطاعوا فى الطريق القومى العام ، طريق نهر الفرات نفسه ، وقد جعله نبوخذ نصر صالحاً للملاحة من مصبه فى الخليج الفارسى إلى ثبساكس[٣٧] وفتحت حروبه فى بلاد العرب وغلبته على صور بحار الهند والبحر المتوسط إلى التجارة البابلية ، ولكن التجار البابليين لم ينتهزوا هذه الفرص السانحة

لارتياد هذه البحار إلا ارتياداً جزئياً ، لأن التاجر كانت تكتنفه الأخطار في كل ساعة من ساعات النهار والليل أينما سار : فى البحار الواسعة وفى ممرات الجبال وفيافى الصحراء ، نعم إن السفائن كانت كبيرة تغالب الأمواج ، ولكن الحواجز والصخور كانت كثيرة فى البحار ، ولم يكن فن الملاحة قد أصبح بعد علماً ذا قواعد وأصول ؛ هذا إلى أن لصوص البحار ، وسكان الشواطئ الطامعين قد يغيرون على السفن فى أية ساعة ، وينهبون المتاجر ويأسرون بحارتها أو يقتلونهم[٣٨] وكان التجار يستعيضون عن هذه الخسائر بأن يقصروا أمانتهم على ما تفرضه عليهم الضرورات فى كل حالة من الحالات .

لكن هذه الصعاب التجارية قد يسرها بعض التيسير ما كان فى البلاد من نظام مالى راق محكم . نعم إن البابليين لم يسكوا النقود ، ولكنهم حتى قبل أيام حمورابى كانوا يستخدمون فى المقايضة — فضلا عن الشعير والقمح — سبائك الذهب والفضة وسيلة للتبادل ومعياراً لتقدير قيم الأشياء ، ولم تكن السبائك المعدنية مختومة أو مطبوعة بل كانت توزن فى كل مرة ، وكانت أصغر وحدة فى العملة هى الشاقل وهو نصف أوقية من الفضة تتراوح قيمته بين ريالين ونصف وخمسة ريالات من نقود هذه الأيام . وكانت ستون شاقلا تكون ميناً وستون ميناً تكون تالنتا وقيمته من ١٠٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ ريال[٣٨] . وكانت القروض تتخذ صورة بضائع أو عملة ، وكانت فوائدها عالية تحددها الحكومة بعشرين فى المائة سنوياً إذا كانت نقود ؛ وبثلاثة وثلاثين فى المائة إن كانت بضاعة . على أن التجار كانوا يتجاوزون هذين السعرين الرسميين ، ويستأجرون مهرة الكتاب ليخادعوا الموكلين بتنفيذ القانون(*)[٣٩] . ولم يكن فى البلاد مصارف مالية ،

(*) كما كان يحدث فى هذه البلاد من عهد غير بعيد ، فقد كان المرابون يقرضون الفلاحين بفوائد تبلغ أحياناً ٢٥٪ فى ثلاثة شهور وكانوا يحتالون على القانون بإضافة الفائدة إلى رأس المال ويدعون أن مجموعهما قرض حسن بلا فائدة ! (المترجم)

ولكن بعض الأسر القوية كانت تقوم طيلة أجيال متعددة بعملية إقراض النقود ، كما كانت تتجر العقارات وتموّل المشروعات الصناعية[٤٠] . وكان فى وسع من لهم أموال مودعة بين هؤلاء أن يؤدوا التزاماتهم بتحاويل مالية مكتوبة[٤١] . وكان الكهنة أيضاً يقرضون ، وأخص ما كانوا يقرضون له من الأغراض هو الزرع والحصاد . كانت الشرائع فى بعض الأحيان تنصر المدين على الدائن . من ذلك أنه إذا رهن فلاح مزرعته ، ولم يجن من كدحه محصولا بسبب العواصف أو الشرَق أو غيرهما من « أفعال الله » ، فإنه لا يؤدى فوق فوائد عن دَينه فى السنة التى يعجز فيها المحصول[٤٢] . ولكن القانون كان فى معظم الأحيان يحرص على حماية الملك وتجنيب صاحبه الخسائر ، وكان من المبادئ التى تقوم عليها الشرائع البابلية أن ليس من حق إنسان أن يقترض مالا إلا إذا رغب فى أن يكون مسئولاً مسئولية كاملة عن رده إلى صاحبه ، ومن أجل هذا كان فى وسع الدائن أن يقبض على عبد المدين أو ابنه يتخذه رهينة للدَّين الذى لم يؤده ، على ألا يبقى فى حوزته أكثر من ثلاث سنين. وكان الربا هو الكارثة التى رزئت بها بلاد بابل والثمن الذى أدته تجارتها ، كما تؤديه الآن تجارتنا نحن ، نظير ما كان يبعثه نظام الائتمان الواسع من نشاط تجارى عظيم[٤٣] .

لقد كانت حضارة البابليين حضارة تجارية فى جوهرها ، وأكثر ما وصل إلينا من وثائقهم ذو صبغة تجارية — تتصل بالبيوع ، والقروض ، والعقود ، والمشاركة ، والسمسرة ، والتبادل ، والوصايا والاتفاقات والسفاتج ، وما إليها.

ونجد فى هذه الألواح شواهد كثيرة تنطق بما كان عليه القوم من ثراء عظيم ، وبما كان يسرى فى نفوسهم من روح مادية استطاعت كما استطاعت فى حضارات أخرى غير حضارتهم أن توفق بين التقوى والشره . فنحن نرى فى آدابهم دلائل كثيرة على الحياة النشيطة الراضية المرضية . ولكننا نجد أيضاً فى كل ناحية من نواحيها ما يذكّرنا بما كان يسرى فى الثقافات جميعها من استرقاق . وأكثر ما تلد

لنا قراءته من عقود البيع التى وصلت إلينا من عهد نبوخذ نصر ، العقود المتصلة بالعبيد[٤٤] . وكان مصدر هؤلاء العبيد أسرى الحروب ، والغارات التى يشنها البدو الرحل على الولايات الأجنبية ، ونشاط العبيد أنفسهم فى التناسل . وكان ثمن الأرقاء يختلف من عشرين ريالا إلى خمسة وستين للمرأة ، ومن خمسين ريالا إلى مائة ريال للرجل[٤٥] . وكان هؤلاء العبيد هم الذين يؤدون معظم الأعمال العضلية فى المدن ، وتدخل فى هذه الأعمال الخدمات الشخصية .

وكانت الجوارى ملكاً خالصاً لمن يبتاعهن ، وكان ينتظر منهن أن يمهد له فراشه ويهيئن له طعامه ، وكان المعروف أنه سيستولدهن عدداً كبيراً من الأبناء ، فإذا رأت بعضهن أنهن يعاملن هذه المعاملة شعرن بعض الإهمال والإهانة[٤٦] . وكان العبيد وكل ما ملكت يداه ملكاً لسيده : من حقه أن يبيعه أو يرهنه وفاء لدين ؛ ومن حقه أن يقتله إذا ظن أن موته أعود عليه بالفائدة من حياته . وإذا أبق العبد فإن القانون لا يبيح لأحد أن يحميه ، وكانت تقدر جائزة لمن يقبض عليه . وكان من حق الدولة أن تجنده كما تجند الفلاح الحر للخدمة العسكرية أو تسخره للقيام ببعض الأعمال العامة كشق الطرق . وحفر القنوات . لكنه كان له على سيده أن يؤدى عنه أجر الطبيب ، وأن يقدم له كفايته من الطعام إذا مرض أو تعطل عن العمل أو بلغ من الشيخوخة . وكان من حقه أن يتزوج بحرة ، فإذا رزق منها أبناء كانوا أحراراً ، فإذا مات من هذا شأنه كان نصف أملاكه من حق أسرته وكان سيده أحياناً يكل إليه عملا من الأعمال التجارية ، وكان من حقه فى هذه الحال أن يحتفظ ببعض أرباح العمل وأن يبتاع بها حريته ، وكان سيده يعتقه أحياناً إذا أدى له خدمة ممتازة ، أو خدمه زمناً طويلا بأمانة وإخلاص . ولكن هذا النوع الأخير من الحرية لم ينله إلا القليلون من العبيد . أما كثرتهم فكانوا يقنعون من حياتهم بكثرة الأبناء ، صاروا أكثر عدداً من الأحرار . فكانت طبقة الأرقاء الكبيرة تتحرك كأنها نهر تحتى جياش يجرى تحت قواعد الدولة البابلية .

الفصل الثالث

القانون

قانون حمورابى – سلطة الملك – تحكيم الآلهة – القصاص – أنواع العقاب – قوانين الأجور والأثمان – رد البضائع المسروقة عن طريق الدولة

وطبيعى أن مجتمعاً كهذا لا تدور بخلده فكرة الدمقراطية ؛ ذلك أن نزعته الاقتصادية تتطلب أن تكون له حكومة ملكية مطلقة تسندها الثروة التجارية أو الامتيازات الإقطاعية ، ويحميها توزيع حكيم للعنف القانونى . وكان كبار الملاك ، ومن حل محلهم بالتدريج من التجار الأثرياء ، هم الذين أعانوا الدولة على الاحتفاظ بنظامها الاجتماعى ، كما كانوا هم الواسطة بين الشعب ومليكه . وكان الملك يورث عرشه لمن يختاره من أبنائه بلا تفريق بينهم ، ومن ثم كان كل واحد من هؤلاء الأبناء يعدّ نفسه ولياً للعهد ويجمع حوله عصبة تناصر ، وكثيراً ما كان يشن الحرب على إخوته إذا لم تحقق آماله[٤٧] . وكان يدير دولاب الحكومة فى نطاق هذه القواعد التعسفية عدد من كبار الموظفين الإداريين فى العاصمة وفى الأقاليم ، يعيّنهم الملك . وكان إلى جانبهم جمعيات إقليمية أو بلدية مؤلفة من أعيان البلاد أو شيوخها يسدون النصيحة إلى هؤلاء الحكام ، ويقفونهم عند حدودهم إذا تجاوزوها . وقد استطاع هؤلاء أن يحتفظوا للولايات بقسط موفور من الحكم المحلى حتى فى أيام سيطرة الأشوريين[٤٨] .

وكان كل موظف إدارى ، كما كان الملك نفسه فى معظم الأحوال ، يعترف بسلطان كتاب القانون العظيم الذى تحدد وضعه وصيغته فى عهد حمورابى ، ويسترشد به . وقد ظل هذا القانون العظيم محتفظاً بجوهره خمسة عشر قرناً كاملا رغم ما طرأ على أحوال البلاد من تغيير ، ورغم ما أدخل

عليه من تفاصيل ؛ وكان تطوره يهدف إلى استبدال العقوبات الدنيوية بما كان فيه من عقوبات دينية ، كما يهدف إلى استبدال الرحمة بالقسوة والغرامات المالية بالعقوبات البدلية . مثال ذلك أن محاكمة المتهمين كانت فى الأيام الأولى توكل إلى الآلهة . فإذا اتهم رجل بممارسة السحر ، أو اتهمت امرأة بالزنى ، طلب إليهما أن يقفزا على نهر الفرات ، وكانت الآلهة على الدوام فى جانب أقدر المتهمين على السباحة ، فإذا نجت المرأة من الغرق كانت نجاتها برهاناً على براءتها ، وإذا غرق « الساحر » آلت أملاكه إلى من اتهمه ، أما إذا نجا من الغرق فإنه يستولى على أملاك متهمه[49] . وكان القضاة الأولون من الكهنة ، وظلت الهياكل[50] مقر معظم المحاكم إلى آخر تاريخ البابليين ، لكن محاكم غير دينية لا تسأل عن أحكامها إلا أمام الحكومة أخذت من أيام حمورابى نفسه تحل محل المراكز القضائية التى كان يرأسها الكهنة .

وقام العقاب فى أول الأمر على مبدأ قانون القصاص « النفس بالنفس والعين بالعين » . فإذا كسر إنسان لرجل شريف سناً ، أو فقأ له عيناً ، أو هشم له طرفاً من أطرافه ، حل به نفس الأذى الذى سببه لغيره[51] . وإذا انهار بيت وقتل من اشتراه حكم بالموت على مهندسه أو بانيه ، وإذا تسبب عن سقوطه موت ابن الشارى حكم بالموت على ابن البائع أو البانى ، وإذا ضرب إنسان بنتاً وماتت لم يحكم بالموت على الضارب بل حكم به على ابنته[52] . ثم استبدل بهذه العقوبات النوعية شيئاً فشيئاً غرامات مالية ، وبدأ ذلك بأن أجيز أداء فدية مالية بدل العقوبة البدنية[53] . ثم أصبحت الفدية بعدئذ العقوبة الوحيدة التى يجيزها القانون . فكان جزاء فقء عين السوقى ستين شاقلا من الفضة ، فإذا فقئت عين عبد كان جزاء فقئها ثلاثين[54] . ذلك أن العقوبة لم تكن باختلاف خطورة الجريمة وحسب ، بل كانت تختلف أيضاً باختلاف مركز الجانى والمجنى عليه . فإذا ارتكب أحد السراة جريمة كان عقابه أشد من عقاب السوقى إذا ارتكب الجريمة نفسها ، أما الجريمة التى ترتكب ضد أحد الأشراف فقد كانت غالية

الثمن . وإذا ضرب أحد السوقة آخر من طبقته غرم عشرة شواقل أو ما يقرب من خمسين ريالا ، فإذا ما ضرب شخصاً ذا لقب أو ذا مال غرم سبعة أضعاف هذا المبلغ(٥٥) . وإلى هذه العقوبات الرادعة كانت هناك عقوبات همجية هى بتر الأعضاء أو الإعدام : فإذا ضرب رجل أباه جوزى بقطع يده(٥٦) ؛ وإذا تسبب طبيب أثناء جراحة فى موت مريض أو فى فقد عين من عينيه قطعت أصابع الطبيب(٥٧) . وإذا استبدلت قابلة طفلا بآخر عن علم بفعلتها قطع ثدياها(٥٨) . وكانت جرائم كثيرة يعاقب عليها بالموت ، منها هتك العرض ، وخطف الأطفال ، وقطع الطرق ، والسطو ، والفسق بالأهل ، وتسبب المرأة فى قتل زوجها لتتزوج بغيره ، ودخول كاهنة خمارة أو فتحها إياها ، وإيواء عبد آبق ، والجبن فى ميدان القتال ، وسوء استعمال سلطة الوظيفة ، وإهمال الزوجة شئون بيتها أو سوء تدبيرها(٥٩) ، وغش الخمور(٦٠) ؛ بهذه الوسائل التى دامت آلاف السنين استقرت التقاليد والعادات التى أدت إلى حفظ النظام وضبط النفس . والتى أضحت فيما بعد عن غير قصد جزءاً من الأسس التى قامت عليها الحضارة .

وكانت الدولة تحدد أثمان السلع والأجور والأتعاب داخل نطاق بعض الحدود . فأجر الجرّاح مثلا كان يقرره القانون وحدّد قانون حمورابى أجور البنائين ، وضاربى الطوب ، والخياطين ، والبنائين بالحجارة ، والنجارين ، والبحارة ، والرعاة ، والفعلة(٦١) . وخص قانون الوراثة أبناء الرجل بتركته دون زوجته ، فجعلهم ورثته الطبيعيين الأقربين ؛ فإذا مات رجل عن زوجته كان لها الحق فى مهرها وفى هدية عرسها ، وظلت ربة البيت ما دامت على قيد الحياة . ولم يكن حق الميراث محصوراً فى الابن الأكبر بل كان الأبناء كلهم سواسية فى الميراث ، ومن ثم لم تلبث الثروات الكبرى أن تقسمت وتقسمت ، فامتنع بذلك تركزها فى أيد قلائل(٦٢) ؛ وكان القانون يعد الملكية الفردية للعقار والمنقولات أمراً مسلماً به لا جدال فيه .

ولم نجد فى الوثائق ما يستدل منه على وجود المحامين فى بابل إلا إذا اعتبرنا من المحامين القسيسين الذين كانوا يعملون موثقين للعقود ، والكتبة الذين كانوا يكتبون كل ما يطلب إليهم كتابته من الوصية إلى الأرجوزة نظير أجر يتقاضونه ، وكان المدعى يترافع فى قضيته بنفسه دون أن يستعين بترف الاصطلاحات القانونية . ولم يكن الناس يشجعون على التقاضى ، فقد كانت أول مادة فى القانون تنص فى بساطة تكاد تكون غير « قانونية ! » . على أنه « إذا اتهم رجل آخر بجريمة (يعاقب عليها بالإعدام) ثم عجز عن إثباتها حكم على المدعى نفسه بالإعدام »[٦٣] . وثمة شواهد دالة على وجود الرشوة وإفساد الشهود[٦٤] ، وكانت فى مدينة بابل محكمة استئناف يحكم فيها « قضاة الملك » ، وكان فى وسع المتقاضين أن يرفعوا استئنافاً نهائياً إلى الملك نفسه . وليس فى شرائع بابل ما يفيد وجود حق للفرد قِبَل الدولة ، بل كان الفضل فى النص على هذا الحق فضل الأوربيين . غير أنه إذا لم يوفر القانون للأهلين الحماية السياسية فلا أقلّ من أنه قد وفر لهم فى المواد ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ الحماية الاقتصادية : « إذا ارتكب رجل جريمة السطو وقبض عليه ، حكم على ذلك الرجل بالإعدام » . فإذا لم يقبض عليه كان على المسروق منه أن يدلى ، فى مواجهة الإله ، ببيان مفصل عن خسائره ، وعلى المدينة التى ارتكبت السرقة فى داخل حدودها والحاكم الذى ارتكبت فى دائرة اختصاصه أن يعوّضاه عن كل ما فقده . فإذا أدى السطو إلى خسارة فى الأرواح دفعت المدينة ودفع الحاكم مينا (٣٠٠ ريال) إلى ورثة القتيل » . فهل ثمة فى هذه الأيام مدينة بلغ صلاح الحكم فيها درجة تجرؤ معها على أن تعوض على من تقع عليه جريمة بسبب إهمالها مثل هذا التعويض ؟ وهل ارتقت الشرائع حقا عما كانت عليه أيام حمورابى ، أو أن كل الذى حدث لها أنها تعقدت وتضخمت ؟

الفصل الرابع

آلهة بابل

الدين والدولة – واجبات الكهنة وسلطانهم – الآلهة الصغار – مردك – إشتار – القصص البابلية عن خلق العالم والطوفان – حب إشتار وتموز – نزول إشتار إلى الجحيم – موت تموز وبعثه – الطقوس الدينية والصلوات – تسابيح التوبة – الخطيئة – السحر – الخرافات

لم تكن سلطة الملك يقيدها القانون وحده ولا الأعيان وحدهم ، بل كان يقيدها أيضاً الكهنة . ذلك أن الملك لم يكن من الوجهة القانونية إلا وكيلا لإله المدينة ، ومن أجل هذا كانت الضرائب تفرض باسم الإله ، وكانت تتخذ سبيلها إلى خزائن الهياكل إما مباشرة أو بشتى الأساليب والحيل . ولم يكن الملك يُعَدّ ملكاً بحق فى أعين الشعب إلا إذا خلع عليه الكهنة سلطته الملكية ، و « أخذ بيد بل » ، واخترق شوارع المدينة فى موكب مهيب ممسكاً صورة مردك . وكان الملك فى هذه الاحتفالات يلبس زى الكاهن ، وكان هذا رمزاً إلى اتحاد الدين والدولة . ولعله كان أيضاً يرمز إلى أصل الملكية الكهنوتى . وكانت تحيط بعرشه جميع مظاهر خوارق الطبيعة ، ومن شأن هذه كلها أن تجعل الخروج عليه كفراً ليس كمثله كفر ، لا يجزى من يجرؤ عليه بضياع رقبته فحسب ، بل يجزى أيضاً بخسران روحه ؛ وحتى حمورابى العظيم نفسه تلقى قوانينه من الإله . ولقد ظلت بلاد بابل فى واقع الأمر دولة دينية « خاضعة لأمر الكهنة » على الدوام[٦٥] من أيام الباتسيين أو القساوسة – الملوك السومريين إلى يوم تتويج نبوخذ نصر .

وزادت ثروة الهياكل جيلا بعد جيل كلما اقتسم الأثرياء المذنبون أرباحهم مع الآلهة ؛ وكان الملوك يشعرون بشدة حاجتهم إلى غفران الآلهة ، فشادوا لهم الهياكل . وأمدوها بالأثاث والطعام والعبيد : ووقفوا عليها

مساحات واسعة من الأرض ، وخصوها بقسط من إيراد الدولة يؤدونه إليها في كل عام . فإذا غنم الجيش واقعة حربية كان أول سهم من الغنائم ومن الأسرى من نصيب الهياكل ، وإذا أصاب الملك مغنما قدمت الهدايا العظيمة للآلهة . وكان يفرض على بعض الأراضي أن تؤدي للهياكل ضريبة سنوية من التمر والحب والفاكهة ، فإذا لم تؤدها نزعت الهياكل ملكيتها ، وانتقلت هذه الملكية للكهنة أنفسهم في أغلب الأحوال ، وكان الفقراء والأغنياء على السواء يخصصون للهياكل من مكاسبهم الدنيوية القدر الذي يظنون أنه يتفق ومصلحتهم الخاصة ، وبذلك تكدس في خزائن الهياكل الذهب ، والفضة ، والنحاس ، واللازورد ، والجواهر والأخشاب النفيسة .

وإذ لم يكن في مقدور الكهنة أن يستخدموا هذه الثروة كلها أو يستنفدوها فقد حولوها إلى رأس مال منتج أو مستثمر ، وأصبحوا بذلك أعظم القوامين على الشئون الزراعية والصناعية والمالية في الأمة بأسرها . ولم يكونوا يملكون مساحات واسعة من الأرض فحسب ، بل كانوا يملكون فوق ذلك عدداً عظيما من العبيد ، ويسيطرون على مئات من العمال ، يؤجرونهم لغيرهم من أصحاب الأعمال ، أو يسخرونهم لخدمة الهياكل بالعمل في حرف لا حصر لها ، تختلف ما بين عزف على الآلات الموسيقية إلى عصر الخمور[٦٦] . كذلك كان الكهنة أعظم تجار بابل ورجال المال فيها ، وكانوا يبيعون ما في حوانيت المعابد من سلع مختلفة ، ويسهمون بقسط موفور في تجارة البلاد . وقد عرف عنهم أنهم من أحكم الأهلين في استثمار الأموال ، ولهذا عهد إليهم الكثيرون استثمار أموالهم المدخرة لوثوقهم من أنهم سيحصلون منها على أرباح مضمونة وإن لم تكن موفورة . وكانوا يقرضون المال بشروط أرحم من الشروط التي يقرضه بها غيرهم من الأفراد ، وكانوا في بعض الأحيان يقرضون المرضى والفقراء بغير فائدة ، لا يطلبون إلا رؤوس أموالهم حين يبسم مردك للمقترض من جديد[٦٧] . وكانوا

إلى هذا كله يؤدون بعض الأعمال العامة ، فكانوا يعملون فى توثيق العقود ، ويشهدون عليها ، ويوقعونها بأسمائهم ، ويكتبون الوصايا ، ويستمعون إلى القضايا والمحاكمات ويفصلون فيها ، ويحفظون السجلات الرسمية ، ويسجلون الأعمال التجارية .

وكان الملك أحياناً يصادر بعض أموال الهياكل إذا واجه أزمة تتطلب المال الكثير . ولكن هذا كان عملا نادراً شديد الخطورة ، لأن الكهنة كانوا يصبون أشد اللعنات على كل من يمس أقل شيء من الأملاك الدينية بغير إذن منهم . هذا إلى أن نفوذهم لدى الأهلين كان أعظم من نفوذ الملك نفسه ، وكان فى وسعهم فى بعض الأحيان أن يخلعوه عن عرشه إذا أجمعوا أمرهم وسخّروا ذكاءهم وقواهم لهذه الغاية . يضاف إلى هذا أنهم يمتازون بالدوام والخلود ، ذلك أن الملك يموت أما الإله فمخلد ، ومن أجل هذا كان مجمع الكهنة الآمن من تقلبات الانتخاب ، وأخطار المرض ، والاغتيال والحرب ، هيئة دائمة فى مقدورها أن تضع الخطط الطويلة الأجل ، وهى ميزة لا تزال تتمتع بها الهيئات الدينية الكبرى إلى هذا اليوم . كل هذه ظروف جعلت للكهنة سلطاناً فوق كل سلطان . وكأن الأقدار قد شاءت أن تقوم بابل على جهود التجار ، وأن يستمتع بخيراتها الكهنة .

ترى ما هى تلك الآلهة التى كانت الشرطة الخفية للدولة البابلية ؟ لقد كانت هذه الآلهة كثيرة العدد ، لأن الأهلين كان لهم فى خلقها خيال واسع لا ينضب معينه ، ولم يكن ثمة حد للخدمات التى يمكن أن تؤديها لهم آلهتهم . وقد أحصى عدد الآلهة إحصاء رسمياً فى القرن التاسع قبل الميلاد فكانوا حوالى ٦٥,٠٠٠ [٦٨] . ذلك أن كل مدينة كان لها رب يحميها ، وكان يحدث فى بابل ودينها ما يحدث عندنا اليوم وفى ديننا نحن . فقد كان للمقاطعات والقرى آلهة صغرى تعبدها وتخلص لها ، وإن كانت تخضع رسمياً

للإله الأعظم : فقد أقيمت فى لارسا الهياكل الكثيرة لشمش ، ولإشتار فى أروك ، ولننار فى أور – ذلك أن الآلهة السومرية لم ينقض عهدها بانقضاء عهد دولة السومريين. ولم يكن الآلهة بمنأى عن الأهلين ، فقد كان معظمهم يعيشون على الأرض فى الهياكل ، يأكلون الطعام بشهية قوية ، ويزورون الصالحات من النساء فى أثناء الليل فيستولدونهن أطفالا لم يكن أهل بابل العاملون المجدون يتوقعون أن يولدوا لهم[٦٩]

وأقدم الآلهة كلهم آلهة السماء وما فيها : أنو السماء الثابتة ، وشمش الشمس ، وننار القمر ، وبل أو بعل الأرض التى يعود كل البابليين إلى صدرها بعد مماتهم[٧٠] . وكان لكل أسرة آلهتها المنزلية تقام إليها الصلاة ، وتصب إليها الخمور فى كل صباح ومساء ؛ وكان لكل فرد رب يحميه (أو ملَك يحرسه كما نقول نحن بلغة هـــذه الأيام) ، يرد عنه الأذى والشرور ، وكان جن الخصب يحومون فوق الحقول ليباركوها . ولعل اليهود قد صاغوا ملائكتهم من هذا الحشد العظيم من الأرواح .

ولسنا نجد لدى البابليين شواهد على التوحيد كالتى ظهرت فى عهد إخناتون وعهد إشعيا الثانى ، على أن قوتين من القوى قد قربتاهم من هذا التوحيد ، أولاهما اتساع رقعة دولتهم عقب الحروب ، وهذا الاتساع أخضع آلهتهم المحلية لسلطان إله واحد ، والقوة الثانية أن كثيراً من المدن كانت تخلع على إلهها الخاص المحبب لها السلطان الأعلى والقدرة على كل شىء . من ذلك قول نبو مثلا : « آمن بنبو ، ولا تؤامن بغيره من الآلهة[٧١] » . ولا يختلف هذا القول كثيراً عن الوصية الأولى من وصايا اليهود . وقل عدد الآلهة شيئاً فشيئاً بعد أن فسرت الآلهة الصغرى بأنها صور أو صفات للآلهة الكبرى . وعلى هذا النحو أصبح مردك إله بابل – وكان فى بادئ الأمر من آلهة الشمس – كبير الآلهة البابلية[٧٢] . ومن ثم لقب بل – مردك أى مردك الإله ، وإليه وإلى إشتار كان البابليون يوجهون أحر صلواتهم وأبلغ دعواتهم .

وليست أهمية إشتار (وهي إستارتي عند اليونان وعشتوربت عند اليهود) لدينا مقصورة على أنها شبيهة بإيزيس إلهة المصريين ، وعلى أنها النموذج الذى صاغ اليونان على مثاله إلهتهم أفروديتى والرومان ڤينوس ، بل إنها تهمنا فوق ذلك لأنها تبارك عادة من أغرب العادات البابلية . فقد كانت هى دمتر وأفروديتى معاً — أى أنها لم تكن إلهة جمال الجسم والحب فحسب، بل كانت فوق هذا الإلهة الرحيمة التي تعطف على الأمومة الولود ، والموحية الخفية بخصب الأرض ، والعنصر الخلاق فى كل مكان ، ويستحيل علينا ، إذا نظرنا إلى صفات إشتار ووظائفها بمنظار هذه الأيام ، أن نجد بينها كثيراً من التناسق ، فقد كانت مثلا إلهة الحرب والحب ، وإلهة العاهرات والأمهات ، وكانت تسمى نفسها « المحظية الرحيمة »[73] . وكانت تصور أحياناً فى صورة امرأة عارية تقدم ثدييها للرضاع[74] ، ومع أن عبادها كثيراً ما يخاطبونها بقولهم « العذراء » و « العذراء المقدسة » و « الأم العذراء » ، فإن كل ما تعنيه هذه الأقوال أن حبها كان مبرءاً من دنس الزواج . وقد رفض جلجميش أن يتزوج بها حين عرضت عليه الزواج ، وحجته فى ذلك أنها لا يوثق بها ، ألم تحب فى يوم من الأيام أسداً وأغوته ، ثم قتلته[75] ؟

وجلى أننا يجب أن نتغاضى عن قانوننا الأخلاقى إذا شئنا أن نفهم مقام هذه الإلهة على حقيقته . فليتأمل القارئ تلك الحماسة القوية التى يرفع بها البابليون إلى مقامها العظيم تسابيح الحمد التى لا يكاد يفوقها فى روعتها إلا تلك التسابيح التى كان الأتقياء من المسيحيين يرفعونها فيما مضى لمريم أم المسيح :

أتوسل إليك يا سيدة السيدات ، يا ربة الربات ، يا إشتار ، يا ملكة المدائن كلها ، ويا هادية كل الرجال .

أنت نور الدنيا ، أنت نور السماء ، يا ابنة سن العظيم (إله القمر) . . .

ألا ما أعظم قدرتك ، وما أعظم مقامك فوق الآلهة أجمعين .

أنت تحكمين وحكمك عدل :
وإليك تخضع قوانين الأرض وقوانين السماء .
وقوانين الهياكل والأضرحة ، وقوانين المساكن الخاصة والغرف الخفية .
أين المكان الذى لا يذكر فيه اسمك ، وأين البقعة التى لا تعرف فيها أوامرك ؟
إذا ذكر اسمك اهتزت لذكره الأرض والسموات ، وارتجفت له الآلهة
إنك تنظرين إلى المظلومين ، وتنصفين فى كل يوم المهانين المحقرين
إلى متى يا ملكة السماء والأرض ، إلى متى ؟
إلى متى يا راعية الرجال الشاحبى الوجوه تتمهلين ؟
إلى متى ، أيتها الملكة التى لا تكل قدماها ، والتى تسرع ركبتاها ؟
إلى متى يا سيدة الجيوش ، يا سيدة الوقائع الحربية ؟
يا عظيمة ، يا من تهابك كل أرواح السماء ويا من تخضعين كل الآلهة الغضاب ، ويا قوية فوق كل الحكام ، ويا من تمسكين بأعنة الملوك ؟
يا فاتحة أرحام جميع الأمهات ، ما أجل سناك !
يا نور السماء البراق ، يا نور العالم ، يا من تضيئين كل الأماكن التى يسكنها بنو الإنسان ، يا من تجمعين جيوش الأمم
يا إلهة الرجال ، ويا ربة النساء ، إن مشورتك فوق متناول العقول ؛
حيث تتطلعين تعود الحياة إلى الموتى ، ويقوم المرضى ويمشون ،
ويشفى عقل المريض إذا نظر إلى وجهك
إلى متى ، أيتها السيدة ، ينتصر علىّ عدوى ؟
فرى ، فتى أمرت ارتد الإله الغضوب
إن إشتار عظيمة ! إشتار ملكة ! سيدتى ، جليلة القدر ، سيدتى ملكة ؛
إنينى ، ابنة سِنْ القوية . ليس لها مثيل(٧٦) .

واتخذ البابليون هذه الآلهة شخصيات نسجوا حولها أساطيرهم التي وصل إلينا معظمها عن طريق اليهود ، وأضحت جزءاً من قصصنا الديني . وأول ما نذكره من قصصهم قصة الخلق . فقد كان في أول الأمر عماء « ففي الوقت الذي لم يكن فيه شيء عال يسمي السماء ، ولم يكن شيء وطيء يسمى الأرض، جاء أبو المحيط ، وكان أبا الأشياء أول الأمر ، وتيامات العماء ، التي ولدتها كلها ، وخلطا ماءهما معاً » ، وبدت الأشياء تنمو على مهل وتتخذ لها أشكالا ، ولكن تيامات الإلهة المهولة شرعت تبيد كل الآلهة الآخرين ، لتجعل نفسها ـ العماء ـ صاحبة المقام الأعلى . وأعقبت هذا ثورة عنيفة اضطرب منها كل نظام ؛ ثم جاء إله آخر وهو مردك وقتل تيامات بدوائها هي ، وذلك بأن دفع في فمها ريحا عاصفة حين فتحته لتبتلعه . ثم طعنها برمحه في بطنها الذي انتفخ بما دخله من الريح ، فانفجرت إلهة العماء . وتقول القصة بعدئذ إن مردك « عاد إليه هدوؤه » فقسم تيامات الميتة قسمين مستطيلين ، كما يقسم الإنسان السمكة ليجففها ، « ورفع أحد النصفين إلى أعلى فكان هو السماء ، وبسط النصف الآخر تحت قدميه فكان الأرض »[٧٧] . هذا كل ما وصل إلى علمنا حتى الآن عن قصة الخلق عند البابليين . ولعل الشاعر القديم أراد أن يوحي إلينا بهذه القصة أننا لا نعرف عن بداية الخلق إلا أن النظام قد استبدل بالفوضى والعماء ، لأن هذا في آخر الأمر هو جوهر الفن والحضارة . على أننا يجب ألا يغرب عن بالنا أن هزيمة العماء ليست إلا أسطورة من الأساطير(*).

ولما أن فتق مردك السماء والأرض ووضعهما في مكانيهما ، شرع يعجن الأرض بدمائه ويصنع الناس لخدمة الآلهة . وتختلف القصص البابلية في وصف الطريقة

(*) وكتبت قصة الخلق البابلية على سبعة ألواح (كل يوم من أيام الخلق على لوح) وقد وجدت في خرائب مكتبة أشور بانيبال في قويونجك (نينوى) في عام ١٨٥٤ . وهذه الألواح نسخة من قصة انحدرت إلى بابل وأشور من بلاد سومر[٧٨] .

والمؤلف يريد بقوله : « إن استبدال العماء بالفوضى أسطورة » أن الفوضى لاتزال تضرب أطنابها في الأرض وأنها لا تكاد تزول منها حتى تعود إليها . (المترجم)

الدقيقة التى تم بها صنع الإنسان ، ولكنها تتفق كلها بوجه عام فى القول بأن الإله صنع الإنسان من قطعة من الطين ، وهى لا تصفه بأنه كان يعيش فى بادئ الأمر فى جنة بل تقول إنه كان يعيش عيشة حيوانية فى جهل وبساطة حتى جاءه وحش مهول يدعى أونّس نصفه سمكة ونصفه فيلسوف ، وعلمه الفنون والعلوم وتخطيط المدن ومبادئ القانون ؛ ولما علمه إياها نزل إلى البحر وكتب كتاباً فى تاريخ الحضارة(٧٩) . غير أن الآلهة لم تلبث أن غضبت على الناس الذين خلقتهم ، فأرسلت عليهم طوفاناً عارماً لتهلكهم وتمحو به سيئ أعمالهم وأشفق إى إله الحكمة على البشر واعتزم أن ينجى منهم على الأقل رجلا واحداً شمش — نيشتين وزوجته . « وظل الطوفان مهتاجاً ، وغص البحر بالخلق كأنهم سرء السمك » . ثم بكت الآلهة على حين غفلة وعضت بنان الندم على غفلتها وسوء تدبيرها وتساءلت « عمن سيقرب لها القربان المعتاد ؟ » ، ولكن شمش — نيشتين كان قد بنى فلكا ونجا من الطوفان وحط على جبل نزير ، وأرسل يمامة تستطلع ؛ ثم قرر أن يقرب القربان للآلهة ، وقبلت الآلهة قربانه وهى مندهشة شاكرة . « وشمت الآلهة الرائحة ، شمت الآلهة الرائحة الذكية ، واجتمعت كالذباب فوق القربان »(٨٠) .

وأجمل من هذه الذكرى الغامضة ، ذكرى الطوفان المخرب ، أسطورة إشتار وتموز . وكان تموز حسب نص القصة السومرى أخا أصغر لإشتار ، أما فى النص البابلى فهو أحياناً حبيبها وأحياناً ابنها . ويلوح أن كلا النصين قد سرى إلى أسطورة ڤينوس (الزهرة) وأدنيس ، وأسطورة دمتر وپرستون ، وإلى عشرات العشرات من القصص الأخرى التى تتحدث عن الموت والبعث . وتموز هذا ، ابن الإله العظيم إى ، راع يرعى غنمه تحت إريد الشجرة العظيمة (التى تغطى الأرض كلها بظلها) ، وبينا هو يرعاها إذ شغفت بحبه إشتار ، وهى دوماً ظمأى إلى الحب ، واختارته زوجاً لها فى شبابها . ولكن خنزيراً برياً يطعن تموز طعنة

قاتلة فيهوى كما يهوى جميع الموتى إلى الجحيم المظلم تحت الأرض واسمه أرالو عند البابليين ، وكانت تحكمه إرشكجال أخت إشتار التي كانت تغار منها وتحسدها ؛ وتحزن إشتار ويبرح بها الحزن ، فتعتزم النزول إلى أرالو لتعيد الحياة إلى تموز ، وذلك بأن تغسل جروحه فى مياه إحدى العيون الشافية . وسرعان ما تظهر عند باب الجحيم فى جمالها الرائع وتطلب أن يؤذن لها بالدخول . وتقص الألواح قصتها فى صورة واضحة قوية :

فلما سمعت إرشكجال هذا
كانت كمن يقطع الطرفاء (ارتجفت ؟)
وكما يقطع الإنسان قصبة (اضطربت ؟)
« أى شىء حرك قلبها ، أى شىء (خفقت له) كبدها ؟
يا من هناك ، (هل) هذه (هل) هذه (تريد أن تقيم) معى ؟
وأن تتخذ من الطين طعاماً ، وأن تشرب (التراب) خمرا ؛
إننى أبكى الرجال الذين فارقوا أزاجهم ،
وأبكى النساء اللاتى انتزعن من أحضان أزواجهن ،
والصغار الذين (احتضروا قبل الأوان) ،
اذهب أيها الخازن ، وافتح لها الباب ،
وعاملها بمقتضى القرار القديم » .

وهذا القرار القديم يقضى بألا يدخل أرالو إلا العراة . وعلى هذا فإن الخازن يخلع عن إشتار ثوباً من ثيابها أو حلية من حليها عند كل باب يتحتم عليها أن تجتازه : فيخلع عنها أولا تاجها ، ثم قرطيها ، ثم عقدها ، ثم حلية صدرها ، ثم منطقتها ذات الجواهر الكثيرة ، ثم الزركشة البراقة التى فى يديها وقدميها ، ثم يخلع عنها آخر الأمر منطقة حقويها ، وتمانع إشتار فى رقة ثم تخضع :

فلما نزلت إشتار إلى الأرض التى لا يعود منها من يدخلها

أبصرتها إرشكيجال وأغضبها مجيؤها ،
وألقت إشتار بنفسها عليها من غير تفكير ،
وفتحت أرشكيجال فاها وتحدثت
إلى نمتار رسولها . . .
« اذهب ، يا نمتار ، (واسجنها ؟) فى قصرى ،
وسلط عليها ستين مرضاً ،
مرض العيون على عينيها ،
ومرض الجنب على جنبيها ،
ومرض الأقدام على قدميها ،
ومرض القلوب على قلبها ،
ومرض الرأس على رأسها
على جميع جسدها .

وبينما كانت إشتار حبيسة فى الجحيم بما أرسلته عليها أختها ، شعرت الأرض بأنها فقدت ما كان يوحى به إليها وجودها على ظهرها ، فنسيت جميع الفنون وطرائق الحب ، فلم يعد النبت يلقح النبت ، وذبلت الخضرة ولم تشعر الحيوانات بحرارة ، وامتنع الرجال عن الحنين :

ولما نزلت السيدة إشتار إلى الأرض التى لا يعود منها من يدخلها
لم يعل الثور البقرة ، ولم يقرب الحمار الأتان
والفتاة فى الطريق لم يقترب منها رجل ؛
ونام الرجل فى حجرته
ونامت الفتاة وحدها .

وأخذ السكان يتناقصون ، وارتاعت الآلهة حين رأت نقص ما ترسله إليها الأرض من القرابين ، واستولى عليها الذعر فأمرت إرشكيجال أن تطلق

سراح إشتار ، وتصدع إرشكجال بأمر الآلهة ، ولكن إشتار تأبى أن تعود إلى ظهر الأرض إلا إذا سمح لها أن تأخذ معها تموز . وتجاب إلى طلبها ، وتجتاز وهى ظافرة الأبواب السبعة ، وتتسلم منطقة حقويها ثم الزركشة البراقة التى كانت على يديها وقدميها ، ثم منطقتها ، ثم حلى صدرها ، وعقدها ، وقرطيها ، وتاجها . فلما ظهرت على الأرض نما النبات وأينع من جديد ، وامتلأت الأرض طعاماً ، وكاد كل حيوان يعمل الإكثار من نسله[81] ، وعاد الحب - وهو أقوى من الموت - إلى مكانه الحق سيد الآلهة والأناسى؛ تلك قصة كل ما يراه فيها عالم اليوم أنها قصة رائعة خليقة بالإعجاب ، ترمز فى صورة جميلة ممتعة إلى موات التربة وعودتها إلى الحياة فى كل عام ، وإلى ما للحب من قدرة دونها كل قدرة ، وصفها لكريتس فى شعره القوى حين تحدث عن الزهرة (ڤينوس) . أما البابليون فكانت لهم تاريخاً مقدساً يؤمنون به أقوى إيمان ، ويحتفلون بذكرى وقائعه فى يوم يحزنون فيه وينتحبون ويبكون تموز الميت ، يتلوه يوم يبتهجون فيه ويمرحون وهو يوم بعثه[82] .

بيد أن عقيدة الخلود لم يكن فيها ما تبتهج له نفس البابلى . ذلك أن دينه كان ديناً أرضياً عملياً ، فإذا صلى لم يكن يطلب فى صلاته ثواباً فى الجنة بل كان يطلب متسعاً فى الأرض[83] ، ولم يكن يثق بآلهته بعد أن يوارى فى قبره . نعم إن نصاً من نصوصهم يصف مردك بأنه « الذى يحيى الموتى »[84] ، وأن قصة الطوفان تقول إن من نجوا منه قد عاشا أبد الدهر . ولكن فكرة البابليين عن الحياة الآخرة كانت فى جملتها شبيهه بفكرة اليونان ، فكرة أموات - فيهم قديسون وأنذال ، وفيهم عباقرة وبلهاء ، يذهبون كلهم إلى مكان مظلم فى جوف الأرض ولا يرى الضوء من بعد ذلك أحد منهم . وكانت هناك جنة ولكنها اختصت بالآلهة ، أما أرالو التى يهبط إليها جميع الناس فكانت داراً للعقاب فى معظم الأحوال ، ولم تكن قط دار نعيم ، تقيد فيها أيدى الموتى وأرجلهم أبد الدهر ، وترتجف فيها أجسامهم من البرد ،

يجوعون فيها ويظمأون إلا إذا وضع أبناؤهم لهم الطعام فى قبورهم فى أوقات معينة[٨٥] ، ومن كان منهم كثير الذنوب على ظهر الأرض لقى فيها أشد العذاب ؛ فسلط عليه الجذام يأكل جسمه أو غيره من الأمراض التى أعدها له ترجال وآلات سيد أرالو وسيدتها ليتطهر بها من ذنوبه .

وكانت أكثر أجسام الموتى تدفن فى قباب ، ومنها ما كان يحرق وهو قليل ، ثم تحفظ بقاياها فى قوارير[٨٦] ، ولم تكن الجثث تحنط ، ولكن نادبين محترفين كانوا يغسلون الجثة ، ويلبسونها ثياباً حسنة ، ويصبغون خديها ، ويسوّدون جفونها ، ويلبسونها خواتم فى أصابعها ، ويضعون معها بديلا من الملابس الداخلية التى تلبسها . وإذا كانت الجثة لامرأة وضعت معها قوارير العطور ، والأمشاط ، وأقلام الأدهان ، وكحل للعينين ، وذلك لكى تحتفظ بطيب رائحتها وجمال وجهها فى الدار الآخرة[٨٧] . وكانوا يعتقدون أن الميت إذا لم يدفن على خير وجه عذّب الأحياء ، وإذا لم يدفن قط حامت روحه حول البالوعات والميازيب تطلب فيها الطعام ، وقد تصيب مدينة برمتها بالأوبئة الفتاكة[٨٨] . هذا كله خليط من الأفكار ليست كلها منطقية متماسكة تماسك الهندسة الإقليدية ، ولكن فيها ما يكفى لحفز البابلى الساذج على أن يقدم لآلهته وقساوسته كفايتهم من الطعام والشراب .

وكان الطعام والشراب أكثر ما يقرب من القرابين ، وذلك لأن ما يتبقى منهما لا يُتلف حتما إذا لم يطعمه الآلهة . وكثيراً ما كان الضأن يضحى به على المذابح البابلية ، ولقد وصلت إلينا رقبة بابلية هى سابقة عجيبة لكبش الفداء عند اليهود والمسيحيين : « الكبش فداء الإنسان ، الكبش الذى يفتدى به حياته »[٨٩] . وكان تقريب القربان من الطقوس المعقدة التى تتطلب خدمات كاهن خبير بشئونها . وكانت التقاليد المتوارثة تقرر كل عمل يعمل ، وكل لفظ يقال ، فإذا أقدم على هذا العمل شخص هاو غير إخصائى فيه ، ثم حاد قيد شعرة عن المراسم المقررة ، فقد يكون معنى هذا أن تأكل الآلهة

الطعام ولا تصغى للدعاء . وكان الدين عند البابليين يُعنى بالمراسم الصحيحة أكثر مما يعنى بالحياة الصالحة . فإذا شاء الإنسان أن يؤدى ما يجب عليه نحو الآلهة كان عليه أن يقرب القربان اللائق للهياكل ، ويتلو الصلوات والأدعية المناسبة[٩٠] . أما فيما عدا هذا فقد كان فى وسعه أن يفقأ عين عدوه المهزوم ويقطع أيدى الأسرى وأرجلهم ، ويشوى ما بقى من أجسامهم وهم أحياء[٩١] ، دون أن يؤذى بذلك آلهة السماء :

وكان أهم ما يجب أن يعمله البابلى التقى المستمسك بدينه أن يشترك فى المواكب الطويلة المهيبة كالمواكب التى كان الكهنة ينقلون فيها صورة مردك من هيكل إلى هيكل ، ويمثلون فيها مسرحية موته وبعثه المقدسة ، أو أن يحضر هذه الاحتفالات وهو خاشع ، وأن يطلى الأصنام بالزيوت العطرة(*) ، ويحرق البخور بين يديها ، ويلبسها أحسن الثياب وأغلاها ، أو يزينها بالجواهر ، وأن يقدم عرض ابنته العذراء فى احتفال إشتار العظيم ، وأن يقدم الطعام والشراب للآلهة ، وأن يكون كريماً مضيافاً للكهنة[٩٣]

أو لعلنا نظلمه كما سيظلمنا المستقبل بلا ريب حين يحكم علينا بالقليل الذى سوف تبقية المصادفات المحضة من آثارنا ، وتنجيه من عبث الزمان . استمع مثلا إلى ما يقوله نبوخد نصر الفخور مخاطباً مردك فى تذلل وخضوع :

إذا لم تكن أنت يا ربى فماذا يكون
للملك الذى تحبه وتنادى باسمه ؟
وستبارك لقبه حسب مشيئتك ،
وتهديه صراطاً مستقيما .
أنا الأمير الطائع لك ،
باق كما صنعتنى يداك .

(*) ومن أجل هذا كان تموز يسمى بالمعطر[٩٢] .

إلك أنت خالقى ،

وأنت الذى حكّمتنى فى جيوش العباد .

وبمقتضى رحمتك ، يا مولاى . . . .

بدّل قوتك الرهيبة حُباً ورحمة ،

وابعث فى قلبى الاحترام لربوبيتك

وهبنى ما ترى فيه الخير لى(٩٤) .

هذا وإن الآداب الباقية لنا من عهد البابليين لتكثر فيها الترانيم التى تفيض بالتذلل الحار الذى يحاول السامى أن يسيطر به على كبريائه ويخفيه عن الأنظار . وأكثر هذه الترانيم فى صورة « أناشيد توبة » وهى تهيئنا لتلك المشاعر العاطفية والصور الرائعة التى نراها فى « مزامير » داود . ومن يدرى لعل هذه كانت مثالا احتذته تلك المزامير المتعددة النغمات ،

أنا خادمك أضرع إليك وقلبى مفعم بالحسرات ،

إنك لتقبل الدعاء الحار الصادر ممن أثقلته الذنوب ،

إنك لتنظر إلى الرجل ، فيعيش ذلك الرجل . . .

فانظر إلىّ بعطف حق وتقبل دعائى . . . . . .

ثم يقول بعد ذلك وكأنه لا يعرف أذكر ذلك الإله أم أنثى :

متى يا إلهى ؛

متى يا إلهتى ، يتجه وجهك إلىّ ؟

متى ، يا إلهى ، يا من أعرفه ، ولا أعرفه ، يهدأ غضب قلبك ؟

متى يا إلهتى : يا من أعرفها ولا أعرفها ، يهدأ قلبك الغضوب ؟

لقد فسد الإنسان ، وساء حكمه ؛

ومَنْ مِن الأحياء كلهم يعرف شيئاً ؟

إنهم لا يعرفون أخيراً يفعلون أم شراً ،
أى إلهى لا تنبذ خادمك ،
لقد ألقى فى الوحل فخذ بيده !
والذنب الذى أذنبت بدله رحمة !
والظلم الذى ارتكبته ، مر الريح أن تحمله !
واخلع عن ذنوبى الكثيرة كما يخلع المرء الثياب !
أى إلهى إن ذنوبى سبعة فى سبعة ؛ فاصفح عن ذنوبى !
أى إلهتى إن ذنوبى سبعة فى سبعة ؛ فاصفحى عن ذنوبى !
اصفحى عن ذنوبى تريني ذليلا أمامك
لعل قلبك يبتهج كما تبتهج الأم التى ولدت الأبناء ،
لعله يبتهج كما تبتهج الأم التى ولدت الأبناء ، والأب الذى أنجب(٩٥) !

وهذه الأناشيد والمزامير كان ينشدها الكهنة تارة ، والمصلون تارة ، وتارة ينشدها هؤلاء وأولئك معاً وهم يتمايلون ذات الشمال وذات اليمين ؛ ولعل أغرب ما فى هذه الترانيم والأناشيد أنها — ككل آداب بابل الدينية — كتبت باللغة السومرية القديمة . وكان شأن هذه اللغة فى الديانتين البابلية والأشورية كشأن اللغة اللاتينية فى الكنيسة الكاثوليكية لا تفترق عنها فى شىء . وكما أن الترنيمة الكاثوليكية قد تحتوى بين سطورها اللاتينية ترجمتها بإحدى اللغات الحديثة ، فكذلك نجد لبعض الترانيم التى وصلت إلينا من أرض الجزيرة ترجمة لها باللغة البابلية أو الأشورية بين سطور اللغة السومرية الأصلية « الفصحى » ؛ على النحو الذى نشاهده فى كتب بعض تلاميذ المدارس فى هذه الأيام . وكما أن صيغة الترانيم وطقوسها التى مهدت لمزامير اليهود وطقوس الكنيسة الكاثوليكية ، فإن موضوعاتها تنذر بالترانيم اليهودية والمسيحية الأولى ، وترانيم المتطهرة المحدثين ، تلك الترانيم المتشائمة التى يسرى فيها شعور بالذنب والخطيئة . ذلك أن الشعور بالذنب ، وإن لم

يكن له شأن كبير في حياة البابليين ، تفيض به ترانيمهم ، وتسري فيها كلها نغمة لا تزال باقية في الطقوس السامية وما اشتق منها من ترانيم غير الساميين . وإلى القارئ مثلا من هذه الترانيم : « رب إن ذنوبي عظيمة ، وأفعالي السيئة كثيرة ! . . . إني أرزح تحت أثقال العذاب ، ولم يعد في وسعي أن أرفع رأسي ، إني أتوجه إلى إلهي الرحيم أناديه ، وأنا أتوجه وأتألم ! . . . رب لا ترد عنك خادمك ! »(96) .

وكانت فكرة الخطيئة عند البابليين مما جعل هذه التصرفات تصدر عن إخلاص حق شديد . ذلك أن الخطيئة لم تكن مجرد حالة معنوية من حالات النفس ؛ بل كانت كالمرض تنشأ من سيطرة شيطان على الجسم في مقدوره أن يهلكه . وكانت الصلاة عندهم بمثابة رقية تخرج العفريت الذي أقبل عليه من طوائف القوى السحرية التي كان الشرق القديم يعيش فيها ويخوض عبابها . وكان البابليون يعتقدون أن هذه الشياطين المعادية للناس تترصده في كل مكان . فقد كانت تعيش في شقوق عجيبة وتتسلل إلى البيوت من خلال أبوابها ، أو من فتحات مزالجها أو أوقابها ، وتنقض على فريستها في صورة مرض أو جنة إذا ما ارتكب خطيئة أبعدت عنه إلى حين حماية الآلهة الخيرين . وكان للمردة ، والأقزام ، والمقعدين ، وللنساء بنوع خاص ، كان لهؤلاء كلهم في بعض الأحيان القدرة على إدخال الشياطين في أجسام من لا يحبون . وذلك بنظرة من « عين حاسدة » . وكان من المستطاع اتقاء شر هؤلاء الشياطين إلى حد ما باستعمال التمائم والطلاسم وما إليها من الرقى والأحاجي وكانت صورة الآلهة إذا حملها الشخص معه تكفي في الغالب لإخافة الشيطان وإبعاده . وكان من أقوى التمائم أثراً قلادة من حجارة صغيرة تسلك في خيط أو سلك وتعلق في العنق ؛ على أن يراعى في الحجارة أن تكون من النوع الذي تربط الأقوال المأثورة بينه وبين الحظ الحسن ، وفي الخيط أن يكون أسود أو أبيض أو أحمر حسب الغرض الذي يريده منه صاحبه . وكان

من أشد الخيوط أثراً الخيط الذى يغزل من عنزة لم يقربها تيس[٩٧] . وكان من الحكمة أن يستعان فضلا عن هذه الوسائل بالرقى الحارة والطقوس السحرية لإخراج الشيطان من الجسم ، كرشه بالماء المحمول من أحد المجارى المقدسة كدجلة والفرات . وكان من المستطاع عمل صورة للشيطان ووضعها فى قارب ، وإلقاؤها فى الماء بعد أن تتلى عليها صيغة خاصة وإذا أمكن صنع القورب بحيث ينكفئ كان ذلك أفضل . وكان من المستطاع إقناع الشيطان بالرقية الصحيحة بترك ضحيته البشرية وتقمض جسم حيوان ـ كجسم طير أو خنزير أو حمل ، والأخير أكثرها شيوعاً[٩٨] .

وكانت أكثر الكتابات البابلية التى وجدت فى مكتبة أشور بانيبال هى الكتابات المحتوية على صيغ سحرية لطرد الشياطين واتقاء أذاها ، والتنبؤ بالغيب . ومن الألواح التى وجدت كتب فى التنجيم ، ومنها ما هو قوائم فى الفأل السماوى منه والأرضى ، وإلى جانبها إرشادات شديدة تهدى إلى طريقة قراءتها ؛ ومنها بحوث فى تفسير الأحلام لا تقل براعة وبعداً عن المعقول عن أرقى ما أخرجته بحوث علم النفس الحديث . ومنها إرشادات فى التنبؤ بالغيب ببحث أحشاء الحيوانات أو بملاحظة مكان نقطة من الزيت وشكلها إذا أسقطت فى إبريق ماء[٩٩] . وكان من أساليب التنبؤ الشائعة عند البابليين ملاحظة كبد الحيوان ، وقد أخذ ذلك عنهم من جاء بعدهم من الأمم القديمة ؛ ذلك أن الاعتقاد السائد عند هذه الأمم هو أن الكبد مركز العقل فى الحيوان والإنسان على السواء ؛ ولم يكن ملك يجرؤ على شن حرب أو الاشتباك فى واقعة ، ولم يكن بابلى يجرؤ على البت فى أمر من الأمور ، أو الإقدام على مشروع خطير ، إلا إذا استعان بكاهن أو عراف ليقرأ له طالعه بطريقة من الطرق الخفية السالفة الذكر .

وليس فى الحضارات كلها حضارة أغنى فى الخرافات من الحضارة البابلية ، فكل حالة من الحالات وفاة كانت او مولداً ، كان لها عند الشعبية

شرح وتأويل . وكثيراً ما كان لها تفسير رسمي وديني يصاغ في عبارات سحرية أو خارجة على السنن الطبيعية . وكان في كل حركة من حركات النهرين ، وكل منظر من مناظر النجوم ، وكل حلم ، وكل عمل غير مألوف يأتيه إنسان أو حيوان ، شاهد يكشف عن المستقبل البابلي الخبير العارف ببواطن الأمور . فمصير الملك يمكن التنبؤ به بملاحظة حركات كلب[100] ، كما نتنبأ نحن بطول الشتاء بالتجسس على المرموط(*) وقد تبدو خرافات البابليين سخيفة في نظرنا ، لأنها تختلف في ظاهرها عن خرافاتنا نحن ؛ والحق أنه لا تكاد توجد سخافة في الماضي إلا وهي منتشرة في مكان ما في الوقت الحاضر . وما من شك في أن تحت كل حضارة بحراً من السحر والتخريف والشعوذة ، ولعل هذه كلها ستظل باقية بعد أن يزول من العالم نتاج عقولنا وتفكيرنا .

(*) المرموط حيوان من ذوات الأربع في جرم الأرنب تقريباً ويشبهه في هيئته إلا أن ذنبه أقصر من ذنب الأرنب . (المترجم)

الفصل الخامس

أخلاق البابليين

انفصال الدين عن الأخلاق – العهر المقدس – الحب الحر –
الزواج – الزنى – الطلاق – مركز المرأة – انحلال الأخلاق

لعل هذا الدين رغم ما فيه من عيوب ، قد رقق من طباع البابلى العادى وجعله إنساناً مؤدباً سلس القياد إلى حد ما ؛ وإلا فكيف تفسر إكرام الملوك للكهنة ؟ . ولكن يلوح أنه لم يكن له فى تاريخ البلاد المتأخر أثر ما فى الطبقات العليا من الشعب ، وذلك لأن « بابل العاهر » كما كان يراها ويصفها أعداؤها غير العدول كانت « مباءة للظلم » ، ومثلا سيئاً فى الانحلال والترف للعالم القديم بأجمعه . وحتى الإسكندر نفسه وهو الذى لم يكن يتورع عن الشراب حتى الموت قد هاله ما رأى من أخلاق البابليين[١٠١] .

وأهم ما يلفت نظر المراقب الأجنبى فى حياة البابليين تلك العادة التى تعرفها من وصف لها فى إحدى صفحات هيرودوت الذائعة الصيت : « ينبغى لكل امرأة بابلية أن تجلس فى هيكل الزهرة مرة فى حياتها ، وأن تضاجع رجلا غريباً . ومنهن كثيرات يترفعن عن الاختلاط بسائر النساء ، لكبريائهن الناشئ من ثرائهن ، وهؤلاء يأتين فى عربات مقفلة ويجلسن فى الهيكل ومن حولهن عدد كبير من الحاشية والخدم . أما الكثرة الغالبة منهن فيتبعن الطريقة الآتية : تجلس الكثيرات منهن فى هيكل الزهرة وعلى رءوسهن تيجان من الحبال ، بين الغاديات والرائحات اللاتى لا ينقطع دخولهن وخروجهن . وتخترق جميع النساء ممرات مستقيمة متجهة فى كل الجهات ، ثم يمر فيها الغرباء ليختاروا من النساء من يرتضون . فإذا جلست امرأة هذه الجلسة كان عليها ألا تعود إلى منزلها حتى يلقى أحد الغرباء قطعة من الفضة

فى حجرها ويضاجعها فى خارج المعبد . وعلى من يلقى القطعة الفضية أن يقول : أضرع إلى الإلهة ميلتا أن ترعاك ؛ ذلك بأن الأشوريين يطلقون على الزهرة اسم ميلتا(*) ومهما يكن من صغر القطعة الفضية فإن المرأة لا يجوز لها أن ترفضها ، فهذا الرفض يحرمه القانون لما لها فى نظرهم من قداسة . وتسير المرأة وراء أول رجل يلقيها إليها ، وليس من حقها أن ترفضه أيًا كان . فإذا ما ضاجعته وتحللت مما عليها من واجب للإلهة ، عادت إلى منزلها . ومهما بذلت لها من المال بعدئذ لم يكن فى وسعك أن تنالها . ومن كانت من النساء ذات جمال وتناسب فى الأعضاء ، لا تلبث أن تعود إلى دارها ، أما المشوهات فيبقين فى الهيكل زمناً طويلا ، وذلك لعجزهن عن الوفاء بما يفرضه عليهن القانون ، ومنهن من ينتظرن ثلاث سنين أو أربعا(١٠٢) » .

ترى ماذا كان منشأ هذه السنة العجيبة ؟ فهل كانت بقيّة من بقايا الشيوعية الجنسية ، أى رخصة يمنح بها عريس المستقبل « حق الليلة الأولى » للمجتمع الممثل فى المواطن العارض غير المعروف(١٠٣) ؟ أو هل كان منشؤها خوف العريس من ارتكاب جريمة سفك الدماء التى تحرّمها الشرائع(١٠٤) ؟ أو هل كانت استعداداً ضمنياً للزوج شبيهاً بالسُّنَّة التى لا يزال يسير عليها بعض القبائل فى أستراليا إلى هذه الأيام(١٠٥) ؟ أو أنها لم تكن أكثر من قربان يقرّب للآلهة — فتقدّم لها باكورة الفاكهة(١٠٦) ؟ من يدرى ؟

ولم تكن هذه النساء عاهرات بطبيعة الحال . لكن عاهرات من أصناف مختلفة كن يسكن فى أرباض الهيكل ويمارسن حرفتهن فيها ، ومنهن من كن يجمعن من عملهن الأموال الطائلة ، وكانت عاهرات الهياكل كثيرات فى غربى آسية . تجدهن عند بنى إسرائيل(١٠٧) ، وفى فريجيا ، وفينيقية ، وسوريا

(*) لقد كان اليونان يطلقون اسم الأشوريين على الأشوريين والبابليين على السواء . وكانت « ميلتا » صورة أخرى من صور إشتار .

وغيرها من الأقطار . وكانت البنات فى ليديا وقبرص يحصلن على بائنة زواجهن بهذه الطريقة نفسها[108] ؛ وظلت « الدعارة المقدّسة » عادة متبعة فى بلاد بابل حتى ألغاها قسطنطين (حوالى عام ٣٢٥ ق . م)[109] . وكان جانبها عهر مدنى منتشر فى حانات الشراب التى يديرها النساء[110] .

وكان يسمح للبابليين فى العادة بقسط كبير من العلاقات الجنسية قبل الزواج ، ولم يكن يُضِن على الرجال والنساء أن يتصلوا اتصالا غير مرخص به « بزيجات تجريبية » تنتهى متى شاء أحد الطرفين أن ينهيها ، ولكن المرأة فى هذه الحالات كان من واجبها أن تلبس زيتونة — من حجر أو طين محروق — دلالة على أنها محظية[111] . وتدل بعض الألواح على أن البابليين كانوا ينشدون القصائد الغزلية ويغنون الأغانى الغرامية ، ولكن هذه القصائد والأغانى لم يبق منها إلا سطر هنا وسطر هناك ، كانت تستهل به القصيدة أو الأغنية كقولهم : « إن حبيبى من نور » أو « إن قلبى ملىء بالمرح والغناء »[112] ولدينا خطاب يرجع تاريخه إلى عام ٢١٠٠ ق . م ، وتشبه نغمته نغمة رسائل نابليون الأولى إلى جوزفين(*) : « إلى بيبيا . . . لعل شمش ومردك يهبانك صحة أبدية . . . لقد أرسلت (أستفسر) عن صحتك ، فخبرينى كيف حالك ، لقد وصلت إلى بابل ، ولكنى لا أراك ، إنى فى أشد الحزن . »[113]

وكان الآباء هم الذين يهيئون الزواج الشرعى لأبنائهم ، وكان الطرفان يقرّانه بتبادل الهدايا ، ولعل هذه العادة كانت أثراً من نظام قديم هو نظام الزواج بالبيع والشراء . فكان الخطيب يتقدم إلى والد العروس بهديّة قيّمة ، ولكن الوالد كان ينتظر منه أن يهب ابنته بائنة أعظم قدراً من الهديّة[114] ، حتى لقد كان يصعب على المرء أن يقول أيهما المشترى المرأة أم الرجل ؟ على أن بعض

(*) انظر ترجمة بعض هذه الرسائل (وخاصة الرسالة رقم ٢) فى الجزء الثانى من « أشهر الرسائل العالمية » المترجم .

الزيجات كانت بيعاً صريحاً ، من ذلك أن شمشتريز حصل على عشرة شواقل (٥٠ ريالا) ثمناً لابنته[١١٥] ، وإذا جاز لنا أن نصدق أبا التاريخ « فإن من كانت لهم بنات فى سن الزواج يأتون بهن مرة فى كل عام إلى مكان يجتمع فيه حولهن عدد كبير من الرجال ، ثم يصفهن دلاّل عام ويبيعهن جميعاً واحدة فى إثر وعلى ادى أوّلا احدة ، فيذ أجملهن ، وبعد أن يقبض فيها ثمناً عالياً ينادى على من تليها فى الجمال . ولكنه لم يكن يبيعهن إلا بشرط أن يتزوجن المشترون ... وهذه العادة المستحبة لم يعد لها الآن بقاء »[١١٦] .

ويلوح أن الزواج فى بابل ، رغم هذه الأساليب الغريبة لم يكن يقل إخلاصاً واقتصاراً على واحدة عنه فى العالم المسيحى فى هذه الأيام . وكانت الحرية المباحة للأفراد قبل الزواج يتبعها إرغام شديد على الاستمساك بالوفاء الزوجى بعده ، وكان القانون ينص على إغراق الزوج الزانية ومن زنت معه إلا إذا أشفق الزوج على زوجته فآثر أن يستبدل بهذه العقوبة إخراجها إلى الطريق عارية إلا من القليل الذى لا يكاد يستر شيئاً من جسمها[١١٧] . وقد بز حمورابى قيصر من هذه الناحية فقال فى إحدى مواد قانونه : « إذا أشار الناس بإصبعهم إلى زوجة رجل لعلاقتها برجل غيره ، ولم تضبط وهى تضاجعه ، وجب أن تلقى بنفسها فى النهر حفظاً لشرف زوجها »[١١٨] . ولعل الذى كان يهدف إليه القانون بهذه العقوبة هو منع أحاديث الإفك . وكان فى وسع الرجل أن يطلق زوجته ، ولا يتطلب منه هذا أكثر من رد بائنتها إليها وقوله لها : لست زوجتى » ، أما إذا قالت هى له : « لست زوجى» ، فقد وجب قتلها غرقاً[١١٩] . وكان عقم الزوجة ، وزناها ، وعدم اتفاقها مع زوجها ، وسوء تدبيرها منزلها ، كانت هذه فى حكم القانون مما يجيز طلاقها[١٢٠] . وفى ذلك يقول القانون : « إذا لم تكن سيدة حريصة على أداء واجبها ، بل كانت دوارة غير مستقرة فى منزلها ، مهملة لشئون بيتها ، مستخفة بأطفالها ، وجب أن تلقى فى الماء[١٢١] ، وفى مقابل هذه

القسوة غير المعقولة المنصوص عليها فى القانون ، كان للمرأة من الوجهة العملية أن تفارق زوجها ، وإن لم يكن من حقها أن تطلقه ، إذا أثبتت قسوته عليها مع إخلاصها له ؛ وكان فى وسعها فى هذه الحال وأمثالها أن تعود إلى أهلها وأن تأخذ معها بائنتها وماعسى أن تكون قد حصلت عليه لنفسها بعدئذ من المتاع[١٢٢]، (ولم تستمتع نساء إنجلترا نفسها بهذه الحقوق إلا فى أواخر القرن التاسع عشر) . وإذا غاب الزوج عن زوجته فى عمل أو حرب زمناً ما ، ولم يترك لها ما تعيش منه ، كان لها أن تعيش مع رجل آخر ، دون أن يحول ذلك من الوجهة القانونية بينها وبين انضمامها مرة أخرى إلى زوجها بعد عودته من غيبته[١٢٣] .

وفى وسعنا أن نقول بوجه عام إن مركز المرأة فى بابل كان أقل منه فى مصر وفى رومة ، ولكنه مع ذلك لم يكن أقل من مركزها عند اليونان الأقدمين أو عند الأوربيين فى العصور الوسطى . وكان لا بد لها لكى تؤدى أعمالها الكثيرة — من ولادة الأبناء وتربيتهم ، ونقل الماء من النهر أو الآبار العامة ، وطحن الحبوب ، والطهو ، وغزل الخيوط ونسجها ، وتنظيف دارها — كان لا بد لها لكى تؤدى هذه الأعمال أن تكون حرة فى غدوها ورواحها بين الناس لا تكاد تفترق من هذه الناحية عن الرجل فى شىء[١٢٤] . وكان من حقها أن تمتلك الثروة وتستمتع بدخلها ، وتتصرف فيها بالبيع والشراء ، وأن ترث وتُوَرِّث[١٢٥] . ومن النساء من كانت لهن حوانيت ، ، يتجرن فيها ، بل إن منهن من كنّ كاتبات ، وفى هذا دليل على أن البنات كن يتعلمن كالصبيان[١٢٦] ؛ غير أن التقاليد السامية التى تمنح أكبر ذكور الأسرة سلطة لا تكاد تقف عند حد كانت تحول دون ما عساه أن يكون باقياً فى أرض الجزيرة من أزمنة ما قبل التاريخ من نزعة لتغليب سلطان الأم . وكان من العادات المتبعة عند الطبقات العليا عادة — ولعلها هى التى أدت إلى تحجب النساء عند المسلمين والهنود — أن يكون للنساء جناح خاص أو أجنحة خاصة فى المنزل ؛ وكنّ إذا

خرجن صحبهن رقباء من الخصيان والخدم[١٢٧] ، أما الطبقات السفلى فلم تكن نساؤها أكثر من آلات لصنع الأطفال ، وإذا لم تكن لهن بائنات كانت مكانتهن لا تكاد تفترق عن مكانة الإماء[١٢٨] . وتشير عبادة إشتار إلى أن المرأة والأمومة كان لهما قسط من التبجيل فى بلاد بابل ، كما تشير عبادة مريم العذراء فى العصور الوسطى إلى ما كان لها من التبجيل وقتئذ ، ولكننا إذا أخذنا بقول هيرودوت إن البابليين إذا حوصروا « كانوا يخنقون زوجاتهم لكيلا يستهلكن ما عندهم من الطعام »[١٢٩] ، لا نرى أن البابليين كانت لديهم كثير من صفات الشهامة والفروسية التى كانت لدى الأوربيين فى تلك العصور .

لذلك ترانا نجد بعض العذر للمصريين إذا وصفوا البابليين بأنهم قوم لم يصلوا إلى درجة كبيرة فى الحضارة . والحق أننا لا نجد عندهم ما تشهد به آداب المصريين وفنونهم من رقة أخلاقهم ومشاعرهم . ولما أن وصلت هذه الرقة إلى البابليين وصلت إليهم تحت ستار الانحلال المخنث : فكان الشبان يصبغون شعرهم ويعقصونه ، ويعطرون أجسامهم ، ويحمرون خدودهم ، ويزينون أنفسهم بالعقود والأساور ، والأقراط ، والقلائد . ولما فتح الفرس بلادهم وقضوا بذلك على عزتهم النفسية ، تحرروا أيضاً من جميع القيود الخلقية ، وسرت عادات العاهرات إلى جميع الأوساط ؛ وأضحت نساء الأسر الكبيرة يرين أن إظهار محاسنهن أيا كانت ليستمتع بها أعظم استمتاع أكبر عدد مستطاع ، أصبحن لا يرين فى هذا شيئاً أكثر من مجاملة عادية[١٣٠] . وإذا جاز لنا أن نصدق هيرودوت فإن « كل رجل من عامة الشعب إذا عضه الفقر ، عرض بناته للدعارة طلباً للمال »[١٣١] . وكتب كونتس كورتيس عام ٤٢ ب . م يقول : « ليس ثمة أغرب من أخلاق هذه المدينة . فلسنا نجد فى أى مكان آخر ما نجده فيها من تهيئة كل شىء على خير وجه لإشباع الملذات الشهوانية »[١٣٢] . لقد فسدت الأخلاق وانحلت حين آثرت الهياكل ، وانهمك أهل بابل فى ملذاتهم فرضوا أن تخضع مدينتهم للكاشيين والأشوريين والفرس واليونان .

الفصل السادس

الكتاب والأدب

الكتابة المسمارية — حل رموزها — اللغة — الأدب — ملحمة جلجميش

ترى هل خُلدت هذه الحياة ، حياة الشهوات والتقوى والتجارة ، فى الأدب أو الفن تخليداً رائعاً نبيلا ؟ لعل هذا قد كان ، لأننا لا نستطيع أن نحكم على مدنية من شذرات متفرقة من حطام بابل قذف بها بحر الزمان : إن هذه الشذرات تتصل معظمها بشئون الصلاة والسحر والتجارة ، وليس ما خلفته من تراث أدبى بالشىء الكثير إذا قيس إلى ما تركته مصر وفلسطين ، وكانت فى هذه القلة شبيهة بأشوروفارس . ولسنا ندرى أكان هذا من أثر الظروف والمصادفات أم كان من أثر فقرها الثقافى . أما فضلها على العالم ففى ميدان التجارة وفى القانون .

لكن الكتبة رغم هذا لم يكونوا يقلون فى مدينة بابل التى كان يسكنها خليط من جميع الأجناس عنهم فى منف أو طيبة . ذلك أن فن الكتابة كان لا يزال فى بداية عهده فنًّا ينال به من يجيده مركزاً عظيما فى المجتمع ، فقد كان الطريق الموصل إلى المناصب الحكومية والكهنوتية ، ولم يكن صاحبه يغفل قط عن الإشادة بفضله فيما يرويه من أعماله ، وكان من عادة الكاتب أن ينقش ما يفيد هذا على خاتمه الأسطوانى(١٣٣) كما كان العلماء والمتعلمون فى العالم المسيحى من وقت قريب يذكرون مؤهلاتهم العلمية على بطاقاتهم . وكان البابليون يكتبون بالخط المسمارى على ألواح من الطين الرطب بقلم ذى طرف شبيه بالمنشور الثلاثى أو الإسفين . فإذا امتلأ اللوح كتابة جففوه أو حرقوه ، فكان بذلك مخطوطاً غريباً ؟طويل البقاء . وإذا كان المكتوب رسالة نثر عليها التراب الناعم ، ووضعت فى مظروف

من الطين ، وبصمت بخاتم مرسلها الأسطوانى . وكانت الألواح الطينية المحفوظة فى جرار مصنفه ومرتبة على رفوف تملأ عدداً كبيراً من المكتبات فى هياكل الدولة البابلية وقصورها ، ولقد ضاعت هذه المكتبات ، ولكن واحدة من أعظمها وهى مكتبة بورسپا قد نسخت وحفظت فى مكتبة أشور بانيپال . وكانت ألواحها البالغ عددها ٣٠٫٠٠٠ لوح أهم مصدر استقينا منه معلوماتنا عن الحياة البابلية .

ولقد حيرت الكتابة البابلية العلماء فظلوا مئات السنين عاجزين عن حل رموزها ، وكان نجاحهم فى حلها آخر الأمر عملا من أجل الأعمال فى تاريخ العلم . وتفصيل ذلك أن جورج جروتفند أستاذ اللغة اليونانية فى جامعة جوتنجن أبلغ المجمع العلمى فى تلك المدينة عام ١٨٠٢ أنه ظل عدة سنين يواصل البحث فى بعض مخطوطات مسمارية وصلت إليه من بلاد الفرس القديمة ، وأنه استطاع آخر الأمر أن يتعرف على ثمانية من الإثنين والأربعين حرفاً المستعملة فى هذه النقوش ، وأنه ميز ثلاثة من أسماء الملوك المدونة فيها . وبقيت الحال كذلك ، أو ما يقرب من ذلك ، حتى عام ١٨٣٥ حين استطاع هنرى رولنسن أحد موظفى السلك السياسى البريطانيين فى إيران ، على غير علم منه بما توصل إليه جروتفند ، أن يقرأ ثلاثة أسماء هى هستسبس ، ودارا ، وحشيارشاى (اكزركس) فى نقش مكتوب بالخط الفارسى القديم وهو خط مسمارى مشتق من الكتابة البابلية ، وأمكنه بفضل هذه الأسماء أن يقرأ الوثيقة كلها فى آخر الأمر . لكن هذه الكتابة وإن كانت مشتقة من الكتابة البابلية لم تكن هى البابلية نفسها ، وقد بقى على رولنسن أن يعثر على حجر رشيد بابلى كما عثر شمپليون على حجر رشيد مصر ، أى على نص واحد باللغتين الفارسية القديمة والبابلية . وهذا ما عثر عليه فى مكان يعلو على سطح الأرض نحو ثلاثمائة قدم . وكان هذا النقش على صخرة يتعذر الوصول إليها عند بهستون فى جبال ميديا ، حيث أمر دارا الأول الحفارين أن يسجلوا حروبه وانتصاراته بثلاث لغات : الفارسية القديمة ، والأشورية ، والبابلية . وظل

رولنسن يوماً بعد يوم يرقى هذه الصخرة معرضاً بذلك حياته لأشد الأخطار ، وكثيراً ما كان يشد نفسه بحبل وهو ينسخ كل حرف من حروفها بعناية بالغة ، حتى لقد كان أحياناً يطبع النقش كله على عجينة لينة . **وبعد جهد دام اثنتى عشرة سنة كاملة** نجح فى ترجمة النصين البابلى والآشـــورى (١٨٤٧) . وأرادت الجمعية الأسيوية الملكية أن تتثبت مما وصل إليه رولنسن وغيره من العلماء فى هذه الوثيقة وفى غيرها من الوثائق فأرسلت إلى أربعة من علماء الآثار الأشورية أربع صور من وثيقة مسمارية لم تكن قد نشرت وقتئذ ، وطلبت إلى كل منهم على انفراد أن يترجمها مستقلا عن الثلاثة الآخرين دون أن يتصل بهم أو يراسلهم . فلما جاءت الردود وجدت كلها متفقة بعضها مع بعض اتفاقاً يكاد يكون تاماً . وبفضل هذا الكفاح العلمى المنقطع النظير اتسعت دائرة البحوث التاريخية بما دخل فيها من علم بهذه الحضارة[١٤٣] الجديدة .

واللغة البابلية القديمة لغة ساميّة نشأت من تطور لغتى سومر وأكّد ، وكانت تكتب بحروف سومرية الأصـــل ، ولكن مفرداتها اختلفت عنها على مر الأيام (كما اختلفت اللغة الفرنسية عن اللاتينية) ، حتى استلزم هذا الاختلاف بين اللغتين السومرية والبابلية وضع معاجم وقواعد فى النحو والصرف يستعين بها العلماء والكهنة من الشـــبان على تفهم اللغة السومرية « الفصحى » والكتابات السومرية الكهنوتية . ومن أجل هذا نرى نحو ربع الألواح التى عثر عليها المنقبون فى المكتبة الملكية بنينوى معاجم فى اللغات السومرية والبابلية والأشورية وكتباً فى نحوها وصرفها ؛ وتقول الروايات التاريخية إن هذه المعاجم قد وضعت من عهد موغل فى القدم هو عهد سرجون ملك أكّد . ألا ما أقدم عهد الدراسات العلمية ! والعلامات فى اللغة البابلية كالعلامات فى اللغة السومرية لا تدل على حروف وإنما تدل على مقاطع . ذلك أن البابليين لم يضعوا لهم حروفاً هجائية مستقلة بل ظلوا

طوال عهدهم قانعين بطائفة من المقاطع يرمزون لها بنحو ثلثمائة علامة من العلامات؛ وقد كان حفظ هذه الرموز المقطعية عن ظهر قلب ودراسة قواعد الحساب والتعاليم الدينية المنهج المقرر فى مدارس الهياكل ، حيث كان الكهنة يلقنون الشباب ما هو خليق بالدرس والمعرفة . وقد كشفت بعض أعمال الحفر عن حجرة دراسية قديمة وجدت على أرضها ألواح طينية لبنين وبنات كتبت فيها حِكم أخلاقية تحث على الفضيلة قبل مولد المسيح بنحو ألفى عام ، كأن كارثة مفاجئة نكاد نحن أن نحمد الله على وقوعها دهمت التلاميذ ، فقطعت عليهم درسهم ، وحفظت لنا ألواحهم ، ومصائب قوم عند قوم فوائد[١٣٥] .

وكان البابليون ، كالفينيقيين ، ينظرون إلى الكتابة على أنها مجرد وسيلة لتيسير الأعمال التجارية ، ولذلك لم يضيعوا كثيراً من طينهم فى كتابة الأدب . ونجد فى ألواحهم قصصاً منظومة على لسان الحيوان — وهى نوع من أنواع لا حصر لها من القصص الخرافية — كما نجد فيها ترانيم دقيقة الوزن ، مقسمة إلى سطور وإلى مقطوعات مفصول بعضها عن بعض[١٣٦] ، لكننا لا نجد من الشعر غير الدينى الذى يصف شئون الناس العادية إلا القليل الذى لا يستحق الذكر ، ونرى فى المراسم الدينية ما يبشر بنشأة المسرحيات ، وإن لم تصل إلى مسرحيات بالفعل ، ونجد عندهم قناطير مقنطرة من كتب التاريخ . ذلك أن المؤرخين الرسميين كانوا يسجلون تقى الملوك وفتوحهم ، ومايصيب كل هيكل من الهياكل من عوادى الدهر ، وما يقع فى كل مدينة من أحداث هامة ويقص علينا بروسس أشهر المؤرخين البابليين وأنبههم ذكراً ، فى اطمئنان العالم الواثق من علمه ، تفاصيل وافية عن خلق العالم وتاريخ الإنسان فى عهده الأول . ويقول إن الله قد اختار أول ملك من ملوك بابل ليتولى حكمها ، وإنه حكمها ستة وثلاثين ألف عام . كما يقدر فى دقة ، جديرة فى حد ذاتها بالثناء . وباعتدال ليس فيه ما فى تقدير غيره من إسراف ، الزمن الذى مضى من خلق الأرض إلى أيام الطوفان

الأعظم بستمائة وواحد وتسعين ألفاً ومائتين من السنين(١٧٣) .

ومن أروع الآثار الأدبية التى خلفتها أرض الجزيرة اثنا عشر لوحاً محطماً وجدت فى مكتبة أشوربانيبال ، وهي الآن فى المتحف البريطانى . وقد كتبت على هذه الألواح **ملحمة جلجميش** الذائعة الصيت ، وتتألف من طائفة من القصص غير الوثيقة الاتصال ضمت بعضها إلى بعض فى عهود مختلفة يرجع بعضها إلى أيام السومريين أى إلى ما قبل المسيح بثلاثة آلاف عام . ومن هذه القصص النص البابلى لقصة الطوفان . وكان جلجميش بطل القصة السالفة الذكر حاكماً أسطوريا لأروك أو إرك وهو من نسل شمش – نيشتين الذى نجا من الطوفان ولم يمت قط . ويدخل جلجميش فى القصة فى صورة مركبة من صورتى أونيس وشمشون ، فهو طويل القامة ، ضخم الجسم ، مفتول العضلات ، جرىء مقدام ، جميل يفتن الناس بجماله .

ثلثاه إله ،
وثلثه آدمى ،
لا يماثله أحد فى صورة جسمه . . ،
يرى جميع الأشياء ، ولو كانت فى أطراف العالم ،
كابد كل شيء ، وعرف كل شيء ،
واطلع على جميع الأسرار ،
واخترق ستار الحكمة الذى يحجب كل شيء ،
ورأى ما كان خافياً ،
وكشف الغطاء عما كان مغطى ،
وجاء بأخبار الأيام التى كانت قبل الطوفان ،
وسار فى طريق بعيد طويل ،
كابد فيه المشاق والآلام ،

ثم كتب على لوح حجرى كل ما قام به من الأعمال(١٣٨) .

ويشكوه الآباء إلى إشتار قائلين إنه يخرج أبناءهم من دورهم ليكدحوا فى « بناء الأسوار بالنهار وبالليل » ؛ ويقول الأزواج إنه « لا يترك زوجة لزوجها ، ولا عذراء واحدة لأمها » ، وتذهب إشتار إلى أرورو عرّابة جلجميش ترجوها أن تخلق ابناً آخر مساوياً لجلجميش وقادراً على أن يشغله فى نزاع بينهما ، حتى يستريح بال الأزواج فى أروك ويأمنوا شره . وتعجن أرورو قطعة من الطين ، وتبصق عليها ، وتصور منها إنجدو ، وهو رجل له بأس الخنزير ، ولبدة الأسد ، وسرعة الطير . ولا يعبأ إنجيدو هـذا بصحبة الآدميين ، بل يعتزلهم ويعيش مع الحيوانات ، « يرعى الأعشاب مع الظباء ، ويلعب مع مخلوقات البحار ، ويروى ظمأه مع وحوش الحقول » . ويحاول أحد الصيادين أن يقتنصه بالشباك والفخاخ ولكنه يعجز عن اقتناصه ، فيذهب الصياد إلى جلجميش ويرجوه أن يعيره كاهنة توقع إنجيدو فى شراك حبها . فيقول له جلجميش : « اذهب أيها الصياد ، وخذ لك كاهنة ، فإذا جاءت الوحوش إلى مورد الماء لتستقى فلتكشف عن جمالها ، فإذا رآها انفضت من حوله الوحوش » .

وينطلق الصياد والكاهنة ويلتقيان بإنجيدو

« ها هو ذا ، أيتها المرأة !
فحلى أزرارك ،
أسفرى عن مفاتنك ،
حتى ينال كفايته منك !
لا تحجمى ، وأجيبيه إلى ما يشتهى !
فإذا رآك فسوف يقترب منك .
وافتحى ثوبك ، حتى يرقد عليك !
وأثيرى شهوته ، كما تفعل النساء ،

وإذن فسيصبح غريباً عن وحوشه البرية ؛
• هى التى درجت معه فوق السهوب ،
وسيلتصق صدره بصدرك .
وحلت الكاهنة أزرارها
وكشفت عن مفاتنها ،
حتى ينال كفايته منها ،
ولم تحجم ، وأخذت شهوته ،
وفتحت ثوبها لكى يرقد عليها ،
وأثارت نشوته كما تفعل النساء ،
والتصق صدره بصدرها ،
فنسى إنجيدو أين ولد(١٣٩) .

ويبقى إنجيدو مع الكاهنة ستة أيام وسبع ليال ، يعب فيها السعادة عباً ؛ حتى إذا مل هذه اللذة استيقظ فرأى أصدقاءه من الحيوانات قد فارقته فيغشى عليه من شدة الحزن ، فتزجره الكاهنة بقولها : « أنت يا من بلغت عظمة الآلهة ، كيف يطيب لك العيش بين وحوش الحقول ؟ تعال آخذك إلى أروك حيث يعيش جلجميش الذى لا يدانيه أحد فى جبروته » . ووقع إنجيدو فى شرك الكاهنة التى خدعته بثنائها عليه ، فسار وراءها إلى أروك وهو يقول : « أرينى المكان الذى فيه جلجميش ، أقاتله وأظهر له قوتى » ، فتسر بذلك الآلهة والأزواج ؛ ولكن جلجميش ينتصر عليه بقوته أول الأمر ثم بعطفه وشفقته عليه بعدئذ ، ويصبح الاثنان صديقين وفيين ؛ ويسيران جنباً إلى جنب يحميان أروك من عيلام ، ويعودان ظافرين بعد أن يقوما بأجل الأعمال . « وخلع جلجميش عدته الحربية ، ولبس ثيابه البيض ، وزين نفسه بالشارة الملكية ولبس التاج » . وسرعان ما تقع إشتار الشرهة فى حبه وترنو إليه بعينيها الكبيرتين ، وتقول :

« تعالى يا جلجميش ، وكن لى زوجاً ! وقدم لى حبك هديه ، ستكون أنت زوجى ، وأكون زوجتك ، وسأضعك فى عربة من اللازورد والذهب ، لها دواليب ذهبية مطعمة بالعقيق ، وستجرها لك آساد عظيمة ، وستدخل بيتنا ومن حولك البخور المنطلق من خشب السدر . . . وستحتضن قدميك كل الأراضى المجاورة للبحر وسيخر الملوك كلهم سجداً لك ويأتون بثمرات الجبال والسهول جزية يؤدونها لك عن يد » .

ويرفض جلجميش طلبها ويذكرها بما جنته على عشاقها الكثيرين ومنهم تموز ، وباشق ، وحصان ، وبستانى ، وأسد ، وينادبها قائلا : « إنك تحبيننى الآن ، ولكنك ستضربيننى بعد كما ضربت هؤلاء جميعاً » . وتطلب إشتار وهى غضبى إلى أنو الإله الأعظم أن يخلق ريماً مفترساً يقتل جلجميش . ويرفض أنو طلبها ويزجرها بقوله : « ألا تستطيعين السكوت وقد أذكرك جلجميش بغدرك وفضائحك ؟ » وتنذره بأنها سوف تعطل كل ما فى الكون من غرائز الحب والشهوة ، حتى يهلك كل شىء حى . ويخضع أنو لإرادتها ، ويخلق الريم المفترس ، ولكن جلجميش يتغلب على هذا الوحش بمعونة إنجيدو ، وتصب إشتار على البطل لعنتها فيلقى إنجيدو بأحد أطراف الريم فى وجهها . ويبتهج لذلك جلجميش ويتيه عجباً ، ولكن إشتار تصرعه وهو فى عنوان مجده ، وذلك بأن تصيب إنجيدو بداء عضال .

ويحزن جلجميش ويبكى صديقه الذى كان أحب إليه من النساء ، ويفكر فى أسرار الموت ، وهل ثمة وسيلة للفرار من هذا المصير المحتوم ؟ إن رجلا واحداً قد نجا منه وهو شمش — نبشتيم فهو إذن يعرف سر الخلود . ويقرر جلجميش أن يذهب للبحث عن شمش — نبشتيم ، ولو اضطره هذا البحث إلى الطواف فى العالم كله . ويجتاز الطريق الموصل إليه جبلا يحرسه ماردان جباران يلمس رأساهما قبة السماء ويصل ثدياهما إلى الجحيم . ولكنهما يأذنان له بالمرور ، ويسير اثنى

عشر ميلا فى نفق مظلم ، يخرج بعده إلى شاطئ بحر عظيم ، ويرى من وراء مائه عرش سبيتو العذراء إلهة البحار . ويناديها أن تعينه على عبور الماء ويقول : « إذا لم أفلح فى هذا ، فسألقى بنفسى على الأرض وأقضى نحبى » ؛ وتشفق عليه سبيتو وتسمح له أن يجتاز البحر فى أربعين يوماً كلها عواصف وزعازع حتى يصل إلى الجزيرة السعيدة التى يسكن فيها شمش — نيشتيم المخلد أبد الدهر . ويتوسل إليه جلجميش أن يفضى إليه بسر الخلود ورد عليه شمش — نيشتيم بأن يقص عليه قصة الطوفان ، وكيف سمت الآلهة على ما سببته فى سورة جنونها من دمار ، وكيف أبقت عليه هو وزوجته فخلدتهما لأنهما أنجيا النوع الإنسانى من الفناء . ويقدم إلى جلجميش نبتة تجدد ثمارها شباب من يأكلها ؛ ويبدأ جلجميش رحلته الطويلة إلى بلده مغتبطاً سعيداً ولكنه يقف فى طريقه ليستحم ، وبينا هو يفعل هذا إذ تخرج إليه أفعى وتسرق النبتة(*) .

ويصل جلجميش إلى أرَوك يائساً حزيناً ، ويطوف بالهياكل هيكلا بعد هيكل يصلى ويدعو الآلهة أن ترد الحياة إلى إنجيدو ولو لم تطل حياته إلا ريثما يكلمه كلمة واحدة . ويظهر إنجيدو ويسأله جلجميش عن حال الموتى ، فيرد عليه إنجيدو بقوله : « لا أستطيع أن أجيبك لأنى لو فتحت الأرض أمامك ، ولو أخبرتك بما رأيت لقضيت من شدة الهول ، ولغشى عليك » . ولكن جلجميش رمز الفلسفة ، وهى تلك البلاهة الجريئة ، يصر على طلب الحقيقة ويقول : « سيقضى علىّ الرعب ، وسيغشى علىّ ، ولكن خبرنى عنه » ويصف له إنجيدو أهوال الجحيم ، وبهذه النغمة الحزينة تختتم الملحمة الناقصة(١٠٤) .

(*) كان كثيرون من الأقدمين يعبدون الأفعى ويتخذونها رمزاً للخلود ، وذلك لقدرتها الظاهرة على الفرار من الموت بتبديل جلدها .

الفصل السابع

الفنـــانون

الفنون الصغرى – الموسيقى – التصوير – النحت – النقش القليل البروز – العمارة

تكاد تكون قصة جلجميش المثل الوحيد الذى نستطيع أن نحكم به على أدب البابليين . أما الفنون الصغرى فإن ما أبقت عليه المصادفات من آثارها يدل أنهم أوتوا قسطاً موفوراً من الإحساس بالجمال ، وإن لم يؤتوا روح الإبداع العميقة ، وعلى أن هذا الإحساس لم يقض عليه كله انهماكُهم فى الأعمال التجارية ، وفى الملاذ الجسمية ، وفى تقواهم التى أرادوا أن يعوضوا بها هذه الناحية من حياتهم . وإن قطع القرميد التى طليت وصقلت بأعظم عناية ، والحجارة البراقة ، وأدوات البرنز الدقيقة الصنع ، والحديد ، والفضة ، والذهب ، والتطريز الجميل ، والسجاجيد الوثيرة ، والثياب ذات الصبغات الجميلة ، والأقمشة المزركشة المعلقة على الجدران ، والمناضد المرتكزة على القواعد والسرر والكراسى[141] ، إن هذه المخلفات كلها لتخلع على الحضارة البابلية ثوباً قشيباً من الجمال والرونق وإن لم تخلع عليها كثيراً من القيمة أو الجلال . والحلى التى عثر عليها كثيرة ، ولكنها تنقصها الدقة الفنية التى نشاهدها فى حلى المصريين الأقدمين ، وكان أكبر ما يقصد بها أن تعرض المعدن الأصفر أكثر مما تعرض الفن الجميل ، ويظن صانعوها أن من جمال الفن أن تصنع تماثيل كاملة من الذهب[142] . وكان لدى البابليين آلات طرب كثيرة – ناى ، وقانون ، وقيثار ، ومزامير القرب ، وطبول وقرون ، ومزامير من الغاب ، وأبواق ، وصنوج ودفوف . وكان لهم فرق موسيقية ومغنون يعزفون ويغنون فرادى ومجتمعين فى الهياكل والقصور وفى حفلات الأثرياء[143] .

وكان التصوير بالألوان من الفنون الثانوية عند البابليين ، يستخدمونه فى تزيين الجدران والتماثيل ، ولم يحاولوا قط أن يجعلوا منه فناً مستقلا بذاته[144] . ولسنا نجد فى خرائب البابليين تلك النقوش الملونة التى تزدان بها قبور المصريين ، أو تلك المظلات التى تجمل قصور كريت ، كذلك لم يرق فن النحت عند البابليين ، ويلوح أن هذا الفن قد جمد وقضى عليه قبل أن يكتمل نموه ما ورثته بابل من القواعد التى جرى بها العرف عند السومريين ، وأرغمها الكهنة على اتباعها والجرى على سننها : فكل الوجوه المرسومة وجه واحد ، ولكن الملوك أجسام ممتلئة قوية العضلات ، والأسرى كلهم كأن تماثيلهم صبت فى قالب واحد ، ولم يبق من تماثيل البابليين إلا القليل ، ولم يكن ثمة ما يوجب هذه القلة . والنقوش القليلة البروز أحسن حالا من التماثيل ولكنها هى الأخرى فجة خشنة يتحكم فيها العرف والتقاليد ؛ وثمة فارق كبير بينها وبين نقوش المصريين القوية التى حفرها من قبلهم بألف عام . ولا تصل هذه النقوش إلى غايتها إلا حين تمثل الحيوانات وهى هادئة ساكنة مهيبة فى أرياضها الطبيعية ، أو مهتاجة أثارتها قسوة الإنسان[145] .

وليس فى وسعنا الآن أن نحكم حكماً عادلا على فن العمارة البابلى لأننا لا نكاد نجد شيئاً من مخلفات هذا الفن يرتفع فوق الرمال أكثر من بضع أقدام ، وليس بين آثارهم صور لعمائرهم منحوتة أو مرسومة ، يستدل منها بوضوح على أشكال القصور والهياكل وهندسة بنائها . وكانت البيوت تبنى من الطين ، أو من الآجر إن كانت للأغنياء منهم ، وقلما كانت لها نوافذ ؛ ولم تكن أبوابها تفتح على الشوارع الضيقة بل كانت تفتح على فناء داخلى مظلل من الشمس . وتصف الأخبار المتواترة بيوت الطبقات الراقية بأنها مكونة من ثلاث طبقات أو أربع[146] . أما الهياكل فكانت تقوم على قواعد فى مستوى سقف البيوت التى كانت تلك الهياكل تسيطر على حياة أهلها . وكان الهيكل فى الغالب بناء ضخماً من القرميد مشيداً كالبيوت حول فناء تقام فيه معظم الحفلات الدينية .

ويقوم إلى جوار المعبد فى أغلب الحالات برج عال يسمى بلغتهم زجورات (ومعناه « مكان عال ») يتكون من طبقات مكعبة الشكل بعضها فوق بعض ، وتتناقص كلما علت ، ويحيط بها سلم من خارجها . وكانت تستخدم إما فى الأغراض الدينية – فقد كانت مزاراً عالياً للإله صاحب الهيكل ، – وإما فى أغراض فلكية بأن تكون مرصداً يرقب منه الكهنة الكواكب التى تكشف عن كل شىء فى حياة الناس .

وكان الزاجورات العظيم الذى فى برسبا يسمى « مراحل الأفلاك السبعة » ، وكانت كل طبقة من طبقاته مخصصة لكوكب من الكواكب السبعة المعروفة عند البابليين ، وملوّنة بلون يرمز إلى هذا الكوكب . فكانت الطبقة السفلى سوداء اللون كلون زحل ، والتى تليها بيضاء كلون الزهرة ، والتى فوقها أرجوانية للمشترى ، والرابعة زرقاء لعطارد ، والخامسة قرمزية للمريخ ، والسادسة فضية للقمر ، والسابعة ذهبية للشمس . وكانت هذه الأفلاك والكواكب تشير إلى أيام الأسبوع السبعة مبتدئة من أعلاها[١٤٧] .

ولم يكن فى هذه المبانى – على قدر ما نستطيع أن نتبين من منظرها – شىء كثير عن الذوق الفنى ، فقد كانت كلها كتلا ضخمة من خطوط مستقيمة لا تتطاول إلى شىء أكثر من مجد الضخامة ، وقد نجد فى بقاع متفرقة بين الخرائب القديمة عقوداً وأقواساً ، وهى أشكال أخذت عن سومر ، واستخدمت فى غير عناية ومن غير علم بمصيرها . وكان ما فى المبانى من زينات فى داخلها وخارجها يكاد يقتصر على طلاء بعض أوجه الآجر ، بعد صقلها ، بالألوان الصفراء ، والزرقاء ، والبيضاء ، والحمراء ، وإقامة صُوَر من القرميد للحيوان والنبات فى مواضع قليلة من الجدران . وهذا « التزجيج » ، الذى لم يكن يقصد به تجميل البناء فحسب بل كان يقصد به أيضاً وقاية المبانى من الشمس والمطر ، قديم يرجع على الأقل إلى عهد نارام – سِن ، وقد ظل شائعاً فى أرض النهرين إلى أيام

الفتح الإسلامى . ولهذا السبب أضحت صناعة الخزف أخص فنون الشرق الأدنى القديم ، وإن لم تنتج من الأوانى الخزفية ما هو جدير بالذكر . لكن فن العمارة البابلى ظل على الرغم من هذا العون فناً ثقيلا خالياً من الجمال والأناقة ، قضت عليه المواد التى استخدمت فيه ألا يرقى إلى ما فوق الدرجة الوسطى . وما أسرع ما كانت الهياكل تقوم من الطين الذى حوّله العمال المسخرون إلى لبنات وملاط ، ولم تكن ثمة حاجة إلى قرون طوال كى تمتلئ بها البلاد كما احتاجت المبانى الكبيرة الباقية فى مصر وفى أوربا العصور الوسطى ، ولكنها تهدمت بنفس السرعة التى شيدت بها أو بما يقرب منها ، ولم يمض عليها إلا خمسون عاماً حتى عادت كما بدأت تراباً[١٤٨] . وكان رخص اللبن والآجر فى حد ذاته سبباً فى فساد الهندسة البابلية . لقد كان يسهل أن تقام من هذه المواد المبانى الضخمة ، أما الجمال فكان من الصعب أن يُنال باستخدامها . ذلك أن الآجر لا يعين على السموّ والجلال ، والسمو والجلال هما روح العمارة .

الفصل الثامن

علوم البابليين

الرياضة – الفلك – التقويم – الجغرافية – الطب

كان البابليون تجاراً ، ومن أجل هذا كان نجاحهم فى العلم أيسر من نجاحهم فى الفن . لقد أوجدت التجارة علوم الرياضة ، وتعاونت مع الدين على إيجاد الفلك . وكانت الأعمال المتعددة التى يقوم بها كهنة أرض الجزيرة ، من قضاء بين الناس ، وهيمنة على المصالح الحكومية ؛ وزراعة وصناعة ، وعرافة وخبرة بالنظر فى النجوم وفى أحشاء الحيوانات – كانت الأعمال التى يقوم بها هؤلاء الكهنة حافزاً لهم على أن يضعوا ، على غير علم منهم أسس العلوم التى كانت فى أيدى اليونان الملحدين سبباً فى إنزال الدين من مركز الزعامة والسيطرة على العالم .

وكانت علوم البابليين الرياضية تستند إلى تقسيم الدائرة إلى ٣٦٠ درجة ، وتقسيم السنة إلى ٣٦٠ يوماً . وعلى هذا الأساس وضعوا نظاماً ستينيا للعد والحساب بالسنين ، وهو النظام الذى نشأت منه فيما بعد النظم الاثنا عشرية ، التى تعدّ بالاثنى عشرات . وكانوا لا يستخدمون فى العد إلا ثلاثة أرقام – منها علامة للواحد تتكرر حتى تكون تسع علامات مماثلة الرقم ٩ ، وعلامة ثانية للرقم ١٠ تتكرر حتى تصل إلى ٥٠ ، وعلامة للرقم ١٠٠ ، وكان مما سهل لهم عملية العد والحساب أن وضعوا جداول لا تقتصر على ضرب الأعداد الصحيحة وقسمتها . بل تشمل أيضاً أنصاف الأعداد الرئيسية وأثلاثها ومربعاتها ومكعباتها . وتقدّم علم الهندسة حتى كان فى وسعهم أن يقدّروا المساحات المعقدة ومساحات الأشكال غير المنتظمة . وكانوا يقدّرون النسبة التقريبية (النسبة بين محيط الدائرة وقطرها) بثلاثة وهو عدد تقريبى لا يليق بأمة من الفلكيين .

وكان الفلك هو العلم الذى امتاز به البابليون ، وهو الذى اشتهروا به فى العالم القديم كله ، وهذا أيضاً كان السحر منشأ العلم فلم يدرس البابليون النجوم ليرسموا الخرائط التى تعين على مسير القوافل والسفن ، بل درسوها أكثر ما درسوها لتعينهم على التنبؤ بمستقبل الناس ومصائرهم ، وبذلك كانوا منجمين أكثر منهم فلكيين وكان كل كوكب من الكواكب إلها تهمه شئون الناس ولا غنى عنه فى تدبيرها . فكان المشترى مردك ، وعطارد نابو ، والمريخ نرجال ، والشمس شمش والقمر سن ، وزحل نبيب ، والزهرة إشتار . وكانت كل حركة من حركات كل نجم أو كوكب تدل على أن حادثاً وقع على الأرض أو تتنبأ بوقوعه . فإذا كان القمر منخفضاً مثلا ، كان معنى ذلك أن أمة بعيدة ستخضع للملك ، وإذا كان هلالا كان معناه أن الملك سيظفر بأعدائه . وأضحت الجهود التى تبذل لاستخلاص العلم بالمستقبل من حركات النجوم شهوة من شهوات البابليين ، واستطاع بها الكهنة الخبيرون بالتنجيم أن يجنوا أطيب الثمرات من الملوك والشعب على السواء . وكان من هؤلاء الكهنة من هو مخلص لعلمه مؤمن به ، ينقب بغيرة وحماسة فى المجلدات التى تبحث فى التنجيم ، والتى وضعت ، حسب رواياتهم المأثورة ، فى عهد سرجون ملك أكد . وكانوا يشكون من الدجالين الذين يسيرون بين الناس يقرءون لهم طالعهم أو يتنبئون بما سيكون عليه الجو بعد عام شأن تقاويمنا فى هذه الأيام ، كل هذا نظير أجور يتقاضونها وهم لم يدرسوا من التنجيم شيئاً(١٤٩).

ونشأ علم الفلك نشأة بطيئة من هذه الأرصاد ومن خرائط النجوم التى كانت تهدف إلى التنجيم والتنبؤ بالغيب ، وقد استطاعوا منذ عام ٢٠٠٠ ق . م أن يسجلوا بالدقة شروق الزهرة وغروبها بالنسبة إلى الشمس ، وحددوا مواضع عدد نجوم ، وأخذوا يصورون السماء على مهل(٥٠) . فلما فتح الكاشيون بلاد بابل توقف هذا التقدم نحو ألف عام ، ثم واصلوه من جديد فى عهد نبوخذ نصر ، فصوّر العلماء الكهنة مسارات الشمس والقمر ، ولاحظوا اقترانهما كما لاحظوا

الخسوف والكسوف ، وعينوا مسارات الكواكب ، وكانوا أول من ميز النجوم الثوابت من الكواكب السيارة تمييزاً دقيقاً[١٥١](*) ، وحددوا تاريخ الانقلابين الشتائى والصيفى ، وتاريخى الاعتدالين الربيعى والخريفى ، وساروا على النهج الذى سبقهم إليه السومريون فقسموا دائرة فلك البروج (أى مسار الأرض حول الشمس) إلى الأبراج الاثنى عشر . وبعد أن قسموا الدائرة إلى ٣٦٠ درجة عادوا فقسموا الدرجة إلى ستين دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية[١٥٢] : وكانوا يقدرون الزمن بالساعة المائية والمزولة ، وأكبر الظن أنهم لم يعملوا على ترقية هاتين الآلتين فحسب بل أنهم اخترعوهما اختراعاً[١٥٣] .

وقسموا السنة إلى اثنى عشر شهراً قمرياً ، منها ستة فى كل منها ثلاثون يوماً والستة الأخرى فى كل منها تسعة وعشرون . ولما كان مجموع أيامها على هذا الحساب لايبلغ إلا ٣٥٤ يوماً فإنهم كانوا يضيفون فى بعض السنين شهراً آخر لكى يتفق تقويمهم مع الفصول . وقسموا الشهر إلى أربعة أسابيع تتفق مع أوجه القمر الأربعة . وحاولوا أن يتخذوا لهم تقويماً أسهل من هذا بأن قسموا الشهر إلى ستة أسابيع كل منها خمسة أيام ، ولكن ثبت بعدئذ أن أوجه القمر أقوى أثراً من رغبات الناس ، وبقى التقسيم الأول كما كان . ولم يكونوا يحسبون اليوم من منتصف الليلة إلى منتصف الليلة التى تليها ، بل كان عندهم من شروق القمر(**) إلى شروقه التالى[١٥٤] ، وقسموا هذه المدة إلى اثنتى عشرة ساعة ، فى كل ساعة منها ثلاثون دقيقة ، وبذلك كان طول الدقيقة البابلية أربعة أضعاف ما قد يوحى إلينا اسمها . وإذن فتقسيم الشهر عندنا إلى أربعة أسابيع ، وتقسيم أوجه ساعاتنا

(*) كان البابليون يفرقون بين الكوكب والنجم « الثابت » برصد حركات الكوكب و « تجواله » . ويعرف علم الفلك الحديث الكوكب بأنه جرم سماوى يدور بانتظام حول الشمس .

(**) هكذا فى الأصل ولعل المؤلف يريد من شروق الشمس إلى شروقها ، وذلك لأن شروق القمر يتأخر فى كل ليلة عن سابقتها بنحو ٥٢ دقيقة ويجعل طول الساعة مختلفاً فى كل ليلة عنه فى الأخرى . (المترجم)

إلى اثنتى عشرة ساعة (لا إلى أربع وعشرين) وتقسيم الساعة إلى ستين دقيقة، والدقيقة إلى ستين ثانية، كل هذه آثار بابلية لا شك فيها باقية من أيامهم إلى عهدنا الحاضر(*)، وإن كان لا يخطر لنا على بال.

وكان اعتماد العلوم البابلية على الدين وارتباطها به أقوى أثراً فى ركود الطب منه فى ركود الفلك. على أن أساليب الكهنة الخفية لم تحل دون تقدم العلوم بقدر ما حال دونه تخريف الشعب. ذلك أن علاج المرضى قد خرج إلى حد ما عن اختصاص الكهنة وسيطرتهم من أيام حمورابى، ونشأت مهنة منتظمة للأطباء ذات أجور وعقوبات يحددها القانون، فكان المريض الذى يستدعى طبيباً لزيارته يعرف مقدما كم من المال يجب عليه أن يؤديه نظير هذا العلاج أو ذاك ونظير هذه الجراحة أو تلك، وإذا كان هذا المريض من الطبقات الفقيرة نقص الأجر لكى يتناسب مع فقره[١٥٧]. وإذا أخطأ الطبيب أو أساء العمل كان عليه أن يؤدى للمريض تعويضاً. بل لقد بلغ الأمر فى بعض الحالات التى يكون فيها الخطأ شنيعاً أن تقطع أصابع الطبيب كما سبق القول، حتى لا يمارس صناعته عقب هذا الخطأ مباشرة[١٥٨]

ولكن هذا العلم الذى تحرر من سلطان الدين تحرراً يكاد يكون تاماً كان عاجزاً بسبب حرص الشعب على التشخيص القائم على الخرافات والأوهام، وعلى العلاج بالأساليب السحرية. ومن أجل هذا كان السحرة والعرافون أحب إلى الشعب

(*) وانتقل البابليون من رسم السماء إلى رسم الأرض. وأقدم ما نعرف من الخرائط هى التى خطط فيها الكهنة طرق إمبراطورية نبوخذ نصر ومدنها[١٥٥]. ولقد عثر المنقبون فى خرائب جاسور (التى تبعد عن بابل مائتى ميل شماليها) على لوح من الطين يرجع تاريخه إلى عام ١٦٠٠ ق. م ويحتوى، فى مساحة لا تكاد تبلغ بوصة واحدة، على خريطة لمقاطعة شط — أزلا، وقد مثلت فيها الجبال بخطوط دائرية، والمياه بخطوط مائلة، والأنهار بخطوط متوازية. وكتبت عليها أسماء عدد من المدن، وبين فى هامشها اتجاه الشمال والجنوب[١٥٦].

من الأطباء ، وقد فرضوا على الناس ، بفضل نفوذهم عندهم ، طرقاً للعلاج أبعد ما تكون عن العقل . فكان منشأ المرض فى رأيهم تقمص الشيطان جسم المريض لذنب ارتكبه ، وكان أكثر ما يعالج به لهذا السبب تلاوة العزائم وأعمال السحر والصلوات ، فإذا ما استخدمت العقاقير الطبية ، فإنها لم تكن تستخدم لتطهير جسم المريض ، بل كان استخدامها لإرهاب الشيطان وإخراجه من الجسم . وكان أكثر الأدوية شيوعاً عقاراً مكوناً من خليط من العناصر التى تعافها النفس اختيرت لهذا السبب عن قصد ، ولعلهم كانوا يفترضون أن معدة المريض أقوى من معدة الشيطان الذى يتقمصه . وكانت العناصر المألوفة لديهم هى اللحم النيئ ، ولحم الثعابين ، ونشارة الخشب الممزوجة بالنبيذ والزيت ، أو الطعام الفاسد ، ومسحوق العظام ، أو الشحم والأقذار ، ممزوجة ببول الحيوان أو الإنسان أو برازه(١٥٩) . وفى بعض الحالات كان يستبدل بهذا العلاج بالأقذار لبن وعسل وزبد وأعشاب عطرة يحاولون بها استرضاء الشيطان . فإذا لم يفلح مع المريض كل علاج ، حُمل فى بعض الحالات إلى السوق لكى يتمكن جيرانه من أن يشبعوا رغبتهم القديمة فيصفوا له العلاج الفعال الذى لا يخطئ(١٦١) .

على أن من واجبنا أن نقول إن الثمانمائة لوح التى بقيت لدينا لتحدثنا عن طب البابليين لا تحتوى على كل ما كان لديهم منه ، ولعلنا نظلمهم إذا حكمنا عليهم بما نجده فيها وحدها . ذلك أن استعادة الكل الضائع من جزء صغير عثر عليه منه من أشد الناس خطورة فى التاريخ ، وليست كتابة التاريخ إلا إعادة الكل من جزئه . وليس ببعيد ألا يكون العلاج بالسحر إلا استخداماً لقوة الإيحاء استخداماً ينطوى على كثير من الدقة ، ولعل هذه المركبات الكريهة كان يقصد

بها أن تكون مقيئات . ولعل البابليين حين يقولون إن المرض ينشأ من غزو الشياطين جسم المريض عقاباً له على ما يرتكبه من الذنوب ، لا يقصدون بقولهم هذا شيئاً أبعد من المعقول من قولنا نحن إن المرض ينشأ من غزو البكتريا لجسم المريض بسبب إهماله الإجرامى أو عدم نظافته أو نهمه . وقصارى القول أن من واجبنا ألا نكون واثقين كل الثقة من جهل أسلافنا .

الفصل التاسع

الفلاسـفة

الدين والفلسفة – أيوب البابليين – كحيلمث البابليين – رجل يقاوم الكهنة

إن الأمم تولد رواقية وتموت أبيقورية ، يقوم الدين إلى جانب مهدها (كما يقول المثل القديم) ، وتصحبها الفلسفة إلى قبرها . ففي بداية الثقافات كلها ترى عقيدة دينية قوية تخفى عن أعين القوم كنه الأشياء وترقق من طباعهم ، وتبث في قلوبهم من الشجاعة ما يستطيعون به أن يتحملوا الآلام ويقاسوا الصعاب وهم صابرون ، تقف الآلهة إلى جانبهم في كل خطوة يخطونها ، ولا تتركهم يهلكون إلا حين يهلكون ، وحتى في هذه الحال يحملهم إيمانهم القوى على الاعتقاد بأن خطاياهم هي التي أغضبت الآلهة فانتقموا منهم . ذلك أن ما يصيب الناس من شر لا يفقدهم إيمانهم ، بل يقويه في قلوبهم ، فإذا جاء النصر ، وإذا نسوا الحرب لطول ما ألفوه من الأمن والسلام ، ازدادت ثروتهم ، واستبدلت الطبقات المسيطرة بحياة الجسم حياة الحواس والعقل ، وحلت اللذة والراحة محل الكدح والمتاعب ، وأضعف العلمُ الدين بينما يضعف التفكير والدعة ما في الناس من رجولة وصبر على المكاره . وأخيراً يبدأ الناس يرتابون في آلهتهم ، ويندبون مأساة المعرفة ، ويلجأون إلى كل لذة عاجلة زائلة يعتصمون بها من سوء مصيرهم . فهم في البداية كأخيل وفي النهاية كأبيقور ؛ وبعد داود يأتي أيوب ، وبعد أيوب يأتي سفر الجامعة .

وإذ كنا لا نستدل على تفكير البابليين إلا من أيام ملوكهم المتأخرين ، فإنه من الطبيعي أن نجد هذا التفكير تسرى فيه حكمة الكلالة الصادرة من أفواه الفلاسفة المتعبين الذين يستمتعون بالملاذ كما يستمتع بها الإنجليز . فترى على أحد

الألواح مثلا بلطا – أرتوا يشكو من أنه التزم أوامر الآلهة أشد مما التزمها جميع الناس ؛ ولكنه مع هذا أصابته طائفة من البلايا ، فقد أبويه ، وخسر ماله ، وحتى القليل الذى بقى له منه سرق فى الطريق . ويجيبه أصدقاؤه – كما يجيب أيوب أصدقاؤه – بأن ما حل به من البلاء ليس إلا عقاباً له على خطايا خافية عنه – وربما كان جزاء له على صلفه العاتى المنبعث من طول عهده بالرخاء ، وهو أشد ما يثير غضب الآلهة وحسدها ، ويؤكدون له أن الشر ليس إلا خيراً مقنعاً ، وأنه جزء من السنن الإلهية ينظر إليه المرء نظرة جد ضيقة بعقله الضعيف ، وهو غافل عن هذه السنن فى مجموعها ، وأنه إذا ما استمسك بإيمانه وشجاعته فإنه سيجزى فى آخر الأمر خير الجزاء ؛ وسينال ما هو خير من هذا وهو أن أعداءه سيلقون عقابهم ؛ وينادى بلطا – أرتوا الآلهة يطلب إليها العون – ثم تختتم القطعة الباقية من اللوح ختاماً مفاجئاً[١٦٢] .

وتعرض قصيدة أخرى وجدت ضمن بقايا مجموعة الآداب البابلية التى خلفها أشور بانيبال هذه المشكلة بعينها عرضاً أدق حين يتحدث تابى – أتول – أنليل ، وهو كما يلوح أحد حكام نيور ، عن نفسه فيقول فى وصف ما لاقاه من الصعاب(*) :

(طمس على مقلتى كأنما أغلقهما) بقفل ؛

(ووقر أذنى) كأذنى الشخص الأصم .

وكنت ملكاً فصرت عبداً ؛

وأساء رفاة (ى) معاملتى كأن بى جنة .

ابعث إلىّ العون ونجنى من الوهدة التى احتفرت (لى) ! . . .

بالنهار حسرات عميقة ، وبالليل بكاء ؛

وطول الشهر – صراخ ؛ وطول العام – شقاء . .

(*) الألفاظ الموضوعة بين قوسين ألفاظ ظنية .

ثم يواصل قوله فيخبرنا كيف كان طول حياته إنساناً تقياً ، وكيف كان آخر شخص فى العالم يصح أن يكون مصيره هذا المصير القاسى :

كأنى لم أخصص للإله نصيبه على الدوام ؛
ولم أبتهل إلى الآلهة وقت الطعام ،
ولم أعنُ بوجهى وآتى بخراجى ؛
وكأنى إنسان لم يكن التضرع والدعاء دائمين على لسانه .
لقد علمت بلدى الاحتفاظ باسم الإله ؛
وعوّدت شعبى أن يُعظم اسم الإلهة . . .
وكنت أظن أن هذه الأشياء مما يسرّ أى إله ؟

ولما أصابه المرض على الرغم من كل هذا التقى الشكلى ، أخذ يفكر فى استحالة الوقوف على تدبير الآلهة وفى تقلبات شئون البشر .

من ذا الذى يدرك إرادة آلهة السماء !
إن تصاريف الإله كلها غموض — فمن ذا الذى يدركها ؟ . . .
إن من كان بالأمس حياً أصبح اليوم ميتاً ،
وما هى إلا لحظة حتى تتقسمه الغموم ، ويتحطم قلبه فجأة ،
فهو يغنّى ويلعب لحظة ؛
وما هى إلا طرفة عين حتى يندب حظه كالمحزون . . .
لقد لفّنى الهم كأنه شبكة ،
تتطلع عيناى ولكنهما لا تبصران . . . ،
وأذناى مفتوحتان ولكنهما لا تسمعان . . . ؛
وقد سقط الدنس على عورتى ،
وهاجم الغدد التى فى أحشائى . . .
وأظلم من الموت جسمى كله . . .

يطاردنى المطارد طوال النهار ؛
ولا يترك لى بالليل لحظة أتنفس فيها . .
لقد تفككت أطرافى ، فلم تعد تمشى مؤتلفة ،
وأقضى الليل بين أقذارى كما يقضيه الثور ؛
وأختلط ببرازى كما يختلط الضأن .
ثم يعود فيجهر بإيمانه كما فعل أيوب فيقول :
ولكنى أرى اليوم الذى تجف فيه دموعى ،
اليوم الذى يدركنى فيه لطف الأرواح الواقية ،
ويومئذ تكون الآلهة رحيمة بى(١٦٣) .

ثم تنقلب الأحوال كلها سعادة وهناءة ، فيظهر أحد الأرواح الطيبة ، ويشفى تابى من جميع أمراضه ؛ وتهب عاصمة هوجاء فتطرد شياطين المرض كلها من جسمه . ويسبّح بحمد مردك ، ويقرب له القرابين النفسية ، ويهب بالناس جميعاً ألا يقنطوا من رحمة الآلهة(*) .

وليس بين هذا وبين ما ورد فى سِفر أيوب إلا خطوة واحدة ، كذلك نرى فى الآداب البابلية أمثلة سابقة لا يمكن الخطأ فيها مما ورد فى سِفر الجامعة من الكتاب المقدس . من ذلك ما ورد فى ملحمة جلجميش من نصح الإلهة سبيتو لهذا البطل بأن يكف عن شوقه إلى الحياة بعد الموت ، وأن يأكل ويشرب ، ويستمتع على ظهر الأرض :

أى جلجميش . لم هذا الجرى فى جميع الجهات ؟
إن الحياة التى تسعى لها لن تجدها أبداً .
إن الآلهة حين خلقت بنى الإنسان قدّرت الموت على بنى الإنسان ؛

(*) وأكبر الظن أن هذه الأقوال ، التى نجد سوابق مثلها فى الأدب السومرى ، كان لها أثر فى واضع سفر أيوب(١٦٤) .

واحتفظت بالحياة فى أيديها .
أى جلجميش ، املأ بطنك ؛
وكن مرحاً بالنهار وبالليل ؛ . . . .
بالنهار وبالليل كن مبتهجاً راضياً !
وطهر ثيابك .
واغسل رأسك ؛ اغتسل بالماء !
وألق بالك إلى الصغير الذى يمسك بيدك ؛
واستمتع بالزوجة التى تضمها إلى صدرك[١٦٥](*) .

ونستمع فى لوحة أخرى إلى نغمة أشد من هـــذه حزناً تختتم بالكفر والتجديف . ذلك أن جبارو وهو عند البابليين كألقبيادس عند اليونان ، يسأل إنساناً يكبره أسئلة ملؤها الشك فيقول :

أيها العاقل الحكيم ، يا صاحب الذكاء ، تأوه من صميم قلبك !
إن قلب الإله بعيد بعد أطباق السماوات الداخلية ،
والحكمة صعبة ، والناس لا يفهمونها .
ويجيبه الشيخ متشائماً تشاؤم عاموس وإشعيا :
استمع ، يا صديقى ، وافهم أفكارى .
إن الناس يمجدون عمل الرجل العظيم الذى يبرع فى القتل ،
ويحقرون الرجل الفقير الذى لم يرتكب ذنباً .

(*) وازن بين هذه الأقوال وبين ما ورد فى الآيات السابعة والثامنة والتاسعة من الإصحاح التاسع من سفر الجامعة : ٧ – اذهب كل خبزك بفرح ، واشرب خمرك بقلب طيب ، لأن الله منذ زمان قد رضى عملك . ٨ – لتكن ثيابك فى كل حين بيضاء ولا يعوز رأسك الدهن . ٩ – التذ عيشاً مع المرأة التى أحببتها كل أيام حيوة باطلك التى أعطاك إياها تحت الشمس ، كل أيام باطلك لأن ذلك نصيبك فى الحيوة وفى تعبك الذى تتعبه تحت الشمس .

ويبررون أعمال الرجل الآثم الذى يقترف أشنع الأخطاء

ويردون الرجل العادل الذى يسعى لما يريده الله ،

وهم يسلطون القوى ليغتال طعام الضعيف ؛

ويقوون القوى ،

ويهلكون الرجل الضعيف ، ويطرده الرجل الغنى .

وينصح جبارو مع هذا أن يفعل ما تريده الآلهة . ولكن جبارو يقطع صلاته بها وبالكهنة الذين ينصرون على الدوام أكبر الناس ثراء .

إنهم لم ينقطعوا عن عرض الأكاذيب والأضاليل

يقولون باللفظ الشريف ما كان فى صالح الرجل الغنى .

هل نقصت ثروته ؟ إنهم يبادرون إلى معونته .

وهم يسيئون معاملة الضعيف كأنه لص ،

وهم يهلكونه فى خلجة عين ، ويطفئونه كما يطفئون اللهب[196] .

وليس لنا مع ذلك أن نبالغ فى شأن ما نجده عند البابليين من مزاج سوداوى ، وما من شك فى أن الناس كانوا يصغون فى رضى ومحبة إلى ما يقوله كهانهم ، ويزدحمون فى الهياكل يطلبون رضاء الآلهة ، لكن الذى يدهشنا بحق هو طول إيمانهم بدينهم الذى لا يعرض عليهم إلا القليل من أسباب المواساة والسلوى ؛ وهل ثمة شىء من هذين فى قول الكهنة أن لا شىء يمكن أن يعرف إلا بالوحى الإلهى ؛ وإن هذا الوحى لا يصل إلى الناس إلا عن طريقهم هم ؟ ويحدثنا الفصل الأخير من هذا الوحى عن هبوط الروح الميتة صالحة كانت أو طالحة إلى أرالو أى الجحيم لتبقى فيها أبد الدهر فى ظلام وعذاب مقيم . فلا عجب والحالة هذه إذا انصرف البابليون للقصف والمرح فى الوقت الذى جُن فيه نبوخذ نصر بعد أن ملك كل شىء ولم يدرك أى شىء ، وأمسى يرهب كل شىء .

الفصل العاشر

قبرية(*)

تحدثنا الروايات المتواترة كما يحدثنا سفر دانيال ــ الذى لم تؤيده أية وثيقة معروفة ــ أن نبوخذ نصر بعد أن حكم زمناً طويلا ، حالفه فيه النصر والرخاء على الدوام ، وبعد أن جمّل مدينته بما شقه فيها من الطرق وما شاده من القصور ، وبعد أن بنى للآلهة أربعة وخمسين هيكلا ، بعد أن فعل هذا كله انتابته نوبة غريبة من الجنون ، فظن نفسه حيواناً ومشى على أربع واقتات بالكلأ[١٦٧] . ويختفى اسمه أربع سنين كاملة من التاريخ ومن سجلات بابل الحكومية[١٦٨] . ثم يعود فيظهر لحظة قصيرة ثم ينتقل إلى الدار الآخرة فى عام ٥٦٢ ق . م

ولا تكاد تمضى على وفاته ثلاثون عاماً حتى تتصدع إمبراطوريته وتتمزق شر ممزق . وحكم بعده نابونيدس وجلس على العرش سبعة عشر عاماً آثر فيها أعمال الحفر على مهام الحكم ، وصرف وقته وجهده فى التنقيب عن عاديات سومر وترك مملكته تتداعى[١٦٩] . فاضطربت أحوال الجيش ، وانهمك رجال الأعمال فى شئون المال العليا الدولية ، فنسوا حبهم لبلادهم ، وغفل الناس عن فنون الحرب لاشتغالهم بشئون التجارة وانغماسهم فى الملذات .

واغتصب الكهنة سلطان الملوك شيئاً فشيئاً ، وملأوا خزائنهم بالأموال التى أغرت الدول الأجنبية بغزو البلاد وفتحها . ولما أن وقف قورش وجيوش الفرس النظامية المدربة على أبواب بابل رضيت الطائفة المعادية للكهنة من البابليين أن تفتح له هذه الأبواب ، ورضيت بسيطرته المستنيرة[١٧٠] .

(*) القبرية العبارة المكتوبة على القبر Epitaph .　　(المترجم)

وحكم الفرس بابل قرنين من الزمان كانت فى خلالها شطراً من أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ حتى ذلك الوقت ، ثم أقبل الإسكندر بجبروته وافتتح المدينة دون أن يجد منها أية مقاومة ، وظل يشرب الخمر فى قصر نبوخذ نصر حتى مات[١٧١] .

ولم تفد البشرية من الحضارة البابلية ما أفادته من حضارة المصريين ، ولم يكن فيها من التنوع والعمق ما فى حضارة الهند ، كما لم يكن فيها من الدقة والنضوج ما فى حضارة الصين . على أن بابل هى التى أنشأت ذلك القصص الساحر الجميل الذى أصبح بفضل براعة اليهود الأدبية الفنية جزءا لا يتجزأ من قصص أوربا الديني . ومن بابل لا من مصر جاء اليونان الجوالون إلى دويلات مدنهم بالقواعد الأساسية لعلوم الرياضة ، والفلك ، والطب ، والنحو ، وفقه اللغة ، وعلم الآثار ، والتاريخ ، والفلسفة . ومن دويلات المدن اليونانية انتقلت هذه العلوم إلى رومة ومنها إلى الأوربيين والأمريكيين ؛ وليست الأسماء التى وضعها اليونان للمعادن ، وأبراج النجوم ، والموازين ، والمقاييس ، وللآلات الموسيقية ، ولكثير من العقاقير ، ليست هذه كلها إلا تراجم لأسمائها البابلية ، بل إنها فى بعض الأحيان لا تعدو أن تكون بديلا لحروفها من الأحرف البابلية إلى اليونانية[١٧٢] . وبينما استمد فن العمارة اليونانية أشكاله وإلهامه من مصر وكريت ، فإن العمارة البابلية هى التى أوحت عن طريق الزجورات بقباب المساجد الإسلامية ، وبالمنارات والأبراج فى العصر الوسيط ، وبطراز المبانى المرتدة فى أمريكا فى هذه الأيام . وأضحت قوانين حمورابى تراثاً للمجتمعات القديمة كلها لا يقل فى شأنه عما ورثه العالم من رومة من نظام الحكم وأساليبه . ولقد انتقلت حضارة أرض النهرين من مهدها وأضحت عنصراً من التراث الثقافى للجنس البشرى بفضل سلسلة طويلة من الأحداث التاريخية الخطيرة . فقد فتحت أشور بابل واستحوذت على تراث هذه المدينة القديمة ،

ونشرته فى جميع أنحاء إمبراطوريتها الواسعة ؛ وتلا ذلك أسر اليهود الطويل وما كان للحياة وللأفكار البابلية فيهم من أثر عظيم ، وأعقب هذا وذاك الفتحان الفارسى واليونانى اللذان فتحا جميع طرق التجارة والمواصلات بين بابل والمدن الناشئة فى أيونيا وآسية الصغرى واليونان ، فتحا لم يشهد العالم من قبل له نظيراً فى كماله وحريته .

إن شيئاً ما لا يضيع من العالم آخر الأمر ، بل إن كل حادثة تترك فيه أثرها خالدا إلى أبد الدهر ، خيراً كان ذلك الأثر أو شراً .

الباب العاشر

أشـــور

الفصل الأول

أخبارها

بداية تاريخها – مدنها – أصل سكانها – الفاتحون – سنحريب
وعصر هدون – « سردناباالوس »

فى أثناء الأحداث التاريخية السالفة الذكر ظهرت حضارة جديدة إلى شمال بابل وعلى بعد ثلثمائة ميل منها . واضطر أهل البلاد التى نشأت فيها هذه الحضارة أن يحيوا حياة عسكرية شاقة أرغمتهم عليها القبائل الجبلية التى كانت لا تنفك تهددهم من جميع الجهات . وما لبثوا أن غلبوا هؤلاء المهاجمين واستولوا على المدن التى كانت مهدهم الأول فى عيلام وسومر وأكد وبابل ؛ وتغلبوا على فينيقية ومصر ، وظلوا مائتى عام كاملة يسيطرون بقوتهم الوحشية على بلاد الشرق الأدنى . وكان موقف سومر من بابل ، وموقف بابل من أشور كموقف كريت من بلاد اليونان وموقف بلاد اليونان من رمة ؛ فقد أنشأت المدينة الأولى حضارة ، وتعهدتها الثانية وأتمتها حتى بلغت ذروتها ، وورثتها الثالثة ، وأضافت إليها من عندها ، وحمتها ، وأسلمتها وهى تحتضر هدية منها إلى البرابرة الظافرين الذين كانوا يحيطون بها . ذلك أن البربرية تحيط على الدوام بالحضارة ، وتستقر فى وسطها ومن تحتها ، متحفزة لأن تهاجمها بقوة السلاح ، أو بالهجرة الجماعية ، أو بالتوالد غير المحدود . وما أشبه البربرية بالغابة المتلبدة فى البلاد الاستوائية تحاول أشجارها على الدوام

أن تقضى على معالم الإنسان المتحضر وتقاوم جهوده ، ولا تعترف قط بهزيمتها ، بل تظل قروناً طوالا صابرة تترقب حتى تتاح لها الفرصة لاستعادة ما فقدته من أرضين بفعل الإنسان المتحضر .

ونشأت الدولة الجديدة حول أربع مدائن ترويها مياه نهر دجلة وروافده ، وهى أشور ومحلها الآن قلعة شرغات ، وأربلا وهى إربل الحالية ، والكلخ وهى الآن نمرود ، ونينوى وهى قوير نجلك ، على الضفة المقابلة لمدينة موصل مدينة الزيت . وقد عثر المنقبون فى أطلال أشور على شظايا من السبج - الحجر الزجاجى الأسود - وعلى سكاكين وقطع من الفخار الأسود عليها رسوم هندسية توحى بأنها من أصل أسيوى[1] ، وكل هـذه من مخلفات عصر ما قبل التاريخ . وكشفت بعثة أثرية حديثة فى تبى جورا ، بالقرب من موقع نينوى عن بلدة يَرُد كاشفوها الفخورون تاريخها إلى عام ٣٧٠٠ ق . م رغم ما فيها من هياكل وقبور كثيرة ، وأختام اسطوانية متقنة النقش ، وأمشاط وحلى ، ورغم ما عثروا عليه فيها من نرد هو أقدم نرد عُرف فى التاريخ[2] . وتلك مسألة جديرة بتفكير المصلحين فى هذه الأيام . وخلع الإله أشور اسمه على مدينة من مدنها (ثم على القطر كله آخر الأمر) ؛ وفى هذه المدينة كان يسكن أقدم ملوك هذه الأمة ، وظلوا يقيمون بها حتى اضطروا بسبب تعرضها لحر الصحراء اللافح ولهجمات جيرانهم البابليين إلى إنشاء عاصمة ثانية لهم فى مكان أقل من العاصمة الأولى حرارة ، وكانت هذه العاصمة الثانية هى نينوى ؛ واسمها هى أيضاً مأخوذ من اسم إله من آلهتهم هو الإله نينا إشتار الأشوريين . وكان ثلثمائة ألف من الأهلين يسكنون فى نينوى أيام مجدها فى عهد أشور بانيبال كما كان ملوكها - ملوك الأرض عادة - يتلقون الجزية من جميع بلاد الشرق القريبة .

وكان الأهلون خليطاً من الساميين الذين وفدوا إليها من بلاد الجنوب المتحضرة (أمثال بابل وأكد) ، ومن قبائل غير سامية جاءت من الغرب

(ولعلهم من الحثيين أو من قبائل تمت بصلة إلى قبائل ميتانى) ، ومن الكرد سكان الجبال الآتين من القفقاس[3] ، وأخذ هؤلاء كلهم لغتهم المشتركة وفنونهم من سومر ، ولكنهم صاغوها فيما بعد صياغة جديدة جعلتها لا تكاد تفترق فى شىء عن لغة أرض بابل وفنونها . بيد أن ظروفهم الخاصة باعدت بينهم وبين النعيم المخنث الذى انحدر إليه البابليون[4] ؛ ولذلك ظلوا طوال عهدهم شعباً محارباً مفتول العضلات ، ثابت الجنان ، غزير الشعر ، كث اللحى ، معتدل القامة ، يبدو رجاله فى آثارهم عابسين ، ثقيلى الظل ، يطئون بأقدامهم الضخمة عالم البحر المتوسط الشرقى . وتاريخهم هو تاريخ الملوك والرقيق ، والحروب والفتوح ، والانتصارات الدموية والهزائم المفاجئة . واغتنم ملوكهم — الكهنة الأوائل — وكانوا أقيالا خاضعين لأهل الجنوب — سيطرة الكاشيين على بابل فاستقلوا عنها ، ولم يمض إلا القليل حتى ازدان أحدهم باللقب الذى ظل ملوك أشور يتباهون به طوال عهدهم وهو « الملك صاحب الحكم الشامل » . ويبرز أمامنا من بين هؤلاء الأقيال الخاملى الذكر أفراد تهدينا أعمالهم إلى معرفة السبيل التى سلكتها بلادهم فى نمائها وتطورها(*) .

فبينا كانت بلاد بابل تتخبط فى ظلمات حكم الكاشيين ضم سلما نصر الأول دويلات المدن الشمالية تحت حكمه ، واتخذ الكلخ عاصمة له . على أن أول الأسماء العظيمة فى تاريخ أشور هو اسم تغلث فلاصر الأول . كان هذا الملك صياداً ماهراً ، وإذا كان من الحكمة أن نصدق أقوال الملوك فإنه قد قتل وهو راجل مائة وعشرين أسداً ، وقتل وهو فى عربته ثمانمائة[5] ، وجاء فى نقش خطه كاتب أكثر ملكية من الملك نفسه — أنه كان يصيد الأمم والحيوانات على

(*) وقد وجدت من عهد قريب فى خرائب مكتبة سرجون الثانى لوحة تحتوى ثبتا متصلا لا ثغرة فيه بأسماء الملوك الأشوريين من الأسرة الثالثة والعشرين إلى أشور نيرارى (٧٥٣ – ٧٤٦ ق . م[14]) .

السواء . « وسرت فى بأسى الشديد على شعب قمره ، وفتحت مدائنهم ، وسقت منها الغنائم ، واستوليت على ما لاحصر له من بضائعهم وأملاكهم ، وحرقت مدنهم بالنار ، ودمرتها وخربتها . . . وخرج أهل ادَنَش من جبالهم واحتضنوا قدَمى ، وفرضت عليهم الجزية[٦] » . وقد ساق هذا الملك جيوشه فى كل اتجاه ، فأخضع الحثيين والآرمن وأربعين أمة غيرهما ، واستولى على بابل ، وأرهب مصر فأرسلت له الهدايا وهى قلقة وَجلة ، (وكان منها تمساح ألانه كثيراً وخفف من غضبه) . وبنى من الخراج الذى دخل خزائنه هياكل لآلهة الأشوريين ولإلاهاتهم ، ولم تسأله هذه الآلهة عن مصدر هذه الثروة كلها كأنما كان همها كله أن تكون لها هياكل تقرب فيها القرابين . ثم خرجت بابل عليه ، وهزمت جيوشه ، ونهبت هياكله ، وعادت إلى بابل تحمل معها آلهته أسرى . ومات تغلث فلاصر خزيا وغما[٧] .

وكان حكمه رمزاً للتاريخ الأشورى كله وصورة مصغرة منه : حرب وجزية فرضهما على جيران أشور ثم فُرضا على أشور نفسها . واستولى أشور ناصر بال على اثنتى عشرة دولة صغيرة ، وعاد من حروبه بمغانم كثيرة ، وسمل بيده عيون خمسين من الأسرى ، واستمتع بنسائه ، ومات ميتة شريفة[٩] . ومد سلما نصر الثالث هذه الفتوح حتى دمشق ، وحارب عدة وقائع تكبد فيها خسائر فادحة ، وقتل فى واقعة واحدة ستة عشر ألفاً من السوريين ، وشيد الهياكل ، وفرض الجزية على المغلوبين . ثم ثار عليه ابنه ثورة عنيفة وخلعه[٩] . وحكمت سمورامات أم الملك ثلاث سنين ، وكان حكمها هو الأساس التاريخى الراهن لأسطورة سميراميس اليونانية ، التى تجعل منها نصف إلهة ونصف ملكة ، وقائدة باسلة ، ومهندسة بارعة ، وحاكمة محنكة مدبرة . وتلك الأسطورة هى كل ما نعرفه عن هذه الملكة . وقد وصفها ديودور الصقلى وصفاً مفصلا بديعاً[١٠] .

وجيّش تغلث فلاصر الثالث جيوشاً جديدة ، واستعاد أرمينية ، واجتاح سوريا

وبابل ، وأخضع لحكمه دمشق والسامرة ، وبابل . ومد ملك أشور من جبال القفقاس إلى مصر . ولما مل الحرب وجه همه إلى شئون الحكم ؛ فأثبت أنه إدارى عظيم ، وشاد كثيراً من الهياكل والقصور ، وساس إمبراطوريته الراسخة سياسة قوية حازمة ، وأسلم روحه وهو فى فراشه وجلس على العرش سرجون الثانى ، وهو ضابط من ضباط الجيش ، على أثر انقلاب سياسى نابليونى ، وقاد جيوشه بنفسه ، وكان فى كل واقعة يتخذ لنفسه أشد المواقف خطورة[11] ، وهزم عيلام ومصر ، واسترد بابل . وخضع له اليهود والفلسطينيون بل واليونان سكان قبرص ، وحكم دولته حكماً صالحاً ، وناصر الفنون والآداب ، والصناعة والتجارة ، ومات فى واقعة نال فيها النصر على أعدائه ، ورد فيها عن أشور غارات الجحافل الكمرية المتوحشة التى كانت تهددها بالغزو .

وقضى ابنه سنحريب على الفتن التى ثار عجاجها فى الولايات المجاورة للخليج الفارسى ، وهاجم أورشليم ومصر دون أن يلقى نجاحاً(*) ، ونهب تسعا وثمانين مدينة ، وثمانمائة وعشرين قرية ، وغنم سبعة آلاف ومائتى جواد ، وأحد عشر ألف حمار وثمانين ألف ثور ، وثمانمائة ألف رأس من الغنم ، ومائتين وثمانية آلاف من الأسرى[11] وهى أرقام لم يستخف بها الكاتب الرسمى الذى كتب سيرته ثم غضب على بابل لنزعتها إلى الحرية فحاصرها ، واستولى عليها ، وأشعل فيها النار فدمرتها تدميراً ، ولم يكد يبقى على أحد من أهلها رجلا كان أو امرأة ، صغيراً كان أو كبيراً ، بل قتلهم عن آخرهم تقريباً ، حتى سدت جثثهم مسالك المدينة ، ونهبت المعابد حتى لم يبق فيها شاقل واحد ، وحطمت آلهة بابل صاحبة السلطان الأعظم القديم ، وسيقت أسيرة ذليلة إلى نينوى . وأصبح مردك الإله الأكبر

(*) وتعزو الرواية المصرية نجاة مصر إلى فعل جماعة من جرذان الحقول الفطنة قرضت كنائن الجيوش الأشورية المعسكرة أمام بلوزيوم ؛ وأوتار قسيهم ؛ وأربطة دروعهم ، فاستطاع المصريون بذلك أن يهزموا الأشوريين فى اليوم الثانى دون عناء كبير(12) .

خادماً ذايلا للرب أشور . ولم ير من بقى حيا من البابليين أنهم كانوا مبالغين فى تقدير قوة مردك وعظمته ؛ بل قالوا لأنفسهم ما قاله الأسرى اليهود بعد مائة عام من ذلك الوقت ، قالوا إن إلههم قد شاء له تواضعه أن ينهزم ليعاقب بذلك شعبه ؛ واستخدم سنحريب غنائم نصره وما انتهبه من البلاد المفتوحة فى إعادة بناء نينوى ، وحول مجرى النهرين لحمايتها من الاعتداء ، وبذل فى إصلاح الأرض البور من القوة والنشاط ما تبذله الدول التى تشكو عدم وجود فائض لديها من غلاتها الزراعية ، ثم قتله أبناؤه وهو يتلو الصلوات[١٤] .

وقام ابن له من غير القتلة وهو عسر هدن وانتزع العرش من إخوته السفاحين ، وغزا مصر ليعاقبها على ما قدمته من المعونة للثوار السوريين ، وضمها إلى أملاكه ، وأدهش غربى آسية بسيره المظفر من منف إلى نينوى ومن خلفه ما لا يحصى من المغانم ؛ وجعل أشور سيدة بلاد الشرق الأدنى بأجمعها ، وأفاء عليها من الرخاء ما لم يكن لها به عهد من قبل ، واسترضى البابليين بإطلاق آلهتهم الأسيرة وتكريمها وإعادة بناء عاصمتهم المخربة ، كما استرضى عيلام بتقديم الطعام إلى أهلها الجياع . وكان ما قدمه من الإغاثة على هذا النحو عملا لا يكاد يوجد له مثيل فى التاريخ القديم كله ؛ ومات عسر هدن وهو سائر إلى مصر ليخمد فيها ثورة بعد أن حكم إمبراطوريته حكما لم تر له فى تاريخها شبه الهمجى مثيلا فى عدله ورحمته .

وجنى خلفه أشور بانيپال (وهو الذى يسميه اليونان سردنا پالوس) ثمرة هذه الأعمال ، فوصلت أشور فى خلال حكمه الطويل إلى ذروة مجدها وثروتها . ولكن بلاده بعد وفاته فقدت هذا العز ، فوهنت قوتها وفسدت أمورها لطول عهدها بالحروب المنقطعة التى خاضت غمارها أربعين عاماً ، وأدركها الفناء ، ولما يمض على موت أشور بانيپال عشر سنين . وقد احتفظ لنا أحد الكتاب بسجل سنوى لأعماله[١٥] ، وهو سجل ممل ينتقل فيه من حرب إلى حرب ، ومن حصار إلى حصار ، ثم إلى مدن جائعة وأسرى تسلخ جلودهم وهم أحياء . ويُنطق هذا الكاتب نفسه

أشور بانيپال فيحدثنا عما خربه من بلاد عيلام ويقول : « لقد خربت من بلاد عيلام ما طوله مسير شهر وخمسة وعشرين يوماً . ونشرت هناك الملح والحسك (لأجدب الأرض) وسقت من المغانم إلى أشور أبناء الملوك ، وأخوات الملوك ، وأعضاء الأسرة المالكة فى عيلام صغيرهم وكبيرهم ، كما ستمت منها كل من كان فيها من الولاة والحكام ، والأشراف والصناع ، وجميع أهلها الذكور والإناث كباراً كانوا أو صغاراً ، وما كان فيها من خيل وبغال وحمير وضأن وماشية تفوق فى كثرتها أسراب الجراد ، ونقلت إلى أشور تراب السوس ، ومدكتو ، وهلتماش وغيرها من مدائنهم . وأخضعت فى مدة شهر من الأيام بلاد عيلام بأجمعها ؛ وأخمدت فى حقولها صوت الآدميين ، ووقع أقدام الضأن والماشية ، وصراخ الفرح المنبعث من الأهلين ، وتركت هـذه الحقول مرتعاً للحمير والغزلان والحيوانات البرية على اختلاف أنواعها(١٦) » .

وجيء برأس ملك عيلام القتيل إلى أشور بانيپال وهو فى وليمة مع زوجته فى حديقة القصر ، فأمر بأن يرفع الرأس على عمود بين الضيوف ، وظل المرح يجرى فى مجراه ، وعلّق الرأس فيما بعد على باب نينوى ، وظل معلقاً عليه حتى تعفّن وتفتّت . أما دنانو القائد العيلامى فقد سلخ جلده حياً ، ثم ذبح كما يذبح الحمل ، وضرب عنق أخيه ، وقطع جسمه إرباً ، ووزع هدايا على أهل البلاد تذكاراً لهذا النصر المجيد(١٧) .

ولم يخطر قط ببال أشور بانيپال أنه ورجاله وحوش كاسرة أو أشد قسوة من الوحوش ، بل كانت جرائم التقتيل والتعذيب هذه فى نظرهم عمليات جراحية لا بد منها لمنع الثورات وتثبيت دعائم الأمن والنظام بين الشعوب المختلفة المشاكسة المنتشرة من حدود الحبشة إلى أرمينية ، ومن سوريا إلى ميديا ، والتى أخضعها أسلافه لحكم أشور . لقد كانت هذه الوحشية فى رأيه واجباً يفرضه عليه حرصه على أن يبقى التراث سليما . وكان يتباهى بما وطده فى ربوع إمبراطوريته من أمن

وسلام ، وبما ساد مدنها من نظام . والحق أن هذا التباهى لم يكن على غير أساس . على أن هذا الملك لم يكن مجرد ملك فاتح أسكره سفك الدماء ، وشاهد ذلك ما شاده من المبانى وما بذله فى تشجيع الفنون والآداب . فقد بعث الملك إلى جميع أنحاء دولته يدعو المثالين والمهندسين ليضعوا له رسوم الهياكل والقصور ويزينوها كما فعل بعض الحكام الرومان بعد أن استولت رومة على بلاد اليونان . وأمر عدداً كبيراً من الكتبة أن يجمعوا وينسخوا كل ما خلفه السومريون والبابليون من آداب ، ووضع ما نسخوه وما جمعوه كله فى مكتبته العظيمة فى نينوى ، وهناك وجدها علماء هذه الأيام سليمة أو تكاد بعد أن مرت عليها خمسة وعشرون قرناً من الزمان .

وكان مثل فردرك الأكبر يفخر بملكاته الأدبية كما يفخر بانتصاراته فى الحرب والصيد[١٨] . ويصفه ديودور الصقلى بأنه طاغية فاسق خنثى[١٩] ، ولكننا لا نجد فى جميع الوثائق التى وصلت إلينا على كثرتها ما يؤيد هذا القول . وكان أشــور بانيبال إذا فرغ من تأليف ألواحه الأدبية خرج إلى الصيد فى اطمئنان الملوك وثقتهم بأنفسهم وليس معه من السلاح إلا سكين وحربة ، فقابل الآساد وجهاً لوجه . وإذا جاز لنا أن نصدق ما كتبه عنه معاصروه فإنه لم يكن يتردد قط فى أن يتولى قيادة الهجوم عليها بنفسه ، وكثيراً ما سدد الضربة القاضية بيده[٢٠] . فلا عجب والحالة هذه إذا افتتن به الشاعر بيرن **Byron** ونسج حول اسمه مسرحية نصفها أسطورى والنصف تاريخى ، صور فيها ما بلغته أشور فى أيامه من الثروة والمجد ، وما داهمها بعدئذ من خراب شامل ، وما حل بمليكها من قنوط .

الفصل الثانى

الحكومة الأشورية

النزعة الإستعمارية – الحروب الأشورية – الآلهة المحنقة – القانون
لذة الانتقام والتعذيب – الإدارة – عنف ملوك الشرق

إذا جاز لنا أن نأخذ بالمبدأ الاستعمارى القائل إن سيادة حكم القانون ، ونشر الأمن ، والتجارة ، والسلم فى العالم تبرر إخضاع كثير من الدول طوعاً أو كرهاً لسلطان حكومة واحدة ، إذا جاز لنا أن نأخذ بهذا المبدأ كان علينا أن نقر لأشور بذلك الفضل الكبير ، وهو أنها أقامت فى غربى آسية حكماً كفل لهذا الإقليم قسطاً من النظام والرخاء أكبر مما استمتع به هذا الجزء من الأرض فيما نعلم قبل ذلك العهد . ذلك أن حكومة أشور بانيبال التى كانت تضم تحت جناحيها بلاد أشور ، وبابل ، وأرمينية ، وميديا ، وفلسطين ، وسوريا ، وفينيقية ، وسومر ، وعيلام ، ومصر كانت بلا جدال أوسع نظام إدارى شهده عالم البحر المتوسط أو عالم الشرق الأدنى حتى ذلك العهد ؛ ولم يدان أشور بانيبال فيه إلا حورابى أو تحتمس الثالث ، ولم يضارعه قبل عهد الإسكندر إلا الفرس وحدهم . وكانت هذه الإمبراطورية تستمتع بقسط من الحرية ، فقد احتفظت مدنها الكبرى بحظ موفور من الحكم الذاتى المحلى ، كما احتفظت كل أمة فيها بدينها ، وقوانينها وحاكمها ، ما دامت لا تتوانى عن أداء الجزية المفروضة عليها[٢١] .

ومن شأن هذا النظام المفكك أن يؤدى كل تراخ فى سلطته المركزية إلى الثورات الشعبية أو فى القليل إلى بعض التراخى فى أداء الجزية ، وكان لابد والحالة هذه من إعادة فتح البلاد المرة بعد المرة . وأراد تغلث فلاصر أن يتحاشى خطر

هذه الثورات المتكررة فوضع تلك السياسة التى تمتاز بها أشور على غيرها من الأمم وهى نقل أهل البلاد المفتوحة إلى بلاد أخرى بعيدة ، يمتزجون فيها بسكانها الأصليين امتزاجاً قد يفقدهم وحدتهم وكيانهم ، ويقلل الفرص السانحة لهم للعصيان . على أن هذه الخطة لم تمنع اندلاع لهيب الثورات ؛ فاضطرت أشور بسببها إلى أن تكون مستعدة على الدوام لامتشاق الحسام .

من أجل هذا كان الجيش أقوى دعامة للدولة وأهم مقوماتها ، وكانت أشور تعترف اعترافاً صريحاً بأن الحكم هو تأميم القوة ، ولذلك فإن ما لها من فضل على قضية التقدم إنما كان فى فن الحرب . فهى التى نظمت فرق المركبات ، والفرسان ، والمشاة ، والمهندسين الذين يقوضون الأبنية ؛ وقد وضع الأشوريون لهذه الفرق نظاماً يسهل معه تحريكها وتوجيهها من ناحية إلى أخرى فى ميدان القتال . وكانت لهم آلات للحصار لا تقل فى قوتها عما كان منها عند الرومان ، وكانوا يجيدون فهم الفنون الحربية الخاصة بتعبئة الجنود وحركاتهم[٢٢] . وكانت القاعدة الأساسية التى تقوم عليها حركاتهم العسكرية هى السرعة التى تمكنهم من مهاجمة كل قسم من أقسام الجيوش المعادية على انفراد ـــ ألا ما أقدم هذا السر الذى أفاد منه نابليون أعظم الفائدة ! وتقدمت صناعة الحديد عندهم إلى حد أمكنهم أن يلبسوا الجنود حُللا حديدية سابغة كحلل فرسان العصور الوسطى . وحتى الرماة وحملة الرماح كانوا يلبسون على رءوسهم خوذاً من النحاس أو الحديد ، وأرهاطاً محشوة حول الحقوين ، ومجنات ضخمة ونطاقات من الجلد المغطى بأسماط معدنية . وكانت أسلحتهم السهام والرماح ، والسيوف القصار ، والصوالج ، والهراوات المنتفخة الرءوس ، والمقاذيف والبلط الحربية . وكان أكابر القوم يحاربون فى عربات فى طليعة الجيش ، يقودهم فى العادة مليكهم بنفسه وهو راكب فى عربة ملكية ، ولم يكن القواد قد تعلموا أن يموتوا فى فراشهم[*] .

(*) انظر قول العرب فى هذا المعنى : وما مات منا سيد فى فراشه . . . (المترجم)

وأدخل أشور بانيپال نظام استخدام الفرسان لمعاونة المركبات ، وكانت هذه البدعة ذات أثر حاسم فى كثير من الوقائع[٢٣] . وكانت أهم أدوات الحصار هى الكباش المسلحة مقدماتها بالحديد . وكانت أحياناً تعلق بالحبال فى محاول ، وتطوح إلى الوراء لتزيد بذلك قوتها ، وأحياناً أخرى كانت تجرى على عجلات . أما المحاصَرون فكانوا يحاربون من وراء الأسوار بالقذائف والمشاعل ، والغاز الملتهب ، والسلاسل التى يراد بها عرقلة الكباش ، وأوعية من غازات نتنة تذهب بعقول الأعداء[٢٤] — وما أشبه اليوم مرة أخرى بالبارحة . وكانتِ العادة المألوفة أن تُدمَّر المدينة المغلوبة وتُحرق عن آخرها ؛ وكان المنتصرون يبالغون فى محو معالمها بتقطيع أشجارها[٢٥] . وكان الملوك يكسبون ولاء جنودهم بتقسيم جزء كبير من الغنائم بينهم . وكانوا يضمنون شجاعتهم باتباع العادة المألوفة فى الشرق الأدنى وهى اتخاذ جميع أسرى الحرب عبيداً أو قتلهم عن آخرهم . وكان الجنود يكافأون على كل رأس مقطوع يحملونه من ميدان القتال ، ولهذا كانت تعقب المعركة فى أغلب الأحيان مجزرة تقطع فيها رءوس الأعداء[٢٦] . وكثيراً ما كان الأسرى يقتلون عن آخرهم بعد الواقعة حتى لا يستهلكون الكثير من الطعام ، وحتى لايكونوا خطراً على مؤخرة الجيش أو مصدر متاعب له . وكانت طريقة التخلص منهم أن يركعوا متجهين بظهورهم إلى من أسروهم ، ثم يضرب الآسرون رءوسهم بالهراوات ، أو يقطعونها بسيوفهم القصيرة . وكان الكتبة يقفون إلى جانبهم ليحصوا عدد من يأسرهم كل جندى ويقتلهم ، ويقسمون الفىء بينهم بنسبة قتلاهم ؛ وكان الملك إذا سمح له وقته يرأس هذه المجزرة . أما الأشراف المغلوبون فكانوا يلقون شيئاً من المعاملة الخاصة ، فكانت تصلم آذانهم ، وتجدع أنوفهم ، وتقطع أيديهم وأرجلهم ، أو يقذف بهم إلى الأرض من أبراج عالية ، أو تقطع رءوسهم ورءوس أبنائهم ، أو تسلخ جلودهم وهم أحياء ، أو تشوى أجسامهم فوق نار هادئة . ويلوح أن القوم لم يكونوا يشعرون بشىء من وخز

الضمير وهم يسرفون فى إتلاف الحياة البشرية بهذه الطرق الجهنمية . فلعل أن نسبة المواليد العالية تعوض عليهم هذا التقتيل ، أو أن هذه الوسيلة تقلل من تزاحم الأهلين على مورد العيش إلى أن يتناسلوا ويتكاثروا[٢٧] . ولعل ما أشيع من حُسن معاملة الإسكندر وقيصر للأسرى ورحمتهما بهم كانا من أسباب قضائهما على روح أعدائهما المعنوية وسرعة استيلائهما على بلاد البحر المتوسط .

وكانت القوة الثانية التى يعتمد عليها الملك هى قوة الدين ، ولكنه لم يكن ينال معونة الكهنة إلا بأغلى الأثمان . فقد كان إجماع القوم منعقداً على أن رأس الدولة من الوجهة الرسمية هو الإله أشور . وكانت الأوامر الرسمية تصدر باسمه ، وكل القوانين قرارات تمليها إرادته الإلهية ، وكل الضرائب تجمع لخزانته ، وكل الحروب تشن لتأتى له (أو لإله غيره أحياناً) بالمغانم والمجد . وكان الملك يحمل الناس على أن يصفوه بأنه إله ، وكان فى العادة هو الإله شمش (الشمس) مجسما . وقد أخذ الأشوريون دينهم عن سومر وبابل كما أخذوا عنهما علومهما وفنونهما ، وكانت هذه كلها تكيّف أحياناً كما يتفق مع مطالب الدولة العسكرية .

وأظهر ما كان هذا التكييف فى القانون ، فقد يمتاز بالقسوة العسكرية ، وكانت العقوبات تتراوح بين العرض على الجماهير ، والأشغال الشاقة ، والجلد بالسياط من عشرين إلى مائة جلدة ، وجدع الأنف وصلم الأذنين ، والإخصاء ، وقطع اللسان ، وسمل العينين ، والخزق ، وقطع الرأس[٢٨] . وتصف قوانين سرجون الثانى بعض المُتع الأخرى كشرب السم ، وحرق ابن المذنب أو ابنته حيّين على مذبح الإله[٢٩] . ولكننا لا نجد شواهد على أن هذه القوانين كانت نافذة فى الألف السنة الأولى قبل مولد المسيح . وكان الزنى ، وهتك العرض ، وبعض أنواع من السرقة تعدّ من الجرائم التى يعاقب عليها بالإعدام[٣٠] . وكانوا يلجأون أحياناً إلى طريقة تحكيم الآلهة ، فكان المتهم يلقى فى النهر وهو مقيّد القدمين فى بعض الأحيان ، ويترك الحكم عليه لمشيئة الماء . وكانت القوانين

الأشورية فى العادة أبعد عن الطابع الدنيوى ، وأكثر بداثية من قوانين حمورابى البابلية التى كانت على ما يبدو لنا أقدم منها عهداً(*) .

وكانت الحكومة المحلية فى بداية الأمر يقوم بها أمراء الإقطاع ، ثم آلت على توالى الزمن إلى ولاة الأقاليم ومديريها المعيّنين من قِبَل الملك . وأخذ الفُرْس عن الأشوريين هذا الضرب من الحكم الإمبراطورى ومنهم انتقل إلى رومة . وكان يعهد إلى الولاة جمع الضرائب وتنظيم العمال المسخرين فى الأعمال العامة ، كأعمال الرى ، التى لم يكن فى الإمكان تركها للجهود الفردية ؛ وأهم ما كان يطلب إليهم هو تجنيد العساكر ، وقيادتهم فى الحروب الملكية . وكان للملك جواسيس (أو رجال قلم المخابرات بلغة هذه الأيام) يراقبون هؤلاء الولاة وأعوانهم وينقلون إلى الملك أخبار الرعيّة .

وكانت الحكومة الأشورية بقضها وقضيضها أداة حرب قبل كل شىء . ذلك أن الحرب كثيراً ما كانت أنفع لها من السلم ، فقد كانت تثبت النظام ، وتقوى روح الوطنية ، وتزيد سلطان الملوك . وتأتى بالمغانم الكثيرة لتغنى بها العاصمة ، والعبيد لخدمتها . ومن ثم كان تاريخ الأشوريين يدور معظمه حول مدن تنهب ، وقرى وحقول تخرب . ولما أن قمع أشور بانيبال ثورة أخيه شمش – شم – أوكين واستولى على بابل بعد حصار طويل مرير :

«كان للمدينة منظر رهيب تتقزز منه نفوس الأشوريين أنفسهم ... فقد كان معظم من قضت عليهم الأوبئة والقحط ملقين فى الطرقات أو فى الميادين العامة ، فريسة للكلاب والخنازير . وحاول من كانت لهم بقية من القوة من الأهلين أو الجنود أن يفروا إلى الريف ، ولم يبق فى المدينة إلا من كان ضعيفاً لا يستطيع أن يجر قدميه إلى أبعد من أسوارها . وطارد أشور بانيبال هؤلاء

(*) وأقدم القوانين الأشورية التى بقيت إلى هذه الأيام قانون مؤلف من تسعين مادة مكتوبة على ثلاثة ألواح وجدت فى خرائب أشور ، ويرجع عهدها إلى حوالى عام ١٣٠٠ ق . م(٣١) .

المشردين ، ولما أن قبض عليهم كلهم تقريباً ، صب عليهم جام غضبه ونقمته ، فأمر بأن تقتلع ألسنة الجنود ، وأن يضربوا بعد ذلك بالهراوات حتى يموتوا . أما الأهالى فقد أمر بذبحهم أمام العجول المجنحة العظيمة ، التى شهدت منذ خمسين عاماً مجزرة أخرى شبيهة بهذه المجزرة فى عهد جده سنحريب . وظلت جيف هؤلاء الضحايا فى العراء زمناً طويلا تفترسها الوحوش القذرة والطيور[٣٢].

لقد كان هذا الإسراف فى العنف من أكبر أسباب ضعف الممالك الشرقية . ذلك أن الثورات المتكررة لم تكن مقصورة على أهل الولايات ، بل إن قصور الملوك وأسرهم كثيراً ما كانت تهب لتقلب بالعنف ذلك النظام الذى قام على العنف ، والذى يستند إلى العنف ، وكثيراً ما كان نقع الفتنة يثور بين المطالبين بالعرش فى أواخر أيام كل ملك ، أو حين وفاته ، فكان الملك المعمر يرى المؤامرات تحاك من حوله ، وكثيراً ما كان يُستعجل موته بقتله . وكانت أمم الشرق الأدنى تؤثر الثورات العنيفة على الانتخابات الفاسدة الزائفة ، وكانت الوسيلة التى يتبعونها لسحب ثقتهم من حاكمهم هى القضاء على حياته . وما من شك فى أن بعض حروب الأشوريين كانت أمراً محتوماً لا مفر منه . فقد كان البرابرة يحيطون بتخوم البلاد كلها ، فإذا ما جلس على العرش ملك ضعيف انقض السكوديون والكمريون أو غيرهم من الهمج على المدن الأشورية الغنية يقتلون وينهبون . ولعلنا نبالغ فى كثرة الحروب والثورات العنيفة التى تأججت نيرانها فى هذه الدول الشرقية ، لأن من نقشوا الآثار من الأقدمين ، ومن أرخوا تلك الحوادث من الكتاب المحدثين ، قد عنوا بالتسجيل المسرحى للوقائع الحربية ، وغفلوا عن انتصارات السلم . إن المؤرخين طالما تحيزوا إلى سفك الدماء ، ذلك بأنهم قد وجدوه ، أو ظنوا أن قراءهم سيجدونه ، أكثر لذة لهم من أعمال العقل الهادئة . ونحن نظن أن الحروب فى هذه الأيام أقل عدداً منها فى الأيام الخالية لأننا نحس بفترات السلم الصافية المتألقة ، على حين أن التاريخ لا يُحس ، كما يبدو لنا ، إلا بأزمات الحرب المحمومة .

الفصل الثالث

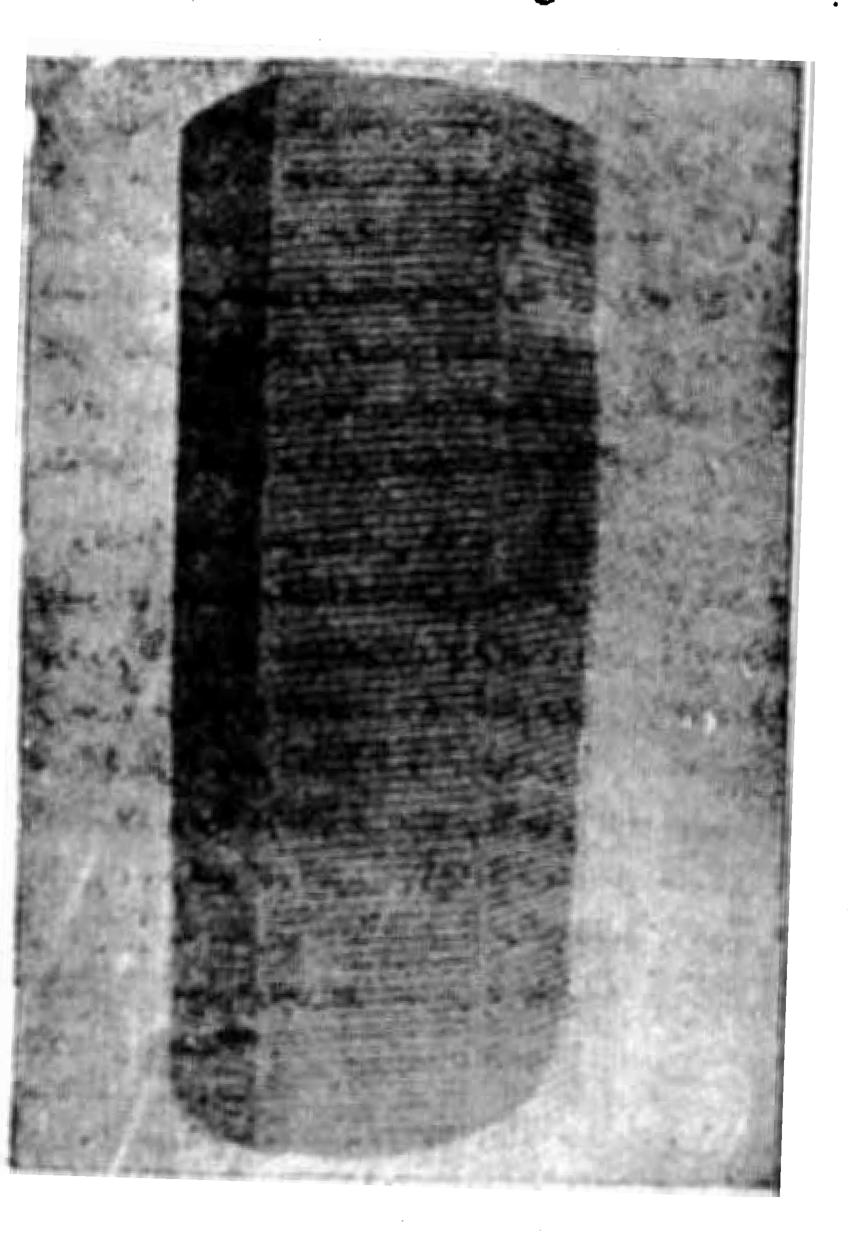
الحياة فى أشور

الصناعة والتجارة – الزواج والآداب العامة – الدين والعلم – الكتابة ودور الكتب – المثل الأعلى للرجل الكامل عند الأشوريين

لم تكن الحياة الاقتصادية عند الأشوريين تختلف كثيراً عنها عند البابليين، وذلك لأن هؤلاء وأولئك لم يكونوا فى كثير من الأحوال إلا أبناء الشمال وأبناء الجنوب من حضارة واحدة. وأهم ما كان بين البلدين من فروق أن المملكة الجنوبية كانت أكثر اشتغالا بالتجارة على حين أن الشمالية أكثر اشتغالا بالزراعة، فكان أثرياء البابليين تجاراً فى الغالب، أما أثرياء الأشوريين فكانوا عادة من كبار الملاك، يشرفون بأنفسهم على ضياعهم الواسعة، ويزدرون ازدراء الرومان من بعدهم أولئك الذين كانوا يكسبون المال بشراء البضائع رخيصة وبيعها غالية[٣٣]. بيد أن النهرين نفسهما كانا يفيضان على أرض المملكتين ويغذيانها، ونظام الجسور والقنوات بعينه كان يسيطر فيهما على ما زاد من مياه النهرين، والشواديف ذاتها كانت ترفع المياه من المجارى المنخفضة لتروى الحقول التى تزرع نفس القمح والشعير والذرة الرفيعة والسمسم[*]. وكانت الصناعات التى تعتمد عليها حياة أهل المدن واحدة، وكان للمملكتين نظام واحد للموازين والمكاييل والمقاييس تتبادل بمقتضاه البضائع. وامتلأت نينوى وغيرها من الحواضر بالحرف والصناعات بفضل ما جلبه لها ملوكها من ثراء عظيم، وإن كان موقع هذه المدن

(*) ومن الغلات الأشورية غير ما ذكرنا هنا الزيتون، والعنب، والثوم، والبصل، والخس، والجرجير، والبنجر، واللفت، والفجل، والخيار، والبرسيم الحجازى، والعرقسوس. وقلما كان غير الموسرين يأكلون اللحم[٣٤]، فقد كانت هذه الأمة الحربية أمة نباتية بوجه عام، إذا استثنينا من ذلك لحم السمك.

فى الطرف الشمالى من الإقليم قد حال بينها وبين أن تكون مراكز تجارية كبرى . وكانت المعادن تستخرج من أرض البلاد أو تستورد بكثرة من خارجها



شكل (٢٩) منشور سنحريب — فى متحف بغداد

وفى عام ٧٠٠ ق . م أو حواليه أصبح الحديد بدل البرنز المعدن الأساسى فى الصناعة والتسليح[٣٥] ؛ وكانت المعادن تصهر ، والزجاج يصنع ، والمنسوجات تصبغ(*) . والخزف يطلى ؛ وكانت البيوت فى نينوى تجهز وتؤثث كما كانت تجهز فى أوربا قبل الانقلاب الصناعى[٣٦] . وأنشئ فى عهد سنحريب مجرى مائى فوق قناطر ينقل الماء إلى نينوى من مكان يبعد عنها ثلاثين ميلا ؛ وقد كشفت منذ عهد قريب مائة قدم من هذا المجرى(**) فكانت أقدم مجرى مائى فوق قناطر عرف فى التاريخ . وكانت مصارف الأفراد الخاصة تمول بعض التجارة والصناعة وتتقاضى فوائد على قروضها تبلغ ٢٥٪ . وكانوا يتعاملون بالرصاص والنحاس والذهب والفضة ؛ وحوالى عام ٧٠٠ ق . م . سك سنحريب قطعاً من الفضة قيمة الواحدة منها نصف شاقل — وهذه القطع من أقدم ما عرف من المسكوكات الرسمية[٣٧] .

وكان الأهلون مقسمين إلى خمس طبقات : الأعيان ، ورجال الصناعة المنتظمون فى نقابات ، والطبقة الثالثة تشمل أرباب المهن والحرف والعمال غير المهرة وهم الأحرار من صناع المدن وزراع الريف ؛ وتشمل الرابعة الأقنان المرتبطين بأرض المزارع الكبرى ، كما كان أمثالهم مرتبطين بها فى أوربا فى العصور الوسطى ، وتضم الخامسة الأرقاء أسرى الحروب أو سجناء الديون ، وكان هؤلاء يلزمون بالإعلان عن مركزهم الاجتماعى بخرق آذانهم وحلق رءوسهم ، وهم الذين كانوا يقومون بالأعمال الوضيعة فى كل مكان . ونرى فى نقش من عهد سنحريب حراساً بأيديهم سياط يشرفون على هؤلاء الأرقاء المنتظمين صفين طويلين متوازيين يجرون قطعة ثقيلة من تمثال على نقالات من الخشب[٣٨] .

(*) ويحتوى لوح من عهد سنحريب (حوالى عام ٧٠٠ ق . م) على أقدم إشارة للقطن ، فقد ورد فيه : « الشجرة التى تثمر الصوف قطعوها واستخرجوا منها القطن الشمر[٣٥ أ] » وأكبر الظن أنهم نقلوها من الهند .

(**) كشفت هذا المجرى البعثة العراقية التابعة للمعهد الشرقى بجامعة شكاجو .

وكانت أشور تشجع الإكثار من النسل بقوانينها الأخلاقية وبما تسنه من الشرائع شأنها فى هذا شأن جميع الدول العسكرية ، فكان الإجهاض عندهم جريمة يعاقب عليها بالإعدام ، وكانت المرأة التى تجهض نفسها ، وحتى المرأة التى تموت وهى تحاول إجهاض نفسها ، تخزق بعد موتها[39] . وكانت منزلة النساء فى أشور أقل منها فى بابل ، وإن كان منهن من بلغن منزلة سامية بالزواج والدسائس . وكانت تفرض عليهن عقوبات صارمة إذا ضربن أزواجهن ، ولم يكن يسمح للمتزوجات أن يخرجن إلى الطريق العام بغير الحجاب ، وكان يطلب إليهن أن يكن جد أمينات على أعراضهن — وإن كان يسمح لأزواجهن بأن يتخذوا لهم ما يشاءون من السرارى[40] . وكان البغاء يُعد فى عرفهم أمراً لا بد منه وتنظمه القوانين[40ا] . وكان للملك عدد من النساء يعشن معيشة العزلة ويقضين أوقاتهن فى الرقص والغناء والنزاع والتطريز والتآمر[41] . وإذا قَتَل الذى يُزنى بامرأته الزانىَ وهو متلبس بجريمته عُد ذلك من حقه ؛ وقد بقيت هذه العادة بعد أن زالت كثير من الشرائع التى كانت تبيحها . أما فيما عدا هذا فقد كانت قوانين الزواج فى أشور مثلها فى بابل خلا أمراً واحداً وهو أن الزواج كان فى كثير من الأحيان شراء بسيطاً ، وأن الزوجة كثيراً ما كانت تعيش فى منزل أبيها ويزورها من حين إلى حين[42] .

ونشهد فى كثير من نواحى الحياة الأشورية صرامة أبوية نراها طبيعية فى شعب يعيش فى فتوحه ، ويعيش على حدود الهمجية ، بكل ما يشمله هذا اللفظ من معان . وكما أن الرومان كانوا يتخذون آلاف الأسرى بعد انتصارهم فى الحروب عبيداً لهم يقضون فى الرق كل حياتهم ، ويرسلون آلافاً آخرين إلى الحلبة الكبرى لتنهشهم السباع الجياع ، كذلك يبدو أن الأشوريين كانوا يجدون متعة — أو تدريباً ضرورياً لأبنائهم — فى تعذيب الأسرى ، وسمل عيون الأبناء أمام آبائهم ، وسلخ جلود الناس أحياء ، وشى أجسامهم فى الأفران ، وربطهم

بالسلاسل فى الأقفاص ليستمتع العامة برؤيتهم ، ثم إرسال من يبقى منهم حيا إلى نطع الجلاد(٤٣) . وفى هذا يحدثنا أشور بانيبال بقوله : « لقد سلخت جلود كل من خرج علىّ من الزعماء ، وغطيت بجلودهم العمود ، وسمرت بعضهم من وسطهم فى الجدران ، وأعدمت بعضهم خزقاً ، وصففت بعضهم حول العمود على الخوازيق . . . أما الزعماء والضباط الذين ثاروا فقد قطعت أطرافهم(٤٤) » .

ويفخر أشور بانيبال بأنه « حرق بالنار ثلاثة آلاف أسير ، ولم يبق على واحد منهم حياً ليتخذه رهينة »(٤٥) . ويقول نقش آخر من نقوشه « أما أولئك المحاربون الذين أذنبوا فى حق أشور وائتمروا بالشر علىّ : . . فقد انتزعت ألسنتهم من أفواههم المعادية وأهلكتهم ، ومن بقى منهم على قيد الحياة قدمتهم قرابين جنازية ، وأطعمت بأشلائهم المقطعة الكلاب والخنازير والذئاب . . . وبهذه الأعمال أدخلت السرور على قلوب الآلهة العظام »(٤٦) . وأمر ملك آخر من ملوكهم الصُنّاع أن ينقشوا على الآجر هذه العبارات التى يرى أن من حقه على الخلف أن يعجبوا بها : « إن عجلاتى الحربية تهلك الإنسان والحيوان . . . إن الآثار التى أشيّدها قد أقيمت من الجثث الآدمية التى قطعت منها الرءوس والأطراف ، ولقد قطعت أيدى كل من أسرتهم أحياء »(٤٧) . وتصوّر النقوش التى كشفت فى نينوى الرجال يُخْزَقون أو يسلخون أو تُقطع ألسنتهم ؛ ويصوّر نقش منها ملكاً من الملوك يفقأ أعين الأسرى برمح ، ورءوسهم مثبتة فى أماكنها بحبل يخترق شفاههم(٤٨) . ولا يسعنا ونحن نقرأ هذه الصحف إلا أن نحمد الله على مركزنا المتواضع .

ويبدو أن الدِّين لم يكن له أثر قط فى تخفيف هذا العنف وهذه الوحشية . ذلك أن الدِّين لم يكن له من السلطان على الحكومة بقدر ما كان له فى بابل ، وأنه كان يكيّف نفسه حسب حاجات الملوك وأذواقهم . وكان أشور إلههم القومى من آلهة الشمس ، ذا روح حربية ، لا يشفق على أعدائه . وكان عُبّاده يعتقدون

أنه يغتبط برؤية الأسرى يقتلون أمام مزاره[49] . وكان العمل الجوهرى الذى تؤديه الديانة الأشورية هو تدريب مواطن المستقبل على الطاعة التى تتطلبها منه وطنيته ، وأن تعلّمه مداهنة الآلهة لكسب ودّهم ورضاهم بضروب السحر والقرابين . ومن أجل هذا كان كل ما وصل إلينا من النصوص الدينية الأشورية لا يخرج عن الرقى والفأل والطيرة . ولدينا من هذين كشوف طويلة حدّدت فيها لكل حادثة نتائجها المحتومة ، ووصفت فيها الوسائل التى يجب اتباعها لتجنب هذه النتائج[50]. وكانوا يصوّرون العالم على أنه ملىء بالشياطين التى يجب اتقاء شرها بالتمائم المعلقة فى الرقاب ، أو الرقى الطويلة التى تجب تلاوتها بدقة وعناية .

وذلك جوّ لا يزدهر فيه من العلوم إلا علم الحروب ، فقد كان الطب الأشورى هو الطب البابلي لم يزيدوا عليه شيئاً ، ولم يكن علم الفلك الأشورى إلا التنجيم البابلى ، فكان أهم غرض تدرس من أجله النجوم هو التنبؤ بالغيب[51] ولسنا نجد عندهم شواهد على البحوث الفلسفية ولم نعثر على ما يثبت أنهم حاولوا أن يفسروا العالم من غير طريق الدين . وقد وضع علماء اللغة الأشوريون قوائم بأسماء النباتات ، ولعلهم وضعوها ليستعينوا بها فى صناعة الطب ، وبذلك قدّموا بعض العون لعلم النباتات ؛ ووضع غير هؤلاء من الكتبة قوائم تكاد تحتوى على كل ما كان على الأرض من أشياء ، وكان فيما حاولوه من تصنيفها بعض العون لعلماء التاريخ الطبيعى من اليونان . وأخذت اللغة الإنجليزية من هذه الكشوف ، عن طريق اللغة اليونانية فى الغالب ، الألفاظ الإنجليزية الآتية :

hangar, gypsum, camel, plinth, rose, ammonia, jasper, cane, cherry, Laudanum, maphtha, sesame, hyssop and myrrh [52] (*)

ومن واجبنا أن نقر للألواح التى تسجل أعمال الملوك الأشوريين بذلك الفضل

(*) ويقابلها فى العربية الحظيرة ، والجبس ، والجمل ، وسفل الحائط (الدائت) ، والورد ، والنشادر ، واليشب ، والقصب ، والكرز ، وصبغة الأفيون (اللودنوم) والنفط ، والسمسم والحسب (الثغام) ، والمر .

العظيم وهى أنها أقدم ما بقى لدينا من الكتب فى علم التاريخ ، رغم ما تتصف به من الملل والسآمة ، وما تسجله من الأعمال الوحشية الدموية . وكانت هذه الألواح فى السنين الأولى مجرّد أخبار تروى ، كل ما تحتويه سجلات لانتصار الملوك ، لا تعترف لهم بأية هزيمة . ثم أصبحت فيما بعد وصفاً أدبياً منمقاً لما وقع من الأحداث الهامة فى كل واحد منهم . وأهم ما يخلد ذكر أشور فى تاريخ الحضارة هو مكتباتها ، فقد كانت مكتبة أشور بانيپال تحتوى ثلاثين ألف لوح من الطين مصنفة ومفهرسة ، وعلى كل واحد منها رقعة يسهل الاستدلال بها عليه . وكان على كثير منها تلك العبارة التى كانت من شارات الملك الخاصة : « فليحلّ غضب أشور وبايت . . . على كل من ينقل هذا اللوح من مكانه . . . وليمحو اسمه واسم أبنائه من على ظهر الأرض »[٥٣] . وكثير من هذه الألواح منسوخة من أخرى أقدم منها لم يبيّن تاريخها ، تكشف أعمال الحفر عنها فى كل يوم . وقد أعلن أشور بانيپال أنه أنشأ مكتبته ليمنع الآداب البابلية أن يجرّ عليها النسيان ذيله .

ولكن الألواح التى يصح أن تسمى الآن أدباً لا تتجاوز عدداً قليلا منها ، أما معظمها فسجلات رسمية وأرصاد يقصد بها التنجيم والفأل والطيرة والتنبؤ بالمستقبل ، ووصفات طبية ، وتقارير ورقى سحرية ، وترانيم وصلوات وأنساب للملوك والآلهة[٥٤] . وأقل هذه الألواح مدعاة إلى الملل لوحان يعترف فيهما أشور بانيپال بحب الكتب والمعرفة ، وهو اعتراف يزرى به فى أعين مواطنيه ، والغريب أنه يكرر فيهما الاعتراف ويصرّ عليه إصراراً :

« أنا ، أشوربانيپال ، فهمت حكمة نابو(*) ووصلت إلى فهم جميع فنون كتابة الألواح . وعرفت كيف أضرب بالقوس وأركب الخيل والعربات ، وأمسك أعنتها . . وحبانى مردك ، حكيم الآلهة ، بالعلم والفهم هدية منه ... ووهب لى

(*) إله الحكمة المقابل لتحوت ، وهرميس ، وعطارد فى البلاد الأخرى

إنورت وشرجال الرجولة والقوّة ، والبأس الذى لا نظير له وعرفت صنعة أادابا الحكيم ، وما فى فن الكتبة كله من أسرار خفيّة ؛ وقرأت فى بناء الأرض والسموات وتدبرته ؛ وشهدت اجتماعات الكتبة وراقبت البشائر والنذر ؛ وشرحت السموات مع الكهنة العلماء ، وسمعت عمليات الضرب والقسمة المعقدة ، التى لا تتضح لأوّل وهلة . وكان من أسباب سرورى أن أكرّر الكتابات الجميلة الغامضة المدوّنة باللغة السومرية ، والكتابات الأكدية التى تصعب قراءتها . . . وامتطيت الأمهار ؛ ركبتها بحكمة حتى لا تجمح ، وشددت القوس ، وأطلقت السهم ، وتلك سمة المحارب ، ورميت الحراب المرتجفة كأنها رماح قصيرة . . . وأمسكت بالأعنة كسائق المركبات . . . ووجهت ناسجى دروع الغاب ومجناته كما يفعل الرائد ، وعرفت العلوم التى يعرفها الكتبة على اختلاف أصنافهم حينما يحين وقت نضجهم ، وتعلمت فى الوقت نفسه ما يتفق مع السيطرة والسيادة ، وسرت فى طرائق الملكية »[٥٥]

الفصل الرابع

الفن الأشورى

الفنون الصغرى – النقش المنخفض – التماثيل – البناء – صفحة من « سر دناپلس »

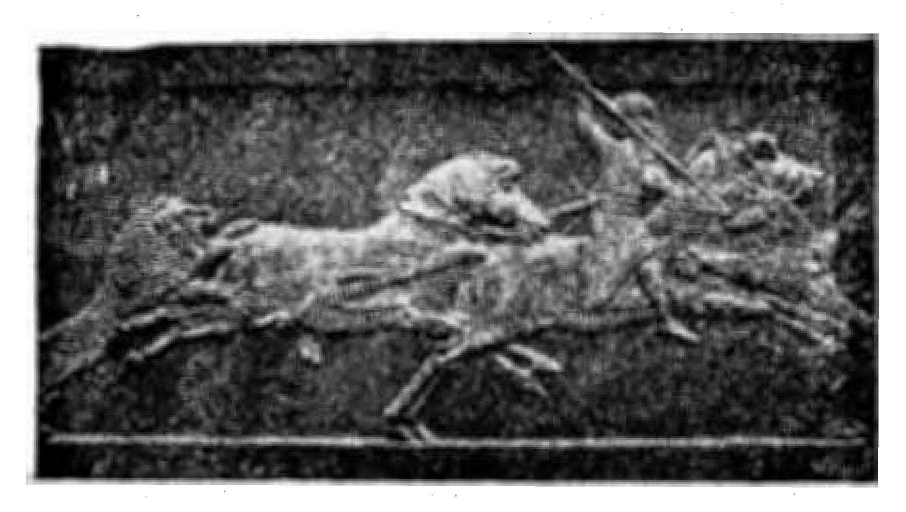
بلغت أشور فى آخر عهدها ما بلغته معلمتها بابل فى الفنون ، وبزتها فى النقوش المنخفضة . فقد حفزت الثروة العظيمة التى تدفقت على أشور وكلخ ونينوى الفنانين والصناع الأشوريين إلى أن يخرجوا للأشراف ونساء الأشراف ، وللملوك وقصور الملوك ، وللكهنة والهياكل ، حلياً مختلفة الأشكال ، فمهروا المعادن وبرعوا فى تشكيلها وصناعتها كما نشاهد ذلك فى أبواب بلاوات العظيمة ،



شكل (٣٠) نقش أشورى يمثل مردك يقاتل تيامات

وجد فى كلخ ومحفوظ فى المتحف البريطانى

وفى الأثاث الفخم الجميل الشكل الدقيق الصنع المتخذ من أثمن الأخشاب ، والمقوى بالمعادن ، والمرصع بالذهب والفضة والبرنز والأحجار الكريمة[٥٦] . وكانت صناعة الفخار عندهم منحطة ، وفى الموسيقى لم يزيدوا على ما أخذوه منها عن البابليين ، ولكن التصوير بالطلاء الممزوج بالغراء وصفار البيض الزاهى الألوان أصبح من الفنون الأشورية الخاصة التى انتقلت إلى بلاد الفرس فبلغت فيها حد الكمال . وكان التصوير فى أشور كما كان على الدوام فى بلاد الشرق القديم فناً ثانوياً تابعاً للحرب يسير فى ركابها .



شكل (٣١) صيد الآساد

نقش على المرمر من نينوى – محفوظ فى المتحف البريطانى

وأخرج فن النقش المنخفض (القليل البروز) فى أيام المجد أيام سرجون الثانى وسنحريب وعسرهدن وأشور بانيپال وبتشجيع هؤلاء الملوك روائع هى الآن فى المتحف البريطانى . على أن من أجمل آياته تحفة يرجع عهدها إلى أشور بانيپال الثانى وهى من المرمر النقى وتمثل مردك إله الخير يهزم تيامات الخبيث إله الفوضى[٥٧] ، أما صور الآدميين المحفورة فهى جامدة خشنة وكلها متماثلة لا فرق بين الواحدة منها والأخرى ، كأنما قد وضع لها نموذج واحد كامل وفرض عليها أن تحاكيه



شكل (٣٢) اللبؤة المحتضرة فى نينوى – فى المتحف البريطانى

فى جميع العهود. ذلك أن للرجال جميعهم رءوساً ضخمة وشوارب غزيرة، وبطوناً كبيرة، وأعناقاً لا تكاد تراها العين. وحتى الآلهة نفسها قد صورت بهذه الصور الأشورية لا تستتر إلا قليلا. ولا تظهر حيوية الرجال فى صورهم إلا فى أحوال

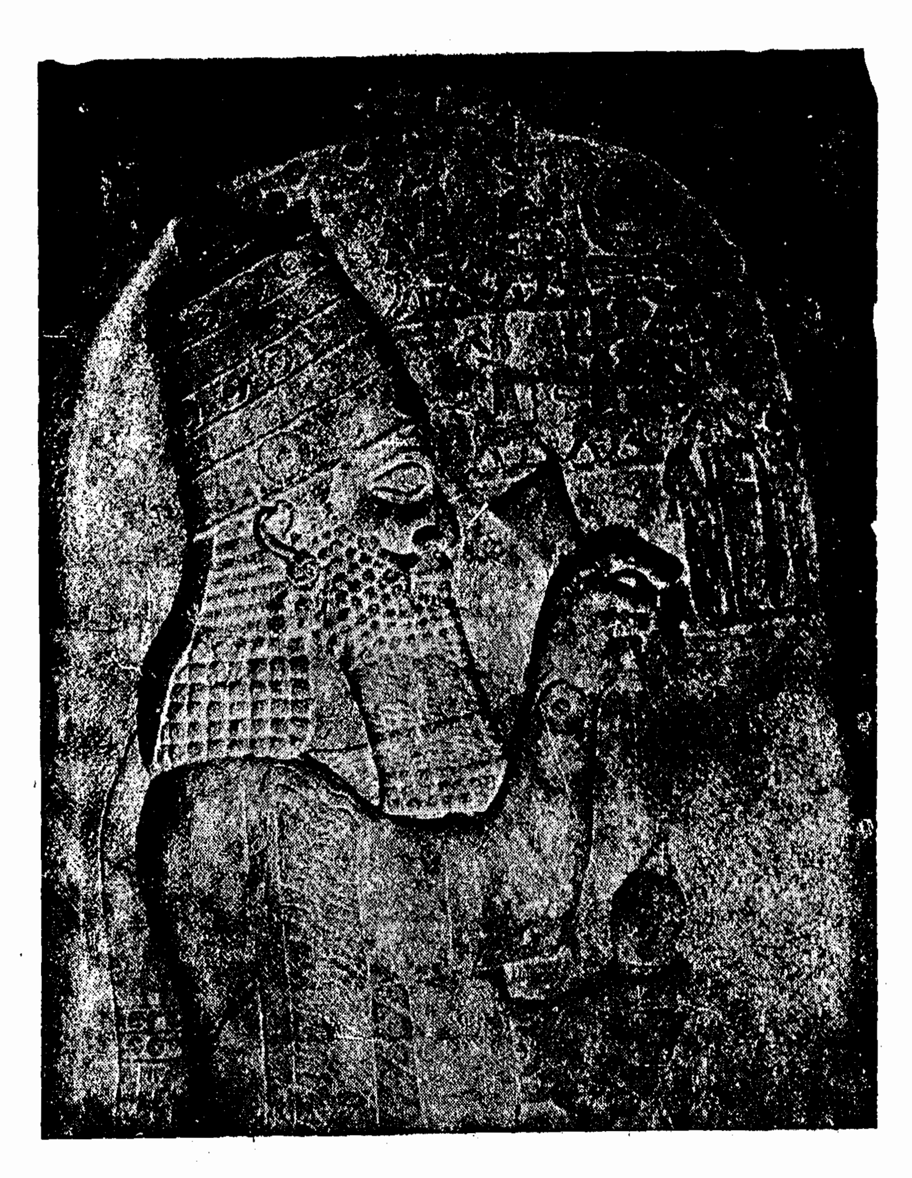


شكل (٣٣) الثور المجنح
وجد فى قصر شور بانيبال الثانى فى كلخ – وهو الآن فى متحف نيويورك

جد نادرة ، منها قطعة المرمر المنقوشة التي تمثل الأرواح تتعبد أمام نخلة هندية[٥٨].
وفي اللوحة الجيرية التي تمثل شمسى أداد السابع والتي عثر عليها في كلخ[٥٩].
أما النقوش التي تثير إعجابنا بحق فهى نقوش الحيوانات ، وما من شك في أن الفن قديمه وحديثه لم ينجح في نحت الحيوانات نجاح الفن الأشورى . إن الألواح تكرر أمام الأعين مناظر مملة تمثل الحرب والصيد ، ولكن العين لا تمل قط من النظر إلى حركات الحيوانات القوية ونفورها الطبيعى ، وتصويرها البسيط الذى لا تكلف فيه كأنما الفنان الذى حرم عليه أن يصور سادته في حقيقتهم وفرديتهم قد وهب كل علمه وحذقه لتصوير الحيوانات . وهو يصور منها أنواعاً جمة لا عديد لها — يصور آساداً ، وخيلا ، وحميراً ومعزاً ، وكلاباً ودببة ، وظباء ، وطيوراً ، وجنادب ، ويصورها في كل وضع من أوضاعها ، ما عدا سكونها . وما أكثر ما يمثلها وهى تعانى سكرات الموت ، ولكنه حتى في هذه الحال يجعلها مركز الحياة في صورته وفنه .

وهل هناك ما هو أروع من خيل سرجون الثانى في نقوش خراساباد[٦٠] ، أو اللبؤة الجريحة التي عثر عليها المنقبون في قصر سنخريب[٦١] في نينوى ، أو اللبؤة المحتضرة المنقوشة على حجر المرمر والتي استخرجت من قصر أشور بانيبال[٦٢] ، أو مناظر صيد أشور ناصر بال الثانى وأشور بانيبال للآساد[٦٣] ، أو منظر اللبؤة المستريحة[٦٤] ، أو الأسد الذى أطلق من الشرك[٦٥] ، أو القطعة التي نقش عليها أسد ولبؤه يستظلان تحت الأشجار[٦٦] . كل هذه من أجمل روائع هذا الفن في العالم كله . ولسنا ننكر أن تمثيل الأشياء الطبيعية عن طريق الحفر كان عند الأشوريين فنا فجاً خشناً يجرى على سنن جامدة محددة ، وأن أشكاله ثقيلة غير ظريفة ، وأن خطوطه قاسية عسرة ، وأن العضلات مبالغ فيها كثيراً ، وأن كل ما روعى فيها من قواعد المنظور لا يعدو وضع الشىء البعيد في النصف الأعلى من الصورة بنفس الأبعاد التي رسم بها ما هو أقرب منه إلى الرسم . وما وضع من

تحته فى الصورة ؛ على أن المثالين فى عهد سنحريب عرفوا كيف يعوضون هذه العيوب بما أخرجوه من صور واقعية قوية ، مصقولة حسب الأصول الفنية ، مثل فيها الفنانون حركاتها أوضح تمثيل ، وليس ثمة فيما نقش من الحيوانات شيء



شكل (٣٤) رأس عسر هدن - فى متحف برلين

يفوقها حتى اليوم . لقد كان فن النقش المنخفض للأشوريين ما كان فن النحت لليونان ، أو التصوير الزيتى للإيطاليين فى أيام النهضة ، كان فناً محبباً إليهم ، يعبر تعبيراً فذاً عن مثلهم الأعلى القوى فى الشكل وفى الصفات

هذا ما نقوله عن النقش عند الأشوريين ، أما النحت فكان أقل منه شأناً وأحط منزلة . ويخيل إلينا أن الحفارين فى نينوى وفى كلخ كانوا يفضلون النقش عن التصوير المجسم ، ولذلك لم يصل إلينا من خرائب الأشوريين إلا القليل من التماثيل الكاملة . وليس فيما وصل إلينا منها ما هو ذو قيمة كبيرة . ترى تماثيل الحيوانات مليئة بالحياة والجلال ، كأنها لا تشعر بأنها أعظم من الإنسان قوّة فحسب بل تشعر فوق هذا بأنها أرقى منه خلُقاً — وحسبنا أن نذكر منها الثورين اللذين كانا يحرسان مدخل خراساباد(٦٧) ؛ وأما تماثيل الأناسى والأرباب فهى خشنة ثقيلة بدائية ، مزينة ولكنها لا فروق بينها ، منتصبة ولكنها ميتة . ولعل من الجائز أن نستثنى من هذا الوصف تمثال أشور ناصر پال الثانى الضخم المحفوظ فى المتحف البريطانى الآن . ذلك أن فى وسع الناظر إليه أن يرى فيه من خلال خطوطه الثقيلة ملكاً فى كل شبر من جسمه ! يرى الصولجان الملكى وقد قبض عليه قبضة قوية ، والشفتين الغليظتين تنمان عن قوة العزيمة ، والعينين القاسيتين اليقظتين ، ويرى عنقاً كعنق الثور ينذر الأعداء والمزورين فى أخبار الضرائب بالشر المستطير ، ويرى قدمين ضخمتين متزنتين على ظهر الأرض أكمل اتزان .

على أننا يجب ألا نقسو فى حكمنا على فن النحت الأشورى ؛ فأكبر الظن أن الأشوريين كانوا كلفين بالعضلات المفتولة والرقاب القصيرة ، وأنهم لو رأوا نحافة أجسامنا التى لا تكاد تشبه نحافة أجسام النساء ورشاقة هرميز الناعمة الشهوانية كما صورها بركستليز أو علِّيَة أپلون لسخروا من هذا كله أشد السخرية . أما من حيث العمارة الأشورية فكيف نستطيع أن نقدر قيمتها إذا كان كل ما بقى منها أنقاضاً وخربات لا تكاد تعلو عما يحيط بها من رمال ، ولا تفيد فى شىء إلا أنه

تكون مشجباً يعلق عليه علماء الآثار البواسل ما « يستعيدونه » بخيالهم من أشكال تلك العمائر القديمة . لقد كان الأشوريون كالبابليين الأقدمين والأمريكيين المحدثين لا ينشدون الجمال فى مبانيهم بل كانوا ينشدون العظمة والفخامة وينشدونهما فى ضخامة الأشكال . وجرى الأشوريون فى عمائرهم على سنن الفن فى أرض الجزيرة فاتخذوا اللبن مادة أساسية لمبانيهم ، ولكنهم اختطوا لأنفسهم طريقة خاصة بهم ، بأن اتخذوا واجهاتها من الحجارة أكثر مما فعل البابليون . وورث الأشوريون الأقواس والعقود من أهل الجنوب ، ولكنهم أدخلوا عليها كثيراً من التعديل . وأجروا بعض التجارب على إقامة العمد ، مهدوا بها السبيل للعمد التى فى شكل النساء وللتيجان « الأيونية » الاولية التى نشاهدها عند الفرس واليونان[٦٨] . ولقد أقاموا قصورهم على مساحات واسعة من الأرض ، وكانوا حكماء إذ لم يعلوا بها أكثر من طبقتين أو ثلاث طبقات[٦٩] . وكان القصر يتألف عادة من عدد الردهات والغرف تحيط بفناء هادئ ظليل . وكان يحرس مداخل القصور الملكية حيوانات مهولة من الحجارة ، وتصف حول جدران الردهة القريبة من مدخل القصر وتعلق عليها نقوش قليلة البروز وتماثيل تاريخية ، وكانت تبلط بألواح المرمر ، وتعلق على جدرانها أقمشة ثمينة مطرزة مزركشة ، أو تكسى بالأخشاب النادرة الغالية وتحف بها حليات جميلة . أما السقوف فكانت تقوى بكتل خشبية ضخمة ، تغطى فى بعض الأحيان برقائق من الفضة أو الذهب وتصور عليها من أسفلها بعض المناظر الطبيعية[٧٠] .

وكان أعظم المحاربين الستة من ملوك أشور هم أيضاً أعظم البنائين منهم ، فقد أعاد تغلث فلاصر الأول بناء هياكل أشور بالحجارة ، وقال عن واحد منها إنه « جعل داخله متلألئاً كقبة السماء ، وزين جدرانه حتى كانت فى لألاء النجوم المشرقة ، وجعله فخماً ذا سناء وبريق »[٧١] وكان الملوك الذين جاءوا من بعده أسخياء فيما وهبوه للمعابد ، ولكنهم كانوا كسليمان يفضلون عليها قصورهم ؛

فقد شاد أشور ناصربال الثانى فى كلخ قصراً عظيما من الآجر المبطن بالحجارة وزيّنه بالنقوش التى تمتدح التقوى والحروب . وقد كشف راسام عند بلاوات بالقرب من هذا الموضع عن بقايا بناء آخر عثر فيه على بابين كبيرين عظيمين من البرنز دقيق الصنع[٧٢] . وخلد سرجون الثانى ذكره بأن أقام قصراً فسيحاً عند دور — شروكين (أى حصن سرجون) فى موضع خراساباد الحالية . وكان على جانبى مدخله أثوار مجنحة ، وعلى جدرانه نقوش وقرميد براق ، وكانت حجراته الواسعة ذات أثاث بديع النقش والصنع كما كانت تزينها تماثيل تبعث فى النفس الروعة والمهابة . وكان سرجون كلما انتصر فى واقعة جاء بالأسرى ليعملوا فى هذا الصرح العظيم ، وجاء بالرخام واللازورد ، والبرنز والفضة ، والذهب ليجمله بها . وشاد حوله طائفة من الهياكل ، وأقام من خلفه زجورات من سبع طبقات غطيت قمة أعلاها بالفضة والذهب وشاد سنحريب فى نينوى قصراً ملكياً سماه « المنقطع النظير » يفوق فى ضخامته كل القصور القديمة[٧٣] . وكانت جدرانه وأرضه تتلألأ فيها نفائس المعادن والأخشاب والحجارة ، وكانت قراميده تنافس فى بريقها آيتى النهار والليل ؛ وصب له صناع المعادن آساداً وأثواراً ضخمة من النحاس ، ونحت له المثالون أثوار مجنحة من حجر الجير والمرمر ، ونقشوا على جدرانه الأغانى الريفية . وواصل عسرهدن توسيع نينوى وإعادة ما تهدم من عمائرها ، وفاقت مبانيه مبانى من سبقوه جميعهم فى روعتها وفى أثاثها وأدواتها المترفة الثمينة . فقد كانت اثنتا عشرة ولاية تقدم إليه حاجته من المواد والرجال ؛ ونقل إلى بلاده آراء جديدة عن العمد والنقوش عرفها أثناء إقامته فى مصر ؛ ولما أتم بناء قصوره وهياكله ملأها بالتحف التى غنمها من جميع بلاد الشرق الأدنى وبما رآه فيها من روائع الفن[٧٤] .

وأسوأ ما يمكن أن يقال عن فن العمارة الأشورية أن قصر عسرهدن قد

انهار كله وأصبح أطلالا بعد ستين سنة من بنائه[٧٥] . ويحدثنا أشـــور بانيبال أنه أعاد تشييده ، ويخيل إلينا ونحن نقرأ نقشه أن القرون التى تفصل ما بيننا وبين هـــذا العصر قد انطوت ، وأننا نخترق بأبصارنا قلب ذلك الملك :

« وفى ذلك الوقت تقادم عهد الحرم ، مكان الراحة فى القصر . . . الذى شاده ســنحريب ليقيم فيه ، وذلك لطول ما استمتع فيه من بهجة وسرور ، وتداعت جدرانه . وإذ كنت أنا أشور بانيپال ، الملك العظيم ، الملك القادر ، ملك العالم ، ملك أشور ، . . . قد نشأت فى ذلك الحرم وحفظنى فيه أشور ، وسن ، وشمش ، ورامان ، وبل ، ونابر ، وإشتار ، . . . وأنا ولىّ للعهد ، وبسطوا علىّ حمايتهم الطيبة وملاذهم الرضى ؛ . . . ولم ينفكوا يبعثون إلى فيه أنباء سارة عن ظفرنا بأعدائنا ، وإذ كانت أحلامى وأنا على سريرى فى الليل أحلاماً سارة ، كما كانت خيالاتى فى الصباح مبهجة جميلة ، . . . فقد مزقت خرباته ، وأردت أن أوسع رقعته فمزقتها جميعاً . وشدت بناء مساحة أرضه خمسون تيبكى . وبنيت ربوة ولكننى وقفت خائفاً أمام مزارات أربابى الآلهة العظام ، فلم أعل بهذا البناء كثيراً . وفى شهر طيب ؛ ويوم مُوات ، وضعت أساسه فوق تلك الربوة ، وأقمت البناء ؛ وصببت نبيذ السمسم ونبيذ العنب على قباء موئنه ، كما صببتهما على جداره الطينى . ولكى أشيد هذا الحرم كان أهل بلادى ينقلون اللبنات فى عربات عيــلام التى غنمتها منهم بأمر الآلهة . وسخرت ملوك بلاد العرب الذين نقضوا المدنة معى ، واللذين أسرتهم فى الحرب بيدى وهم أحياء ، يحملون الأسفاط و (يلبسون) قلانس الفعلة ليشيدوا ذلك الحرم . . . وكانوا يقضون نهارهم فى صــنع اللبنات ويرغمون على العمل فيه أثناء عزف الموسيقى . وشدت بناءه من قواعده حتى ســقفه وأنا مغتبط مسرور ، وأنشأت فيه من الحجرات أكثر مما

كان به قبلا ، وجعلت العمل فيه فخما ، ووضعت فوقه كتلا طويلة من أشجار الأرز التي تنمو على سرارا ولبنان ، وغطيت الأبواب المصنوعة من خشب اللبارو ذي الرائحة الذكية ، بطبقة من النحاس وعلقتها في مداخله ... وزرعت حوله أيكة حوت جميع أنواع الأشجار ، والفاكهة ... على اختلاف أصنافها . . . ولما فرغت من أعمال بنائه قربت القرابين العظيمة للآلهة أربابي ، ودشنته وأنا مغتبط منشرح الصدر ، ودخلته تحت ظلة فخمة[٧٦] .

الفصل الخامس

خاتمة أشور

آخر أيام ملك – أسباب انحلال أشور – سقوط نينوى

بيد أن « الملك العظيم ، الملك القادر ، ملك العالم ، ملك أشور » أخذ فى آخر أيامه يندب سوء حظه . وآخر ما خلفه لنا من الألواح يثير مرة أخرى مسألتى سفر الجامعة وسفر أيوب :

« لقد فعلت الخير لله والناس ، للموتى والأحياء ؛ فلِمَ إذن أصابنى المرض وحلّ بى الشقاء ؟ إنى عاجز عن إخماد الفتن التى فى بلدى ، وعن حسم النزاع القائم فى أسرتى ، وإن الفضائح المزعجة لتضايقنى على الدوام ، وأمراض العقل والجسم تطأطئ من إشرافى ، وهأنذا أقضى آخر أيامى أصرخ من شدة الويل ، بائساً فى يوم إله المدينة ، يوم العيـد . المنيّة تنشب فىّ أظفارها ، وتنحدر بى نحو آخرتى . أندب حظى ليلا ونهاراً ، وأنوح وأعول وأتوجع : « أى إلهى ! هب الرحمـة لإنسان وإن كان عاقاً حتّى يرى نورك ! »[77](*) .

(*) ويصور ديودور هذا الملك فى صورة من أخذ يقضى عمره فى إشباع شهواته النسائية والفجور والفسق المخنث . ولسنا نعرف على أى شىء استند ديودور فى هذا الاتهام . ثم إنه يعزو إليه أنه هو واضع هذه العبارة التى على قبره :

إنك تعلم من العلم أنك قد ولدت للفناء

فاطرب ، وابتهج فى الأعياد .

وإذا مت فلن يبقى لك بعدئذ ما يسرك ،

ومن أجل هذا فإنى ،

وقد حكمت من قبل نينوس العظيمة ،

لست الآن إلا ترابا .

ولكن قد بقيت لى هذه الأشياء التى ابتهجت بها

فى حياتى – الطعام الذى أكلته ، واللهو الذى

استمتعت به ، وملاذ الحرب ومسراتها .

أما ما عدا هذا من الأشياء التى يراها الناس نعما فقد تركتها خلفى[78]

ولعلنا لا نجد شيئاً من التناقض بين هذا المزاج وبين المزاج الذى تصوره نصوص هذا الكتاب ؛ فقد يكون أحدهما تمهيداً طبيعياً للآخر .

ولسنا نعرف كيف قضى أشور بانيبال نحبه . فأما القصة التى وضعها بيرُن فى قالب مسرحية ، والتى تقول إنه أشعل النار فى قصره فهلك وسط اللهب ، فإن مردها إلى اكتسياس[٧٩] وهو مؤرّخ مولع بإيراد كل ما هو غريب، وقد لاتكون إلا أسطورة من الأساطير . ومهما تكن ميتته فقد كانت نذيراً بما سيؤول إليه أمر بلاده ورمزاً لآخرتها ؛ لقد كانت هى الأخرى مقبلة على الفناء لأسباب بعضها من صنع يده . ذلك أن حياة أشور الاقتصادية كان جُلّ اعتمادها على ما يصل إليها من خارجها ، وقد أسرف ملوكها فى الجرى على هذه السياسة الحمقاء ، فكان مصدر حياة البلاد هو الفتوح الخارجية التى تأتيها بالمال الوفير من الغنائم والمتاجر . وتلك سياسة تعرضها للخراب فى أية لحظة إذا ما هزمت جيوشها فى واقعة حاسمة . وسرعان ما أخذت الصفات الجسمية والخلقية ، التى جعلت الجيوش الأشورية رهيبة لا تقهر فى ميدان القتال ، تضعف بتأثير الانتصارات التى نالها هؤلاء الجنود ؛ ذلك أن كل واقعة تنتصر فيها أشور كان يهلك فيها أقوى جنودها وأبسلهم ، فلا ينجو من القتل إلا الضعاف والمترددون والحذرون يعودون إلى بلادهم ليكثروا من نسلهم ، وتلك خطة مآلها إضعاف النسل ، ولعلها كانت من أسباب ارتقاء الحضارة لأنها انتزعت من البــلاد أشد الناس وحشية ، ولكنها قوّضت الأساس الحيوى الذى شادت عليه أشور قوتها . وكان اتساع فتوحها سبباً آخر من أسباب ضعفها . ولم يكن إفقار الحقول من زراعها لإطعام إله الحرب النهم هو السبب الوحيد فى هذا الضعف، بل كان له سبب آخر وهو أن فتوحها جاءت إليها بالأسرى وبملايين من الأجانب المملقين الذين تناسلوا كما يتناسل المعدمون البائسون، فلم يبقوا على شىء من الوحدة القومية فى الجسم والخُلُق . وكانوا لكثرتهم المطردة قوّة معادية تعمل على الضعف والانحلال بين الفاتحين أنفسهم . وأخذ هؤلاء الرجال القادمون من البلاد الأجنبية يزداد عديدهم فى الجيش نفسه بينما كان الغزاة أنصاف الهمج يهاجمون البلاد من جميع أطرافها ،

ويستنزفون مواردها فى سلسلة لا آخر لها من الحروب للدفاع عن تخومها غير الطبيعية .

ومات أشور بانيپال فى عام ٦٢٦ ق . م ، وبعد أربعة عشر عاماً من موته اجتاح البلاد جيش من البابليين بقيادة نبوخذ نصر ومعه جيش من الميديين بقيادة سياخار وجحافل أخرى غير نظامية من السكوذيين أهل القفقاس ، وسرعان ما استولت هذه الجيوش على القلاع الشمالية بسهولة عجيبة . وخربت نينوى تخريباً لا يقلّ فى قسوته وشموله عما فعله ملوكها من قبل بالسوس وبابل ، فأشعلت النار فى المدينة ، وذُبح أهلها أو سيقوا أسرى ، ونُهب القصر الذى شاده أشور بانيپال من عهد قصير ثم دُمّر أشنع تدمير . وهكذا اختفت أشور من التاريخ ، ولم يبق منها إلا بعض أفانين الحرب وأسلحتها ، وتيجان لولبية لبعض عمدها النصف « الأيونية » ، وبعض النظم الإدارية لحكم الولايات انتقلت منها إلى الفُرْس ومقدونية وروما . وظل الشرق الأدنى بعض الوقت يذكر لها قسوتها فى توحيد نحو اثنى عشرة دولة صغيرة تحت سلطانها ، وتحدّث اليهود عن نينوى حديثاً ينطوى على الحقد والضغينة ووصفوها بأنها : « المدينة الدموية ، التى تفيض بالكذب واللصوصية »(٨٠) . وما هى إلا فترة قصيرة حتى نسى الناس أسماء ملوكها العظام ما عدا أعظمهم قوة وبطشاً ، وأصبحت قصورهم خربات دارسة تحت الرمال السافية . وبعد مائتى عام من الاستيلاء على نينوى وطئت جيوش أكسنوفون التى تبلغ عدتها عشرة آلاف مقاتل الأكوام التى كانت من قبل نينوى ، ولم يدر بخلدها قط أن هذه الأكوام بعينها هى موضع الحاضرة القديمة التى كانت تحكم نصف العالم . ولم تقع أعين هذه الجيوش على حجر واحد من حجارة الهياكل التى حاول جنود أشور الأتقياء أن يجملوا بها أعظم عواصمهم . وحتى أشور نفسه إلهها الخالد أمسى فى عداد الموتى .

ملحوظة : استعنا فى تحقيق أسماء الأماكن الواردة فى هذا الباب وفى البابين السابقين بالخرائط الجغرافية والتاريخية التى تفضلت بإعارتنا إياها المفوضية العراقية بالقاهرة ووزارة الخارجية العراقية . (المترجم)

الباب الحادى عشر

خليط من الأمم

الفصل الأول

الشعوب الهندوربية

مسرح الأجناس – الميتانيون – الحثيون – الأرمن – السكوذيون –
الفريجيون – الأم المقدسة – الليديون – كروسس –
العملة – صولون وقورش

كان الشرق الأدنى فى عهد نبوخد نصر يبدو للعين البعيدة الفاحصة كأنه بحر خضم يتلاطم فيه خليط من الآدميين ، يأتلفون ثم يتفرقون ، يَستعبدون ثم يُستعبدون ، يأكلون ويؤكلون ، ويَقتلون ويُقتلون إلى غير نهاية . وكان من وراء الإمبراطوريات الكبرى ومن حولها – مصر وبابل وأشور والفرس – يضطرب هذا الخليط من الشعوب نصف البدوية نصف المستقرة : الكمريين ، والقليقيين ، والكيدوكيين ، والبثونيين ، والأشكانيين ، والميزيين ، والميونيين ، والكريبين ، والبفيليين ، والبزيديين ، واللوكوانيين ، والفلسطينيين ، والعموريين ، والكنعانيين ، والإدميين ، والعمونيين ، والمؤابيين وعشرات العشرات من الشعوب الأخرى التى كان كل شعب منها يظن نفسه مركز الأرض ومحور التاريخ ، ويعجب من جهل المؤرخين وتحيزهم إذ لم يخصوه إلا بفقرة أو فقرتين فى كتبهم .

وكان هؤلاء البدو طوال تاريخ الشرق الأدنى خطرا يهدد الممالك التى كانت

أكثر منهم استقراراً ، والتى كانوا يحيطون بها من كل الجهات تقريباً . وكان الجدب يدفع بهم من حين إلى حين إلى هذه الأصقاع الغنية ، فتشب بينها وبينهم الحرب ، أو يتطلب منها ذلك الاستعداد الدائم للحرب[1] . وكان الذى يحدث عادة أن تموت المملكة المستقلة وتحيا من بعدها القبيلة البدوية التى اجتاحت أراضيها فى آخر الأمر . والعالم ملىء بالأصقاع التى ازدهرت فيها الحضارة فى يوم من الأيام والتى عاد البدو يجوسون خلالها من جديد .

وفى بحر الأجناس المتلاطم أخذت بعض الدول الصغرى تتشكل ، ويكون لها نصيب صغير فى تراث الجنس البشرى ، وإن لم يزد نصيبها هذا على أن تكون ناقلة وموصلة . ويهمنا من هذه الشعوب الميتانيون ، وليس ذلك لأنهم أعداء مصر الأقدمون فى الشرق الأدنى ، بل لأنهم أول الشعوب الهندوربية التى عرفناها فى آسية ، ولأنهم أول عبدة الآلهة — متْرا ، وإندرا ، وفرونا — التى انتقلت منهم إلى فارس والهند ، فأعانتنا بانتقالها على تتبع حركات الجنس الذى كان يطلق عليه من قبيل التيسير الجنس « الآرى »[*] .

وكان الحثيون من أقوى الشعوب الهندوربية القديمة ومن أكثرها حضارة ، وأكبر الظن أنهم جاءوا عن طريق البسفور والهلسپنت (الدردنيل) وبحر إيجه ، أو عن طريق القفقاس ، واستقروا طبقة عسكرية حاكمة تسيطر على الزراع سكان البلاد الأصليين فى شبه الجزيرة الجبلية الواقعة جنوبى البحر الأسود والمعروفة الآن باسم آسية الصغرى . ونراهم حوالى ١٨٠٠ ق . م مستقرين قرب منابع دجلة والفرات ، ثم نشروا بعدئذ جيوشهم وبسطوا نفوذهم فى سوريا ، وأقلقوا بال

(*) كان أول ظهور لفظ الآريين عند الحرى إحدى قبائل أمة الميتانى . وكان هذا اللفظ اسماً أطلقته على نفسها مجموعة الشعوب الضاربة بقرب شواطىء بحر قزوين أو التى كان أصلها ممن يضربون بالقرب من هذه الشواطىء . أما اليوم فإن هذا اللفظ يطلق بنوع خاص على الميتانيين والحثيين ، والميديين ، والفرس ، والهنود القدا — أى على الشعبة الشرقية من الشعوب الهندوروبية التى عرفت شعبتها الغربية بلاد أوروبا[2] .

مصر القوية حيناً من الزمان . ولقد رأينا كيف اضطر رمسيس الثانى أن يعقد الصلح ، وأن يقر لملك الحثيين بأنه نده . واتخذ الحثيون عاصمتهم عند بوغاز كوى(*) وجعلوا أساس حضارتهم فى أول الأمر الحديد الذى استخرجوه من الجبال المتاخمة لأرمينية ، ثم الشرائع التى تأثرت كثيراً بشرائع حمورابى ، ثم ما طبعوا عليه من إدراك ساذج للجمال حفزهم إلى نحت تماثيل مجسمة ضخمة سمجة أو نقرها فى صخور الجبال(**) . وكانت لغتهم تنتمى فى أكثر ألفاظها إلى أسرة اللغات الهندوربية ، وقد حل رنزنى رموزها من عهد قريب بدراسة الاثنى عشر ألف لوح التى عثر عليها هيوجو ونكلر فى بوغاز كوى . وهى فى اشتقاقها وتصريفها شديدة الشبه باللغتين اللاتينية واليونانية ، ومن كلماتها البسيطة ما هو ظاهر القرابة للكلمات الإنجليزية(†) . وكان للحثيين خط تصويرى يكتبونه بطريقتهم الخاصة العجيبة . إذ كانوا يكتبون سطراً من الشمال إلى اليمين ، ثم يكتبون السطر الذى يليه من اليمين إلى الشمال ، ثم من الشمال إلى اليمين وهكذا دواليك . وأخذوا الخط المسمارى عن البابليين ، وعلموا أهل كريت صنع الألواح الطينية ليكتبوا عليها ، ويظهر

(*) فى شرق نهر هاليس ، وبالقرب منها على الضفة الأخرى من النهر تقع مدينة أنقرة عاصمة تركيا الحديثة ، وهى ابنة أنقورة التى كانت فى الأيام القديمة حاضرة فريجيا . وقد يكون مما يعيننا على رسم صورة ثقافية متناسبة الأبعاد أن ندرك أن الأتراك الذين نسميهم « مرعبين » يفخرون بقدم عاصمتهم ويرثون لحال أوربا التى يسيطر عليها البرابرة الكفرة . إن كل بقعة فى العالم لتعد بلا جدال مركزاً له .

(**) وقد كشفت البارون ڤون أوبنهايم عند تل حلف وغيره من الأماكن كثيراً من تحف الحثيين الفنية ، وجمعها فى متحفه ، وهو مصنع مهجور فى برلين . ويرجع كاشف هذه الآثار تاريخ معظمها إلى حوالى ١٢٠٠ ق . م ، ويرجع بعضها إلى الألف الرابع قبل الميلاد . وتحوى هذه المجموعة طائفة من الآساد منحوتة فى الحجر نحتاً ساذجاً ولكنه قوى ، وتماثيل الثالوث الآلهة الحثية — إله الشمس ، وإله الجو ، وهبات إشنار الحثيين . وأعظم ما يروعنا من هذه التماثيل تمثال لأبى الهول قبيح المنظر ، وضع أمامه وعاء من الحجر ليقرب فيه القربان .

(†) انظر مثلا فادار Water إزا Eat ، أوجا أنا I (وبلاتينية Fgo) توج hee ، فش we ، مو me ، كوش who (وباللاتينية quis) ، كوت what (باللاتينية quid) وغيرها(٣) .

أنهم اختلطوا بالعبرانيين الأقدمين اختلاطاً شديداً أكسب هؤلاء أنفهم الأقنى الشديد القنا . ومن ثم فإن من واجبنا أن نعد هذه الخاصة العبرية « آرية » حقة[4] . ومن الألواح التي بقيت إلى هذه الأيام ما يحتوى على مفردات حثية وما يقابلها باللغتين السومرية والبابلية ، ومنها ما هو أوامر إدارية تكشف عن دولة عسكرية ملكية متماسكة ؛ ومنها حطام ألواح تبلغ عدتها مائتين تحوى على طائفة من القوانين من بينها قواعد لتحديد أثمان السلع[5] . ولقد اختفى الحثيون من صفحة التاريخ اختفاء يكاد يشبه فى غرابته وغموضه ظهورهم فيها ، فقد اندثرت عواصمهم واحدة بعد واحدة — ولعل سبب اندثارها أن ميزتهم العظيمة التي فاقوا بها غيرهم من الشعوب ، وهى معرفة الحديد ، أضحت فى متناول منافسيهم وسقطت قرقيش آخر عواصمهم فى يد الأشوريين عام ٧١٧ ق . م .

وكان إلى شمال بلاد أشور أمة مستقرة إذا قيست إلى غيرها من الأمم ، يعرفها الأشوريون باسم أرارتو ، والعبرانيون باسم أرارات ، ومن جاء بعدهم من الأمم باسم الأرمن . واحتفظ الأرمن بحكومتهم المستقلة ، وعاداتهم وفنونهم الخاصة ، قروناً كثيرة تبدأ قبل فجر التاريخ المدون ، وتستمر إلى أن بسط الفرس سلطانهم على آسية الغربية بأجمعها . وأثروا فى أيام أرجستس الثانى أعظم ملوكهم (حوالى ٧٠٨ ق . م) من تعدين الحديد وبيعه فى بلاد آسية واليونان ، وبلغوا درجة عظيمة من الرخاء وسهولة العيش والحضارة والآداب العامة ، وشادوا المبانى العظيمة من الحجارة ، وصنعوا المزهريات والتماثيل الصغيرة الجميلة الدقيقة . ولكنهم أضاعوا ثروتهم فى الحروب الهجومية الكثيرة النفقات ، وفى صد غارات الأشوريين عن بلادهم . ثم بسط عليهم الفرس سلطانهم فى أيام قورش الفاتح .

وإلى شمال الأرمن ، وعلى ضفاف البحر الأسود ، كان يتجول السكوذيون وهم عشائر حربية تتألف من خليط من المغول والأوربيين ، جبابرة متوحشون ملتحون ، يقيمون فى عربات ، ويبقون نساءهم فى عزلة شديدة[6] ، ويركبون

الخيل البرية عارية ، يحاربون ليعيشوا ، ويعيشون ليحاربوا ، ويشربون دماء أعاديهم ، ويتخذون جلود رؤوس هؤلاء الأعداء قطائل لهم[7] ، أضعفوا أشور بغاراتهم الدائمة عليها ، واجتاحوا غربي آسية (حوالى عام ٦٣٠ - ٦١٠ ق . م) أخذوا يدمرون فى طريقهم كل شىء ويقتلون كل إنسان ، وتقدموا إلى مدن دال النيل نفسها ؛ ثم فشا فيهم وباء غريب مجهول قضى على عدد كبير منهم ، وغلبهم آخر الأمر الميديون ، وردوهم على أعقابهم إلى مساكنهم فى الشمال[8](*) وإنا لنلمح فى هذه القصة ومضة أخرى من المأساة التى تتكرر على الدوام فى جميع العصور ، وهى ما تفعله القبائل الهمجية الرابضة وراء الأمم القديمة جميعها والمحيطة بها .

وظهرت فى أواخر القرن التاسع قبل الميلاد قوة جديدة فى آسية الصغرى ، ورثت بقايا الحضارة الحثية ، وكانت حلقة اتصال بينها وبين ليديا وبلاد اليونان . وكانت الأساطير التى حاول بها الفريجيون أن يفسروا للمؤرخين المتشوفين قيام دولتهم قصة رمزية لقيام الأمم وسقوطها . فهم يقولون إن جورديوس أوّل ملوكهم كان فلاحاً بسيطاً لم يرث من أبويه إلا ثورين اثنين(**) ، وإن ابنه ميداس ثانى أولئك الملوك كان رجلا متلافاً أضعف الدولة بشراهته وإسرافه

(*) يحدثنا أبقراط أن « نساءهم ، طالما كن عذارى : يركبن الخيل ، ويصدن ، ويرمين بالحراب وهن على ظهور الخيل ؛ ويحاربن أعداءهن . ولا يسمحن بفض بكارتهن إلا إذا قتلن ثلاثة من هؤلاء الأعداء . . . والمرأة التى تتخذ لها زوجاً لا تقاتل قط بعد الزواج ، إلا إذا أرغمت على هذا العمل بالاشتراك فى حملة عامة . وليس لهؤلاء النساء ثدى أيمن ، وذلك لأن أمهاتهن يأتين بأداة من البرنز متوهجة من شدة حرارتها تصنع لهذا الغرض خاصة ويكوينهن بها وهن فى سن الرضاع فى مكان ثديهن الأيمن ، فيقف بذلك نموه وتتحول كل قوته ونمائه إلى الكتف اليمنى والذراع اليمنى »[9] .

(**) وأمر الهاتف زيوس الفريجيين أن يختاروا ملكاً عليهم أول رجل يدخل الهيكل فى عربة ؛ وكان هذا الداخل هو جورديوس . ووهب الملك الجديد الإله عربته . وتنبأ هاتف جديد بأن من يفلح فى حل العقدة المشكلة التى تربط النير بعريش العربة يحكم جميع بلاد آسية . فجاء الإسكندر - حسبما ترويه القصة - وقطع العقدة الجوردية بضربة سيفه .

اللذين مثّلهما الحلف بالأسطورة المأثورة التي تقول إنه طلب إلى الآلهة أن تهبه القدرة على تحويل كل ما يمسه إلى ذهب. وأجابت الآلهة طلبه فكان كل ما يمس جسمه يستحيل ذهبا حتى الطعام الذي تلمسه شفتاه. وأوشك الرجل أن يموت جوعاً، لكن الآلهة سمحت له أن يطهر نفسه من هذه النقمة بأن يغتسل في بكتولس ــ وهو النهر الذي ظل بعدئذ يخرج حصى من الذهب.

واتخذ الفريجيون طريقهم من آسية إلى أوربا، وشادوا لهم عاصمة في أنقورة، وظلوا وقتاً ما ينازعون أشور ومصر السيادة على الشرق الأدنى، واتخذوا لهم إلهة ــ أمًّا تدعى ما، ثم عادوا فسموها سيبيل، واشتقوا هذا الاسم من الجبال (سيبيلا) التي كانت تعيش فيها، وعبدوها على أنها روح الأرض غير المزروعة، ورمز جميع قوى الطبيعة المنتجة. وأخذوا عن أهل البلاد الأصليين طريقة خدمة الإلهة بالدعارة المقدسة، ورضوا بأن يضموا إلى أساطيرهم الشعبية القصة التي تقول إن سيبيل أحبّت الإله الشاب أرتيس(*) وأرغمته على أن يخصي نفسه تكريماً لها. ومن ثم كان كهنة الأم العظيمة يضحون لها برجولتهم حين يدخلون في خدمة هياكلها[11]. وقد سحرت هذه الخرافات الوحشية لب اليونان وتغلغلت في أساطيرهم وأدبهم. وأدخل الرومان الإلهة سيبيل رسمياً في دينهم، وكانت بعض الطقوس الخليعة التي تحدث في حفلات المساخر الرومانية مأخوذة عن الطقوس الوحشية التي كان الفريجيون يتبعونها في احتفالهم بموت أرتيس الجميل وبعثه[12].

وانتهى سلطان الفريجيين في آسية الصغرى بقيام مملكة ليديا الجديدة التي أنشأها الملك جيجيس واتخذ سرديس عاصمة لها. ثم حكمها أليتيس أربعين سنة بلغت في خلالها درجة عظيمة من الرخاء والقوة ثم ورثها كروسس (٥٧٠ ــ ٥٤٦ ق. م) واستمتع بها أيما استمتاع، ووسع رقعتها بما فتحه من أقاليم

(*) تحدثنا الأساطير بأن أرتيس ولدته نانا الإلهة العذراء بمعجزة من المعجزات، وبأنها حملت فيه بوضع رمانة بين ثدييها[10].

جديدة شملت آسيا الصغرى جميعها تقريباً ، ثم أسلمها آخر الأمر إلى الفرس واستطاع بفضل الرشى السخية التي كان يقدمها الساسة المحليين أن يخضع إلى ليديا الدويلات التي كانت تحيط بأملاكه واحدة بعد واحدة ، كما استطاع بضحاياه المنقطعة النظير والتي كان يقدمها قرباناً إلى الآلهة المحلية أن يهدئ من غضب شعوب تلك الدويلات ، وأن يقنعها بأنه حبيب آلهتهم . وامتاز كروسس عن غيره من الملوك بسك نقود ذهبية وفضية ذات شكل بديع تضربها الدولة وتضمن قيمتها الاسمية . وليست هذه هي أول المسكوكات الرسمية التاريخية كما اعتقد المؤرخون زمناً طويلا ، وليست هي بلا جدال بداية اختراع المسكوكات(*) ، ولكنها مع هذا كانت مثالا يحتذى ساعد انتشار التجارة في بلاد البحر المتوسط . لقـد ظل الناس قروناً طوالا يستخدمون معادن مختلفة لتقدير قيم البضائع وتسهيل تبادلها ، ولكنها سواء كانت النحاس أو البرنز أو الحديد أو الفضة أو الذهب كانت في أغلب البلاد تقدر قيمتها في كل عمل تجاري حسب وزنها أو حسب غيره من الاعتبارات. لهذا كان استبدال عملة قومية معترف بها رسمياً بهذه الوسائل المتعبة إصلاحاً عظيم القيمة في عالم التجارة ، فقد يسرت هذه الوسيلة الجديدة انتقال السلع ممن يحسنون إنتاجها إلى من هم في أشد الحاجة إليها ، فزاد ذلك من ثروة العالم ، ومهد السبيل لقيام المدنيات التجارية كمدنيات الأيونيين واليونان ، حيث اسـتخدمت الثروة التي جاءت من طريق التجارة لتمويل الأعمال الأدبية والفنية .

ولم يصل إلينا شيء من الأدب الليدي ، كذلك لم يبق قط شيء من المزهريات الجميلة القيمة المصنوعة من الذهب والحديد والفضة والتي تقرب بها كروس للآلهة التي غلبها . وتدل المزهريات التي وجدت في مقابر الليديين والتي

(*) وجدت مسكوكات أقدم من هذه عهداً عنـد موهنجو - دارو في الهند (٢٩٠٠ ق . م ، ولقد رأينا من قبل كيف سك سنحريب (حوالي عام ٧٠٠ ق . م) قطعاً من النقود قيمتها نصف شاقل .

يحتويها الآن متحف اللوفر على أن ما كان لمصر وبابل من زعامة على الفن في ليديا أيام كروسس قد أخذ يحل محله نفوذ اليونان المتزايد ؛ وكان لهذه المزهريات من دقة الصنع ما يعادل أمانتها وإخلاصها للطبيعة . ولما زار هيرودوت ليديا وجد أن عادات أهلها لا تكاد تمتاز عن عادات اليونان أهل بلاده ؛ ويقول إن ما كان باقياً لديهم من هذه العادات التي تميزهم عن اليونان هو أن بنات العامة منهم كن يكسبن بائناتهن من الدعارة[14] . وهذا المؤرخ الثرثار نفسه هو أهم ما نعتمد عليه من المراجع في القصة التي تروى عن كيفية سقوط كروسس . فهو يقص علينا كيف عرض كروسس ثروته على صولون ، ثم سأله عمن يراه أسعد الناس . وبعد أن ذكر صولون أسماء أشخاص ثلاثة كلهم من الموتى أبى أن يقول إن كروسس سعيد ، وحجته في هذا أنه لا يعرف أي المصائب قد يأتي بها الغد . وأخرج كروسس المشرع العظيم من عنده معتقداً أنه إنسان أبله . ثم أخذ بعدئذ يأتمر ببلاد الفرس ؛ وما لبث أن رأى جحافل قورش على أبوابه . وانتصر عليه الفرس بفضل ما كان لجمالهم من رائحة نتنة قوية — كما يقول هذا المؤرخ نفسه — لم تطقها جياد الليديين ؛ فجمحت ودحر الليديون ، وسقطت سرديس . وتقول الرواية القديمة إن كروسس أعد كومة كبيرة من الحطب ، واتخذ مكانه عليها ومن حوله أزواجه وبناته ومن بقي على قيد الحياة من أبناء بلاده ، ثم أمر خصيانه أن يحرقوهم جميعاً . وذكر في اللحظات الأخيرة من حياته قول صولون ، فأسف على جهله وقلة تبصره ، وأخذ يلوم الآلهة التي تقبلت جميع قرابينه وجازته عليها بالخراب والهلاك . وأشفق عليه قورش — إذا جاز لنا أن نأخذ برواية هيرودوت[15] — وأمر بالنار أن تطفأ ، وأخذ كروسس معه إلى فارس ، وجعله من أقرب مستشاريه ومن أكثرهم جدارة بثقته .

الفصل الثانى

الأقوام الساميون

قدم العرب – الفينيقون – تجارتهم العالمية – طوافهم حول أفريقية .
مستعمراتهم – صور وصيدا – آلهتهم – نشر الحروف
الهجائية – سوريا – عشتورت – موت أدنيس
وبعثه – التضحية بالأطفال

إذا حاولنا أن نقلل من اضطراب اللغات وتباينها فى الشرق الأدنى بقولنا إن معظم الشعوب التى كانت تسكن فى الأجزاء الشمالية من هذا الإقليم شعوب هندوربية وإن التى تقطن الأجزاء الوسطى والجنوبية منه والممتدة من أشور إلى جزيرة العرب شعوب سامية(*) ، إذا حاولنا هذا فإن من واجبنا فى الوقت نفسه أن نذكر أن الحقائق ليست واضحة المعالم إلى هذا الحد ، وأن الفوارق بين الأجناس ليست بهذه الصورة التى نرسمها للتفرقة بينها تيسيراً للبحث ؛ لسنا ننكر أن بلاد الشرق الأدنى تقسمها الجبال والصحارى إلى بيئات مختلفة منعزلة بعضها عن بعض بطبيعتها ، وأنها لذلك تختلف فى لغاتها وتقاليدها . ولكن التجارة قد عملت على مزج لغات هؤلاء الأقوام وعاداتهم وفنونهم فى طرقها الرئيسية (كالطريق الممتد على شواطئ النهرين الكبيرين من نينوى وقرقميش إلى الخليج الفارسى) ، هذا إلى أن هجرة الشعوب ونقل جماعات كبيرة منها قسراً لأغراض استعمارية قد مزجا الأجناس واللغات المختلفة مزجاً كان من آثاره أن صحب اختلافها فى الدم بعض التجانس فى الثقافة . ومن ثم فإننا إذا سمينا بعض الشعوب هندوربية فإنما نقصد بهذه التسمية أن هذه هى الصفة الغالبة عليها ؛ وإذا قلنا إن شعباًما « سامياً » فإن

(*) لفظة سامية مشتقة من سام الذى يقال إنه أبو الشعوب السامية كلها .

كل ما نعنيه أن السامية غالبة فيه . ولكن الحقيقة أنه لا توجد سلالة صافية ولم توجد قط ثقافة لم تتأثر بثقافة جيرانها أو ثقافة أعدائها . ومن واجبنا أن ننظر إلى هذه الرقعة الواسعة على أنها بيئة تدفقت على أجناسها المختلفة طوائف من هذا الجنس أو ذاك ؛ فغلب عليها الجنس الهندوروبى تارة وغلب عليها السامى تارة أخرى ، ولكن غلبة هذا الجنس أو ذاك لم تثمر من الناحية الثقافية إلا اصطباغ هؤلاء الغالبين بالصفات الثقافية العامة فى مجموع هذه الأجناس . فقد كان بين حمورابى ودارا الأول مثلاً اختلاف كبير فى الدم والدين ، وكان يفصل بينهما من القرون ما يكاد يفصل منها بيننا وبين المسيح ، ولكننا إذا درسنا هذين العاهلين العظيمين دراسة دقيقة ، أدركنا أن من وراء هذا الاختلاف قرابة جوهرية بعيدة القرار .

ومهد الجنس السامى ومرباه جزيرة العرب ، فمن هذا الصقع الجدب حيث ينمو « الإنسان شديداً عنيفاً ، وحيث لا يكاد ينمو نبات على الإطلاق » ، تدفقت موجة فى إثر موجة فى هجرات متتابعة من خلائق أقوياء شديدى البأس لا يهابون الردى ، بعد أن وجدوا أن الصحراء والواحات لا تكفيهم ، فكان لا بد لهم أن يفتتحوا بسواعدهم مكاناً خصباً ظليلا يعولهم ويقوم بأودهم . فأما من بقى منهم فى بلادهم فقد أوجدوا حضارة العرب والبدو ؛ وأنشئوا الأسرة الأبوية وما تتطلبه من طاعة وصرامة خلقية ، وتخلقوا بالجبرية وليدة البيئة الشاقة الضنينة ، والشجاعة العمياء التى تدفع أصحابها إلى وأد بناتهم وتقديمهن قرباناً للآلهة . على أن الدين لم يكن أمراً جدياً بين هؤلاء الأقوام حتى جاءهم محمد بالإسلام ؛ ولم يعنوا بالفنون وملاذ الحياة لأنهم كانوا يرونها خليقة بالنساء ومن أسباب الضعف والانحلال . وظلوا وقتاً ما يسيطرون على التجارة مع الشرق الأقصى ، تتكدس فى ثغورهم غلات جزائر الهند ، وتحمل قوافلهم تلك الغلات وتنقلها فى الطرق البرية غير الآمنة إلى فينيقية وبابل . وشادوا فى قلب جزيرتهم العريضة المدن والقصور

والهياكل ، ولكنهم لم يكونوا يشجعون الأجانب على المجيء إليها ورؤيتها .
ولقد بقي هؤلاء الأقوام آلاف السنين يحيون حياتهم الخاصة بهم ، محافظين على عاداتهم وأخلاقهم ، متمسكين بآرائهم ، ولا يزالون إلى اليوم كما كانوا في أيام كيوپس وجوديا . ولقد شهدوا مئات الممالك تقوم وتفنى من حولهم ، ولا تزال أرضهم ملكاً لهم يعضون عليها بالنواجذ ، ويحمونها من أن تطأها الأقدام الدنسة أو تنظر إليها الأعين الغريبة .

والآن يحق للقارئ أن يسأل من هم أولئك الفينيقيون الذين تردد ذكرهم في هذه الصحف ، والذين مخرت سفنهم عباب البحار كلها فلم يكن يخلو ثغر من تجارهم يساومون فيه ويبيعون ويشترون ؟ إن المؤرخ ليستحي إذا سئل عن أصلهم فهو لا يرى بدا من الاعتراف بأنه لا يكاد يعرف شيئاً من التاريخ الباكر أو التاريخ المتأخر لهذا الشعب الذي نراه في كل مكان ، ولكنه يفلت منا إذا أردنا أن نمسك به لنخبُره وندرسه[15] : فلسنا نعرف من أين جاء الفينيقيون ، أو متى جاءوا ، ولسنا واثقين من أنهم ساميون(*) أما تاريخ قدومهم إلى شاطئ البحر المتوسط فليس في وسعنا أن نكذب ما قاله علماء صور لهيرودوت ، وهو أن أجدادهم قدموا إلى بلادهم هذا من شواطئ الخليج الفارسي ، وانهم شادوا تلك المدينة في العهد الذي نسميه نحن القرن الثامن والعشرين قبل ميلاد المسيح[17] . بل إن اسمهم نفسه لمن المشاكل العسيرة الحل . فقد يكون معنى لفظ الفوانكس الذي اشتق منه اليونان هذا الاسم هو الصبغة الحمراء التي كان يبيعها تجار صور ، وقد يكون معناه النخلة التي تترعرع على الشواطئ الفينيقية(**) ، وكان ذلك الشاطئ ، وهو شريط ضيق من الأرض يبلغ طوله ١٠٠ ميل ولا يزيد عرضه على عشرة

(*) يقول أوتران إنهم كانوا فرعاً من فروع الأقوام الذين أنشئوا الحضارة الكريتية[16].
(**) يكتب هذا الاسم أحياناً بالواو بدل الياء فيقال فونيقية وفونيق ولعل هذا أصوب وإن لم يكن مؤكداً كل التأكيد ، ولكننا آثرنا اللفظ القديم المألوف لأنه لم يثبت خطؤه . (المترجم)

أميال ، محصوراً بين البحر من جهة وسوريا من الجهة الأخرى، وكان هو كل ما يطلق عليه اسم بلاد فينيقية . ولم ير أهله أن استيطان جبال لبنان القائمة فى شرق بلادهم أو إخضاع هذا الإقليم لحكمهم عملا خليقاً باهتمامهم ، بل كانوا يقنعون بأن يظل هذا الحاجز المبارك قائماً شرق بلادهم يحميهم من الأمم ذات النزعة الحربية التى كانوا يحملون بضائعها إلى خلجان البحار .

وقد اضطرتهم هذه الجبال إلى العيش على ظهر البحار ، وظلوا من عهد الأسرة السادسة المصرية إلى ما بعدها أنشط تجار العالم القديم ؛ ولما تحرروا من حكم مصر (حوالى ١٢٠٠ ق . م) أضحوا سادة البحر المتوسط ، ولم يكتفوا بنقل التجارة ، بل كانت لهم مصنوعات عدة من الزجاج والمعادن ، والمزهريات المنقوشة المطلية ، والأسلحة والحلىّ والجواهر . وقد احتكروا لأنفسهم صُنع الصبغة الأرجوانية التى استخرجوا مادتها من حيوان بحرى رخوى يكثر بالقرب من شواطئهم[١٨] ، ومن ثم اشتهرت نساء صور باستخدام الألوان الزاهية الجميلة التى كن يصبغن بها ما برعن فى تطريزه من الأقمشة . وكانوا ينقلون هذه المصنوعات والفائض الذى يمكن نقله من غلات الهند والشرق الأقصى – من حبوب ، وخمور ، ومنسوجات ، وحجارة كريمة – إلى موانى البحر المتوسط قريبة كانت منهم أو بعيدة عنهم ؛ وكانت سفنهم تعود من هذه الموانى مثقلة بالرصاص ، والذهب ، والحديد من شواطئ البحر الأسود الجنوبية ؛ وبالنحاس ، وخشب السرو ، والغلال من قبرص(*) ، وبالعاج من أفريقية ؛ والفضة من أسبانيا ؛ والقصدير من بريطانيا ؛ وبالعبيد من كل مكان : وكانوا تجاراً دهاة ؛ أغروا فى مرة من المرار أهل أسبانيا بأن يعطوهم نظير شحنة من الزيت مقداراً من الفضة لم تتسع له سفائنهم ؛ فما كان من الساميين الماكرين إلا أن استبدلوا الفضة بما

(*) إن الاسمين الإنجليزيين للنحاس والسرو Copper & Cypress مشتقان من لفظ قبرص .

كان فى مراسى سفنهم من حديد وحجارة وأقلعوا بها مغتبطين[١٩] . على أن هذا لم يكفهم ، فأسروا الأهلين وسخروهم فى العمل فى المناجم ساعات طوالاً نظير أجور لا تكاد تكفى لابتياع أقواتهم(*) . ذلك أن الفينيقيين ، ككل التجار الأقدمين ، لم يكونوا يفرّقون كثيراً فى أعمالهم ولا فى لغاتهم بين التجارة والغدر ، أو بينها وبين اللصوصية ، فكانوا يسرقون الضعيف ، ويبتزون مال الغنى ، أما من عدا هذين الصنفين فكانوا يراعون معهم ما يقضى به الشرف . وكانوا أحياناً يستولون على السفن فى عرض البحار ، ويصادرون ما فيها من بضاعة ، ويأسرون من فيها من الملاحين ؛ وكثيراً ما كانوا يخدعون الأهلين المشوقين إلى الاستطلاع فيغرونهم بزيارة سفنهم ثم يبحرون بهم ويبيعونهم عبيداً[٢١] . وكان لهم أكبر الفضل فى تسوىء وسمعة التجار الساميين الأقدمين وبخاصة عند اليونان الأوّلين ، الذين كانوا يفعلون فعلهم(†) .

وكانت سفائنهم المنخفضة الضيقة البالغ طولها نحو سبعين قدماً طرازاً جديداً فى بناء السفن ؛ ذلك بأنهم لم يحتذوا فيها حذو السفن المصرية المنحنى مقدمها إلى الداخل ، بل جعلوه ينحنى إلى خارجها وينتهى بطرف رفيع يشق الريح أو الماء أو مراكب الأعداء . وكان للسفينة شراع واحد كبير مستطيل الشكل مرفوع على سارية مثبتة فى قاعها ؛ وكان هذا الشراع يساعد العبيد الذين كانوا يدفعونها بصفين من المجاذيف . وكان الجند يقفون على سطح السفينة فوق

(*) انظر ما يقوله جبن « لقد شاءت الأقدار أن تكون أسبانيا فى العالم القديم كما كانت بيرو والمكسيك فى العالم الحديث . فلقد كان كشف تلك البلاد الغربية الغنية (يريد أسبانيا) على يد الفينيقيين ، وظلم أهلها السذج وتسخيرهم للعمل فى مناجمهم لفائدة الأجانب القادمين إلى بلادهم ، كان هذا كله سابقة لا تفترق فى شىء عما فعلته أسبانيا نفسها بأمريكا فى العصر الوسيط »[٢٠] .

(†) وأطلق اليونان – وقد ظلوا خمسمائة عام لا يقطعون عن القرصنة وشن الغارات – اسم فينيقى على كل من كان دأبه الختل والتلصص[٢٢] .

المجذفين يحرسونها وهم متأهبون للاتجار أو للحرب على السواء . وكانت هذه السفن الضعيفة لا تسترشد ببيت الإبرة ولا يزيد غاطسها فى الماء على خمس أقدام . ومن أجل ذلك كانت تخشى أن تبتعد عن شاطئ البحر ، وظلت زماناً طويلا لا تجرؤ على السفر بالليل ؛ ثم ارتقى فن الملاحة شيئاً فشيئاً حتى استطاع أدلاء السفائن الفينيقيون أن يسترشدوا بالنجم القطبى (أو النجم الفينيقى كما كان يسميه اليونان) ويتوغلوا فى المحيطات ، ويطوفوا آخر الأمر حول أفريقية ، فساروا أولا بإزاء الساحل الشرقى متجهين نحو الجنوب و « كشفوا » رأس الرجاء الصالح قبل أن يكشفه فاسكودا جاما بنحو ألفى عام . وفى ذلك الوقت يقول هيرودوت : « ولما أقبل الخريف ، نزلوا إلى البر ، وزرعوا الأرض ، وانتظروا الحصاد ، فلما أن حصدوا الحَب ، أقلعوا بسفائنهم مرة أخرى . ولما أن مرّت عليهم فى عملهم هذا سنتان وصلوا فى السنة الثالثة إلى مصر بعد أن طافوا بأعمدة هرقول (جبل طارق) »[٢٣] . ألا ما أعظم ما تقدّمنا عن أولئك الأقوام !

وأقاموا لهم حاميات فى نقط منيعة على ساحل البحر المتوسط ما زالت تكبر حتى أضحت مستعمرات أو مدناً غاصة بالسكان ، أقاموها فى قادز وقرطاجنة ، ومرسيلية ، ومالطة ، وصقلية ، وسردانية ، وقورسقة بل وفى إنجلترا البعيدة . واحتلوا قبرص ، وميلوس ، وردس[٢٤] ، ونقلوا الفنون والعلوم من مصر ، وكريت ، والشرق الأدنى ، ونشروها فى اليونان ، وفى أفريقية ، وإيطاليا وأسبانيا ، وربطوا الشرق بالغرب بشبكة من الروابط التجارية والثقافية ، وشرعوا ينتشلون أوربا من براثن الهمجية .

وازدهرت المدن الفينيقية التى كانت تغذيها هذه التجارة الواسعة ، والتى كانت تحكمها طبقة من التجار الأثرياء حذقت فنون السياسة الخارجية والمالية ، وضنت بثروة البلاد أن تبدد فى الحروب الخارجية ؛ وأصبحت هذه المدن على مدى الأيام من أغنى مدن العالم وأقواها . ومن هذه المدن مدينة بيلوس التى كانت

تظن نفسها أقدم مدن العالم كلها ، وأنها أنشأها الإله إل فى بداية الزمان . وظلت هذه المدينة إلى آخر أيامها القصبة الدينية لفينيقية . وكان البردى من أهم سلعها التجارية فاشتق اليونان من اسمها اسم الكتاب فى لغتهم ببلوس — Biblo — ومن هذه الكلمة نفسها اشتقت كلمة Bible الإنجليزية اسماً للكتاب المقدس .

وكان إلى جنوبى ببلوس وعلى بُعد نحو خمسين ميلا منها مدينة صيدا ؛ ولم تكن فى بداية أمرها إلا حصناً من الحصون ، ولكنها نمت نمواً سريعاً فكانت قرية ، ثم بلدة ، ثم مدينة مزدهرة غنية ، أمدت خشيارشاى بأحسن المراكب فى أسطوله . ولما أن حاصرها الفرس فيما بعد واستولوا عليها أبت عليهم أنفتهم وعزة نفوسهم أن يسلموها طائعين إلى أعدائهم فأضرموا النار فى مبانيها ودمروها عن آخرها ، وهلك فى حريقها أربعون ألفاً من سكانها[٢٥] . ثم أعيد بناؤها بعدئذ حتى إذا جاءها الإسكندر وجدها مدينة مزدهرة ، وسار بعض تجارها المغامرين فى مؤخرة جيشه إلى بلاد الهند بقصد « الاتجار »[٢٦] .

وكانت أعظم المدن الفينيقية كلها مدينة صور — أى الصخرة — ؛ وقد أنشئت على جزيرة تبعد عدة أميال عن البر . وبدأت هى أيضاً حصناً ، ولكن ميناءها الأمين وسلامتها من الغزو سرعان ما جعلاها حاضرة البلاد الفينيقية كلها ، ومأوى الخليط من التجار والعبيد جاءوها من جميع بلاد البحر المتوسط . وما أن حل القرن التاسع قبل الميلاد حتى كانت صور مدينة غنية فى عهد ملكها حيرام صديق الملك سليمان ؛ وفى أيام زكريا (حوالى ٥٢٠ ق . م) كانت الفضة التى تجمعت فيها كأنها التراب ، وكان الذهب كأنه « وحل الطرقات »[٢٧] . ويقول عنها استرابون : « إن بيوتها من طبقات كثيرة ، بل إنها أكثر طبقات من بيوت رومة »[٢٨] ، وقد ظلت بفضل ثروتها وبسالة أهلها مستقلة إلى أيام الإسكندر . ورأى هذا الشاب المتغطرس فى هذا الاستقلال تحدياً لعظمته فأخضعها بأن بنى طريقاً لها فى البحر جعل منها شبه جزيرة . ثم قضى

عليها القضاء الأخير ازدهارُ مدينة الإسكندرية .

وكان للفينيقيين آلهة كثيرة شأنهم فى ذلك شأن كل أمة تشعر بالتيارات العالمية المعقدة . فكان لكل مدينة بعلها (أى سيدها) أو إلهها الخاص ، وهو فى اعتقاد أهلها جد ملوكها ، ومخصب أرضها ، فكانت الحبوب ، والخمور ، والتين والكتان كلها من عمل بعل المقدس . وكان بعل صور يسمى ماكرات ؛ وكان كهرقول — الذى قال اليونان إنه صورة أخرى منه — إله القوة والبطولة قام بأعمال شبيهة بأعمال منشهرزن . وكانت عشتورت (أستارتى) الاسم الفينيقى لإشتار . ومن خصائصها أنها كانت تُعبد فى بعض الأماكن على أنها إلهة الطهر ، وفى أماكن أخرى على أنها إلهة الفجور والحب الشهوانى ، وقد جعلها اليونان فى هذه الصفة الأخيرة صورة من إلهتهم أفروديت . وكما كانت إشتار — ميلتا تتقبل بكارى عابداتها من البنات فى بابل ، كذلك كانت النساء اللاتى يعبدن عشتورت فى ببلوس يقدمن لها غدائرهن أو يستسلمن لأول غريب يعرض عليهن حبه فى جوار الهياكل . وكما أحبَّت إشتار تموز ، كذلك أحبَّت عشتورت أدنى (أى الرب) ، وكان يحتفل فى ببلوس ، وباثوس (فى قبرص) كل عام بمقتله على أنياب خنزير برى بالنحيب وضرب الصدور . وكان من حسن حظ أدنى أنه يقوم من بين الأموات كلما فارق الحياة ، ويصعد إلى السماء على مشهد من عُبّاده[٢٩] . وكان من آلهتهم أيضاً مولوخ (أى الملك) ، وهو الإله الرهيب ، وكان الفينيقيون يتقربون له بأطفالهم ويحرقونهم أحياء أمام ضريحه . وقد حدث فى قرطاجنة أثناء حصارها (٣٠٧ ق . م) أن أحرق على مذبح هذا الإله الغاضب مائتا غلام من أبناء أرقى أسرها[٣٠] .

ولكن الفينيقيين رغم هذا جديرون بأن تكون لهم مشكلة صغيرة فى محراب الأمم المتحضرة ، ذلك أن تجارهم فى أغلب الظن هم الذين علموا الأمم القديمة الحروف الهجائية المصرية ، وإن لم يكن الهيام بالأدب هو الذى وحد شعوب

البحر المتوسط بل كل سبب وحدتهم الشئون التجارية ومطالبها . ولسنا نجد خيراً من هذه المطالب مثالا يوضح ما بين التجارة والثقافة من رابطة منتجة مثمرة . كما أننا لا نعلم على اليقين أن الفينيقيين ، هم الذين أدخلوا هذه الحروف الهجائية إلى بلاد اليونان ، وإن كانت الرواية اليونانية تؤكد هذا بالإجماع [٣١] ؛ وليس ببعيد أن تكون كريت هي التي أمدت الفينيقيين واليونان [٣٢] كليهما بالحروف الهجائية ، ولكن المرجح أن الفينيقيين أخذوا الحروف الهجائية من حيث أخذوا البردى . وإنا لنجدهم في عام ١١٠٠ ق.م يستوردون البردى من مصر [٣٣] . وكان هذا النبات ذا فائدة لا تقدر للأمة التي تعني بحفظ السجلات الحسابية ونقلها من مكان إلى مكان . وذلك لما فيه من اليسر إذا وزن بالألواح الطينية الثقيلة التي كانت تستخدم في أرض الجزيرة . كذلك كانت الحروف الهجائية المصرية أرقى كثيراً من المقاطع السمجة المستخدمة في غير مصر من بلاد الشرق الأدنى . وحسبنا أن نذكر عن هذه الحروف أن حيرام ملك صور وهب أحد عاثلته في عام ٩٦٠ ق . م كوباً من البرنز عليه نقش بالحروف الهجائية [٣٤] ، وأن ميشا ملك مؤاب أراد في عام ٤٨٠ ق . م أن يخلد مجده فنقش على حجر في متحف اللوفر الآن نقشاً بإحدى اللهجات السامية مكتوباً من اليمين إلى اليسار بحروف شبيهة بالحروف الفينيقية . وقد قلب اليونان اتجاه بعض الحروف لأنهم كانوا يكتبون من اليسار إلى اليمين ، ولكن حروفهم في جوهرها هي الحروف التي علمهم إياها الفينيقيون ، والتي علموها هم أوربا . وهذه الرموز العجيبة هي بلا جدال أثمن ما ورثته الحضارة عن الأمم القديمة .

على أن أقدم ما كشف من كتابات بالحروف الهجائية لم يكشف في فينيقية بل في سيناء . فقد عثر سير وليم فلندرز پتری في سراية الخادم — وهي قرية صغيرة في موضع كان المصريون الأقدمون يستخرجون منه الفيروز — على نقوش بلغة عجيبة يرجع عهدها إلى تاريخ غير معروف على وجه التحقيق ، ولعله يرجع إلى

عام ٢٥٠٠ ق . م . ولم تحل رموز هذه النقوش بعد ، ولكن من الجلى أنها ليست مكتوبة بالخط الهيروغليفى ولا بالكتابة المسمارية المقطعية ، بل مكتوبة بحروف هجائية[٣٥]. كذلك وجد علماء الآثار الفرنسيون فى زاپونا بسوريا مكتبة كاملة من الألواح الطينية بعضها مكتوب بالهيروغليفية وبعضها بحروف هجائية سامية ، ولما كانت زاپونا قد دمرت حوالى عام ١٢٠٠ ق . م قبل أن تستكمل نموها ، فأكبر الظن أن هذه الألواح يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد[٣٦] ، وهى توحى إلينا مرة أخرى بما كانت عليه الحضارة من القدم فى القرون التى يحملنا فرط جهلنا على أن نعزو إليها بدايتها .

وكانت سوريا تمتد خلف فينيقية فى حِجْر تلال لبنان ، وتتجمع فيها قبائلها تحت حكم تلك الحاضرة التى لا تزال تفخر على العالم بأنها أقدم مدنه ، والتى لا تزال تأوى السوريين المتعطشين إلى الحرية . وظل ملوك دمشق زمناً ما يسيطرون على اثنتى عشرة أمة صغيرة من حولهم ، وأفلحوا فى مقاومة ما كان يبذله الأشوريون من جهود لإخضاع سوريا لحكمهم . وكان أهل هذه المدينة من التجار الساميين الذين استطاعوا أن يجمعوا ثروة طائلة من تجارة القوافل التى كانت تجتاز جبال سوريا وسهولها . وكانوا يستخدمون فى أعمالهم الصناع والعبيد ، ولم يكن هؤلاء سعداء أو راضيين . فنحن نسمع أن البنائين نظموا لهم اتحادات عظيمة ؛ وتحدثنا النقوش عن إضراب الخبازين فى مجنيزيا ؛ ونشعر من خلال القرون الطوال بما كان فى إحدى المدن السورية القديمة من نزاع ؛ وما كانت تضطرب به من حركة تجارية كبيرة[٢٧] وقد حذق هؤلاء الصناع تشكيل الفخار الجميل ونحت العاج والخشب ، وصقل الحجارة الكريمة ، ونسج الأقمشة ذات الألوان الزاهية لتتزين بها نساؤهم[٢٨] .

وكانت أزياء الأهلين فى دمشق وعاداتهم وأخلاقهم شديدة الشبه بنظائرها فى بابل ، باريس الشرق القديم المتحكمة فى أذواقه . وكانت الدعارة الدينية منتشرة

فى البلاد ، فكان خصب التربة يرمز له فى سوريا كما كان يرمز له فى بلاد آسية الغربية كلها بأم عظيمة أو إلهة اتصالها الجنسى بعشيقها هو الذى يوحى إلى جميع جهود الطبيعة وعملياتها الإنتاجية . ولم تكن التضحية بالبكارة فى الهياكل عملاً يتقرب به إلى عشتورت وحسب ، بل كان فوق ذلك مشاركة لها فى التهتك الذى يرجى منه أن يوحى إلى الأرض إيحاء قوياً لا تستطيع مقاومته ، وأن يضمن تكاثر النبات والحيوان والإنسان[٢٩] : وكان عيد عشتورت السورية كعيد سيبيل فى فريجيا يحتفل به فى هيرابوليس حوالى الاعتدال الربيعى بحرارة تكاد تبلغ حد الجنون . فكانت نغمات الناى ودق الطبول تمتزج بعويل النساء على أدُنى سيِّد عشتورت الميت . وكان الكهنة الخصيان يرقصون رقصاً عاصفاً عجاجاً ويضربون أجسامهم بالسكاكين . وفى آخر الأمر كانت الحماسة تغلب الكثيرين من الرجال الذين لم يأتوا إلى الحفل إلا ليشاهدوه ، فيخلعون ثيابهم ويخصون أنفسهم ليهبوا أنفسهم طول حياتهم لخدمة الإلهة ، فإذا جن الليل جاء الكهنة إلى المكان بنور خفى مجهول ، وفتحوا قبر الإله الشاب ونادوا نداء الظافرين أن أدنى - الإله - قد قام بين الأموات ، ثم مسوا شفاه عُبَّاده ببلسم فى أيديهم وأسرُّوا إليهم وعدهم بأنهم هم أيضاً سيقومون من قبورهم فى يوم من الأيام[٤٠] .

ولم يكن آلهة سوريا الآخرون أقل تعطشاً للدماء من عشتورت . نعم إن الكهنة كانوا يعترفون بإله عام يضم فى شخصه جميع الآلهة ويسمونه إلى أو إلـو كإلوهيم اليهود ، ولكن الشعب لم يكن يلقى بالاً إلى هذا التجريد المعنوى الهادئ ، وكان معبوده بعلاً . وقد جرت عاداتهم على أن يوحدوا بين إله المدينة هذا وبين الشمس ، كما كانوا يوحدون بين عشتورت والقمر ، وكانوا إذا حزبهم أمر جلل يضحون بأطفالهم قرباناً له ، كما كان الفينيقيون يفعلون ، وكان الآباء يأتون إلى الحفل وقد أخذوا زينتهم كأنهم فى يوم عيد ، وكانت دقات الطبول

وأصوات المزامير تطغى على صراخ أطفالهم وهم يحترقون فى حجر الإله . على أنهم كانوا عادة يكتفون بتضحيات أقل من هذه وحشية ، فكان الكهنة يضربون أنفسهم حتى تلطخ المذبح دماؤهم ، أو تفتدى حياة الطفل بغلفته ؛ أو ينزل القساوسة من عليائهم فيقبلون مبلغاً من المال يقدمونه للإله بدل الغلفة . لقد كان من الواجب أن يسترضى الإله بطريقة ما حتى يرضى ، لأن عباده قد جعلوه صورة من أنفسهم ، وحلماً من أحلامهم ، ولم يكن يعنى بحياة البشر أو يأبه بعويل النساء[42]

وكانت القبائل السامية الضاربة فى جنوبى سوريا ، والتى كانت تملأ الأرض باضطرابها ولغاتها ، تمارس عادات شبيهة بهذه العادات نفسها ، ولا تختلف عنها إلا فى أسمائها وتفاصيلها . لقد حرم على اليهود أن « يجعلوا أطفالهم يمرون من خلال النار » ، ولكنهم كانوا رغم هذا يفعلون هذه الفعلة[42] ، ولم يكن ابراهيم وهو يوشك أن يضحى بإسحق(*) أو أجمنون وهو يضحى بإفچنيا إلا متبعين سنة قديمة كان أصحابها يحاولون بها أن يسترضوا الآلهة بالدماء البشرية ، وقد ضحى ميشا ملك مؤاب بابنه الأكبر فحرقه بالنار ليفك عن مدينته الحصار ؛ ولما أجاب ربه دعاءه وقبل دماء ابنه ، ذبح سبعة آلاف من بنى إسرائيل شكراً لله على نعمته[43] . وظل وادى نهر الأردن الذى يخترق هذا الإقليم منذ كان العموريون فى عهد السومريين يجوبون سهول أمرو (حوالى عام ٢٨٠٠ ق . م) إلى أيام اليهود حين صبوا جام غضبهم المقدس على الكنعانيين ، وحين استولى سرجون ملك أشـــور على السامرة ، ونبوخذ نصر على أورشليم (فى عام ٥٩٧ ق . م) ، نقول ظل وادى نهر الأردن ترويه دماء الضحايا البشرية التى تبتهج لها قلوب كثيرين من الأرباب . وليس من اليسير أن ندخل هؤلاء المؤابيين ، والكنعانيين ، والعموريين ، والإدميين ، والفلسطينيين ، والآراميين فى ســجل البشرية الثقافى .

(*) الذى يؤمن به المسلمون أن الذبيح إسماعيل لا إسحاق . (المترجم) .

لسنا ننكر أن الآراميين الكثيرى النسل قد انتشروا فى كل مكان ، وجعلوا لغتهم اللهجة العامية التى يتخاطب بها أهل الشرق الأدنى ، كما أن حروفهم الهجائية التى أخذوها عن المصريين أو الفينيقيين قد حلت محل كتابة أرض الجزيرة المسمارية المقطعية ، فكانت أولا واسطة التبادل التجارى ثم أضحت وسيلة نقل الآداب ، وأمست آخر الأمر لغة المســيح وحروف العرب الهجائية فى هذه الأيام(٤٤) . ولكن الدهر لا يحتفظ بأسماء هــذه الشعوب لما قامت به هى نفسها من الأعمال الجليلة بقدر ما يحتفظ بها لأن أصحابها مثلوا دوراً ما على مسرح فلسطين الفاجع . وعلينا الآن أن ندرس شعباً آخر بتفصيل أوفى وأدق من دراستنا لجيرانه ، ونعنى به اليهود ، وهم قوم إذا نظرنا إلى قلة عددهم وضيق بلادهم لا نكاد نراهم جديرين بهذه الدراسة ، ولكنهم أورثوا العالم أدباً من أعظم آدابه ، ودينين من أقوى أديانه ، وعدداً عظيما من أذكى رجاله وأعمقهم تفكيراً .

الباب الثانى عشر

اليهـــود

الفصل الأول

الأرض الموعودة

فلسطين – مناخها – عهد ما قبل التاريخ – شعب إبراهيم –
اليهود فى مصر – الخروج – فتح كنعان

وُسع كاتب مثل بكل Buckle أو منتسكيو يريد أن يفسر تاريخ الأمة بالرجوع إلى موقع بلادها أن يجد ما يؤيد أقواله فى فلسطين . إن بلاداً يبلغ طولها من دان الشمال إلى بير سبع فى الجنوب نحو مائة وخمسين ميلا ، ويتراوح عرضها من مساكن الفلسطينيين فى الغرب ومساكن السوريين والآراميين والعمونيين ، والموآبيين والإدميين فى الشرق بين خمسة وعشرين وثمانين ميلا — إن بلاداً ضيقة الرقعة إلى هذا الحد لا يتوقع الإنسان أن يكون لها شأن فى التاريخ ، أو أن تخلف وراءها أثراً أعظم مما خلفته بلاد بابل أو أشور أو فارس ، بل لعله أعظم مما خلفته مصر أو بلاد اليونان . ولكن كان من حسن حظ فلسطين أو من سوء حظها أن تقع بين عواصم النيل وعواصم دجلة والفرات . وهذا الموقع قد جاء إلى بلاد اليهود بالتجارة كما جاءها بالحرب ؛ وكم من مرة ضيق على اليهود فلم يجدوا مخرجاً من ضيقهم إلا بالانضمام إلى أحد الطرفين فى الصراع القائم بين الإمبراطوريات الكبرى ، أو بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون وكم من مرة اجتاح المصطرعون بلادهم ، وكان من وراء التوراة ، ومن وراء صراخ أصحاب المزامير والأنبياء وعويلهم وطلبهم الغوث من

رَبّ السماء ، كان من وراء هذا كله موقع اليهود الذى تهدده الأخطار ، بين شقى الرحى ، من فوقهم دوَل أرض الجزيرة ومن تحتهم مصر .

ويحدثنا تاريخ الأرض المناخى مرة أخرى أن صرح الحضارة صرح مزعزع ، وأن عدويها الألدّين –الهمجية والجدب– يترصدانها ليقضيا عليها . لقد كانت فلسطين فى يوم من الأيام « أرضاً تفيض لبناً وعسلا » كما تصفها كثير من الفقرات فى أسفار موسى الخمسة[1] ، وكان يوسفوس فى القرن الأول بعد المسيح لا يزال يقول عن فلسطين وأهلها إن بها من « الأمطار ما يكفى حاجة الزراعة ، وإنها جميلة ، وإن بها كثيراً من الأشجار ، وإنها مملوءة بفاكهة الخريف البرى منها والمنزرع ... وإن هذه الأشجار لا ترويها الأنهار ريًّا طبيعياً ولكنها تنال ما تحتاج إليه من الرطوبة من ماء المطر الذى لا ينقطع عنها قط »[2] . وكانت أمطار الربيع التى تسقى الأرض تخزن الأيام الخالية فى صهاريج أو ترفع إلى سطح الأرض مرة أخرى من آبار كثيرة العدد ، وتوزع فى أنحاء البلاد فى شبكة من القنوات ؛ وكان ذلك هو الأساس المادى للحضارة اليهودية . وكانت الأرض التى تروى بهذه الطريقة تنتج الشعير والقمح والذرة ، وتجود فيها الكروم ، وتثمر أشجارها الزيتون والتين والبلح وغيرها من الفواكه على منحدرات الجبال جميعها ؛ فإذا داهمتها الحروب وخربت حقولها التى أخصبتها الصناعة ، أو جاءها فاتح فأخرج منها إلى بلاد نائية الأسر التى كانت تعنى بهذه الحقول ، زحفت الصحراء عليها فأفسدت فى بضع سنين ما أصلحته الأيدى العاملة فى أجيال . وليس لنا أن نحكم على جدب أرض فلسطين بما نشاهده فيها الآن من فياف مقفرة ، وواحات قليلة ضئيلة ، تواجه اليهود الذين عادوا الآن إلى تلك البلاد بعد ثمانية عشر قرناً من النفى والعذاب والتشريد .

والتاريخ فى فلسطين أقدم مما كان يظنه الأسقف أسشر Ussher ، فقد

كشفت بقايا نيندرتالية قرب بحر الجليل ، كما كشفت خمسة هياكل عظيمة نيندرتالية فى كهف قرب حيفا . وليس ببعيد أن تكون الثقافة المُستيرية التى ازدهرت فى أوربا حوالى ٤٠٠٠٠ قبل الميلاد قد امتدت إلى فلسطين . فقد كشفت فى أريحا(*) أرض حجرات ومواقد من مخلفات العصر الحجرى الحديد ، وهى ترجع بتاريخ هذا الإقليم إلى عصر برنزى متوسط (٢٠٠٠ — ١٦٠٠ ق . م) جمعت فيه مدن فلسطين وسوريا من الثروة ما أغرى مصر بفتحها . وكانت أريحا فى إبان القرن العشرين قبل الميلاد مدينة مسورة يحكمها ملوك يعترفون بسيادة مصر عليها . وقد وجدت فى قبور هؤلاء الملوك التى كشفتها بعثة جارستانج Garstang مئات من المزهريات والهدايا الجنازية وغيرها من الأدوات التى تدل على وجود حياة مستقرة فى تلك المدينة وقت سيطرة الهكسوس على مصر ، وعلى وجود حضارة لا بأس بها فى أيام حتشپسوت وتحتمس الثالث[٣] . ويبدو من هذا الكشف وأمثاله أن الأزمنة المختلفة التى تبدأ بها تواريخ الشعوب فى ظننا إن دلت على شىء فإنما تدل على جهلنا ؛ وتدل ألواح تل العمارنة على أن الحياة فى فلسطين وسوريا بالصورة التى تطالعنا فى بداية تاريخ اليهود ترجع إلى قرب دخولهم فى وادى النيل . ومن المرجح — وإن لم يكن من المؤكد — أن « الخبيرو » الذين تتحدث عنهم هذه الألواح كانوا عبرانيين[٤](**) .

(*) Jecrico

(**) لقد أعادت الكشوف التى ذكرناها فى هذا الفصل كثيراً من الثقة إلى فصول سفر التكوين التى تقص تاريخ اليهود القديم . وإذا ما استثنينا من قصة اليهود ، كما تميط عنها اللثام أسفار العهد القديم ، حوادث المعجزات وخوارق العادات وأشباهها ، رأينا أن هذه القصة قد صمدت للنقد والبحوث التاريخية . وكل عام يمر يكشف فيه من الوثائق والآثار ما يؤيد أقوال العهد القديم . من ذلك القطع الخزفيـــة التى استخرجت من تل الدوير فى عام ١٩٣٥ تحمر من النقوش العبرية ما يؤيد أجزاء من قصة سفرى الملوك[٤] : وعلى هذا فإن من حقنا أن نقبل قصص التوراة مؤقتا حتى نجد ما ينقضها . انظر كتاب بترى « مصر وإسرائيل **Egypt & Israel** » طبعة لندن ١٩٢٥ ص ١٠٨ .

ويعتقد اليهود أن شعب إبراهيم (أو أبراهام) جاءوا من أور فى بلاد سومر[٥] واستقروا فى فلسطين (حوالى ٢٢٠٠ ق . م) أى قبل موسى بنحو ألف عام أو أكثر ؛ وأن انتصارهم على الكنعانيين لم يكن إلا استيلاء العبرانيين على الأرض التى وعدهم بها الله . والراجح أن أمرافل الذى يقول عنه سفر التكوين (١٤ : ١) إنه « ملك شنغار فى تلك الأيام » كان هو أمرپال والد حمورابى الذى كان يجلس قبله على عرش بابل[٦] . ولم تصل إلينا من مصادر معاصرة إشارات مباشرة إلى خروج بنى إسرائيل من مصر أو إلى هزيمة الكنعانيين[٧] . وكل ما وصلنا من إشارات غير مباشرة هو ما كتب على اللوحة التى أقامها منفتاح (حوالى ١٢٢٥ ق . م والتى وردت فيها هذه العبارة :

لقد غُلب الملوك وقالوا « سلاماً ! » .
وخربت تحينو .
وهدئت أرض الحثيين ،
وانتهت كنعان ، وحلّت بها كل الشرور ، . . .
وخربت إسرائيل ، ولم يعد لأبنائها وجود ؛
وأضحت فلسطين أرملة لمصر ،
وضمت كل البلاد . وهدئت ؛
وكل من كان ثائراً قيّده الملك منفتاح .

وليس فى هذه الأقوال ما يدل على أن منفتاح هو فرعون الذى خرج بنو إسرائيل من مصر فى عهده ؛ وكل ما تثبته أن الجيوش المصرية اجتاحت فلسطين مرة أخرى . ولسنا ندرى متى دخل اليهود مصر ، وهل دخلوها أحراراً أو عبيداً[٨](*) . ولربما كان من حتمنا أن نرجح أن من هاجروا منهم إلى مصر

(*) لعلهم جاءوا مصر فى أثر الهكسوس ، ولعل سيطرة هؤلاء الساميين على مصر قد أتاحت لهم بعض الحماية[٩] . ويرجع بترى تاريخ دخولهم مصر إلى عام ١٦٥٠ ق . م ، =

كانوا فى بداية الأمر قليلى العدد[11] ، وأن وجود الآلاف المؤلفة منهم فى مصر أيام موسى كان نتيجة لكثرة تناسلهم ، وأن شأنهم فى ذلك الوقت كان كشأنهم فى جميع العصور ، فقد كان « عددهم يتضاعف وينمو كلما زاد اضطهادهم وتعذيبهم »[12] . وإن قصة « استعباد اليهود فى مصر ، وتسخيرهم فى أعمال البناء الضخمة ، وتمردهم ، وهربهم – أو هجرتهم – إلى آسية لتحمل فى ثناياها أدلة كثيرة على صدقها ؛ وإن اختلط بها بطبيعة الحال كثير من الأقوال الغريبة وخوارق العادات



شكل (٣٥) شارع فى القدس الحديثة

كما يحدث عادة فى جميع الكتابات التاريخية فى الشرق القديم .

= وتاريخ خروجهم منها إلى عام ١٢٢٠ ق . م[10] ، وهو يعتمد فى ذلك على ما ورد فى التوراة من أن اليهود أقاموا فى أرض مصر أربعمائة وثلاثين عاما .

تنبيه : رأينا فى هذا الباب أن ننقل العبارات المقتبسة من الكتاب المقدس بنصها لا أن نترجمها عن الأصل الإنجليزى . (المترجم)

وحتى قصة موسى نفسها يجب ألا نتعجل فنرفضها من غير بحث وتحقيق ، وإن كان العجيب حقاً أنه لم يرد له ذكر على لسان عاموس أو إشعيا ، وهما اللذان سبقت خطبتهما تأليف أسفار موسى الخمسة بنحو قرن من الزمان(*) .

ولما سار موسى باليهود إلى جبل سيناء ، لم يكن فى سيره هذا إلا متبعاً نفس الطريق الذى كانت تسلكه البعثات المصرية التى تبحث عن الفيروز منذ ألف عام . وتبدو الآن قصة الأربعين عاماً التى تاهوا فيها فى الصحراء ، والتى كان يظن من قبل أنها قصة غير معقولة ، تبدو الآن من الأمور التى يقبلها العقل ، لأنها تصف مسير قوم من البدو الذين كانوا طوال عهدهم قوماً رحّلا ، كما أن هزيمتهم للكنعانيين ليست إلا مثلا آخر لانقضاض جموع جياع على جماعة مستقرين آمنين . وقتل المهاجرون من الكنعانيين أكثر من استطاعوا قتلهم منهم وسبوا من بقى من نسائهم ، وجرت دماء القتلى أنهاراً ، وكان هذا القتل كما تقول نصوص الكتاب المقدس « فريضة الشريعة التى أمر بها الربُّ موسى » .

(*) ينقل يوسفوس عن مانيثون – وهو مؤرخ مصرى عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد – قوله إن سبب خروج بنى إسرائيل من مصر وهو رغبة المصريين فى أن يتقوا شر وباء فشا بين اليهود المستعبدين المملقين ، وقوله إن موسى نفسه كان كاهناً مصريا خرج للتبشير بين اليهود « المجذومين » ، وإنه علمهم قواعد للنظافة على نسق القواعد المتبعة عند كهنة المصريين(١٣). ويفسر المؤرخون اليونان والرومان قصة الخروج هذا التفسير(١٤) ، ولكن نزعتهم المعادية للسامية تجعلنا قليلى الثقة بأقوالهم . وفى التوراة آية تؤيد قول وارد **Ward** إن الخروج لم يكن إلا إضراباً عن العمل . وهذه هى الآية المشار إليها : « فقال لهما ملك مصر لماذا يا موسى وهرون تبطلان الشعب من أعماله إذهبا إلى أثقالكما(١٥) » .

وموسى اسم مصرى لا اسم يهودى ؛ ولعله اختصار للفظ حومس(١٦) . ويقول الأستاذ جارستانج عضو بعثة مارستن **Marston** التابعة لجامعة لفربول إنه كشف فى مقابر أريحا الملكية أدلة تثبت أن موسى قد أنجته (فى عام ١٥٢٧ ق . م بالتحقيق) الأميرة حتشبسوت (الملكة حتشبسوت فيما بعد) وأنه تربى فى بلاطها بين حاشيتها ، وإنه فر من مصر حين جلس على العرش عدوها تحتمس الثالث(١٧) . هو يعتقد كذلك أن الملفات التى وجدت فى هذه القبور تؤيد قصة سقوط أريحا (يشوع ٦) . ويرجع سقوطها إلى حوالى عام ١٤٠٠ ق . م كما يرجع الخروج إلى عام ١٤٤٧ ق . م(١٨) . ولما كانت هذه التواريخ لا تعتمد إلا على ما ورد منقوشا على الجعلان والخزف ، فإن من واجبنا أن نأخذها بالشك المقرون بالاهتمام .

و « زكاة للرب »[١٩] . ولما استولوا على مدينتين من المدن قتلوا من أهلهما ٠٠٠ر١٢ رجل : ولسنا نعرف فى تاريخ الحروب مثل هذا الإسراف فى القتل والاستمتاع به ، ومثل هذه السهولة فى تعداد القتلى إلا فى تاريخ الأشوريين ، ويقال لنا « إن الأرض استراحت من الحروب أحياناً »[٢٠] فقد كان موسى من رجال السياسة المتصفين بالصبر والأناة ، أما يشوع فلم يكن إلا جندياً فظاً ؛ وقد حكم موسى حكماً سلمياً لم تسفك فيه دماء ، وذلك بما كان يقضى به من أحاديث جرت بينه وبين الإله ، أما يشوع فقد أقام حكمه على قانون الطبيعة الثانى ، وهو أن أكثر الناس قتلا هو الذى يبقى حياً . وبهذه الطريقة الواقعية التى لا أثر فيها للعواطف استولى اليهود على الأرض الموعودة .

الفصل الثاني

سليمان في ذروة مجده

أصل اليهود – مظهرهم – لغتهم – نظامهم – القضاة والملوك –
شاؤل – داود – سليمان – ثروته – الهيكل –
نشأة المشكلة الاجتماعية في إسرائيل

كل ما نستطيع أن نقوله عن أصل اليهود من ناحية جنسهم هو ذلك القول الغامض ، وهو أنهم ساميون لا يتميزون تميزاً واضحاً ولا يختلفون اختلافاً كبيراً عن غيرهم من الساميين سكان آسية الغربية ، وأنهم لم يوجدوا تاريخهم ، بل إن تاريخهم هو الذي أوجدهم . وإنا لنراهم من بداية ظهورهم خليطاً من سلالات كثيرة — والحق أن وجود جنس « نقي » في الشرق الأوسط بين الآلاف من تياراته الجنسية التي تتلاطم فيه أمر يتطلب مستوى من الفضيلة لا يعقله عاقل . على أن اليهود كانوا أنقى أجناس الشرق الأدنى غير النقية ، لأنهم لم يتزوجوا بغيرهم من الأجناس إلا كارهين . ومن أجل هذا حافظوا على جنسهم ، واستمسكوا به استمساكاً عجيباً . فالأسرى العبرانيون الذين نرى صورهم في النقوش المصرية والأشورية يشبهون كل الشبه يهود هذه الأيام رغم تحامل الفنانين وتحيفهم . ففي هذه النقوش نرى الأنف الحنى الطويل الأقنى(*) ، والوجنتين البارزتين ، وشعر الرأس واللحية المتلوى ، وإن كنا لا نرى في الرسوم المصرية الهزلية الأجسام الضامرة القوية ، والأرواح الخبيثة العنيدة التي امتاز بها الساميون من عهد أتباع موسى « صلب الرقاب » إلى بدو هذه الأيام وتجارها الذين لا يسبر لهم غور . وكانوا في أيام فتوحهم الأولى يرتدون جلابيب بسيطة ، وقبعات وطيئة

(*) انظر ص ٣٠٣ من هذا الكتاب .

أو قلانس شبيهة بالعمائم ، ويحتذون أخفافاً سهلة الخلع . ولما أن زادت ثروتهم استبدلوا بالأخفاف أحذية من الجلد وارتدوا فوق الجلابيب قفاطين ذات أهداب . أما نساؤهم – وهن من أجمل نساء الأمم القديمة – فكن يصبغن خدودهن ويكتحلن ويتحلين بكل ما يجدن من الحلى ، ويلبسن أحسن الأزياء وأحدثها فى بابل ونينوى ودمشق وصور[٢١] .

وكانت اللغة العبرية أعظم اللغات الطنانة الرنانة على ظهر الأرض ، ألفاظها مليئة بالأنغام الموسيقية القوية رغم ما فيها من حروف حلقية . وقد وصفها رينان بقوله : إنها « كنانة مليئة بالسهام ، وأبواق نحاسية تدوى فى الهواء »[٢٢] . ولم تكن تختلف كثيراً عن لغة الفينيقيين أو المؤابيين . وكان اليهود يكتبون بحروف هجائية وثيقة الصلة بالحروف الفينيقية[٢٣] . ويعتقد بعض العلماء أنها أقدم ما عرف من الحروف[٢٣] . ولم يشغلوا أنفسهم بإضافة الحركات إلى الحروف ، بل تركوها للقارئ يستخرجها من معنى العبارة ، ولا تزال الحركات العبرية إلى اليوم مجرد علامات تزدان بها الحروف .

ولم تتألف من الغزاة فى يوم من الأيام أمة موحدة متماسكة ، بل ظلوا زمناً طويلا يؤلفون اثنى عشر سبطاً مستقلين استقلالا واسعاً أو ضيقاً ، نظامهم وحكمهم لا يقومان على أساس الدولة ، بل على أساس الحكم الأبوى فى الأسرة . فكان شيوخ العشائر يجتمعون فى مجاس من الكبراء هو الحكم الفصل فى شئون القبيلة ، وهو الذى يتعاون مع زعماء القبائل الأخرى إذا ألجأتهم إلى هـذا التعاون الظروف القاهرة التى لا مفر من التعاون فيها . وكانت الأسرة هى الوحدة الاقتصادية التى يقوم عليها زرع الأرض ورعى قطعان الضأن وكانت مكانتها هذه مصدر قوتها ونفاذ كلمتها ، وسلطانها السياسى . وكان فى الأسرة قسط من الشيوعية يخفف بعض الشىء من صرامة النظام الأبوى ، وهو الذى أوحى إلى الشعب بذكريات كان الأنبياء يرجعون إليها وهم محزونون حين غلبت على البلاد النزعة الفردية .

وذلك أنه حين دخلت الصناعة مدن اليهود وجعلت الفرد هو الوحدة الاقتصادية فى الإنتاج ، ضعف سلطان الأسرة كما ضعف فى هذه الأيام ، واضمحل النظام الفطرى الذى كانت تقوم عليه الحياة اليهودية .

ولم يكن « القضاة » ، وهم الذين كانت القبائل جمعاء تطيعهم فى بعض الحالات ، موظفين عموميين ، بل كانوا زعماء عشائر أو رجال حرب — حتى إذا كانوا من الكهنة(٢٤) . « ولم يكن فى إسرائيل ملوك فى تلك الأيام ، بل كان كل إنسان يفعل ما يراه هو حقاً »(٢٥) ؛ غير أن هـــذا النظام « الجفرسونى »(*) غير المعقول — إن صح أنه كان قائماً بالفعل — قد انهار أمام مطالب الحرب الملحة ، وكان خطر سيطرة الفلسطينيين على اليهود عاملا هاماً فى جمع الأسباط كلهم فى وحدة شاملة مؤقتة ، وحملهم على تعيين ملك ذى سلطان دائم عليهم ، وقد حذرهم النبى صمويل من بعض الأضرار التى تنجم عن خضوعهم لحكم رجل واحد فقال :

« وقال هذا يكون قضاء الملك الذى يحكم عليكم يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه لمراكبه وفرسانه ، فيركضون أمام مراكبه ، ويجعل لنفسه رؤساء ألوف ورؤساء خماسين فيحرثون حراثته ويحصدون حصاده ويعملون عدة حربه وأدوات مراكبه ، ويأخذ بناتكم عطارات وطباخات وخبازات ، ويأخذ حقولكم وكرمكم وزيوتكم أجودها ويعطيها لعبيده ، ويعشر زرعكم وكرومكم ويعطى لخصيانه وعبيده . ويأخذ عبيدكم وجواريكم وشبانكم الحسان وحميركم ويستعملها لشـــغله ، ويعشر غنمكم وأنتم تكونون له عبيداً ، فتصرخون فى ذلك اليوم من وجه ملككم الذى اخترتموه لأنفسكم ، فلا يستجيب لكم الرب فى ذلك اليوم . فأبى الشعب أن يسمعوا لصوت صمويل وقالوا لا بل يكون علينا ملك ، فنكون نحن

(*) أى الشبيه بالنظام الذى كان يدعو إليه تومس جفرسن رئيس جمهورية الولايات المتحدة ١٧٤٨ — ١٨٢٦ . (المترجم)

أيضاً مثل سائر الشعوب ويقضى لنا ملكنا ويحارب حروبنا[٢٦] » .

وعلمهم ملكهم الأول شاول الخير والشر بأعماله ؛ فحارب حروبهم بشجاعة ، وعاش عيشة بسيطة من موارد مزرعته فى جلعاد ، وأخذ يطارد الشاب داود ليقتله ، وقُطع رأسه فى أثناء فراره من الفلسطينيين . وسرعان ما عرف اليهود من بداية الأمر أن حروب الوراثة من مستلزمات المَلَكية . وإذا لم تكن ملحمة شاول ويوناثان وداود الصغيرة قصة موضوعة من روائع الأدب(*) (لأنا لا نجد ذكراً لهذه الشخصيات فى غير التوراة) فإن مليكهم الأول هذا قد خلفه ، بعد فترة من الاضطرابات الدموية ، داود الشجاع قاتل جالوت ، وحبيب يوناثان وكثير من الفتيات الذى يرقص بكل قوته وهو نصف عار[٢٨] ، ويجيد الضرب على القيثار ، ويغنى أغانيه العجيبة بصوته الرخيم ملك اليهود القدير الذى ساسهم نحو أربعين عاماً . وقد استطاع الأدب فى ذلك العصر البعيد أن يرسم له صورة كاملة ، صورة واقعية فيها كل ما فى النفس الحية من عواطف وانفعالات متعارضة ، فهو قاس غليظ القلب كما كان الناس فى وقته وكما كانت قبيلته ، وكما كانت الصفات التى خلعها على إلهه ، ولكنه مع هذا كان مستعداً لأن يعفو عن أعدائه كما كان يعفو عنهم قيصر والمسيح ، يقتل الأسرى جملة كأنه ملك من ملوك الأشوريين ، ويأمر ابنه سليمان أن « يحدر بالدم إلى الهاوية » شيبة شمعى بن جيرا الذى لعنه منذ سنين كثيرة[٢٩] ، ويأخذ امرأة أورية الحثى بين نسائه فى غير حياء ، ويرسل أورية إلى الصف الأول فى ميدان القتال ليتخلص منه[٣٠] ويقبل زجر ناثان له فى ذلة ، ولكنه مع ذلك يحتفظ بيثشبع الجميلة ؛ ويعفو عن صمويل مرات تكاد تبلغ أربعمائة وتسعين ، ولا يسلبه إلا درعه حين كان فى مقدوره أن يسلبه حياته وينجى مغيبوشت(**) ويعينه ،

(*) كقصة شمشون الطريفة الذى حرق حاصلات الفلسطينيين بأن أطلق عليهم ثلثمائة ثعلب ربطت المشاعل فى أذيالها ، والذى قتل ألف رجل بعظم من فك حمار[٢٧] .

(**) انظر صمويل الثانى ٤ : ٤ .

وهو الذى قد يكون من المطالبين بالعرش ، ويعفو عن ابنه العاق أبشالوم بعد أن قبض عليه فى ثورة مسلحة ، ويحزن أشد الحزن على موت ابنه هذا فى واقعة حربية حارب فيها جيوش أبيه : « يا ابنى أبشالوم ، يا ابنى أبشالوم ، يا ليتنى مت عوضاً عنك يا أبشالوم ابنى ، يا ابنى »[٣١] . ذلك وصف رجل حقيقى لا رجل خيالى ، اكتملت فيه عناصر الرجولة المختلفة ، ينطوى على جميع بقايا الهمجية ، وعلى كل مقومات الحضارة .

ولما ورث سليمان العرش قتل جميع منافسيه فى الملك ليستريح من متاعبهم ، ولكن عمله هذا لم يغضب يهوه الذى أحب الملك الشاب فوهبه حكمة لم يهبها أحداً من قبله ولا من بعده[٣٢] . ولعل سليمان خليق بما نال من شهرة ؛ ذلك أنه لم يكفه أن يستمتع فى حياته بكل نعيم ولذة وأن يقوم بجميع ما يفرضه عليه المُلك من واجبات ، بل إنه علم شعبه فضل القانون والنظام(*) ، وما زال بهم حتى أقنعهم بنبذ الشقاق والحرب والالتفات إلى الصناعة والسلم . وكان عهد سليمان عهد سلام بحق(**) فى حكمه الطويل أفادت أورشليم ، التى اتخذها داود عاصمة له ، من هذه السلم التى لم تألفها من قبل فزادت ثروتها وضاعفتها . وكانت المدينة(†) قد أقيمت فى بادئ الأمر حول بئر ، ثم حولت إلى حصن لأنها كانت على ربوة فوق السهل . وأصبحت فى أيام سليمان من أنشط الأسواق التجارية فى الشرق الأدنى وإن لم تكن على الطرق التجارية الكبرى . وحافظ سليمان على ما أنشأه داود من صلات ودية مع حيرام ملك صور ، وشجع التجار الفينيقيين على أن يسيروا قوافلهم التجارية داخل أرض فلسطين ، وازدهرت فى أيامه تجارة رابحة قوامها استبدال مصنوعات صور وصيدا بغلات إسرائيل الزراعية . وأنشأ أسطولا تجارياً فى البحر

(*) « وتكلم بثلاثة آلاف مثل ، وكانت نشائده ألفاً وخمساً »[٣٣] .

(**) اسمه مشتق من شالوم ومعناه السلم .

(†) سميت فى ألواح تل العمارنة باسم أور سلموا وأوروو سالم .

الأحمر ، وأغرى حيرام على أن يستخدم هذا الطريق الجديد بدل طريق مصر فى تجارته مع بلاد العرب وأفريقية(٣٤) . والراجح أن جزيرة العرب هى التى استخرج سليمان منها الذهب وحجارة « أوفير » الكريمة(٣٥) ، ومن بلاد العرب جاءت إليه ملكة « سبأ » تخطب وده ، ولعلها جاءت أيضاً لتطلب معونته(٣٦) . وكان « وزن الذهب الذى أتى سليمان فى سنة واحدة ستمائة وستا وستين وزنة ذهباً »(٣٧) ومع أنه لا وجه للموازنة بين هذا القدر وبين موارد بابل أو نينوى أو صور فإنه جعل سليمان من أغنى ملوك زمانه(*) .

واستخدم بعض هذه الثروة فى ملاذه الشخصية ، وأخص ما استخدمها فيه إشباع شهواته فى جمع السرارى — وإن كان المؤرخون ينقصون « زوجاته السبعمائة وسراريه الثلثمائة إلى ستين وثمانين على التوالى(٣٩) . ولعله أراد ببعض هذه الزيجات أن يوطد صلاته بمصر وفينيقية ، أو لعل الباعث له عليها هو نفس الباعث الذى حمل رمسيس الثانى على هذا العمل بعينه ، وهو رغبته فى أن يترك وراءه طائفة من الأبناء لهم من القوة الجنسية العظيمة ما كان له هو. على أن سليمان قد استخدم معظم موارده فى تقوية دعائم حكومته وتجميل عاصمته ، ومن أعماله فيها ترميم الحصن الذى أقيمت حوله . وقد أقام فيها كثيراً من الحصون ، ووضع حاميات فى المواضع ذات الأهمية العسكرية فى مملكته ، ليرهب بها الغازين والثائرين على السواء . وقسم بلاده اثنى عشر قسما إدارياً ، وتعمّد أن تكون

(*) انظر ما قلناه قبل فى ص ٢٠٤ لمعرفة قيمة الوزنة فى الشرق الأدنى . على أن هذه القيمة كانت تختلف من وقت إلى آخر ، ولكننا لا نكون مغالين إذا قلنا إن الوزنة فى أيام سليمان كانت لها قيمة شرائية تعادل قيمة ١٠٠٠٠ ريال أمريكى من نقود هذه الأيام . وأكبر الظن أن الكاتب العبرى كان وهو يكتب هذا أديبا ، لا مؤرخا يتوخى الحقائق الدقيقة ، ولذلك فإن من واجبنا ألا نأخذ أقواله على علاتها . وإذا شاء القارئ أن يعرف شيئاً عن تقلبات العملة اليهودية فى تلك الأيام الخالية ، فليقرأ « دائرة المعارف اليهودية » فى موضوعات « المسكوكات » و « الشاقل » . ولا تظهر النقود الحقيقية — لا الحلقات ، والسبائك الذهبية والفضية فى فلسطين إلا حوالى عام ٦٥٠ ق . م(٣٨) .

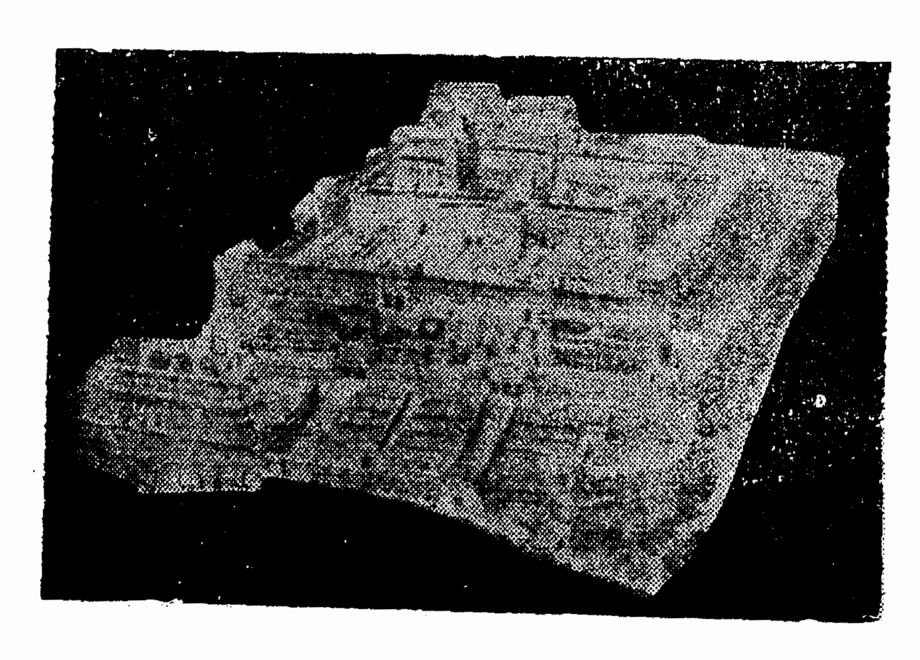
حدودها متفقة مع حدود منازل الأسباط الاثنى عشر ، وكان يرجو من وراء هذا أن يضعف النزعة الانفصالية بينهم ، وأن يؤلف منهم شعباً واحداً ؛ ولكنه أفلس فى هذا وأفلست بلاد اليهود معه . ومن الوسائل التى استخدمها لتمويل حكومته إعداد البعثات لاستخراج المعادن الثمينة ، ولاستيراد مواد الترف والسلع القيّمة النادرة ، ومن بينها « العاج والقردة والطواويس »[٤٠] — وهذه كان يمكن بيعها للأثرياء المحدَثين بأثمان غاليــة . وكان يفرض الإتاوات على جميع القوافل المارة بفلسطين . وقد فرض جزية الرؤوس على جميع رعاياه ، وطالب كل قسم من أقسام دولته ما عدا قسمه الخاص بقدر من المال ، وأعاد للدولة احتكارها القديم لتجارة الخيوط والخيل والمركبات[٤١] . ويؤكد لنا يوسيفوس أن سليمان جعل الفضة فى أورشليم كحجارة الشوارع فى كثرتها[٤٢] ، واعتزم أخيراً أن يزين المدينة بمعبد جديد ليهوه ، وبقصر جديد له هو نفسه .

وفى وسعنا أن نستشف ما كان فى الحياة اليهودية من اضطراب حين نذكر أن بلاد اليهود كلها حتى أورشليم نفسها لم يكن فيها قبل أيام سليمان هيكل كبير واحد على ما يظهر . وكان الأهلون يقرّبون القرابين ليهوه فى هياكل محلية أو فى هياكل ساذجة فوق التلال[٤٣] . ثم جمع سليمان ذوى الثراء من أهل المدن وأعلن إليهم عزمه على تشييد هيكل وخصه بكميات كبيرة من الذهب والفضة والشبّة والحديد والخشب والحجارة الكريمة من مخازنه الخاصة ، وأوحى إلى الناس فى رفق أن الهيكل يرحب بتبرعات المواطنين . وإذا جاز لنا أن نصدق أقوال ناقل الرواية فإنهم تبرعوا له بخمسة آلاف وزنة من الذهب ، وبضعفيها من الفضة ، وبكل ما يحتاج إليه من الحديد والشبّة . « ومن وجد عنده حجارة أعطاها لخزينة بيت الرب »[٤٤] . واختير لتشييده مكان فوق ربوة ، وقامت جدران الهيكل كأنها امتداد للمنحدرات الصخرية(*) . وكان طرازه هو الطراز

(*) ليس ببعيد أن يكون مكان الهيكل هو المكان الذى يشغله الآن الحرم الشريف —

الذى أخذه الفينيقيون عن مصر ، وأضافوا إليه ما أخذوه عن الأشوريين والبابليين من ضروب التزيين . ولم يكن هذا الهيكل كنيسة بالمعنى الصحيح ، بل كان سياجاً مربعاً يضم عدة أجنحة . ولم يكن بناؤه الرئيسى كبير الحجم — فقد كان طوله حوالى مائة وأربع وعشرين قدماً ، وعرضه حوالى خمس وخمسين ، وارتفاعه اثنتين وخمسين ، أى أنه كان فى نصف طول البارثنون[٤٦] .

وكان العبرانيون الذين أقبلوا من جميع أنحاء البلاد اليهودية ليعملوا فى إقامة



شكل (٣٦) صورة مستعادة لهيكل سليمان

الهيكل ، وليتعبدوا بعدئذ فيه — كان هؤلاء العبرانيون يعتقدون أنه إحدى عجائب العالم . ومن حقهم علينا ألا نلومهم على هذا الاعتقاد ، لأنهم لم يروا هياكل طيبة وبابل ونينوى التى لا يعد هيكلهم إلى جانبها شيئاً مذكوراً ،

— فى المسجد الأقصى ، ولكن سائر أجزاء الهيكل لم يبق منها شىء على الإطلاق[٤٥] .

وكان فى صدر البناء الرئيسى « مدخل » كبير يبلغ ارتفاعه مائة وثمانين قدماً ، مرصع بالذهب . وكان الذهب فضلا عن هذا يغشى كثيراً من أجزاء الهيكل ــ إذا جاز لنا أن نصدق المصدر الوحيد الذى نعتمد عليه فى هذا الوصف ــ : على سقف البناء الرئيسى ، والعمد ، والأبواب والجدران ، والثريات ، والمصابيح ، ومقصات الفتائل ، والملاعق ، والمباخر ؛ وكان فيه « مائة حوض من الذهب » . وكانت الحجارة الكريمة ترصع أجزاء متفرقة منه ، كما كان ملكان مغطيان بصفائح الذهب يحرسان تابوت العهد[٤٧] . وشيدت الجدران من حجارة كبيرة مربعة ؛ أما السقف والأعمدة والأبواب فكانت من خشب الأرز والزيتون المنقوش . وجىء بمعظم مواد البناء من فينيقية ، وكان يقوم بمعظم الأعمال الفنية صناع من صيدا وصور[٤٨] . أما الأعمال التى لا تحتاج إلى شىء من المهارة فقد حشد لها ١٥٠,٠٠٠ عامل سخروا فيها تسخيراً بلا شفقة ولا رحمة ، كما كانت العادة المألوفة فى تلك الأيام[٤٩] .

« ومضت سبع سنين والعمل فى تشييد البناء قائم على قدم وساق ، ليكون مقرًّا فخما ليهوه مدى أربعة قرون . ثم واصل مهرة الصناع والفعلة العمل ثلاثة عشر عاماً أخرى ليشيدوا صرحاً أكبر من الهيكل يسكن فيه سليمان ونساؤه . وكان جناح واحد من أجنحته وهو ــ « بيت وعر لبنان » أربعة أضعاف مساحة الهيكل كله[٥٠] . وكانت جدران البناء الرئيسى فى القصر مقامة من كتل من الحجارة الضخمة طول الواحدة منها خمس عشرة قدماً ، وكانت تزينه التماثيل المنحوتة ، والنقوش المحفورة ، والصور المرسومة على الطراز الأشورى . وكان القصر يحتوى على أبهاء يستقبل فيها الملك كبار زائريه ، وعلى أجنحة للملك نفسه ، ومساكن للمحظوظات من زوجاته ، ومستودع للسلاح كان هو العماد الأخير لحكومته . على أن هذا الصرح الضخم لم يبق منه حجر واحد ، بل إن موضعه نفسه لا يعرفه أحد على وجه التحقيق[٥١] .

ولما فرغ سليمان من إقامة ملكه شرع يستمتع به ، وأخذت عنايته بالدين تقل على مر الأيام ، كما أخذ يتردد على حريمه أكثر مما يتردد على الهيكل . ولشد ما يلومه كُتَّاب أسفار التوراة على شهامته إذ أقام مذابح للآلهة الخارجية التي كانت تعبدها زوجاته الأجنبيات ، ولا تطاوعهم أنفسهم على أن يصفحوا عنه لعدله الفلسفي — أو لعله السياسي — بين مختلف الآلهة . وأعجب الشعب بحكمته ، ولكنه شعر بما في حُكمه من مركزية شديدة . وكان بناء الهيكل والقصر قد كلف الناس كثيراً من الذهب والدماء . ولم يكن حبهم لهما أكثر من حب عمال مصر لأهرامها . هذا إلى أن الإنفاق على الهيكل والقصر كان يتطلب فرض ضرائب باهظة ، ولم نعهد قط أن حكومة من الحكومات استطاعت أن تجعل الضرائب من الواجبات المحببة إلى الشعب : فلما مات سليمان كانت موارد إسرائيل قد نضبت . ونشأت فيها طائفة من العمال الصعاليك لا يجدون عملا دائماً يرتزقون منه ، فكان ما قاسوه من العذاب هو الذي حول دين يهوه الحربي إلى دين أنبيائهم الذي لا يكاد يفترق عن الاشتراكية في كثير أو قليل .

الفصل الثالث

رب الجنود

عدد الآلهة – يهوه – عقيدة الإله الأعظم – خصائص الدين اليهودي – فكرة الخطيئة – القربان – الختان – الكهنوت – آلهة عجيبة

كان بناء الهيكل أهم الحادثات الكبرى في ملحمة اليهود ، بعد نشر كتاب القانون ؛ ذلك أن هذا الهيكل لم يكن بيتا ليهوه فحسب بل كان أيضاً مركزاً روحياً لليهود ، وعاصمة لملكهم ، ووسيلة لنقل تراثهم ، وذكرى لهم ، كأنه علم من نار يتراءى لهم طوال تجوالهم الطويل المدى على ظهر الأرض . ولقد كان له فوق ذلك شأن في رفع الدين اليهودي من دين بدائي، متعدد الآلهة إلى عقيدة راسخة غير متسامحة ، ولكنها مع ذلك إحدى العقائد المبدعة في تاريخ البشر .

وكان اليهود في ظهورهم على مسرح التاريخ بدواً رحلا يخافون شياطين الهواء ، ويعبدون الصخور والماشية والضأن وأرواح الكهوف والجبال[٥٢] . ولم يتخلوا قط عن عبادة العجل والكبش والحمل ؛ ذلك أن موسى لم يستطع منع قطيعه من عبادة العجل الذهبي لأن عبادة العجول كانت لا تزال حية في ذاكرتهم منذ كانوا في مصر ، وظلوا زمناً طويلا يتخذون هذا الحيوان القوي آكل العشب رمزاً لإلههم . وإنا لنقرأ في سفر الخروج (الأصحاح ٣٢ الآيات ٢٥ – ٢٨) كيف أخذ اليهود يرقصون وهم عراة أمام العجل الذهبي ، وكيف أعدم موسى واللاويون ثلاثة آلاف منهم عقاباً لهم على عبادة هذا الوثن[*] . وفي تاريخ اليهود

(*) ونجد آثاراً أخرى من عبادة الحيوان بين اليهود الأقدمين في سفر الملوك الأول في الأصحاح الثاني عشر الآية الثامنة والعشرين ، وفي حزقيال ٨ : ١٠ ، وقد عبد أصحاب ملك إسرائيل الأبقار بعد سليمان بقرن واحد .

الباكر شواهد كثيرة تدل على أنهم عبدوا الأفعى . ومن هذه الشواهد صورة الأفعى التى وجدت فى أقدم آثارهم[٥٤] ومنها الأفعى النحاسية التى صنعها موسى والتى عبدها اليهود فى الهيكل إلى أيام حزقيا (حوالى ٧٢٠ ق . م)[٥٥] . وكانت الأفعى تبدو حيواناً مقدساً لليهود كما كانت تبدو لشعوب كثيرة عداهم ، وذلك لأنها رمز للذكورة المخصبة من جهة ؛ ولأنها من جهة أخرى تمثل الحكمة والدهاء والخلود — فضلا عن أنها تستطيع أن تجعل طرفيها يلتقيان[٥٦] .

وكان بعض اليهود يعظمون بَعْل ، الذى كان يرمز إليه بحجارة مخروطية قائمة كثيرة الشبه بلنجا إله الهندوس ، وذلك لأنه فى رأيهم الجوهر الذكر فى التناسل ، وزوج الأرض الذى يخصبها[٥٧] .

وكما أن آثار عبادة الآلهة الكثيرة البدائية قد بقيت فى عبادة الملائكة والقديسين ، وفى الأصنام الصغيرة المتنقلة التى كانوا يتخذونها آلهة لبيوتهم[٥٨] ، كذلك ظلت المعتقدات السحرية التى كانت منتشرة فى العبادات القديمة ، باقية عند اليهود إلى عهود متأخرة رغم احتجاج الأنبياء والكهنة . ويبدو أن الناس كانوا ينظرون إلى موسى وهرن على أنهما ساحران ، وأنهم كانوا يناصرون السحرة والعرّافين . وكان استطلاع المستقبل يحدث أحياناً برمى النرد (أريم وتميم) من صندوق (إيفود) — وهى طريقة لا تزال تستخدم لمعرفة ما يريده الآلهة . ومما يذكر بالحمد لكهنة اليهود أنهم قاوموا هذه العادات ، ودعوا الناس ألا يعتمدوا إلا على قوة سحرية واحدة هى قوة القربان والصلوات والتبرعات .

وما لبثت فكرة اتخاذ يهوه إله اليهود القومى الأوحد أن تبلورت وأكسبت الديانة اليهودية وحدة وبساطة كانتا سبباً فى انتشالها من فوضى الشرك التى كانت تسود أرض الجزيرة . ويبدو أن اليهود الفاتحين عمدوا إلى أحد آلهة

كنعان(*) فصاغوه فى الصورة التى كانوا هم عليها ، وجعلوا منه إلها صارماً ، ذا نزعة حربية ، صعب المراس ، ثم جعلوا لهذه الصفات حدوداً تكاد تبعث الحب فى القلوب . ذلك أن هذا الإله لا يطالب الناس بأن يعتقدوا أنه عالم بكل شىء ، وشاهد ذلك أنه يطلب إلى اليهود أن يميزوا بيوتهم بأن يرشوها بدماء الكباش المضحاة لئلا يُهلك أبناءهم على عام منه مع من يهلكهم من أبناء المصريين(٦١) ؛ كذلك لا يرى أنه معصوم من الخطأ ، ويرى أن أشنع ما وقع فيه من الأخطاء هو خلق الإنسان ؛ ولذلك تراه يندم بعد فوات الفرصة على خلق آدم وعلى ارتضائه أن يكون شاؤل ملكا . وتراه من حين إلى حين شرهاً ، غضوباً ، متعطشاً للدماء ، متقلب الأطوار ، نزقاً نكداً : « أتراءف على من أتراءف ، وأرحم من أرحم »(٦٢) . وهو يرضى عما استخدمه يعقوب من ختل وخداع فى الانتقام من لابان(٦٣) ، وضميره لا يقل مرونة عن ضمير الأسقف الذى يندفع فى تيار السياسة . وهو كثير الكلام ، يحب إلقاء الخطب الطوال ؛ وهو حيى لا يسمح للناس أن يروا منه إلا ظهره(٦٤) . وقصارى القول أنه لم يكن للأمم القديمة إله آدمى فى كل شىء كإله اليهود هذا .

ويلوح أنه كان فى بداية الأمر إلها للرعد يسكن الجبال(٦٥) ، ويعبده الناس للسبب الذى كان جوركى الشاب يؤمن من أجله بالله إذا أرعدت السماء . وحوّل كاتبو أسفار موسى الخمسة ، وهم الذين كانوا يتخذون الدين أداة للسياسة ، إله الرعد هذا إلى إله للحرب ، فأصبح يهوه فى أيديهم القوية إلها للجيوش يدعو للفتح والاستعمار ، يحارب من أجل شعبه بنفس القوة التى كان يحارب بها آلهةُ الإلياذة . وفى ذلك يقول موسى : « الرب رجل حرب »(٦٦) . ويردد داود صدى هذا القول نفسه فيقول : « الذى يعلّم يدى القتال »(٦٧) . ويعيد يهوه أن

(*) من بين الآثار التى وجدت فى كنعان (عام ١٩٣١) قطع من الخزف من بقايا عصر البرنز (٣٠٠٠ ق . م) عليها اسم إله كنعانى يسمى ياه أو ياهو(٦٠) .

« يطرد الحويين والكنعانيين والحثين » يطردهم : « قليلا ، قليلا »[٦٨] ، « ويزعج جميع الشعوب الذين تأتى عليهم ، وأعطيك جميع أعدائك مدبرين » ، ويقول إن الأرض التى فتحها اليهود ملك له وحده[٦٩] . وهو لا يقطع معهم ولا مع أعدائهم عهداً سخيفاً ؛ ويعرف أن الأرض ، حتى الأرض الموعودة نفسها ، لا تنال إلا بحد السيف ولا يحتفظ بها إلا بالسيف ؛ وهو إله حرب لأنه لا بد أن يكون إله حرب ؛ وتمرّ عدة قرون من الهزائم العسكرية والخضوع السياسى ، والتطور الأخلاقى ، حتى يستحيل هذا الإله إلى والد هلل وإلى المسيح . وهو فخور معجب بنفسه كالجندى ، يتقبل الثناء ويشتهيه ، ويحرص على أن يتباهى بقدرته على إغراق المصريين فى البحر : « فيعرف المصريون أنى أنا الرب حين أتمجد بفرعون ومركباته وفرسانه »[٧٠] . وهو يرتكب فى سبيل انتصار شعبه من ضروب الوحشية ما تشمئز منه نفوسنا اشمئزازاً لا يعادله إلا رضاء أخلاق ذلك العصر عنها ، ويأمر شعبه بأن يرتكبوا هم هذه الوحشية ؛ فهو يذبح أمماً بأكملها راضياً مسروراً من عمله رضاء جلڤر Gulliver وهو يقاتل من أجل لاليپت Liliput .

ولما بدأ اليهود يزنون مع بنات موآب ، قال لموسى : « خذ جميع رؤوس الشعب وعلّقهم للرب مقابل الشمس »[٧١] ، وتلك هى أخلاق أشور بانيپال وأشور ، وهو يعرض رحمته على الذين يحبونه ويتبعون أوامره ، ولكنه يفعل ما تفعله جراثيم الأوبئة الفتاكة : « أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى »[٧٢] ؛ وهو إله جبار يفكر فى إهلاك اليهود على بكرة أبيهم لأنهم عبدوا العجل الذهبى(*) ؛ ويضطر موسى إلى أن يراجعه حتى يتملك عواطفه . فيقول الرجل لربه : « ارجع عن حمو غضبك واندم على الشر بشعبك » ، « فندم الرب على الشر الذى قال إنه يفعله

(*) نكرر هنا ما قلناه من قبل وهو أن ننقل أقوال المؤلف كما هى وأن ذلك لا يدل على أننا نؤمن بها . (المترجم)

بشعبه »(*) (٧٣) . ثم يريد يهوه أن يفنى اليهود أصلاً وفرعاً لأنهم عصوا موسى ، ولكن موسى يستثير فيه عواطفه الطيبة ، ويأمره أن يفكر فيما يقوله الناس عنه إذا سمعوا بفعلته(٧٤) ، وهو يختبر قومه اختباراً قاسياً فيطلب إلى إبراهيم تضحية يا لها من تضحية ؛ ويعلِّم إبراهيمُ يهوه ، كما يعلمه موسى ، مبادئ الأخلاق السامية وينصحه ألا يهلك سدوم وعمورة ، إذا وُجد فيهما من الرجال خمسون ، أو أربعون ، أو ثلاثون ، أو عشرون ، أو عشرة صالحون(٧٥) . ولا يزال يغرى إلهه بالرحمة ، ويشرح له كيف يضطر الإنسان إلى أن يعيد تصوير أربابه لتتفق مع تطورات أخلاقه . وإن اللعنات التي يهدد بها يهوه شعبه المختار إذا ما عصاه لجديرة بأن تكون نماذج في القدح والسب ، ولعلها هي التي أوحت إلى الذين حرقوا الكفرة في محاكم التفتيش الأسبانية أو حكموا على اسپنوزا بالحرمان أن يفعلوا ما فعلوا :

« ملعوناً تكون في المدينة وملعوناً تكون في الحقل . . . ملعونة تكون ثمرة بطنك وثمرة أرضك . . . ملعوناً تكون في دخولك وملعوناً تكون في خروجك ، يرسل الرب عليك اللعن والاضطراب والزجر في كل ما تمتد إليه يدك لتعلمه حتى تهلك وتفنى سريعاً من أجل سوء أفعالك إذ تركتني ؛ يلصق بك الرب الوباء حتى يبيدك عن الأرض التي أنت داخل إليها لكي تمتلكها . يضربك الرب بالسل والحمى والبرداء والالتهاب والجفاف واللفح والذبول فتتبعك حتى تفنيك . . . الخ يضربك الله بقرحة مصر وبالبواسير والجرب والحكة حتى لا تستطيع الشفاء ، يضربك الرب بجنون وعمى وحيرة قلب . . . أيضاً كل مرض وكل ضربة لم تكتب في سفر الناموس هذا يسلطه الرب عليك حتى تهلك »(٧٦) .

ولم يكن يهوه الإله الوحيد الذى يعترف اليهود بوجوده ، أو يعترف هو نفسه بوجوده ، وشاهد ذلك أن كل ما يطلبه في الوصية الأولى من الوصايا العشر

(*) هكذا تصور التوراة إله إسرائيل .

هو أن يقوم مقامه فوق مقام سائر الأرباب : وهو يقر بأنه « إله غيور »، ويأمر أتباعه بهدم مذابحهم ، وتكسير أنصابهم[٧٧] وإبادتهم . وقلما كان اليهود قبل إشعيا يفكرون فى أن يهوه إله الأسباط جميعاً ، أو حتى إله العبرانيين جميعاً ، فقد كان للموآبيين إلههم شمش ، وكان نعومى يظن أن لا ضير من آن يظل راعوث على ولائه له[٧٨] . وكان بلزبوب إله عكرون ، وملكرم إله عمون : ذلك أن النزعة الانفصالية التى كانت تتملك نفوس أولئك القوم من الناحيتين الاقتصادية والسياسية قد أدت بطبيعة الحال إلى ما تستطيع أن تسميه اســتقلالا دينياً . ويقول موسى فى أغنيته الشهيرة : « من مثلك بين الآلهة يا رب[٧٩] » ويقول سليمان : « إلهنا أعظم من جميع الآلهة » »

ولم يكن جميع اليهود ، اللهم إلا أعظمهم علماً ، يعدون تموز إلهاً حقاً فحسب ، بل إن عبادته فضلا عن هذا كانت فى وقت من الأوقات منتشرة فى بلاد اليهود حتى لقد شكا حزقيال من أن البكاء حزناً على تموز كان يسمع فى الهيكل[٨١] . لقد كان ما بين اليهود من فوارق وما كان لهم من استقلال كافيين لأن تبقى لطوائفهم آلهتهم الخاصة حتى فى زمن إرميا : « على عدد مدنك صارت آلهتكِ يا يهوذا » ، ثم يظهر النبى الحزين غضبه على بنى وطنه لأنهم يعبدون بعلا ومولك[٨٢] . فلما أن نشأت الوحدة السياسية فى أيام داود وسليمان ، وتركزت العبادة فى الهيكل بأورشليم ، أخذ الدين يردد أصداء التاريخ والسياسة ، وأمسى يهوه إله اليهود الأوحد . ولم يخط اليهود نحو التوحيد خطوة غير هذه الخطوة ، وهى أن لليهود إلها واحداً يعلو على آلهة غيرهم من البشر ، حتى كان زمن الأنبياء(*) . على أن الديانة العبرانية حتى فى هذه المرحلة اليهودية كانت أقرب

(*) لقد جهر إليشع فى القرن التاسع قبل الميلاد بوجود إله واحد : « هو ذا قد عرفت أنه ليس إله فى كل الأرض إلا فى إسرائيل[٧٣] » . وجدير بنا أن نذكر أن التوحيد حتى فى يومنا هذا إنما هو توحيد نسبى ناقص ، فكما كان اليهود يعبدون إلها قبليا ، فإننا نحن أيضاً –

إلى التوحيد من كل دين آخر قبل عصر الأنبياء إذا استثنينا عبادة الشمس القصيرة الأجل فى عهد إخناتون . لقد كانت اليهودية تسمو كثيراً على غيرها من أديان ذلك الوقت فى عظمتها وسلطانها ، وفى وحدتها الفلسفية ؛ وفيما تنطوى عليه من حماسة أخلاقية ومن أثر فى نفوس أهلها ، وكانت تضارع فى عواطفها وشعريتها شرك البابليين واليونان إن لم تفقه من هاتين الناحيتين .

وهذا الدين القاسى المكتئب لم يتخذ له شيئاً من الطقوس المنمقة الاحتفالات المرحة التى كانت شائعة فى عبادة الآلهة المصرية والبابلية . وكان يغشى التفكير اليهودى بأجمعه شعور بضآلة شأن الإنسان أمام رب قادر يسير طوع أمره . وبقيت عبادة يهوه قروناً كثيرة ديناً قوامه الخوف لا الحب ، والرهبة لا الرغبة ، رغم ما بذله سليمان من جهود لكى يجمل باللون والنغم عبادة هذا الإله الرهيب . ولسنا ندرى ، إذا رجعنا بذاكرتنا إلى هذا الدين وأمثاله ، هل عادت الأديان على الإنسانية بالسلوى بقدر ما عادت عليها بالفزع . إن الأديان التى تبعث فى النفوس الأمل والحب لا تكون إلا متعة من منع الأمن والنظام ، ولم يكن الأمن والنظام من الصفات التى سادت طويلا بلاد اليهود . أما الحاجة إلى قذف الرعب فى قلوب الشعب ، أو الثائرين من الأ نب الخاضعين لسلطانه ، فقد جعلت معظم الأديان البدائية عبادات قوامها الخفاء والرعب .

ولقد كان تابوت العهد المحتوى على ملفات السنن والذى لم يكن يسمح لأحد بأن يمسه ، كان هذا التابوت رمزاً لطبيعة العقائد اليهودية . ولما مد عزّة الصالح يديه إلى التابوت ليمنعه أن يسقط على الأرض وأمسكه لحظة قصيرة « حمى غضب الرب على عزة وضربه الرب هناك لأجل أنه مد يده إلى التابوت فمات هناك أمام الله»(٨٤)

= نعبد إلها أوربيا — أو إلها إنجلزيا أو ألمانيا أو إيطاليا . ولا تمر بنا لحظة واحدة نتواضع فيها قليلا فنذكر أن الملايين الذين يسكنون الهند والصين واليابان — بله سكان الغابات المتفقهين فى دينهم — لا يعترفون بدين آبائنا نحن ولن يكون للعالم كله إله واحد حتى نربط الآلات الأرض وتؤلف بينها ، ونجعلها وحدة اقتصادية ، ونجمع الأمم كلها فى حكومة واحدة .

وكانت الخطيئة هي الفكرة الأساسية فى الدين اليهودى . ولم ير العالم شعباً آخر أولع بالفضيلة ولع اليهود — إلا إذا استثنينا طائفة المتطهرين الذين يخيل إلينا أنهم خرجوا من بين أسفار العهد القديم دون أن تمسسهم الكثلكة الطويلة العهد بسوء ، ولما كانت الطبيعة البشرية ضعيفة و « السُّنن » معقدة صعبة فلم يكن ثمة مفر من الوقوع فى الخطيئة ؛ وكثيراً ما كانت الروح اليهودية تتلبد بالغيوم لما ينجم عن الخطيئة من سيئ العواقب ، كحبس المطر أو تدمير إسرائيل بقضها وقضيضها . ولم يكن فى هذا الدين جحيم يخصص لعقاب المذنبين ، ولكن شيول أو « أرض الظلام » التى تحت الأرض لم تكن تقل هولا عن هذا الجحيم . وكان يأتى فيها الموتى جميعهم الطيب منهم والخبيث ، ولا يستثنى منهم إلا المقربون إلى الله كموسى وأخنوخ وإيليا . على أن اليهود قلما كانوا يشيرون إلى حياة أخرى بعد الموت ، ولم يرد فى دينهم شىء عن الخلود ؛ وكان ثوابهم وعقابهم مقصورين على الحياة الدنيا . ولم تدر فكرة البعث فى خلود اليهود إلا بعد أن فقدوا الرجاء فى أن يكون لهم سلطان فى هذه الأرض ، ولعلهم أخذوا هذه الفكرة عن الفرس ، أو لعلهم أخذوا شيئاً منها عن المصريين . ومن هذه الخاتمة الروحية ولدت المسيحية .

وكان يمكن اتقاء الخطيئة ونتائجها بالصلاة والتضحية ، وبدأت التضحية عند الساميين كما بدأت عند « الآريين » بالضحايا البشرية[٨٥] ثم حل الحيوان محل الإنسان فصار يضحى « بأولى ثمرات القطعان » وباكورة الطعام الذى تنتجه الحقول ؛ ثم انتهى الأمر أخيراً بالاكتفاء بالتسبيح والثناء على الله . وكان الاعتقاد السائد فى أول الأمر ألا يؤكل لحم حيوان إلا إذا ذبحه كاهن وباركه ، وعُرض وقتاً ما على الإله[٨٦] . وكانت عملية الختان نفسها من أعمال التضحية ، ولربما كانت ندية لتضحية أخرى أشد منها قسوة يكتفى فيها الإله بأخذ جزء

من كل ، وكان الحيض والولادة ، كالخطيئة ، يدنسان المرأة ويتطلبان تطهيراً ذا مراسم وتقاليد ، وتضحية وصلاة ، على يد الكهنة ، وكانت المحرمات تحيط بالمؤمنين من كل جهاتهم ، كما كانت الخطيئة كامنة في كل شهوة من الشهوات ، وكان لا بد من الهبات للتكفير عن هذه الخطايا ، وقلما كانت هناك خطيئة لا يمكن التكفير عنها بهذه الوسيلة .

ولم يكن أحد غير الكهنة يستطيع أن يقرب القرابين بالطريقة الصحيحة أو يفسر الطقوس أو الأسرار الدينية تفسيراً آمناً من الخطأ . وكان هؤلاء طبقة مغلقة لا يستطيع أحد أن ينتمي إليها إلا أبناء ليفي(*) . ولم يكن من حقهم أن يرثوا مالا[87] ، ولكنهم كانوا معفين من الضرائب وفرضة الرؤوس وسائر الإتاوات على اختلاف أنواعها[88] . وكانوا يأخذون العشور على نتاج الضأن ، وينتفعون بما يبقى فى الهيكل من القرابين التى لم تستنفدها الآلهة[89] . ونمت ثروة الكهنة بعد نفى اليهود بنمو المجتمع اليهودى الجديد ؛ وإذ كانت هذه الثروة المقدسة قد أحسن القيام عليها ، فقد جعلت كهنة الهيكل الثانى فى دمشق ، كما كان أمثالهم فى طيبة وبابل ، أقوى من الملوك أنفسهم .

على أن نمو سلطان الكهنة وانتشار التربية الدينية لم يكفيا لتحرير عقول العبرانيين من الخرافات والأوهام ومن عبادة الأوثان ؛ بل ظلت قلل التلال ، والحراجُ مأوى للآلهة الأجنبية ومشهداً للطقوس الخفية ، وظلت أقلية كبيرة من الشعب تسجد للحجارة المقدسة ، أو تعبد بعل وعشتروت ، أو تتنبأ بالغيب على الطريقة البابلية ، أو تقيم الأنصاب وتحرق لها البخور ، أو تركع أمام الحية النحاسية أو العجل الذهبى ، أو تملأ الهيكل بضجيج الحفلات الوثنية[91] ، أو ترغم أطفالها على أن « يجوزوا فى النار » من قبيل التضحية[92] ؛ بل إن بعض الملوك أنفسهم مثل سليمان وأهاب كانوا « يتملقون » الآلهة الأجانب ، وقام

(*) أحد أبناء يعقوب .

رجال صالحون كإليا وإليشع ينادون بإبطال هذه العادات ، وإن لم يصبحوا بعد كهنة ، وحاولوا أن يهدوا الناس إلى طريق الحق باستقامتهم وحثهم على الاقتداء بهم . ونشأ من هذه الأحوال والبدايات ، ومن انتشار الفاقة واستغلال الأهلين فى إسرائيل ، عظماء الرجال فى الديانة اليهودية ؛ نشأت طائفة الأنبياء المتحمسين ، الذين ظهروا الدين اليهودى ، ورفعوا مقامه ، وهيأوه للغلبة على أديان العالم العربى .

الفصل الرابع

المتطرفون الأولون

حرب الطبقات – أصل الأنبياء – عاموس وأورشليم – إشعيا – تنديده بالأغنياء – عقيدة المسيح المنتظر – أثر الأنبياء

لما كان الفقر ينشأ من الغنى ، ولما كان الفقراء لا يعرفون أنهم فقراء إلى حين يبصرون الأغنياء بعيونهم ، فإن حرب الطبقات لم يندلع لهيبها فى إسرائيل إلا بعد أن رأى الناس بأعينهم ثروة سليمان الطائلة .

لقد تعجل سليمان ، كما تعجل بطرس الأكبر ولينين ، حينما أراد أن يحوّل البلاد من دولة زراعية إلى أخرى صناعية . وقد تطلبت هذه المشروعات الضخمة كثيراً من الكدح ، وفرضت على الشعب أبهظ الضرائب ؛ ولما أن تمّت بعد عشرين عاما من العمل المتواصل ، وُجدت فى أورشليم طبقة من العمال المتعطلين كانوا من عوامل الشقاق السياسى والفساد الاجتماعى فى فلسطين كما كان أمثالهم فى رومة فيما بعد . وكانت الأحياء القذرة تزداد شيئاً فشيئاً كلما نمت ثروة الأفراد وزاد ترف الحاشية ، وأصبح استغلال الشعب والربا عادة مألوفة بين أصحاب الضياع الكبرى والتجار والمرابين الذين أحاطوا بالهيكل حتى قال عاموس إن الملاّك « باعوا البارَّ بالفضة والبائس لأجل نعلين »(٩٣) .

وكانت الثغرة الآخذة فى الاتساع بين ذوى الحاجة وذوى اليسار ، وكان النزاع الشديد بين المدن والريف وهو النزاع الذى يصحب على الدوام قيام المدنيات الصناعية ، من العوامل التى أدت إلى انقسام فلسطين بعد موت سليمان إلى مملكتين متعاديتين مملكة إفرايم(*) الشمالية وعاصمتها السامرة ، ومملكة يهوذا

(*) كثيراً ما كان أهل هذه المملكة يسمونها مملكة « إسرائيل » ، ولكننا فى هذا الكتاب سنطلق هذا اللفظ الأخير على اليهود جميعهم لا على هذه المملكة وحدها .

الجنوبية وعاصمتها أورشليم . وأخذ الضعف من ذلك الحين يدب بين اليهود لما سرى فى قلوبهم من أحقاد ، وما قام بينهم من نزاع كانت تشتعل بينهم بسببه نيران الحرب العوان . ولم يمض على موت سليمان إلا زمن قليل حتى استولى شيشنق ملك مصر على أورشليم ، وحتى سلمت له كل ما جمعه سليمان من ذهب بالضرائب التى فرضها على الشعب فى أثناء حكمه الطويل .

وكان هـذا الجو المشحون بعوامل التفكك السياسى ، والحرب الاقتصادية ، والانحلال الدينى ، هو الذى ظهر فيه الأنبياء . ولم يكن أولئك الذين أطلق عليهم هذا اللفظ العبرى (نبىّ) أول الأمر من طبقة عاموس وإشـعيا الجديرة باحترامنا ؛ بل كان بعضهم من المتنبئين الذين يستطيعون قراءة قلوب الناس وماضيهم ويخبرونهم بمستقبلهم حسبما يتقاضون منهم من أجور . ومنهم متعصبون متهوّسون يستثيرون مشاعرهم بالأصوات الموسـيقية الغريبة أو المشروبات القوية ، أو الرقص الشبيه برقص الدراويش ، ينطقون فى أثناء غيبوبتهم بعبارات يراها صحابهم وحياً أوحى إليهم : أى بثها فيهم روح غير روحهم(٩٤) . وقد سخر إرميا سخرية لاذعة من « كل رجـل مجنون ومتنبئ »(٩٥) . وكان منهم من هو ناسك نكد كإيليا ؛ ومنهم كثيرون يعيشـون فى مدارس أو أديرة مجاورة للهياكل ، ولكن معظمهم كانت له أملاك خاصة وزوجات(٩٦) . ومن هـذا الحشد الكبير من النساك خرج أنبياء بنى إسرائيل وأصبحوا على مرّ الزمن نقدة لعصرهم وشعبهم ثابتين على نقدهم . عارفين بالتبعة الملقاة عليهم ؛ وسياسيين ممتازين يسوسون بلادهم فى الخفاء « أشـد الناس معارضة للكهنة »(٩٧) . و « ألدهم عـداء للسامية »(٩٨) ، وكانوا مزيجاً من العرّافين والاشتراكيين . ونخطئ أشد الخطأ إذا عددناهم أنبياء بالمعنى المألوف لهذا اللفظ ؛ لقد كانت نبوءاتهم ، إن صح أن نسميها نبوءات ، مزيجاً من الوعد والوعيد ، أو عبارات دالة على التقى والصلاح ، يحشرونها فى

أقوالهم حشراً[٩٩] ، أو إشارات إلى حوادث بعد وقوعها[١٠٠] ؛ ولم يكن الأنبياء أنفسهم يدّعون أنهم يعلمون من الغيب ما يستطيعون أن ينطقوا به ؛ بل كانوا أشبه الناس بالمعارضين البلغاء فى إحدى الحكومات الدستورية الحديثة ، وكانوا من بعض نواحيهم تلستويين(*) . ثائرين على الاستغلال الصناعى والخداع الكهنوتى ؛ خرجوا من أحضان الريف الساذج يصبون اللعنات على ثراء الحواضر الفاسدة .

وقد قال عاموس عن نفسه إنه لم يكن نبياً وإنما كان راعياً ريفياً ساذجاً ، فلما أن ترك قطيعه ليشهد بيت إل ، هاله ما شاهده فيه من تعقد الحياة تعقداً غير طبيعى ، ومن الفروق الواسعة بين الثروات ، ومن منافسة مريرة قاتلة ، وقسوة فى استغلال الناس . فلما رأى هذا « وقف بالباب » وأخذ يصب غضبه على ذوى الثراء المنغمسين فى الترف الذين لا يرعون فى الناس عهداً ولا ذمة .

« من أجل أنكم تدوسون المسكين ، وتأخذون منه هدية قمح ، بنيتم بيوتاً من حجارة منحوتة ولا تسكنون فيها ، وغرستم كروماً شهية ولا تشربون خمرها . . . ويل للمستريحين فى صهيون ، . . . أنتم . . . المضطجعون على أسرّة من العاج والمتمددون على فرشهم والآكلون خرافاً من الغنم ، وعجولا من وسط الصيرة ، الهذرون مع صوت الرباب ، المخترعون لأنفسهم آلات الغناء كداود ، الشاربون من كؤوس الخمر ، والذين يدّهنون بأفضل الأدهان . . .

« كرهت أعيادكم . . . إنى إذا قدّمتم لى محرقاتكم وتقدماتكم لا أرتضى ... أبعد عنى ضجة أغانيك ونغمة ربابك لا أسمع ، وليجرِ الحق كالمياه ، والبر كنهر دائم »[١٠١] .

تلك نغمة جديدة فى آداب العالم . نعم إن عاموس يثلم حد مثاليته ، بما ينطق به إلهه من وعيد كالتيار الجارف لا يستطيع القارئ لكثرته وشدته أن يحاجز نفسه

(*) أى أشبه بتولستوى الفيلسوف الروسى . (المترجم)

عن العطف فى بعض اللحظات على شاربى الخمر ومستمعى الموسيقى . ولكنا هنا نرى الضمير الاجتماعى لأول مرة فى آداب آسية يتخذ صورة محددة واضحة ويفيض على الدين بما يرفعه من دين حفلات وملق إلى دعوة للنبل وحث على مكارم الأخلاق ، وما من شك فى أن إنجيل المسيح يبدأ فى الحقيقة بظهور عاموس(*) .

ويبدو أن نبوءة من أشد نبوآته إيلاماً تحققت وهو لا يزال حيا : « هكذا قال الرب . كما ينزع الراعى من فم الأسد كراعين أو قطعة أذن ، هكذا ينتزع بنو إسرائيل الجالسون فى السامرة فى زاوية السرير وعلى دمقس الفراش . . . فتبيد بيوت العاج وتضمحل البيوت العظيمة »(102)(**) ؛ وقام نبى آخر حوالى ذلك الوقت نفسه يهدد السامرة بالخراب فى عبارة من تلك العبارات الواضحة المأثورة التى صاغها المترجمون فى عهد الملك جيمس من كنوز التوراة ليرددها الناس فى حديثهم كل يوم . قال هوشع : « إن عجل السامرة يصير كسراء ، إنهم يزرعون الريح ويحصدون الزوبعة »(104) . وفى عام ٧٣٣ هددت إفرايم وحليفتها سوريا ، مملكة يهوذا الناشئة ، فاستغاثت هذه بأشور . فأغاثتها واستولت على دمشق ، وأخضعت سوريا وصور وفلسطين وأرغمتها على دفع الجزية ، وعرفت ما يبذله اليهود من جهود للحصول على معونة مصر ، فغزت البلاد يهوذا(105) ، وعجزت عن الاستيلاء على أورشلم ، ثم عادت جيوشها إلى نينوى متقلة بالغنائم ومعها ٢٠٠ر٠٠٠ من أسرى اليهود ليكونوا عبيداً للأشوريين(106)

(*) يجدر بالقارئ أن يرجع إلى كتاب « فجر الضمير » لبرستد ليوازن بين ما فيه وبين ما ورد فى هذه الأقوال فإن برستد يرجع بداية هذه الدعوة إلى المصريين الأقدمين . (المترجم)

(**) واضح أنه يشير هنا إلى الحجرة التى بنيت كلها من العاج فى قصر السامرة الذى كان يقيم فيه الملك أدب مع ملكته إيزابل (حوالى ٨٧٥ — ٨٥٠ ق . م) وقد عثرت بعثة مكتبة هارفرد فى خرائب قصر يقال إنه قصر أهاب على عدد من قطع العاج(103) .

وفى أثناء حصار أورشليم أصبح النبى إشعيا من أعظم شخصيات التاريخ العبرى(*) . وكان إشعيا أوسع أفقاً من عاموس ، ولذلك كانت آراء أولهما أبقى أثراً فى السياسة من آراء الثانى . ولم يكن يشك فى أن يهوذا الصغيرة لا تستطيع الوقوف فى وجه أشور الجبارة ذات السلطان الواسع ولو أعانتها مصر البعيدة — تلك القصبة المرضوضة التى تدمى يد من يحاول أن يمسكها ليدفع بها عن نفسه — فأخذ يتوسل إلى الملك أهاز ثم إلى الملك حزقيا أن يظلا على الحياد فى الحرب القائمة بين أشور وأفرايم . ذلك أنه لم يكن يشك — كما لم يكن عاموس وهوشع يشكان — فى أن السامرة(١٠٨) لا بد ساقطة ، وأن المملكة الشمالية مقبلة على آخر أيامها . فلما أن حاصر الأشوريون أورشليم أشار إشعيا إلى حزقيا ألا يسلم المدينة . وبدا أن انسحاب جيوش سنحريب المفاجئ مبرر قوى لهذه النصيحة . ومن ذلك علا شأنه زمناً ما لدى الملك والشعب على السواء . وكان ينصح على الدوام بأن يعامل الناس بالعدل ، وأن يترك أمرهم بعد ذلك إلى يهوه ، فيستخدم أشور أداة له يؤدبهم بها ، ولكنه سيهلكها هى نفسها فى آخر الأمر . وكان من أقواله أن يهوه سيقضى على جميع الأمم المعروفة له ، وهو يقول فى بعض فصول سفره (من الأصحاح السادس عشر إلى الثالث والعشرين) إن موآب وسوريا وإثيوبيا ومصر سيكون مصيرها الدمار و « كلها يولول »(١٠٩) . وهذا التهديد بالخراب وهذه اللعنات المتكررة تفسد ما فى سفر إشعيا من جمال ، كما تفسد كل ما فى التوراة كلها من نبوءات ، ولولاها لكانت من أجمل ما كتب فى الأدب .

على أن تشهيره هذا إنما ينصبّ على ما يجب أن ينصبّ عليه — على الاستغلال الاقتصادى والشراهة ، فهو إذا تحدث عنهما سما فى حديثه إلى أرق

(*) يتكون الكتاب الذى يحمل اسمه من مجموعة من « التنبؤات » (أى المواعظ) كتبها مؤلفان أو أكثر من مؤلفين عاشا فى الفترة المحصورة بين ٧١٠ ، ٣٠٠ ق . م(١٧٠) وتعزى الفصول من ١ إلى ٣٩ عادة إلى « إشعيا الأول » الذى نتحدث عنه فى هذه الصفحات .

ما وصل إليه الأدب فى أسفار العهد القديم ، فى فقرات تعد من أروع ما كتب من النثر فى أدب العالم كله :

« الرب يدخل فى المحاكمة مع شيوخ شعبه ورؤسائهم ، وأنتم قد أكلتم الكرم . سلبُ البائس فى بيوتكم . ما لكم تسحقون شعبى وتطحنون وجوه البائسين ؟ . . . ويل للذين يصلون بيتاً ببيت ، ويقرنون حقلا بحقل حتى لم يبق موضع . فصرتم تسكنون وحدكم فى وسط الأرض ! . . . ويل للذين يقضون أقضية البطل ، وللكتبة الذين يسجلون زوراً ليصدوا الضعفاء عن الحكم ، ويسلبوا حق بائسى شعبى لتكون الأرامل غنيمتهم ، وينهبوا الأيتام . وماذا تفعلون فى يوم العقاب حين تأتى التهلكة من بعيد ؟ إلى من تهربون للمعونة ؟ وأين تتركون مجدكم ؟ »[110].

وهو يزدرى أشد الازدراء من يتظاهرون فى العالم بالتقوى وهم يبتزون أموال الفقراء :

« لماذا لى كثرة ذبائحكم ؟ يقول الرب اتخمت من محرقات كباش وشحم مسمنات . . . رؤوس شهوركم وأعيادكم بغضتها نفسى . صارت علىّ ثقلا . مللت حملها . فحين تبسطون أيديكم أستر عينى عنكم . وإن كثرتم الصلاة لا أسمع .. أيديكم ملآنة دماً . اغتسلوا تنقوا . أعزلوا شر أفعالكم من أمام عينى ، كفوا عن فعــل الشر . تعلموا فعل الخير . اطلبوا الحق . أنصفوا المظلوم . اقضوا لليتيم . حاموا عن الأرملة »[111] ؛

وهو ممتلئ القلب حقداً ، ولكنه غير يائس من شعبه ؛ وكما أن عاموس قد ختم مواعظــه بنبوءة ، يحاول اليهود الآن تحقيقها وهى عودتهم إلى فلسطين[112] ، كذلك يختم إشعيا مواعظه بترديد أمل اليهود فى ظهور من يقضى على ما بينهم من انقسام سياسى ، وخضوع للأجنبى ، وما هم فيه من بؤس وشقاء ، ومن يعيد إلى الأرض الإخاء والسلام :

« ها ! العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عمانوئيل » . . لأنه يولد لنا ولد ونعطى ابناً ، وتكون الرياسة على كتفه ، ويدعى اسمه عجيباً مشيراً ، إلهاً قديراً . أباً أبدياً ، رئيس السلام . . . ويخرج قضيب من جذع يسى » . . ويحل عليه روح الرب ، روح الحكمة والفهم ، روح المشورة والقوة ، روح المعرفة ومخافة الرب . . . يقضى بالعدل للمساكين ، ويحكم بالإنصاف لبائسى الأرض ، ويضرب الأرض بقضيب فمه ، ويميت المنافق بنفخة شفتيه ، ويكون البر منطقة متنيه ، والأمانة منطقة حقويه ، ويسكن الذئب مع الخروف ، ويربض النمر مع الجدى والعجل والشبل والمسمن معاً ، وصبى صغير يسوقها . . . فيطبعون سيوفهم سككاً ، ورماحهم مناجل ولا ترفع أمة على أمة سيفاً ، ولا يتعلمون الحرب فيما بعد »(١١٣) .

ذلك إلهام جد عجيب ؛ ولكنه إلهام لن يعبر عن مزاج اليهود حتى تمر بهم أجيال كثيرة . وكان كهنة الهياكل ينصتون بعطف مكظوم إلى هذه الدعوة النافعة التى تحث الناس على التقى والصلاح ؛ وكانت شيع من اليهود تتطلع إلى هؤلاء الأنبياء تتلقى عنهم هذه الدعوة الملهمة ، ولعل هذه الأقوال التى تدعوهم إلى نبذ الشهوات الجسمية كان لها بعض الأثر فى تقوية ما أوجدته الصحراء فى اليهود من نزعة إلى التزمت فى الدين . غير أن حياة القصور والخيام ، والأسواق والحقول ، ظلت فى أغلب الأحيان تجرى على سنتها القديم ، فكانت الحرب تقضى على من تصطفى من كل جيل ، وظل الاسترقاق مصير الغريب ، وظل التاجر يطفف الكيل ويغش فى الميزان ، ثم يحاول التكفير عن ذنبه بالتضحية والصلاة(١١٤) .

وترك الأنبياء أعمق آثارهم فى يهودية ما بعد التقى ، ثم فى العالم كله عن طريق اليهودية والمسيحية . وفى أسفار عاموس وإشعيا نرى بداية المسيحية والاشتراكية والمعين الذى فاضت منه الدعوات إلى إقامة عالم مطهر من الشرور يطوف به طائف الفقر أو الحرب فيكدر ما فيه من أخوة وسلام .

وهذه الأسفار هى منشأ العقيدة اليهودية الأولى التى تقول بمجىء مسيح

يقبض على زمام الحكم ، ويعيد إلى اليهود سلطانهم الدنيوى ، ويجعل الصعاليك المملقين الحاكمين بأمرهم فى العالم كله وكان إشعيا وعاموس هما اللذان بدآ فى عصر الحروب يمجدان فضائل البساطة والرحمة والتعاون بين الناس والإخاء ، وهى الفضائل التى جعلها عيسى أساساً جوهرياً لدينه . وكانا أول من اضطلع بذلك العبء الثقيل عبء تحويل رب الجنود إلى إله حب ، وهما اللذان جندا يهوه واستعاناه على نشر المبادئ الإنسانية ، كما جنّد المسيح متطرفو الاشتراكيين فى القرن التاسع عشر ليستعيناه على نشر المبادئ الاشتراكية . وهما اللذان بثا فى عقول الألمان — بعد أن طبعت التوراة فى أوربا — الإيمان بمسيحية جديدة وأوقدا شعلة الإصلاح الدينى ، وكانت فضائلهم القوية غير المتسامحة هى التى أخرجت طائفة المتطهرين المسيحيين . وكانت فلسفتهم الأخلاقية تقوم على نظرية أجدر من غيرها بالتسجيل — وهى أن الطيب سوف يوفق وينجح ، وأن الخبيث سوف يصرع ، وقد تكون هذه نظرية مخادعة ، ولكن ما فيها من خداع — إن كان فيها خداع — هو خداع العقـــل النبيل . ولئن كان هؤلاء الأنبياء لا يتصوّرون الحرية أو يفكرون فيها ، فإنهم كانوا يحبون العـــدالة ويدعون إلى القضاء على ما كان يضعه الأسباط من قيود على الأخلاق الطيبة . ولقد أقاموا أمام البائسين فى العالم أملاً فى التآخى كان تراثاً غالياً ، ظلوا يتوارثونه على مدى الأجيال(*) .

(*) يتبين القارئ من هذا الفصل أن دولة اليهود لم تمكث فى فلسطين فى الزمن القديم إلا فترة وجيزة ، فقد قامت فى عهد شاول وبلغت أوجها فى عهد خلفه داود ودب فيها الضعف فى عهد سليمان وانقسمت من بعده ثم زالت زوالا سريعاً من الوجود . ترى هل هذه الفترة الوجيزة تكفى لأن تجعل ليهود اليوم حقا فى الاستيلاء على فلسطين وإخراج أهلها منها بعد أن قاموا فيها أربعة وعشرين قرنا من الزمان ؟ هذا والله منطق غريب لو صح لكان من حق العرب أن يستولوا على أسبانيا وجزء كبير من فرنسا وصقلية وجنوبى إيطاليا وقد حكموا بعضها أكثر مما حكم اليهود فلسطين . (المترجم)

الفصل الخامس

موت أورشليم وبعثها

مولد التوراة — تدمير أورشليم — الأسر البابلى — إرميا — حزقيال — إشعيا الثانى — تحرير اليهود — الهيكل الثانى .

كان أهم أثر للأنبياء فى معاصريهم هو كتابة التوراة . وكان سبب كتابتها أن الشعب شرع يرتد عن عبادة يهوه إلى عبادة الآلهة الأجنبية ، فأخذ الكهنة يتساءلون ألم يأن لهم أن يقفوا وقفة قوية يمنعون بها تدهور العقيدة القومية . ورأوا الأنبياء يعزون إلى يهوه ما يجيش فى صدورهم من عواطف يؤمنون بها ويعتقدونها ، فاعتزموا أن يبلغوا الناس رسالة من الله نفسه فى صورة سنن إلهية تبعث النشاط والقوة فى حياة الأمة الخلقية ، ويضمنون بها معونة الأنبياء ، وذلك بما تتضمنه من آرائهم القليلة التطرف . وسرعان ما ضموا إلى جانبهم الملك يوشيا . فلما كانت السنة الثامنة عشرة أو نحوها من حكمه أبلغ الكاهن خلقيا الملك أنه « وجد » فى سجلات الهيكل ملفاً عجيباً قضى فيه موسى نفسه فى جميع المشكلات التاريخية والخلقية التى كانت مثار الجدل العنيف بين الأنبياء والكهنة . وكان لهذا الكشف أثر عظيم فى نفس القوم ، فدعا يوشيا كبارهم إلى الهيكل وتلا عليهم فيه « سفر الشريعة » فى حضرة آلاف من الشعب (حسبما تقول الرواية) ، ثم أقسم ليطيعن من ذلك الوقت ما جاء فى هذا السفر « وأوقف كل الموجودين فى أورشليم وبنيامين فعمل سكان أورشليم حسب عهد الله »[١١٥] .

ولسنا نعلم علم اليقين ماذا كان « سفر الشريعة » هذا . فقد يكون سفر الخروج من الأصحاح العشرين إلى الثالث والعشرين ، وقد يكون سفر تثنية الاشتراع[١١٦] ؛ وليس ثمة ما يضطرنا إلى أن نفترض أنه قد وضع فى تلك

الساعة ؛ فكل ما فيه أنه يقنن ويسجل أوامر ومطالب ونصائح نطق بها خلال عدة قرون أنبياء بنى إسرائيل وكهنة المعبد . ومهما يكن مصدرها فإن الذين استمعوا لها وهى تقرأ عليهم ، أو سمعوا بها ولم يكونوا حاضرين وقت قراءتها ، قد تأثروا بها أشد الأثر . واغتنم الملك يوشيا هذه الفرصة السانحة فاستعان بهذه العواطف الجياشة على تحطيم مذابح الآلهة المنافسين ليهوه فى يهوذا ، وأخرج « من هيكل الرب جميع الآنية المصنوعة للبعل » ، « ولاشى كهنة الأصنام . . . والذين يوقدون للبعل ، للشمس والقمر والمنازل ولكل أجناد السماء » و « نَجَّس تُوفة . . . لكيلا يُعبِّر أحد ابنه أو ابنته فى النار لِمُولَك . وحطم المذابح التى بناها سليمان لكموش ، ولملكوم ، ولعشتورت »[117] .

ويبدو أن هذه الإصلاحات لم ترض يهوه فتحمله على أن يقدم المعونة لشعبه . نعم إن نينوى قد سقطت كما قال الأنبياء ، ولكن سقوطها لم يكن له من أثر إلا أن ترك يهوذا خاضعة لحكم مصر أولا ثم لحكم بابل فيما بعد . ولما أن حاول نخاو ملك مصر أن يمر بفلسطين فى زحفه على سوريا وقف يوشيا فى وجهه عند مجدو حيث كانت الواقعة القديمة المشهورة ظناً منه أن إلهه سيعينه على خصمه ، ولكنه هُزم وقُتل . وبعد بضع سنين من ذلك الوقت انتصر نبوخذ نصر على نخاو فى قرقميش واستولى على يهوذا وجعلها ولاية تابعة لبابل . وحاول حلفاء يوشيا ، بالوسائل الدبلوماسية السرية ، أن يلقوا عن كاهلهم نير بابل ، وأرادوا أن يستعينوا فى سعيهم هذا بمصر ، ولكن نبوخذ نصر علم بالأمر ، فزحف بجيوشه على فلسطين ، واستولى على أورشليم ، وأسر الملك يهوياقيم ، ورفع صدقيا على عرش يهوذا ، ثم عاد إلى بلاده ومعه عشرة آلاف أسير من اليهود » . ولكن صدقيا كان أيضاً محباً للحرية أو للسلطان فخرج على بابل ، فعاد إليه نبوخذ نصر معتزماً أن يحل المشكلة اليهودية حلاً نهائياً كما يظن ، فاستولى مرة أخرى على أورشليم وحرقها عن آخرها وهدم هيكل سليمان وقتل أبناء صدقيا أمام عينيه ،

ثم سمل عينيه هو نفسه وأسر جميع سكان المدينة تقريباً وساقهم أمامه إلى بابل[118] . وقد خلد أحد شعراء اليهود فيما بعد ذكرى هذه القافلة البائسة فى أغنية من أروع أغانى العالم قال :

على أنهار بابل جلسنا وبكينا على ذكرى صهيون
وفى وسط الصفصاف علقنا أعوادنا

لأن مَن سبونا طلبوا إلينا أن نغنيهم ، والذين عذبونا
أرادوا أن نطربهم ، ونادونا هلاّ أنشدتمونا أحد اناشيد صهيون ؟
وهل نستطيع أن ننشد نشيد الله فى بلد غريب ؟
ولئن نسيتك يا أورشليم فلتنس يمينى حذقها
، ليلتصق لسانى بسقف حلقى إن لم أذكرك يا أورشليم
وإن لم تكونى لدىّ خيراً من أفراحى[119] .

وفى هذه الأزمة كلها ظل إرميا أفصح الأنبياء وأشدهم حقداً على قومه يدافع عن بابل ويعلن فى الملأ أنها سوط عذاب فى يد الله ، ويتهم حكام يهوذا بأنهم بلهاء معاندون ، وينصحهم بأن يسلموا أمرهم كله إلى نبوخذ نصر ؛ حتى ليكاد من يقرأ أقواله فى تلك الأيام يظن أنه من صنائع بابل المأجورين ؛ انظر إلى قول إرميا على لسان ربه :

« إنى أنا صنعت الأرض والإنسان والحيوان الذى على وجه الأرض بقوّتى العظيمة وبذراعى الممدودة وأعطيتها لمن حسن فى عينى ، والآن قد وقعت كل هذه الأراضى ليد نَبُوخَذ نصر مَلك بابل عبدى . . . فتخدمه كل الشعوب . . . ويكون أن الأمة أو المملكة التى لا تخدم نبوخذ نصر ملك بابل ، والتى لا تجعل عنقها تحت نير ملك بابل إنى أعاقب تلك الأمة بالسيف والجوع والوباء — يقول الرب — حتى أفنيها بيده »[120] .

قد يكون هذا الرجل خائناً أو لا يكون ، أما من الناحية الأدبية فإن كتاب

نبوءاته التى يقال إنه تلقاها عنه تلميذه باروخ ليعد من أبلغ ما كتب فى الآداب كلها ومن أعظمها قوة ؛ وذلك لما فيه من تصوير حى واضح وتأنيب شديد لا رحمة فيه ولا هوادة . وفيه فوق ذلك إخلاص يبدأ بسؤال الرجل نفسه ثم يختتم بارتياب شريف فى خطته وفى حياته كلها من بدايتها إلى نهايتها : « ويل لى يا أمى لأنك ولدتنى إنسان خصام وإنسان نزاع لكل الأرض ، لم اقرض ولا أقرضونى ، وكل واحد يلعننى ... ملعون اليوم الذى ولدت فيه »(١٢١) .

واشتعلت فى صدره نيران الغضب حين رأى ما عليه قومه وزعماؤهم من انحطاط فى الأخلاق وحمق فى السياسة . ورأى فرضاً عليه ان يدعو بنى إسرائيل إلى التوبة والندم . وخيل إلى إرميا أن كل ما يشهده من انحلال قومى ، وضعف سياسى ، وخضوع للأجنبى ، وقد أنز له يهوه باليهود عقابا لهم ما ارتكبوا من الذنوب . « طوفوا فى شوارع أورشليم ، وانظروا ، واعرفوا ، وفتشوا فى ساحاتها ، هل تجدون إنساناً ، أو يوجد عامل بالعدل طالب الحق فأصفح عنها »(١٢٢) . لقد ساد الظلم فى كل مكان وعم الفسق والفجور : ولما أشبعتهم زنوا ، وفى بيت زانية تزاحموا ، صاروا حصنا ملعونة سائبة ، صهلوا كل واحد على امرأة صاحبه »(١٢٣) . ولما حاصر البابليون أورشليم أراد سراة المدينة أن يسترضوا يهوه فأطلقوا من كان عندهم من عبيد عبرانيين ، فلما أن رفع الحصار فترة قصيرة من الوقت ، وخيل إليهم أن الخطر قد زال ، قبض هؤلاء السراة على عبيدهم السابقين وأرغموهم على عبوديتهم القديمة . لقد كانت هذه فترة جمعت من تاريخ الإنسانية ما لم يستطع إرميا أن يقف أمامه صامتا ساكنا لا يبدى حراكا(١٢٤) ، فأخذ كغيره من الأنبياء يتوعد المنافقين الذين يجيئون إلى الهيكل متظاهرين بالتقى والصلاح يحملون بعض ما جمعوا من كدح للفقراء وطحن عظامهم ، ويذكرهم بأن الله لا يطلب إلى الناس أن يقربوا له القرابين بل يطلب إليهم أن يكونوا منصفين عادلين(١٢٥) . وهو يرى أن الكهنة والأنبياء لا يكادون يقلون فسادا

عن التجار ، وأنهم كالشعب نفسه فى حاجة إلى أن تطهر أخلاقهم أو تصاغ من جديد ، وأن يختتنوا فى أرواحهم كما يختتنون فى أجسامهم كما يقول إرميا بعباراته العجيبة : « اختتنوا للرب وأنزعوا غُرّل قلوبكم[١٢٦] » ؟

وكان هذا النبي يخطب قومه ... دا بما كان منتشراً بينهم من فساد بألفاظ من نار لا يعادلها فى شدتها إلا خطب القديسين فى جنيفا واسكتلندة وإنجلترا فى عهد الإصلاح الديني . فكان يسب اليهود أقذع سباب ويصور لهم وهو جذلان ما سيحل بمن لا يستمعون إليه من هلاك[١٢٧] . وكم من مرة تنبأ لهم بتخريب أورشليم وسبيهم على يد البابليين ، ورثى لما سيحيق بالمدينة (التى يسميها بنت صهيون) من قضاء محتوم بعبارات ما أشبهها بعبارات المسيح : « يا ليت رأسى ماء وعينى ينبوع دموع ، فأبكى ليلا ونهاراً قتلى بنت شعبى[١٢٨] » .

وخيل إلى الأمراء فى حاشية صدقيا أن هذا كله غدر بالوطن وخيانة له وتفريق لآراء اليهود وأرواحهم فى ساعة المحنة . ولكن إرميا لم يعبأ بأقوالهم وأخذ يسخر منهم فحمل نيراً خشبياً فوق عنقه ، وأخذ يقول إن يهوذا كلها يجب أن تخضع لنير البابليين ، وإن الخير لها أن يكون خضوعها هذا خضوعاً سلمياً بلا حرب ولا قتال . ولما انتزع منه ضانيا نيره صاح قائلا إن يهوه سيصب لكل يهودى نيرا من حديد . وحاول الكهنة أن يثنوه عن عمله هذا بوضع رأسه فى الدهق ، ولكنه وهو فى هذا الوضع ظل يشهر بهم ، فما كان منهم إلا أن يستدعوه إلى الهيكل وأرادوا أن يقتلوه ، غير أنه استطاع أن يفلت منهم بمعونة صديق له بين الكهنة . ثم قبض عليه الأمراء وربطوه فى حبال وأنزلوه بها فى بئر مملوءة بالوحل ، ولكن صدقيا خفف هذا العقاب بأن سجنه فى فناء القصر ، وفيه وجده البابليون حين سقطت أورشليم فى أيديهم . وأمر نبوخذ نصر رجاله أن يحسنوا معاملته ، وأن يعفوه من قرار النفى العام . وتقول إحدى الروايات الموثوق بها إنه كتب « مراثيه » فى آخر أيامه[١٢٨] ! وهذه المراثى هى أبلغ أسفار العهد القديم بأجمعها

وفيها أخذ يندب نصره الكامل وما حل بأورشليم من دمار ، ورفع إلى السماء ذلك السؤال الذي سأله أيوب ولم يجد له جواباً :

كيف جلست وحدها المدينة الكثيرة الشعب ! كيف صارت كأرملة العظيمةُ في الأمم ؟ السيدة في البلدان صارت تحت الجزية ! . . أما إليكم يا جميع عابري الطريق ، تطلعوا وانظروا إن كان حزن مثل حزني . . . أنت يا رب أبرّ من أن أخاصمك ، لكن أكلمك من جهة أحكامك . لماذا تنجح طريق الأشرار ؟ اطمأن كل الغادرين غدراً »[١٢٩] .

وفي هذه الأثناء كان خطيب آخر في بابل يحتمل عن إرميا عبء التنبؤ ، وهـذا الخطيب هو حزقيال . وكان حزقيال هذا رجلا من أسرة الكهنة سيقت إلى بابل في أيام السبي الأول من أورشليم . وبدأ خطبه كما بدأها إشعيا الأول وإرميا منددا أشد التنديد بما شاع في أورشليم من وثنية في الدين وانحلال في الأخلاق . وشبّه أورشليم بالزانية . وأخذ يُبدئ في ذلك ويُعيد ، لأنها باعت عبادتها للآلهة الغرباء[١٣٠] ، وشبه السامرة وأورشليم بزانيتين توأمين . وكانت هذه الكلمة تجري على لسانه كما كانت تجري على ألسنة الكتّاب المسرحيين أيام عودة آل استيورت إلى عرش إنجلترا . ووضع ثبتاً طويلا بذنوب أورشليم ثم قضى عليها بالتخريب والسقوط في أيدي الأعداء . وفعل ما فعله إشعيا ، فأدان الأمم كلها من غير تمييز بينها ، وشهر بخطأ موآب وصور ومصر وأشور وأنذرها بالهلاك والسقوط . وحتى أمة ماجوج العجيبة لم تنج من هذا التشهير[١٣١] . ولكنه لم يكن في قلبه من الحقد عليها ما كان في قلب إرميا ، فقد رق قلبه لها في آخر الأمر وأعلن أن الله سينجي « بقية » من اليهود وتنبأ بأن المدينة ستبعث حية[١٣٢] . وأخذ يصف ما يراه بعين الخيال من بناء المعبد الجديد فيها ، وتصور قيام مدينة فاضلة للكهنة فيها الكلمة العليا والمقام الأعظم ، يقيم بها يهوه مع شعبه أبد الدهر .

وكان يرجو أن يُبقى بهذه الخاتمة السعيدة على نفسية بنى وطنه المنفيين ويؤخر اندماجهم فى الثقافة البابلية وفى الدم البابلى . فقد خيل إليه كما يخيل إلى غيره فى هذه الأيام أن هذا الاندماج سيقضى على وحدة اليهود وعلى كيانهم أيضاً ، ذلك أنهم قد أثروا وحسنت حالهم فى أرض الجزيرة الغنية ، حيث كانوا يتمتعون بقسط موفور من الحرية فى عاداتهم ، وسرعان ما زاد عديدهم ونمت ثروتهم ، وأيسروا فيما عاد به عليهم خضوعهم من هدوء ووفاق لم يتعودوهما من قبل . وأخذت طائفة منهم مطردة الزيادة تعبد الآلهة البابلية ، وتألف الأساليب الشهوانية الشائعة فى العاصمة القديمة ، حتى إذا كان الجيل الثانى من أبناء المنفيين كانت ذكرى أورشليم قد محيت أو كادت تمحى من أذهانهم .

وقد رأى المؤلف المجهول ، الذى أخذ على عاتقه أن يكمل سفر إشعيا ، أن يعيد ذلك الجيل المرتد إلى دين إسرائيل . وكان مما يمتاز به هذا المؤلف وهو يعمل على إعادتهم إلى دينهم القديم أن يرقى بهذا الدين إلى مستوى رفيع لم يرق إليه دين من الأديان التى ظهرت فى الشرق الأدنى حتى ذلك الوقت(*) ، فبينا كان بوذا فى الهند ينادى بقمع الشهوات ، وبينا كان كنفوشيوس فى الصين يصوغ الحكمة لشعبه ، كان « إشعيا الثانى » هذا يعلن لليهود المنفيين فى نثر جزل مشرق مبادئ التوحيد ، ويعرض عليهم إلها جديداً شفيقاً عليهم رحيما بهم ، يفوق فى شفقته ورحمته ما كان عليه يهوه الغضوب كما صوره إشعيا الأول نفسه . وشرع هذا النبى العظيم يعلن فى الناس رسالته بعبارات اختارها أحد الأناجيل المتأخرة ليستحث بها المسيح الشاب على أن يؤدى هو الآخر رسالته . ولم تكن هذه

(*) ولسنا نعرف شيئاً من تاريخ هذا الكاتب الذى اختار أن يتحدث على لسان إشعيا ، وهى طريقة أدبية كانت شائعة فى ذلك الوقت . وكل ما نستطيع أن نحزره من أمره أنه كتب قبيل تحرير اليهود على يد قورش أو بعيد هذا التحرير . ويعزو دارسو التوراة إلى هذا الكاتب الأصحاحات من ٤٩ إلى ٥٥ كما يعزون إلى كاتب آخر مجهول أو كتاب مجهولين الأصحاحات من ٥٦ إلى ٦٦(١٣٢) .

الرسالة الجديدة هى صب اللعنات على الشعب لما ارتكب من الذنوب . بل كانت تهدف إلى بث الأمل فى قلوبهم أيام استبعادهم . « روح السيد الرب علىّ لأن الرب مسحنى لأبشر المساكين ، أرسلنى لأعصب مكسورى القلب ، لأنادى بالمسبيين بالعتق وللمأسورين بالإطلاق[١٣٣] » ؛ فقد وجد هذا الكاتب أن يهوه ليس إله حرب وانتقام بل أباً محبًّا ؛ وملأه هذا الكشف الجديد سعادة ، وأوحى إليه أناشيد فخمة ، فأخذ يبشر بالإله الجديد منقذ شعبه .

« صوت صارخ فى البريّة ، أعدوا طريق الرب ، قوموا فى القفر سبيلا لإلهنا ، كل وطاء يرتفع ، وكل جبل وأكمة ينخفض ، ويصير المعوج مستقيما ، والعراقيب سهلا(*) ... هو ذا الرب بقوة يأتى ، وذراعه تحكم له ... كراع يرعى قطيعه ، بذراعه يجمع الحملان ، وفى حضنه يحملها ، ويقود المرضعات » .

ثم يبشر هذا النبى بالمسيح المنقذ ، ويرفع من شأن هذه البشرى حتى تصير من الآراء السائدة بين شعبه ، ويصف « الخادم » الذى سينجى إسرائيل بالتضحية الأليمة :

« محتقر ومخذول من الناس ، رجل أوجاع ومختبر الحزن ... محتقر فلم نعتد به . لكن أحزاننا حملها ، وأوجعنا تحمّلها ، ونحن حسبناه مصاباً مضروباً من الله ومذلولا . وهو مجروح لأجل معاصينا ، مسحوق لأجل آثامنا ، تأديب سلامنا عليه وبجبره شفينا ... والرب وضع عليه إثم جميعنا »(**)[١٣٤] .

ويتنبأ إشعيا الثانى بأن بلاد الفرس ستكون أداة هذا التحرير . وينادى بأن قورش رجل لا يُقهر وأنه سيفتح بابل وينقذ اليهود من الأسر فيعودون إلى أورشليم ويشيدون هيكلا جديداً ومدينة جديدة تكون جنة بحق . « الذئب والحمل يرعيان معاً ، والأسد يأكل التبن كالبقر ، أما الحية فالتراب طعامها ،

(*) لعله يشير بهذا القول إلى الطريق الممتد من بابل إلى أورشليم .

(**) لا ترى البحوث الحديثة أن لفظ « الخادم » هنا نبوءة بالمسيح[١٣٤] .

لا يُؤذون ولا يُهلكون ، فى كل جبل قدسى يقول الرب »[١٣٥] . ولعل الذى أوحى إلى هذا النبى فكرة وجود إله واحد للكون كله هو نهضة الفرس وانتشار قوّتهم ، وإخضاعهم دول الشرق الأدنى كلها ، وجمعها فى وحدة إمبراطورية أوسع رقعة وأحسن حكما من أى نظام اجتماعى عرفه الناس من قبل . وهذا الإله لا يقول كما كان يقول يهوه :

« أنا الرب إلهك ... لن تكون لك آلهة غريبة أمامى » بل يقول الآن : « أنا الرب وليس آخر لا إله سواى »[١٣٦] . ويصف النبى الشاعر هذا الإله العالمى فى فقرة من أروع فقرات التوراة :

« من كان بكفيه المياه ، وقاس السموات بالشبر ، وكال بالكيل تراب الأرض ، ووزن الجبال بالقبان ، والآكام بالميزان .. هوذا الأمم كنقطة من دلو وكغبار الميزان ... هو ذا الجزائر يرفعها كدُقّة ... كل الأمم كلا شىء قدامه من العدم والباطل تحسب عنده . فيمن تشبهون الله ؟ وأى شبه تعادلون به ؟ ... الجالس على كرة الأرض وسكانها كالجندب ، الذى ينشر السموات كسرادق ويبسطها كخيمة للسكن ... ارفعوا إلى العلاء عيونكم ، وانظروا مَن خلق هذه »[١٣٧] .

وكانت ساعة من أروع الساعات فى تاريخ إسرائيل حين دخل قورش بابل فاتحاً عالمياً بعد طول انتظار ، وأباح لليهود أن يعودوا إلى أورشليم بكامل حريتهم . ولكنه خيب رجاء بعض الأنبياء وأظهر ما كان فى طباعه من حضارة أرقى من حضارتهم ، إذ ترك بابل وشأنها ولم يمسّ أهلها بسوء ، وأظهر خضوعه لآلهتها ، وإن كان فى الواقع خضوعاً مشكوكا فيه . كذلك أعاد قورش لليهود ما كان باقياً فى خزائن الدولة البابلية من الذهب والفضة اللذين اغتصبهما نبوخذ نصر من الهيكل ، وأمر الجماعات التى كان اليهود المنفيون يعيشون بينها أن تعينهم بالمال الذى يحتاجونه فى اثناء رحلتهم الطويلة إلى وطنهم . ولم يتحمس شباب اليهود

لهذا التحرير لأن الكثيرين منهم قد تأقلموا في التربة البابلية وامتدت أصولهم فيها ، فترددوا طويلا فى ترك حقولهم الخصـــبة وتجارتهم الرائجة ليعودوا إلى القفار الخربة فى المدينة المقدسة . ومرت سنتان بعد مجىء قورش قبل أن تبدأ الفصـــيلة الأولى من اليهود المتحمسين رحلتها الطويلة التى دامت ثلاثة شهور إلى الأرض التى خرج منها آباؤها قبل ذلك الوقت بمائة عام(١٢٨)

ولم يجد هؤلاء العائدون ترحيباً كبيراً فى وطنهم القديم ، كما لا يجد العائدون إليه فى هذه الأيام . ذلك أن أقواماً آخرين من الساميين قد استقروا فى تلك البلاد ، وتملكوا الأرض بحق احتلالها والعمل فيها ، وأخذت هذه القبائل تنظر بعين المقت إلى أولئك الذين خالوهم مغيرين على بلادهم وحقولهم ، ولولا تلك الدولة القوية الصديقة التى كانت تحمى اليهود العائدين لما استطاعوا أن يستقروا فى فلسطين . وأذن دارا الأول ملك الفرس للأمير زرّ بابل أن يعيد بناء الهيكل ، واستطاع هو وشيعته أن يتموا بناءه بعد اثنتى عشرة سنة من عودة اليهود ، رغم قلة عدد أولئك المهاجرين وضآلة مواردهم ، ورغم ما كانوا يصادفونه من عقبات فى كل خطوة يخطونها بسبب هجمات الأهلين المعادين لهم وتآمرهم عليهم ، وعادت أورشليم كما كانت مدينة يهودية شيئاً فشيئاً ، وترددت فى الهيكل أصداء الأناشيد التى كانت تتغنى بها بقية منهم آلت على نفسها أن تعيد اليهودية إلى سابق قوتها .

الفصل السادس

أهل الكتاب

سفر الشريعة – تأليف الأسفار الخمسة – أساطير « التكوين » – الشريعة الموسوية – الوصايا العشر – فكرة الله – السبت – الأسرة اليهودية قيمة الشرائع الموسوية

لم يكن فى وسع اليهود بعد عودتهم أن يقيموا لهم دولة حربية ، ذلك أنهم لم يكن لهم من العدد ومن الثروة ما يمكنهم من إقامة هذه الدولة . ولما كانوا فى حاجة إلى نوع من الإدارة يعترفون فيه بسيادة الفرس عليهم ويهيئ لهم فى الوقت نفسه سبيل الوحدة القومية والنظام ، فقد شرع الكهنة فى وضع قواعد حكم دينى يقوم كما كان يقوم حكم يوشـيا على المأثور من أقوال الكهنة وتقاليدهم ، وعلى أوامر الله . وفى عام ٤٤٤ ق . م دعا عزرا ، وهو كاهن عالم ، اليهود إلى اجتماع عام خطير ، وشرع يقرأ عليهم من مطلع النهار إلى منتصفه « سفر شريعة موسى » . وظل هو وزملاؤه اللاويون سبعة أيام كاملة يقرءون عليهم ما تحتويه ملفات هذا السفر . ولما فرغوا من قراءتها أقسم الكهنة والزعماء والشعب على أن يطيعوا هذه الشرائع ويتخذوها دستوراً لهم يتبعونه ومبادئ خلقية يسيرون على هديها ويطيعونها إلى أبد الآبدين[١٣٩] . وظلت هذه الشرائع من تلك الأيام النكدة إلى يومنا هذا المحور الذى تدور عليه حياة اليهود ، ولا يزال تقيُّدهم بها طوال تجوالهم ومحنهم من أهم الظواهر فى تاريخ العالم .

تُرى ماذا كان « كتاب شريعة موسى » هذا ؟ لم يكن هذا الكتاب هو بعينه « كتاب العهد » الذى قرأه يوشيا من قبل ، لأن هذا العهد قد جاء فيه بصريح العبارة أنه قرئ على اليهود مرتين كاملتين فى يوم واحد ، على حين أن قراءة الكتاب الآخر قد احتاجت إلى أسبوع[١٤٠] كامل . وكل ما فى وسعنا

أن نفعله هو أن نحزر أن الكتاب الكبير كان يحتوى على جزء هام من أسفار العهد القديم الخمسة يسميها اليهود « تورة » ويسميها غيرهم البنتاتوش أو الأسفار الخمسة(*)(١٤١).

كيف كتبت هذه الأسفار ؟ ومتى كتبت ؟ وأين كتبت ؟ ذلك سؤال برىء لا ضير منه ولكنه سؤال كتب فيه خمسون ألف مجلد ، ويجب أن نفرغ منه هنا فى فقرة واحدة نتركه بعدها من غير جواب :

إن العلماء مجمعون على أن أقدم ما كتب من أسفار التوراة هما القصتان المتشابهتان المنفصلة كلتاهما عن الأخرى فى سفر التكوين ، تتحدث إحداهما عن الخالق باسم « يهوه » على حين تتحدث الأخرى عنه باسم إلوهيم . ويعتقد هؤلاء العلماء أن القصص الخاصة بيهوه كتبت فى يهوذا ، وأن القصص الخاصة بإلوهيم(**) كتبت فى إفرايم ، وأن هذه وتلك قد امتزجتا فى قصة واحدة بعد سقوط السامرة . وفى هذه الشرائع عنصر ثالث يعرف بالتثنية

(*) التورة : لفظ عبرى معناه الهدى أو الإرشاد ، والبنتاتوش كلمة يونانية معناها الملفات الخمسة . (المترجم)

(**) وهى تفرقة كان أول من أشار إليها چان أستروك **Jean Astruc** فى عام ١٧٥٣ . ومن الفقرات التى تعزى إلى كاتب قصص يهوه فى سفر التكوين الفقرات المحصورة بين الآية الرابعة من الأصحاح الأول والرابعة والعشرين من الأصحاح الثالث وكذلك الأصحاحات ٤ ، ٦ - ٨ ، ١١ من ١ إلى ٩ ، والأصحاحين ١٢ ، ١٣ ، ١٨ - ١٩ ، ٢٤ ، ٢٧ الايات ١ - ٤٥ ، والأصحاحات ٣٢ ، ٤٣ - ٤٤ ؛ وفى سفر الخروج الأصحاحين ٤ - ٥ ، الآيات المحصورة بين الآية رقم ٢٠ فى الأصحاح الثامن إلى الآية رقم ٧ فى الأصحاح التاسع ، والأصحاحان ١٠ ، ١١ ، والآيات المحصورة بين الآية رقم ١٢ من الأصحاح الثالث والثلاثين إلى الآية رقم ٢٦ من الأصحاح الرابع والثلاثين ؛ وفى سفر العدد الآيات من ٢٩ إلى ٣٦ من الأصحاح الحادى عشر الخ ؛ أما الفقرات الإلوهية التى لا شك فيها فهى التى فى سفر التكوين فى الأصحاح الحادى عشر من ١٠ إلى ٣٢ ، وفى الأصحاح العشرين ١ - ١٧ ، والحادى والعشرين ٨ - ٣٢ والثانى والعشرين ١ - ١٤ والأصحاحات ٤٠ - ٤٢ ؛ و٤٥ ، وفى سفر الخروج الآيات من ٢٠ إلى ٢٤ من الأصحاح الثامن عشر والأصحاحات ٢٠ - ٢٢ ، والآيات من ٧ إلى ١١ فى الأصحاح الثالث والثلاثين ؛ وفى سفر العدد الأصحاحات ١٢ ؛ ٢٢ - ٢٤ الخ(١٤٢) .

أكبر الظن أن كاتبه أو كتابه غير كتاب الأسفار السالفة الذكر . وثمة عصر رابع يتألف من فصول أضافها الكهنة فيما بعد . والرأى الغالب أن هذه الفصول تكون الجزء الأكبر من « سفر الشريعة » الذى أذاعه عزرا[142] ، ويبدو أن هذه الأجزاء الأربعـــة قد اتخذت صورتها الحاضرة حوالى عام ٣٠٠ ق . م[143] .

وكانت أساطير الجزيرة هى المعين الغزير الذى أخذت منه قصص الخلق والغواية والطوفان التى يرجع عهدها فى تلك البلاد إلى ثلاثة آلاف سنة أو نحوها قبل الميلاد . ولقد رأينا صوراً قديمة من هذه القصص فيما مر بنا من صفحات هذا الكتاب ، ولعل اليهود قد أخذوا بعضها من الأدب البابلى فى أثناء أسرهم[144] . ولكن أرجح من هذا أنهم أخذوها قبل ذلك العهد بزمن طويل من مصادر سامية وسومرية قديمة كانت منتشرة فى جميع بلاد الشرق الأدنى .

وتقول القصص الفارسية وقصص التلمود الخاصة بالخلق إن الله خلق فى بادئ الأمر إنساناً مكوناً من ذكر وأنثى متصلين من الخلف كالتوأمين السيميين ثم رأى فيما بعد أن يفصل أحدهما عن الآخر . وتحضرنا فى هذه المناسبة جملة غريبة وردت فى سفر التكوين (الآية الثانية من الأصحاح الخامس) :

« يوم خلق الله الإنسان على شبه الله عمله ذكراً وأنثى ، خلقه وباركه ودعا اسمه آدم » ، ومعنى هذا أن أبانا الأول كان ذكراً وأنثى معاً — ويبدو أن أحداً من رجال الدين إذا استثنينا أرسطو فانيز لم يفطن إلى هذه العبارة(*)

أما قصة الجنة فتظهر فى جميع القصص الشعبية فى العالم كله — فى مصر ، والهند ، والتبت ، وبابل ، وبلاد الفرس واليونان(**) وپوليتزيا والمكسيك

(*) قارن هذا « بمائدة » أفلاطون .

(**) قارن هذا بما كتبه الشاعر اليونانى هزيود (حوالى ٧٥٠ ق . م) فى العمل والأيام ، كان الناس يعيشون كالآلهة مبرئين من الرذائل والشهوات والغضب والنصب ، يقضون أيامهم هادئين مسرورين سعداء فى رفقة الكائنات الإلهية . . . وكانت الأرض فى تلك الأيام أجمل مما هى الآن ، وكانت تخرج من نفسها مقداراً عظيماً من الفاكهة المختلفة الأنواع ... وكان الرجال وهم فى سن المائة يعدون غلماناً لا أكثر »[146] .

وغيرها من البلاد[١٤٥] . وفى معظم هذه الجنان أشجار محرمة وفيها كذلك أفاع وهولات سلبت الناس الخلود أو نفثت السم فى الجنة[١٤٦] . وأكبر الظن أن الحية والتينة كانتا رمزين للشهوات الجنسية .

وتشير هذه القصة إلى أن الشهوة الجنسية والمعرفة تقضيان على الطهر والسعادة ، وأنهما مصدر كل الشرور . وترى هذه الفكرة بعينها فى آخر « العهد القديم » فى سفر الجامعة ، كما تراها هنا فى بدايته .

والمرأة فى معظم هذه القصص هى الأداة التى تتخذها الحية أو يتخذها الشيطان وسيلة لإيقاع الإنسان فى الشر – الجميل ، سواء كانت هذه المرأة هى حواء ، أو پندورا ، أو پوسى الواردة فى الأساطير الصينية . فقد جاء فى قصص شى چنج أن « كل الأشياء كانت فى بداية الأمر خاضعة للإنسان ، ولكن امرأة ألقت بنا فى ذل الاستعباد ، فشقاؤنا إذن لم يأتنا من السماء بل جاءت به المرأة ، لأنها هى التى أضاعت الجنس البشرى « آه ! ما أشقاك يا پوسى ! لقد أشعلت النار التى أحرقتنا والتى تزداد كل يوم ضراماً . . . لقد ضاع العالم ، وطغت الرذيلة على كل شىء » .

وقصة الطوفان أكثر انتشاراً من قصة الخلق نفسها ، فلا يكاد يوجد فى الأمم القديمة أمة لم تعرفها ، وقلما يوجد جبل فى آسية لم يرس عليه نوح أو شمش – نپشتيم بعد أن أضناه التعب من ضربات المياه[١٤٧] . ولقد كانت هذه القصص فى العادة هى الوسيلة الشعبية أو الطريقة المجازية التى عبر بها القدماء عن قضاء فلسفى أو موقف أخلاقى لخصوا فيه بإيجاز تجارب طويلة مرت بالجنس البشرى – وهى أن الشهوة الجنسية والمعرفة تنتجان من الآلام أكثر مما تنتجان من اللذة ، وأن الحياة البشرية تتعرض من حين إلى حين لأخطار الفيضانات أى لطغيان الأنهار العظيمة التى كان ماؤها سبباً فى قيام الحضارات القديمة . وإن الذين يسألون هل هذه القصص صحيحة أو غير صحيحة ليسألون فى الواقع أتفه الأسئلة

وأبعدها عن المقصود منها ، ذلك أن أهميتها ليست فيما تقصه من قصص ، بل فيما تعرضه من أحكام ، ومع ذلك فليس من العقل فى شىء ألا يستمتع الإنسان ببساطتها التى تخلب اللب وبقصصها الواضح وأحداثها السريعة .

وكانت الأسفار التى تليت على الشعب بأمر يوشيا وعزرا هى التى صيغت منها القوانين « الموسوية » التى قامت عليها الحياة اليهودية كلها فيما بعد . ويقول سارتن **Sarton** ، وهو المعروف بشدة حرصه فيما يكتب ، معلقاً على هذه الشرائع : « إن أهميتها فى تاريخ الأنظمة والقوانين تفوق كل تقدير[١٤٩] » . لقد كانت أكبر محاولة فى التاريخ لاتخاذ الدين قاعدة لسياسة الأمم وأداة لتنظيم كل صغيرة وكبيرة فى الحياة كلها . وفى ذلك يقول رينان **Renan** : « لقد صارت تلك الشريعة أضيق رداء شد على جسم الحياة الإنسانية[١٥٠] » ، فقد جعلت الطعام(*) ، والدواء ، والشئون الصحية الفردية ، وشئون الحيض والولادة ، والشئون الصحية العامة ، والانحراف الجنسى والشهوات البهيمية[١٥٢] ، كل هذه جعلتها من موضوعات الفروض والهداية الإلهية . وفيها نشهد مرة أخرى كيف أخذ الطبيب يفترق افتراقاً بطيئاً عن الكاهن[١٥٣] — ليصبح فيما بعد ألد أعدائه . فنرى سفر اللاويين يحرص أشد الحرص على وضع القوانين الخاصة لعلاج الأمراض التناسلية ، ويعنى بها أشد العناية ، فينص على عزل المصابين وما يتطلبه علاجهم من تطهير وتبخير بل وحرق المنزل الذى فشا فيه المرض عن آخره إذا دعت الحال[١٥٤](**) . وكان اليهود الأقدمون هم الذين وضعوا قواعد الوقاية من

(*) انظر الأصحاح الرابع عشر من سفر التثنية . ويعزو ريناخ **Reinach** ، وربرتسن سمث **Robertson Smith** وسير جيمس فريزر **Sir James Frazer** تحريم لحم الخنزير إلى عبادة أسلاف اليهود الطوطمية للخنزير (أو للخنزير البرى) لا إلى ما كان لديهم من معلومات صحية أو رغبتهم فى اتقاء الأمراض[١٥١] . على أن عبادة الخنزير البرى قد لا تكون إلا وسيلة لجأ إليها الكهنة للنهى عن أكل لحم الخنزير « لنجاسته » فى اعتقادهم . وإن ما فى الشريعة الموسوية من قواعد صحية حكيمة ليبرر الشك فيما فسر به ريناخ هذا التحريم .

(**) وظلت الطرق التى يشير بها سفر اللاويين (فى الأصحاحات ١٣ ، ١٤). لعلاج الجذام متبعة فى أوربا حتى آخر العصور الوسطى[١٥٥] .

المرض(١٥٦) . ولكن يلوح أنهم لم يكونوا يعرفون من الجراحة غير عملية الختان ، ولم تكن هذه السُّنة الدينية – الشائعة بين المصريين الأقدمين ، وبين الساميين المحدثين – مجرد تضحية لله وفريضة يفرضها الولاء للجنس(*) ، بل كانت فوق هـــذا وقاية صحية من الأقذار التي تتعرض لها الأعضاء التناسلية(١٥٨) ولعل ما في الشريعة من قواعد خاصة بالنظافة هو الذي أبقى على اليهود خلال تجوالهم الطويل وتشتتهم ومحنتهم .

أما ما بقي من شريعة موسى فيدور كله حول الوصايا العشر (سِفر الخروج الآيات ١ – ١٧ من الأصحاح العشرين) التي قدّر لها أن يرددها نصف سكان العالم(**) . وتضع الوصية الأولى أساس المجتمع الديني الجديد ، وهو المجتمع الذي لا يقوم على أي شريعة مدنية بل على فكرة الله الملك المقدوس الذي لا تدركه الأبصار ، والذي أنزل كل قانون ، وفرض كل عقوبة ، والذي سُمِّي شعبُه بعدئذ شعب إسرائيل ، أي المدافعين عن الله .

لقد ماتت الدولة العبرية ولكن الهيكل ظل باقياً ، وشرع كهنة يهوذا

(*) وذلك لأن هذه العادة تجعل من المستحيل على اليهودي أن يخفى عن الناس حقيقة أمره . ويقول برفولت **Briffault** : إن هذه السنة اليهودية لم تتخذ صورتها التي هي عليها الآن إلا في عهد متأخر كثيراً هو عهد المكابيين (١٦٧ ق . م) . وفي ذلك الوقت كانت العملية تجري بطريقة تجعل في مقدور اليهوديات أن يتقين استهزاء غير اليهوديات منهن إذ كانت هذه العملية تعمل بحيث لا يدرك الإنسان أنها عملت ، ولهذا أمر الكهنة الوطنيون أن تزال الغلفة عن آخرها(١٥٧) » .

(**) كان من المألوف في الأزمان القديمة أن تعزى كتب القوانين إلى الوحي الإلهي . لقد رأينا من قبل كيف كانت قوانين مصر القديمة تعزى إلى الإله تحوت ، وكيف أنزل شمش إله الشمس قانون حمورابي . كذلك أعطى أحد الأرباب الملك مينوس على جبل دكتا القوانين التي حكمت بمقتضاها جزيرة كريت . وكان اليونان يمثلون ديونيس الذي يسمونه أيضاً «المشترع» وأمامه منصدتان حجريتان نقشت عليهما القوانين . ويقول أتقياء الفرس إن زردشت كان في يوم من الأيام يصلي على جبل عال فتبدى إليه أهورا – مزدا بين الرعود والبروق ، وأنزل عليه « كتاب القانون »(١٥٩) . وفي هـــذا يقول ديودور الصقلي . لقد فعلوا كل هذا لأن الفكرة التي تسمو بالبشرية فكرة رائعة قدسية ؛ أو لأن السوقة تكون أكثر طاعة للقوانين إذا حولت أبصارها إلى ما يمتع به من تعزى إليهم من جلال وسلطان »(١٦٠) .

يحاولون كما يحاول بابوات رومة أن يعيدوا ما عجز الكهنة عن إنقاذه . ومن ثم كان وضوح الوصية الأولى وما فيها من تكرار ونصها على أن الكفر وذكر الله بما لا يليق يعاقب عليهما بالإعدام ولو كان للكافر أقرب أقرباء الإنسان[١٦١] . ذلك أن الكهنة الذين وضعوا القانون كانوا يعتقدون كما يعتقد رجال محاكم التفتيش الأتقياء أن الوحدة الدينية شرط أساسى لقيام النظام والتضامن الاجتماعيين ، وكان هذا التعصب الدينى منضما إلى الكبرياء الجنسى هو الذى أبقى على اليهود وأوقعهم فى كثير من المشاكل .

وسمت الوصية الثانية بفكرة الله بقدر ما حطت من شأن الفن ، إذ حرّمت أن تصور له أية صورة منحوتة . وقد افترضت هذه الوصية وجود مستوى عقلى راق لدى اليهود ، لأنها نبذت كل الخرافات كما نبذت فكرة تجسد الإله ، وحاولت أن تصوّر الله منزهاً عن جميع الأشكال والصور بالرغم من الصورة البشرية المحضة التى ترسمها ليهوه أسفار موسى الخمسة ، هى تخص الدين بكل ما تنطوى عليه قلوب العبرانيين من إخلاص وولاء ، ولا تترك فيهما — فى الأيام القديمة — مكاناً للعلم والفن . وحتى علم الفلك نفسه قد أهمل أمره لكيلا يزداد عدد الآلهة الزائفين أو تعبد النجوم وتتخذ آلهة من دون الله . وكان فى هيكل سليمان قبل ذلك العهد عدد من الصور والتماثيل يكاد يجل عن الحصر[١٦٣] . أما الهيكل الجديد فلم يكن فيه شىء منها . ذلك أن التماثيل والصور القديمة قد نقلت من قبل إلى بابل ، ويبدو أنها لم تعد مع ما أعيد من آنية الفضة والذهب[١٦٤] . ومن أجل هذا لا نجد نحتاً ولا تصويراً ولا نقشاً بعد الأسر البابلى ، كما لا نجد إلا القليل منها قبل الأسر إذا استثنينا عهد سليمان الذى يكاد يكون عهداً أجنبياً عن العبرانيين . وكل ما كان الكهنة يجيزونه من الفنون فنّا العمارة والموسيقى ، وكانت الأغانى والمراسيم التى تقام فى الهيكل هى التى تخفف من أكدار حياة الشعب وشقائه ، فكانت فرقة موسيقية معها مختلف الآلات تنضم

إلى جوقة المغنين فى ترتيل المزامير ، فتبدو » صوتاً واحداً لتسبيح للرب وحمده » وتمجيد الهيكل[١٦٥] : « وداود وكل بيت إسرائيل يلعبون أمام الرب بكل أنواع الآلات من خشب السرو بالعيدان ، وبالرباب ، وبالدفوف ، وبالجنوك ، وبالصنوج[١٦٦] » .

وتنطق الوصية الثالثة بما كان يستمسك به اليهودى من تقى وتدين ، فهو لا يحرم عليه أن ينطق باسم الله عبثاً فحسب ، بل يحرم عليه أن ينطق باسم الله تحريماً مطلقاً ، فإذا ورد اسم يهوه فى صلاته وجب عليه أن يستبدل به اسم أدنيه — الرب . ولن نجد لهذه التقوى نظيراً إلا بين الهندوس .

وقدست الوصية الرابعة يوم الراحة الأسبوعي — السبت — وصار هذا التقديس سنة من أرسخ السنن البشرية . وهذه التسمية — ولعل هذه العادة نفسها — قد جاءتهم من البابليين . فقد كان هؤلاء يطلقون على الأيام « الحرم » أيام الصوم والدعاء اسم شيتو[١٦٧] . وكان لديهم فضلا عن هذه العطلة الأسبوعية أعياد أخرى عظيمة منها مراسم كنعانية قديمة للزرع والحصاد ، ومنها أعياد دورية للقمر والشمس : فكان مَزُّوث فى بادئ الأمر عيد بداية حصاد الشعير ، وشباؤوث الذى سمى فيما بعد بنتكست عيد ختام حصاد القمح ؛ وسكوث عيد الكروم ، وبساتْش أو عيد الفصح عيد بداية نتاج قطعان الضأن ؛ وكان رش — ها — شناه عيد رأس السنة . ولم تعدل هذه الأعياد لتخلد بها حوادث هامة فى تاريخ اليهود إلا بعد ذلك الوقت[١٦٨ ا] . وكانوا فى أول يوم من أيام عيد الفصح اليهودى يذبحون حملا أو جدياً ويأكلونه ويرشون دمه على الأبواب إشارة إلى أن هذا الدم هو نصيب الإله ، ثم ربط الكهنة فيما بعد هذه العادة بعادة قتل يهوه لأبناء المصريين البكر . وكان الحمل فى أول الأمر طوطما لإحدى القبائل الكنعانية وكان عيد الفصح عند الكنعانيين عيد تقريب حمل لأحد الآلهة

المحليين(*) . ونحن حين نقرأ الآن (فى الأصحاح الثانى عشر من سفر الخروج(**)) قصة هذا العيد ، ثم نرى اليهود فى هذه الأيام يحتفلون به على النحو الذى كانوا يحتفلون به قديماً ، ندرك قدم هذه العبادة وقوة استمساك هذا الشعب بطقوسه القديمة .

والوصية الخامسة تقدس الأسرة وتضعها من حيث بناء المجتمع فى منزلة لا تفوقها إلا منزلة الهيكل . وظلت المثل العليا التى طبع بها نظام الأسرة باقية فى أوربا طوال تاريخها المتوسط والحديث حتى جاء الانقلاب الصناعى وأدى إلى انحلالها . لقد كانت الأسرة العبرانية الأبوية نظاماً اقتصادياً وسياسياً ضخماً يتألف من أكبر رجل متزوج فيها ، ومن أزواجه ، وأبنائه غير المتزوجين ، وأبنائه المتزوجين ، وأزواجهم وأبنائهم ، ومن عبيدهم إن كان لهم عبيد . وكان الأساس الاقتصادى الذى تقوم عليه هذه الجماعة هو قدرتها على زراعة الأرض ؛ أما قيمتها السياسية فتنحصر فى أنها كانت تهيئ للبلد نظاماً اجتماعياً بلغ من القوة حداً تكاد الدولة أن تصبح معه لا ضرورة لها إلا فى زمن الحرب . وكان للأب على أفراد أسرته سلطان لا يكاد يُحد ؛ فكانت الأرض ملكاً له ، ولم يكن فى وسع أبنائه أن يبقوا على قيد الحياة إلا إذا أطاعوا أمره ، فقد كان هو الدولة ، وكان فى وسعه إن كان فقيراً أن يبيع ابنته قبل أن تبلغ الحلم لتكون جارية ؛ كما كان له الحق المطلق فى أن يزوجها بمن يشاء وإن كان فى بعض الأحيان ينزل عن بعض حقه فطلب إليها أن ترضى بهذا الزواج(170) . وكانت الفكرة الشائعة أن الأولاد من نتاج الخصية اليمنى ، وأن البنات من نتاج الخصية اليسرى ، وكانت هذه فى اعتقادهم أصغر وأضعف من اليمنى(171) . وكان الزواج فى أول الأمر

(*) وأصبح هذا الطوطم فيما بعد حمل بسكال فى الدين المسيحى ، وقيل إنه هو نفسه تخليد ذكرى موت المسيح .

(**) فى الأصل الإنجليزى الحادى عشر وهو خطأ مطبعى . (المترجم)

يستتبع انتقال الزوج إلى دار زوجته ، فقد كان عليه أن « يترك أباه وأمه وينضم إلى زوجته فى عشيرتها » ؛ لكن هذه العادة أخذت تزول شيئاً فشيئاً بعد تأسيس الملكية . وكانت أوامر يهوه إلى الزوجة هى : « ستكون رغبتك لزوجك ، وسيكون له الحكم عليك » .

ومع أن المرأة كانت من الوجهة الرسمية خاضعة للزوج ، فإنها كانت فى الواقع ذات كرامة وذات سلطان كبير ، واشتهرت فى تاريخ اليهود أسماء سيدات مثل سارة ، وراحيل ، ومريم ، وإستر ، وكانت دبورة إحدى قضاة إسرائيل(١٧٢) . وكانت النبية خالدة هى التى استشارها يوشيا فى أمر الكتاب الذى وجده الكهنة فى الهيكل(١٧٣) . وكانت الأم الولود تضمن لنفسها الطمأنينة والكرامة ، ذلك بأن هذه الأمة الصغيرة كانت تتوق إلى زيادة عددها ، لأنها تشعر كما تشعر اليوم فى فلسطين بما يتهددها من الخطر وسط الأقوام المحيطين بها . ومن أجل هذا كانت تعلى من شأن الأمومة ، وترى العزوبة خطيئة وجريمة ، وتجعل الزواج إجبارياً بعد سن العشرين ، لا تستثنى من ذلك الكهنة أنفسهم ، وتزدرى العذارى التى فى سن الزواج ، والنساء العاقرات ، وتنظر إلى الإجهاض وقتل الأطفال وغيرهما من وسائل تحديد النسل على أنها من أعمال الكفرة البغيضة التى تؤذى خياشيم الرب(١٧٤) : « فلما رأت راحيل أنها لم تلد ليعقوب غارت راحيل من أختها وقالت ليعقوب هب لى بنين وإلا فأنا أموت(١٧٥) » . وكانت الزوجة الكاملة هى التى لا تنقطع عن الكد فى بيتها وحوله ، ولا تفكر إلا فى زوجها وأطفالها . وفى الأصحاح الأخير من سفر الأمثال وصف للمرأة المثالية كما يراها الرجل :

« امرأة فاضلة من يجدها لأن ثمنها يفوق اللآلى ، بها يثق قلب زوجها فلا يحتاج إلى غنيمة ، تصنع له خيراً لا شراً كل أيام حياتها ، تطلب صوفا وكتاناً ، وتشتغل بيدين راضيتين ، هى كسفن التاجر تجلب طعامها من بعيد ،

وتقوم إذ الليل بعد ، وتعطى أكلا لأهل بيتها وفريضة لفتياتها . تتأمل حقلا فتأخذه وبثمر يديها تغرس كرما ؛ تنطق حقويها بالقوة وتشدد زراعيها ، تشعر أن تجارتها جيدة ، سراجها لا ينطفئ فى الليل ، تمد يديها إلى المغزل وتمسك كفاها بالفلكة ، تبسط كفيها للفقير وتمد يديها إلى المسكين ؛ لا تخشى على بيتها من الثلج لأن كل أهل بيتها لابسون حللا ، تعمل لنفسها موشيات ، لبسها البز وأرجوان ، زوجها معروف فى الأبواب حين يجلس بين مشايخ الأرض ، تصنع قمصاناً وتبيعها ، وتعرض مناطق على الكنعانى ، العز والبهاء لباسها ، وتضحك على الزمن الآتى ، تفتح فمها بالحكمة وفى لسانها ســنة المعروف ، تراقب طرق أهل بيتها ولا تأكل خبز الكسل ، يقوم أولادها ويطوبونها ، ويقوم زوجها أيضاً فيمدحها ، بنات كثيرات عملن فضلا ، أما أنت ففقت عليهن جميعاً ، الحسن غش والجمال باطل ؛ أما المرأة المتقية الرب فهى تمدح ، أعطوها من ثمر يديها ، ولتمدحها أعمالها فى الأبواب(*) » .

والوصية السادسة مبدأ مثالى صعب المنال . وذلك أننا لا نرى فى كتاب ما ما نراه فى أسفار العهد القديم من حديث التقتيل والتدمير ، ففصوله كلها ما بين وصف لمذابح وتناسل لتعويض آثارها . لقد كان النزاع بين الأسباط ، والانقسامات الحزبية ، وعادة الأخذ بالثأر المتوارثة ، كل هذه كانت لا تبقى على فترات السلم المتقطعة المملة إلا قليلا . ولم يكن أنبياء إسرائيل من دعاة السلم رغم ما جاء فى بعض أقوالهم من تمجيد للمحاريث ومناجل التشذيب ، وكان الكهنة أنفسهم — إذا جاز لنا أن نحكم عليهم من خطبهم التى ينطقون بها يهوه —

(*) هذه هى المرأة المثالية فى عين الرجل ؛ وإذا جاز لنا أن نصدق إشعيا (٣ : ١٦ — ٢٣) فإن نساء أورشليم كن فى الواقع كنساء العالم كله يحببن الملابس الجميلة والزينة ويغرين الرجال بمطاردتهن : « من أجل أن بنات صهيون يتشامخن ويمشين ممدودات الأعناق ، وغامزات بعيونهن ، وخاطرات فى مشيهن ، ويخشخشن بأرجلهن » الخ ؛ ولعل المؤرخين كانوا يخدعوننا على الدوام فيما يقولونه عن النساء !

مولعين بالحروب ولعهم بالمواعظ . ولقد قتل ثمانية من ملوك إسرائيل التسعة عشر(١٧٧) وكانت العادة المتبعة أن تدمر المدن التى يستولون عليها فى حروبهم ، وأن تقطع بحد السيف رقاب جميع الذكور من سكانها ، وأن تتلف الأرض حتى لا تصلح للزرع إلا بعد زمن طويل ، شأنهم فى هذا شأن الناس فى تلك الأيام(١٧٨) . ولعل أعداد القتلى الواردة فى أقوالهم كان يبالغ فيها كثيراً . فليس من المعقول مثلاً أن « يقتل بنو إسرائيل من الآراميين(*) مائة ألف رجل فى يوم واحد »(١٧٩) بغير آلات الحرب الحديثة . وكان اعتقادهم أنهم شعب الله المختار(١٨٠) سبباً فى ازدياد الكبرياء الطبيعى فى أمة تشعر بما لها من مواهب متفوقة ، كما كان سبباً فى تقوية ما لديهم من نزعة إلى اعتزال غيرهم من الشعوب من الوجهتين العقلية والروحية ، وفى حرمانهم من أن ينظروا إلى الأمور نظرة أممية كان أبناؤهم جديرين بأن يصلوا إليها ، لكنهم مع ذلك بلغوا درجة عظيمة من الفضائل المتصلة بصفاتهم هم أنفسهم ، وكان منشأ عنفهم هو ما كانوا يتصفون به من حيوية عارمة جامحة ، وكانت عزلتهم ناشئة من تقواهم ، كما كان ميلهم إلى الخصام والتذمر ناشئاً من حساسيتهم القوية التى أمكنتهم من إنتاج أعظم آداب الشرق الأدنى ؛ وكان كبرياؤهم العنصرى أقوى سند لشجاعتهم فى خلال قرون التعذيب الطوال ، ذلك أن الناس يكونون كما تضطرهم الظروف أن يكونوا .

والوصية السابعة تعترف بأن الزواج هو الأساس الذى تقوم عليه الأسرة ، كما تعترف الخامسة بأن الأسرة هى أساس المجتمع ، وهى تضفى على الزواج كل ما يستطيع الدين أن يضفى عليه من عون . ولا تذكر شيئاً عن العلاقات الجنسية قبل الزواج ، ولكن ثمة أنظمة أخرى تحتم على الفتاة أن تثبت أنها عذراء

(*) فى الأصل الإنجليزى « من السوريين » ، ولكن الذى تذكره الآية أنهم من الآراميين . (المترجم)

فى يوم زواجها وإلا رجمت حتى تموت[١٨١] ولكن الزنى كان رغم هذا منتشراً بين اليهود . ويلوح أن اللواط لم ينقطع بعد تدمير سدوم وعمورة[١٨٢] ولما كان القانون فيما يلوح لم يحرم الاتصال بالعاهرات الأجنبيات ، فإن السوريات ، والموآبيات والمديَنيات وغيرهن من « النساء الغريبات » انتشرن فى الطرق العامة ، حيث كن يعشن فى مواخير وخيام ، ويجمعن بين الدعارة وبيع مختلف السلع الصغيرة . ولما كان سليمان لا يتشدد كثيراً فى هذه الأمور ، فإنه قد تساهل فى تطبيق القانون الذى كان يحرم على تلك النساء السكنى فى أورشـــليم ، وسرعان ما تضاعف عددهن حتى كان الهيكل نفسه فى أيام المكابيين ماخوراً للفسق والفجور كما وصفه مصلح غضوب[١٨٣] .

ويلوح أن الحب كان له عندهم نصيب ، فقد « خدم يعقوب براحيل سبع سنين ، وكانت فى عينيه كأيام قليلة بسبب محبته لها »[١٨٤] ، ولكن الحب لم يكن له إلا شأن قليل فى اختيار الأزواج . وكان هذا الزواج قبل نفى بنى إسرائيل من الأمور المدنية المحضة ، يعقده أبوا الزوجين أو يعقده الخطيب وأبو العروس وفى أسفار العهد القديم شواهد على زواج السبايا ؛ ويجيز يهوه الزواج من سبايا الحروب[١٨٥] . ولما نقص عدد النساء أوصى الكبار « بنى بنيامين قائلين امضوا واكمنوا فى الكروم ، وانظروا ، فإذا خرجت بنات شيلوه ليدرن فى الرقص فاخرجوا أنتم من الكروم واخطفوا لأنفسكم كل واحد امرأته من بنات شيلوه واذهبوا إلى أرض بنيامين »[١٨٦] . ولكن هذه الخطة كانت من الخطط النادرة ، أما السُّنة المألوفة فكانت سنة الزواج بطريق الشراء ، فقد ابتاع يعقوب ليئة وراحيل بعمله . واشترى بُوعز راعوث اللطيفة شراء سافرا . وكان من أشد ما ندم عليه النبى هوشع أنه ابتاع زوجته بخمسين شاقلا[١٨٧] . وكان الاسم الذى يطلقه العبرانيون على الزوجة وهو « بولة(*) » يعنى « المملوكة[١٨٨] » . وكان

(*) لعل هذا المعنى ذو صلة بكلمة « بولة » العربية بمعنى بنت الرجل . (المترجم)

والد الزوجة يعطيها فى مقابل ما يتقاضاه ثمناً لها بائنة — وهو نظام يفيد أعظم فائدة فى تضييق الثغرة الفاصلة بين نضج الأبناء الجنسى ونضجهم الاقتصادى فى حضارة المدن ، وهى ثغرة مفككة للمجتمع .

وإذا كان الرجل ثريا أبيح له أن يتزوج بأكثر من واحدة ؛ وإذا كانت الزوجة عاقراً ، مثل سارة ، أشارت على زوجها بأن يتخذ له خليلة . وكان الهدف الذى ترمى إليه هذه السنن هو تكثير النسل ، وكان طبيعيا لديهم أن تقدم راحيل وليئة خادماتهما إلى يعقوب بعد أن ولدتا له كل ما تستطيعان أن تلدا من الأبناء ، لكى يلدن له هن أيضاً أبناء(١٨٨) . ولم يكن يسمح للمرأة بأن تظل عقيما ؛ ومن أجل ذلك فإن الأخ إذا مات أخوه كان يحتم عليه أن يتزوج أرملته مهما كان عدد زوجاته ، فإذا لم يكن للميت أخ فرض هذا الواجب على أقرب الأحياء من أسرته(١٨٩) . ولما كانت الملكية الفردية أساس النظام الاقتصادى اليهودى فقد كان لكل من الرجل والمرأة معيار خلقى خاص . فللرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة ، أما المرأة فكانت تختص برجل واحد . وكان معنى الزنى عندهم اتصال رجل بامرأة ابتاعها رجل آخر بماله ، ومن أجل ذلك كان اتصاله بها اعتداء على قانون الملكية تعاقب عليه المرأة والرجل بالإعدام(١٩٠) . وكان الفسق محرماً على المرأة غير المتزوجة ، أما الرجل غير المتزوج فقد كان عمله هذا ذنباً يغتفر له(١٩١) . وكان الطلاق مباحاً للرجل ، ولكنه كان قبل أيام التلمود من أشق الأمور على المرأة(١٩٣) . ويلوح أن الزوج لم يسرف فى إساءة استعمال ماله من ميزة على المرأة فى هـــذه الناحية ، فهو يصور لنا أنه فى الجملة إنسان مخلص لزوجته وأبنائه، غيورعليهم،وكثيراً ما كان الزواج يثمر حبًّا وإن لم يكن الحب هوالذى يقرر الزواج . « وأخذ إسحق رفقة فصارت له زوجةوأحبها فتعزى إسحق بعد موت أمه»(١٩٤) . ولعل الحياة فى الأسرة لم تصل فى أى شعب آخر — إذا استثنينا شعوب الشرق الأدنى — إلى ذلك المستوى الراقى الذى وصلت إليه عند اليهود .

والوصية العاشرة تقدس الملكية الفردية(*) ، وكانت هى والدين والأسرة الأسس الثلاثة التى قام عليها المجتمع العبرى . وتكاد الملكية كلها تنحصر فى ملكية الأرض ، ذلك أن اليهود قبل أيام سليمان قلما كان لديهم شىء من الصناعات غير صناعتى الخزف والحديد . وحتى الزراعة نفسها لم ترق رقياً كبيراً ، وكانت الكثرة العظمى من الشعب منصرفة إلى تربية الضأن والماشية ، وزراعة الكروم والزيتون والتين . وكانت أغلب معيشتهم فى الخيام لا فى البيوت المبينة ، حتى لا يجدوا صعوبة فى انتجاع مراعى جديدة ، ولما نمت ثروتهم وزاد ما ينتجونه على حاجتهم بدءوا يتجرون ، وأخذت السلع اليهودية تروج فى دمشق وصور وصيدا وحول الهيكل نفسه بفضل ما اتصف به التجار اليهود من مهارة صبر على المشاق . وظلوا إلى ما قبل أيام الأسر لا يستخدمون نقودا ، وكان الذهب والفضة أساس التبادل عندهم وكانا يوزنان فى كل عملية تجارية . وقامت بينهم مصارف كثيرة العدد لتمويل التجارة والمشروعات الاقتصادية . ولم يكن غريباً أن يتخذ هؤلاء « المقرضون » ساحات الهيكل موضعاً لعملهم ، فقد كانت هذه عادة شائعة فى الشرق الأدنى ، ولا تزال باقية فى كثير من أقطاره إلى هذا اليوم[١٩٦] . وكان يهوه يطل من عليائه مغتبطاً بسلطان رجال المال المتزايد ، ومن أقواله فى هذا المعنى : « فتقرض أمماً كثيرة وأنت لا تقترض[١٩٧] » وهى فلسفة كريمة جمعت لليهود ثروة طائلة ، وإن لم يبد فى ذلك القرن أنها من وحى الدين .

وكان اليهود يتخذون أسرى الحروب والمذنبين عبيداً لهم ، وشأنهم فى هذا شأن غيرهم من أمم الشرق الأدنى ؛ ويستخدمون مئات الآلاف منهم فى قطع الأخشاب ونقل مواد البناء للمنشآت العامة كهيكل سليمان وقصره . ولكن السيد

(*) لقد كانت الأرض من الوجهة النظرية ملكا ليهوه[١٩٥] .

لم يكن له على عبيده حق الحياة والموت ، كما كان من حق العبد أن يمتلك المال ويبتاع به حريته[١٩٨] . وكان يباح بيع الرجال المدينين ليكونوا خدماً أرقاء إذا عجزوا عن أداء ديونهم ، وكان فى وسعهم أن يبيعوا أبناءهم بدلا منهم . وقد بقيت هذه العادة إلى أيام المسيح[١٩٩] ، غير أن الصدقات السخية وما كان يقوم به الكهنة والأنبياء من حملات عنيفة على استغلال هؤلاء الأرقاء قد خففت فى بلاد اليهود من آثار هذه النظم التى كانت منتشرة فى بلاد الشرق الأدنى . وكان من القواعد الواردة فى شريعة موسى : « ألا يغبن أحدكم أخاه[٢٠٠] » ، كما أنها كانت تطلب إليهم أن يطلقوا سراح الأرقاء من العبرانيين وأن يلغوا ما عليهم من الديون كل سبع سنين[٢٠١] ولما تبين أن هذا الأمر أكثر مما يطيقه سادة هؤلاء الأرقاء جاء القانون بسنة العيد الخمسينى ، فكان كل العبيد والمدينين يعتقون كل خمسين سنة : « وتقدسون السنة الخمسين وتنادون بالعتق فى الأرض لجميع سكانها . تكون لهم يوبيلا وترجعون كل إلى مالكه وتعودون كل إلى عشيرته[٢٠٢] » .

وليس لدينا ما يدل على أن هذه الوصية الجميلة قد أطيعت ، وسواء كان ذلك أو لم يكن فإننا يجب أن نقر بالفضل للكهنة الذين لم يتركوا درساً فى الإحسان إلا علموه : « إن كان فيك فقير أحد من إخوتك . . فلا تنس قلبك ولا تقبض يدك عن أخيك الفقير ، بل افتح يدك له ، وأقرضه مقدار ما يحتاج إليه » ، « لا تأخذ منه رباً ولا مرابحة[٢٠٣] » ويجب أن تشمل عطلة السبت كل العاملين ، بل يجب أن تشمل الحيوانات نفسها فتترك ما عساه أن يكون على الأرض من النبات المقطوع والفاكهة الساقطة من الأشجار فى الحقول والبساتين يجمعها الفقراء لأنفسهم[٢٠٤] . ومع أن اليهود هم الذين كانوا مقصودين بهذه الصدقات فإن الفقير الذى عند الأبواب يجب أن يعامل هو

الآخر معاملة طيبة رحيمة ، وأن يؤوى الغريب ويطعم ويعامل معاملة كريمة . وكان اليهود يؤمرون فى كل حين بأن يذكروا أنهم هم أيضاً كانوا فى وقت من الأوقات لا مأوى لهم بل أنهم كانوا عبيداً أرقاء فى أرض غير أرضهم .

وكانت الوصية التاسعة تطلب أن يكون الشهود شرفاء أمناء إلى أقصى حد ، وبذلك جعلت الدين عماداً للشريعة اليهودية بقضها وقضيضها . لقد كان الشاهد يقسم اليمين فى حفل دينى ، ولم يكن يكتفى بأن يضع المقسم يده على عورة من يقسم له كما كانت العادة قديماً(٢٠٥) ، بل كان يطلب إليه الآن أن يشهد الله نفسه على صدقه ، وأن يُحَكِّمه فى أمره . وكان القانون ينص على أن يعاقب شاهد الزور بنفس العقاب الذى كان يراد توقيعه على المتهم بالاستناد إلى شهادته(٢٠٦) . لقد كانت شريعة إسرائيل كلها هى الشريعة الدينية وحدها ، وكان الكهنة هم القضاة والهياكل هى المحاكم ، وكان يحكم بالإعدام على من لا يخضعون لأحكام الكهنة(٢٠٧) . وكانت هناك حالات خاصة يترك الحكم فيها لله ، وذلك بأن يشرب المتهم ماء ساماً إذا كانت جريمته مشكوكاً فيها(٢٠٨) ، ولم تكن لديهم أداة لتنفيذ القانون سوى الأداة الدينية وحدها ؛ فكان تنفيذه يترك إلى ضمير المتهم وإلى سلطان الرأى العام ، وكانت بعض الجرائم الصغرى يكفر عنها بالاعتراف والفداء(٢٠٩) . وكانت جرائم القتل وخطف الآدميين ، وعبادة الأوثان ، والزنى ، وضرب أحد الوالدين أو سبهما ، وسرقة العبيد ، أو « مضاجعة بهيمة » ، يحكم فيها بالإعدام بأمر يهوه ، وأما قتل الخادم فلا يعاقب عليه بالإعدام(٢١٠) ؛ كذلك كان الإعدام عقاباً على السحر : « لا تدع ساحرة تعيش(٢١١) » . وكان يرضى يهوه أن يقوم الأفراد أنفسهم بتنفيذ القانون فى حالة القتل : « ولى الدم يقتل القاتل ، حين يصادفه يقتله(٢١٢) » . على أنهم كانوا يفردون بعض المدن يستطيع

المجرم أن يفر إليها ، فإذا فعل كان على ولى الدم أن يؤجل ثأره[٢١٣] .

وفى وسعنا أن نقول بوجه عام إن المبدأ الذى كان يحوم عليه العقاب هو قانون القصاص : « وإن حصلت أذية تُعطى نفساً بنفس ، وعيناً بعين ، وسنا بسن ، ويداً بيد ، ورجلا برجل ، وكيا بكى ، وجرحاً بجرح ، ورضاً برض[٢١٤] » . وما من شك فى أن هذه المبادئ كانت مثلا عليا لم تتحقق كلها على الوجه الأكمل ، وإذا شئنا أن نقول كلمة عامة عن قانون اليهود الجنائى ، قلنا إن هذا الجزء من القانون لا يفضل قانون حمورابى ، وإن كان قد كُتب بعده بألف وخمسمائة سنة على الأقل . أما من حيث تنظيم القضاء نفسه فإن فيه رجوعاً كثيراً إلى الوراء ، لأنه يعود بهذا التنظيم إلى السيطرة الكهنوتية البدائية .

ويتضح لنا من الوصية العاشرة كيف كانوا ينظرون إلى المرأة على أنها جزء من متاع الرجل : « لا تشته امرأة قريبك ، ولا عبده ولا أمته ، ولا ثوره ولا حماره ، ولا شيئا مما لقريبك[٢١٥] » . ولكنها مع هذا كانت تحوى مبادئ قيمة عظيمة ، لو تقيد الناس بها لنجا العالم من نصف ما فيه من قلق واضطراب . ومن أعجب الأمور أن أفضل الوصايا كلها لم تكن بين هذه الوصايا العشر ، وإن كانت جزءاً من « الشريعة » الموسوية . ونقصد بذلك ما ورد فى الآية الثامنة عشرة من الأصحاح التاسع عشر من سفر اللاويين تائها بين « طائفة من القوانين المتكررة المختلفة الأنواع » ولا يزيد نصها على هذه العبارة : « تحب قريبك كنفسك » .

وقصارى القول أن الوصايا العشر شريعة سامية ، فيها من العيوب ما لا يزيد على عيوب العصر الذى وضعت فيه ، ولكن فيها من الفضائل ما لا يوجد فى غيرها من الشرائع . ومن واجبنا أن نذكر على الدوام أنها كانت قانوناً لا أكثر ، بل أن نذكر فوق هـــذا أنها كانت : « طوبى كهنوتية[٢١٦] » ، ولم تكن وصفاً صادقاً للحياة اليهودية . وكانت ككل

القوانين تعظم فى عين أصحابها حين يخرقونها ، ويمتدحونها كلما اعتدوا عليها ، ولكن أثرها فى سلوك أصحابها لم يكن يقل عن أثر معظم الشرائع القضائية أو الأخلاقية . وكان من أهم آثارها التى جعلت لليهود فى خلال تجوالهم الذى بدأ عقب وضعها بزمن قليل ، والذى دام ألفى عام ، « وطناً يحملونه معهم » ، كما سماه هين Heine فيما بعد ، ودولة روحية لا تراها العين ولا تلمسها اليد ، وضمت شملهم رغم تشتتهم وأبقت لهم كبرياءهم رغم هزائمهم ، وأوصلتهم خــلال القرون الطوال إلى وقتنا هذا وهم شعب قوى يبدو لنا أنه لن يبيد أبدا .

الفصل السابع

أدب التوراة وفلسفتها

التاريخ – القصص – الشعر – المزامير – نشيد الأنشاد – الأمثال –
أيوب – فكرة الخلود – تشاؤم سفر الجامعة – مجيء الإسكندر

ليس العهد القديم شريعة فحسب ؛ بل هو فوق ذلك تاريخ ، وشعر ، وفلسفة من الطراز الأول . وإذا ما أنقصنا من قيمة الكتاب ما فيه من أساطير بدائية ، ومن أغلاط مبعثها صلاح الكاتبين وتقواهم ، وأقررنا أن ما فيه من أسفار تاريخية لا تبلغ من الدقة أو من القدم ما كان أجدادنا السابقون يفترضونه فيها ، إذا ما فعلنا هذا كله فإنا لا نجد فى الكتاب طائفة من أقدم الكتابات التاريخية فحسب ، بل نجد فيه كذلك طائفة من أجمل تلك الكتابات . ولربما كانت أسفار القضاة وصموئيل والملوك قد وضعت على عجل ، كما يعتقد بعض العلماء[217] ، فى أثناء السبي أو بعده بقليل ، ليجمع فيها واضعوها التقاليد القومية لشعب مشتت كسير ؛ ويحتفظوا بها على مدى القرون ؛ ولكن قصة شاؤل وداود وسليمان تفوق فى جمال مبناها وأسلوبها غيرها من الكتابات التاريخية فى الشرق الأدنى القديم . بل إن سفر التكوين نفسه – إذا استثنينا منه ما فيه من سلاسل الأنساب ، وقرأناه ونحن ندرك الهدف الذى ترمى إليه الأقاصيص – إن هذا السفر نفسه لهو قصة ممتعة عظيمة ، قصت علينا من غير حواش ولا زينة فى بساطة ووضوح وقوة . ولسنا نجد فيها تاريخاً فحسب ، بل نجد فيها نوعاً من فلسفة التاريخ . ذلك أنها أول ما دوّن من الجهود التى بذلها الإنسان ليؤلف من الحوادث الماضية التى لا عداد لها وحدة متناسقة بالبحث عما يسرى فيها من وحدة فى الغرض ، ومن مغزى ، ومن تتابع العلة والمعلول على نحو ما ، ومن إيضاح لحاضر

الأشياء ومستقبلها . ولقد بقيت فكرةُ التاريخ — كما تصورها الأنبياء والكهنة واضعو أسفار موسى الخمسة — ألفَ عام بعد اليونان والرومان . وأصبحت آراء عالمية يعتنقها المفكرون الأوربيون من بوئثنيوس Boëthnius إلى بوسويه Bossuet

والقصص الغرامية الساحرة الواردة فى التوراة وسط بين التاريخ والشعر ، وليس فى المنثور من الكتابة ما هو أدنى إلى الكمال من قصة راعوث ؛ ولا تقل عنها كثيراً قصة إسحق ورفقة ، ويعقوب وراحيل ، ويوسف وبنيامين ، وشمشون ودليلة ، وإستر ، ويهوديت ودانيال . ويبدأ الأدب الشعرى « بنشيد موسى » (سفر الخروج الفصل الخامس عشر) و « نشيد دبورة » (القضاة الفصل الخامس عشر) ويبلغ ذروته فى المزامير . وكانت ترانيم « التوبة » البابلية هى التى مهدت السبيل إلى هذه الأناشيد ، ولعل أناشيد اليهود قد أخذت منها مادتها كما أخذت عنها صورتها . ويخيل إلينا أن قصيدة إخناتون الشمس كانت ذات أثر فى المزمور الخامس والخمسين بعد المائة . وأكبر الظن أن المزامير ليست كلها من وضع داود وحده بل من وضع طائفة من الشعراء كتبوها بعد الأسر اليهودى بزمن طويل ، ويغلب أن يكون ذلك فى القرن الثالث قبل المسيح(٣١٨) . على أن هذا البحث التاريخى كله لا يعنينا كما لا يعنينا اشتقاق اسم شيكسبير أو المصادر التى استمد منها مسرحياته ، إنما الذى يعنينا هو أن المزامير تحتل المكان الأول فى شعر العالم الغنائى . ولم يكن يقصد بها أن يطالعها الإنسان فى جلسة واحدة ، أو أن يطالعها مطالعة الناقد المدقق ؛ بل إن أجمل ما فيها أنها تصف لحظات من نشوة التقى والهيام الروحى والإيمان القوى المحرك للعواطف . ولكنها يفسدها علينا ما فيها من لعنات مريرة ، و « تأوهات » وشكايات مملة ، وملق لا ينتهى ليهوه الذى يصب الدخان صباً من خياشيمه والنار من فمه (المزمور الثامن) ، ويتوعد الأشرار بالحرق فى نار الجحيم (المزمور التاسع) : يتقبل الملق ويهدد « بقطع جميع الشفاه الملقة » (المزمور الثانى عشر) . والمزامير مليئة بالحماسة

الحربية البعيدة كل البعد عن الروح المسيحية ، ولكنها مع ذلك تسرى فيها روح الحجيج المجاهدين . على أن من المزامير ما يفيض رحمة وحناناً وما يعد مثلا فى الخضوع والتذلل : « إننا تراب نحن ... الإنسان مثل العشب أيامه ، كزهر الحقــل كذلك يزهر ، لأن ريحاً تعبر عليه فلا يكون ولا يعرفه موضعه بعد » (المزموران ٢٩ ، ١٠٣) . ونحس فى هذه الأناشيد بأوزان الشعر الشرقى القديم ونكاد نسمع فيها أصوات المرنمين وهم يردون على المنشدين . وليس فى الشعر كله ما يفوقه فى تشبيهاته وتصويره ؛ وليس ثمة ما يضارعه فى قوة تعبيراته ووضوحها . ولهذه القصائد فى نفوسنا من الأثر ما يفوق أثر أية أغنية من أغانى الحب ، فهى تحرك أقسى العواطف وأكثر النفوس شكا ، لأنها تعبر فى صورة عاطفية قوية عما فى العقل الناضج من شوق إلى نوع من الكمال يهب له كل جهوده . وتقابلنا فى أماكن متفرقة من الترجمة الإنجليزية التى صدرت فى عهد الملك جيمس عبارات بليغة جرت على لسان جميع الناطقين باللغة الإنجليزية كقولهم : Out of the Mouths of babes (من أفواه الأطفال والرُّضَّع فى المزمور الثامن) ، The apple the eye (حدقة العين فى المزمور السابع عشر) ، Trust not in princes لا تتكلوا على الرؤساء ؟ — المزمور السادس والأربعون بعد المائة) . وفى الأصل العبرانى تشبيهات وإستعارات لم تفقها تشبيهات واستعارات فى أية لغة من اللغات . انظر إلى قوله فى المزمور التاسع عشر ، إن الشمس المشرقة : « مثل العروس الخارج من حجلته يبتهج مثل الجبار للسباق » . ولا يسعنا إلا أن نتصور ما لهذه الأناشيد من جلال وجمال فى لغتها الأصلية الطنانة الرنانة(*) .

وإذا ما وضعنا إلى جانب هذه المزامير « نشيد سليمان » لاح لنا ما فى الحياة

(*) ولو أننا طلب إلينا أن نختار من هذه المزامير أحسنها لوقع اختيارنا فى أكبر ظننا على المزامير رقم ٢٣٨ ، ٤ ، ٥١ ، ١٠٤ ، ١٣٧ ، ١٣٩ . وبين المزمور الأخير وبين نشيد هوتمان Whitman « النشوء والارتقاء » شبه عجيب(٢١٩) .

اليهودية من عنصر شهوانى دنيوى ؛ لعل كُتَّاب العهد القديم — وهم الذين يكادون كلهم أن يكونوا من الأنبياء والكهنة — قد أخفوه عنا ، كما يكشف سفر الجامعة عن تشكك لا نتبينه فيما عنى الكتاب باختياره ونشره من أدب اليهود الأقدمين ؛ وفى هذه الكتابات الغرامية العجيبة مجال واسع للحدس والتخمين . فقد تكون مجموعة من الأغانى البابلية الأصل ، تشيد بذكر إشتار وتموز ، وقد تكون من وضع جماعة من شعراء الغزل العبرانيين تأثروا بالروح الهلينية التى دخلت إلى بلاد اليهود مع الإسكندر الأكبر (لأن فى هذه الأغانى ألفاظاً مأخوذة من اللغة اليونانية) ، أو تكون زهرة يهودية ترعرعت فى الإسكندرية وقطعتها نفس محررة من ضفاف النيل (وذلك لأن العاشقَين يخاطب أحدهما الآخر بقوله أخى أو أختى كما يفعل المصريون الأقدمون) . ومهما يكن أصلها فإن وجودها فى التوراة سر خفى ولكنه سر ساحر جميل . ولسنا ندرى كيف غفل — أو تغافل — رجال الدين عما فى هذه الأغانى من عواطف شهوانية فأجازوا وضعها بين أقوال إشعيا والخطباء :

صرة المر حبيبى لى بين ثديى يبيت
طاقة فاغية حبيبى لى فى كروم عين جَدْى (Engadi)
ها أنت جميلة يا حبيبتى ، ها أنت جميلة ، عيناك حمامتان
ها أنت جميلٌ يا حبيبى وحلو وسريرنا أخضر ؛ ...
أنا نرجس شارون سوسنة الأودية . .
أسندونى بأقراص الزبيب ، أنعشونى بالتفاح فإنى مريضة جداً ،
أحلفكن يا بنات أورشليم بالظباء وبأيائل الحقول ألا تيقظنَ
ولا تنبهنَ الحبيب حتى يشاء ...
حبيبى لى وأنا له الراعى بين السوسن

إلى أن يفيح النهار وتنهزم الظلال ارجع وأشبه يا حبيبى الظبى
أو غُفر الأيائل على الجبال المشعَّبة . . .
تعال يا حبيبى لنخرج إلى الحقل ولنبت فى القرى
لنبكرنّ إلى الكروم لننظر هل أزهر الكرم ؟ هل تفتح القعال ؟ هل
نوّر الرمان ؟ هنالك أعطيك حبى[٢٢٠] .

هذا هو صوت الشباب ، أما الأمثال فصوت للشيوخ . إن الناس يتطلبون كل شىء من الحب والحياة ، وهم ينالون ما يتطلبون إلا قليلا ، ولكنهم يظنون أنهم لم ينالوا شيئاً ، وتلك هى المراحل الثلاث التى يتنقل فيها الإنسان المتشائم . وهكذا نرى هذا السليمان الأسطورى(*) يحذر الشباب من شر المرأة « لأنها طرحت كثيرين جرحى ، وكل قتلاها أقوياء . . . أما الزانى بامرأة فعديم العقل . . . ثلاثة عجيبة فوقى وأربعة لا أعرفها : طريق نسر فى السموات ، وطريق حية على صخر ، وطريق سفينة فى قلب البحر ، وطريق رجل بفتاة[٢٢١] » . وهو يتفق مع القديس بولس فى أن أفضل للإنسان أن يتزوج من أن يحترق ! « أفرح بامرأة شبابك ، الظبية المحبوبة ، والوعلة الزهية ، ليروك ثدياها فى كل وقت ، وبمحبتها اسكر دائماً . . . أكلة من البقول حيث تكون المحبة خير من ثور معلوف ومعه بغضة[٢٢] » . بحقك هل هذه ألفاظ من كانت له سبعمائة زوجة ؟

ويلى الكسلُ الدنس فى البعد عن الحكمة : « اذهب إلى النملة أيها الكسلان . . . إلى متى تنام أيها الكسلان ؟[٢٢٣] » .

« أرأيت رجلا مجتهداً فى عمله ؟ — أمام الملوك يقف[٢٢٤] » . ولكن

(*) لا يقصد الكاتب أن سليمان شخص أسطورى ، فقد تحدث عنه قبل حديث من يعتقد أنه شخصية تاريخية ، بل يقصد كما يقول هو نفسه أن الأمثال ليست من وضع سليمان وإن كان بعضها قد قالها هو نفسه هو كتبت فيما بعد . إن على هذه الأمثال مسحة من الأدب المصرى والفلسفة اليونانية ، ولعلها جمعت فى القرن الثالث أو الثانى قبل الميلاد ، ولعل جامعها يهودى متأغرق من أهل الإسكندرية .

هذا الفيلسوف لا يطيق الإسراف فى الطمع : « المستعجل إلى الغنى لا يبرأ » ، و « راحة الجهال[٢٢٥] تبيدهم » والعمل هو الحكمة ، أما الكلام فحمق وسخف : « فى كل تعب منفعة ، وكلام الشفتين إنما هو إلى الفقر » . . . « الجاهل يظهر كل عبطه ، والحكيم يسكنه أخيراً » « ذو المعرفة يبقى كلامه وذو الفهم وقور الروح ، بل الأحمق إذا سكت يحسب حكيما ومن ضم شفتيه فهيما[٢٢٦] » .

ومن النصائح التى لا ينفك ذلك الحكيم يرددها حكمة تكاد تنطبق ألفاظها على وصف سقراط للفضيلة والحكمة ، تفوح بعطر مدارس الإسكندرية حيث كان علم اللاهوت العبرى يمتزج بالفلسفة اليونانية لتخرج لنا من مزيجهما العقلية الأوربية : « الفطنة ينبوع حياة لصاحبها ، وتأديب الحمقى حماقة . . . طوبى للإنسان الذى يجد الحكمة وللرجل الذى ينال الفهم ، لأن تجارتها خير من تجارة الفضة ، وربحها خير من الذهب الخالص ، هى أثمن من اللآلئ وكل جواهرك لا تساويها ، فى يمينها طول أيامك وفى يسارها الغنى والمجد ، طرقها طرق نعم ، وكل مسالكها سلام[٢٢٧] » .

وسفر أيوب أسهل من سفر الأمثال ؛ ولعل ذلك السفر قد كتب فى أيام السبى ، ولعله يصف بطريق القياس الأسر البابلى(*) ويقول فيه كارليل وهو

(*) ويظن العلماء أن هذا السفر قد كتب فى القرن الخامس قبل الميلاد[٢٢٨] . ونصوصه أكثر تهويشا حتى من الكتب المقدسة فى أية أمة من الأمم القديمة . ويرفض چاسترو هذه النصوص كلها ما عدا الفصول ٣ – ٣١ ، ويرى أن ما بقى من الفصول تعديلات أدخلت عليها لتدعيمها ، وحتى الفصول التى يقبلها يظن أن فيها عبارات ليست منها قد أقحمت فيها إقحاما ، وأن بعض العبارات الأصلية قد أسيئت ترجمتها . من ذلك ما جاء فى الآية الخامسة من الفصل الثالث عشر : « هو ذا يقتلنى فهذا يعود إلى خلاصى » (الأصحاح ١٣ : ١٥) فهذه الآية تجب أن تترجم هكذا : « ولكنى لا أرتجف » أو « ولكنى لا أرجو شيئاً »[٢٢٩] [ونص الآيات كاملا هو : « هو ذا يقتلنى ، لا أنتظر شيئاً ، فقط أزكى طريقى قدامه ، فهذا يعود إلى خلاصى » (المترجم)]

ويرى كلن وغيره فى هذا السفر ما يشبه إحدى المآسى اليونانية التى كتبت على نمط مآسى يوربديز[٢٣٠] . والفصول المحصورة بين ٣ ، ٤١ مصوغة على أوزان الشعر العبرى .

من أشد الناس تحمساً له : « وأنا أقول عنه إنه من أعظم ما خط بالقلم . . . فهو كتاب نبيل ؛ وهو كتاب الناس أجمعين ! وهو أول وأقدم شرح لتلك المشكلة التي لا آخر لها — مشكلة مصير الإنسان وتصرف الله معه على ظهر هذه الأرض . . . واعتقادى أن لا شيء فى التوراة أو فى غير التوراة يضارعه فى قيمته الأدبية[٢٣٠] » وقد قامت هذه المشكلة بسبب اهتمام العبرانيين بأمور هذه الدنيا . ذلك أنه لما كانت الجنة لا وجود لها فى الديانة اليهودية القديمة[٢٣١] فقد كان من الواجب المحتم أن تنال الفضيلة ثوابها فى هذا العالم ، وإلا لم يكن لها ثواب على الإطلاق . ولكنهم كثيراً ما كان يبدو لهم أن الأشرار ينجحون ويفوزون ، وأن أشد الآلام قد اختص بها خيار الناس ، فلم إذن كما يقول كاتب المزامير : « هؤلاء هم الأشرار يكثرون ثروة[٢٣٢] » ؟ ولِمَ يخفى الله نفسه ولا يعاقب الأشرار ويثيب الأخيار ؟[٢٣٣] ؛ وها هو ذا مؤلف سفر أيوب يسأل هذه الأمثلة وهو أكثر ممن سبقه عزماً وثباتاً ولعله يعرض بطله أمام الناس رمزاً لعقيدته . ولقد كان بنو إسرائيل كلهم يعبدون يهوه (فى فترات متقطعة) كما كان يعبده أيوب ؛ وكانت بابل تجحده وتكفر به ؛ ومع ذلك فقد ازدهرت بابل ، وتمرغ بنو إسرائيل فى الوحل ، ولبسوا الخيش حين أسروا وشردوا . فماذا يقول الإنسان فى هذا الإله ؟

وجاء فى مقدمة هذا السفر ، لعل كاتباً أريباً قد دسها فيه ليمحو منه تلك الوصمة ، أن الشيطان قال ليهوه إن أيوب إنسان « كامل مستقيم » لأنه رجل محظوظ ؛ فهل يستمسك بتقواه إذا أصابه الضر ؟ فيسمح يهوه للشيطان بأن يصب ألواناً من المصائب على رأس أيوب . ويظل البطل وقتاً ما صابراً « صبر أيوب » ولكن صبره هذا يفارقه فى آخر الأمر ، ويفكر فى الانتحار ، ويلوم ربه أشد اللوم لأنه نبذه وتخلى عنه . ويصر صوفَّر — وقد خرج ليستمتع بآلام صديقه — على أن الله عادل وأنه سيثيب الإنسان الصالح فى هذه الدنيا نفسها ؛ ولكن أيوب يقطع عليه حديثه محتداً :

« إنكم أنتم شعب ومعكم تموت الحكمة ، غير أنه لى فهم مثلكم ، لست أنا دونكم ، ومن ليس عنده مثل هذه ! . . . خيام المُخَرِّبين مستريحة والذين يغيظون الله مطمئنون ؛ الذين يأتون بإلههم فى يدهم . . . هذا كله رأته عينى ، سمعته أذنى وفطنت به . . . أما أنتم فلفقو كذب أطباء بطالون كلكم . ليتكم تصمتون صمتاً ، يكون ذلك لكم حكمة(٢٣٤) » .

ثم يفكر فى قصر الحياة وطول الموت فيقول :

« الإنسان مولود المرأة قليل الأيام وشبعان تعباً ، يخرج كالزهر ثم ينحسم ، ويبرح كالظل ولا يقف . . . . لأن للشجرة رجاء إن قطعت تخلف ولا تعدم خراعيبها . . . أما الرجل فيموت ويبلى ؛ الإنسان يسلم الروح فأين هو ؟ قد تنفد المياه من البحر ، والنهر ينشف ويجف ، والإنسان يضطجع ولا يقوم . . . إن مات رجل أفيحيا ! »(٢٣٥) .

ويظل الجدل قائماً بشدة ، ويزداد شك أيوب فى ربه ، حتى يدعوه خصيمه ، ويتمنى أن يهلك خصمه هذا نفسه بكتاب يكتبه — على نمط فلسفة ليبنتز Leibnitz وأقواله فى العدالة الإلهية . وتوحى العبارة التى جاءت فى ختام هذا الفصل « تمت أقوال أيوب » — بأن هذا كان فى الأصل ختام حديث يمثل كما يمثل سفر الجامعة آراء أقلية جاحدة بين اليهود(*) . ولكن فيلسوفاً آخر — إليهو — يبدأ الكلام من هذه النقطة ويشرح فى مائة وخمس وستين آية عدالة الله فى خلقه . وأخيراً يُسمع صوت من بين السحاب يتحدث حديثاً هو أجل ما فى التوراة كلها .

(*) يقول رينان وهو الفيلسوف المتشكك : « إن المتشكك لا يكتب إلا قليلا ، ثم إن كتاباته نفسها كثيرة التعرض للضياع . ولما كانت مصاير اليهود مرتبطة كل الارتباط بالدين فقد كان لابد من التضحية بالقسم الدنيوى من أدبهم »(٢٣٦) . وإن فى تكرار هذه العبارة : « قال الجاهل فى قلبه ليس إله » فى المزمورين (١٤ : ١ ، ٥٣ : ١) ليدل على أن هؤلاء الجهال كانوا من الكثرة بين بنى إسرائيل بحيث يثيرون بعض المتاعب . ويلوح أن ثمة إشارة إلى هذه الأقلية فى صفنيا ١ : ١٢ .

فأجاب الرب أيوب من العاصفة وقال :

« من هذا الذى يظلم القضاء بكلام بلا معرفة . اشدد الآن حقويك كرجل فإنى أسألك فتعلمنى . أين كنت حين أسستُ الأرض . أخبر إن كان عندك فهم من وضع قياسها ، لأنك تعلم ؟ أو من مد عليها مطماراً ؟ على أى شىء قرت قواعدها ؟ أو من وضع حجر زاويتها ، عند ما ترنمت كواكب الصبح معاً وهتف جميع بنى الله ؟ ومن حجز البحر بمصاريع حين اندفق فخرج من الرحم ، إذ جعلت السحاب لباسه والضباب قماطه وضربتُ عليه حدى ، وأقمت له مغاليق ومصاريع وقلت إلى هنا تأتى ولا تتعدى وهنا تتخم كبرياء لججك ؟ هل فى أيامك أمرت الصبح ؟ هل عرفت الفجر موضعه ؟ . . . هل انتهيت إلى ينابيع البحر أو فى مقصورة القمر تمشيت ؟ هل انكشفت لك أبواب الموت أو عاينت أبواب ظل الموت ؟ هل أدركت عرض الأرض ؟ أخبر إن عرفته كله ؟ . . . أدخلت إلى خزائن الثلج أم أبصرت مخازن البرد ! . . . هل تربط أنت عقد الثريا أو تفك رُبُط الجبار ؟ هل عرفت سنن السموات أو جعلت تسلطها على الأرض ؟ ... من وضع فى الضحاء حكمة أو من أظهر فى الشهب فطنة ؟

« هل يخاصم القـديرَ موبخهُ ، أم المحاج الله يجاوبه ؟ أسألك فتعلمنى (٢٣٧) » .

ويذل أيوب نفسه لهول ما يرى ؛ ويرضى يهوه بهذا فيعفو عنه ، ويقبل تضحيته ؛ وتتوعد أصدقاء أيوب لما نطقوا به من حجج واهية(٢٣٨) ، ويهب أيوبَ نفسَه أربعة عشر ألفاً من الغنم ، وستة آلاف من الإبل وألف فدان من الثيران ، وألف أتان ، وسبعة بنين ، وثلاث بنات ، وعاش بعد هذا مائة عام وأربعين سنة . وتلك خاتمة عرجاء ولكنها خاتمة سعيدة ؛ لأن أيوب يحصل على كل شىء إلا جواب أسئلته ؛ فالمشكلة تظل باقية ؛ وسوف تكون لها آثار بعيدة فى تفكير اليهود فيما بعد . ففى أيام دانيال (حوالى ١٦٧ ق . م) سكت يهودعن هذه المشكلة وعدوها من المشاكل التى شرحها

بعبارات تدركها العقول فى هذه الحياة الدنيوية ، ولا يستطاع الإجابة عنها – كما يقول دانيال وأخنوخ و (كانت Kant) إلا إذا آمن الإنسان بحياة بعد الممات ، ترفع فيها كل المظالم ، وتصحح كل الأخطاء ، يعاقب فيها المسىء ، ويثاب المحسن أجزل الثواب . وكانت هذه إحدى الأفكار المختلفة التى سرت فى المسيحية ، وكانت من أكبر الأسباب انتصارها على غيرها من الأديان المعاصرة لها .

ويجيب سفر الجامعة عن هذه المسألة جواباً متشائماً ، فيقول إن الهناءة والشقاء فى هذا العالم لا شأن لها بالفضيلة والرذيلة(*) .

« قد رأيت الكل فى أيام بُطْلى ، قد يكون بارٌّ يبيد فى برّه ، وقد يكون شرير يطول فى شره . . . ثم رجعت ورأيت كل المظالم التى تجرى تحت الشمس : فهو ذا دموع المظلومين ولا مقر لهم ، ومن يد ظالميهم قهر . . . إن رأيت ظلم الفقير ونزع الحق والعدل فى البلاد فلا ترتع من الأمر . . . لأن فوق العالى عالياً[٢٤١] .

وليست الفضيلة والرذيلة هما اللتين تقوم عليهما سعادة الإنسان وشقاوه ، وإنما تقوم السعادة والشقاء على المصادفة العمياء : « فعدت ورأيت تحت الشمس أن السعى ليس للخفيف ، ولا الحرب للأقوياء ، ولا الخبز للحكماء ، ولا الغنى للفهماء ، ولا النعمة لذوى المعرفة ، لأن الوقت والفُرَص يلاقيانهم كافة[٢٤٢] » . وحتى الثروة نفسها لا بقاء لها ولا تسعد صاحبها طويلا : « من يحب الفضة لا يشبع من الفضة ، ومن يحب الثروة لا يشبع من دخل . هذا أيضاً باطل . . . نوم المشتغل حلو إن أكل قليلا أو كثيراً . ووفر الغنى لا يريحه حتى ينام[٢٤٣] » . ويذكر الكاتب أهله فيجمع مبادئ مالتس Maltus فى سطر واحد : « إذا كثرت الخيرات كثر الذين يأكلونها[٢٤٤] » . كذلك لا يخفف من آلامه ما يقال

(*) لا يعرف مؤلف هذا السفر ولا وقت تأليفه . ويرجعه سارتن إلى الفترة الواقعة ما بين عامى ٢٥٠ ، ١٦٨ ق . م[٢٣٩] . ويطلق المؤلف نفسه اسمين أدبيين مستعارين يخلط بينهما وهما « كحيلة » و « ابن داود ملك أورشليم » أى سليمان[٢٤٠] .

له عن ماض ذهبي أومستقبل هنيء ، فهو يرى أن الأمور جميعها كانت فى ماضيها كما هى فى حاضرها وكما ستكون فى مستقبلها على الدوام : « لا تقل لماذا كانت الأيام الأولى خيراً من هذه ؟ لأنه ليس عن حكمة تسأل عن هذا[٢٤٥] » ، ومن واجب الإنسان أن يعنى باختيار مؤرخيه : « ما كان فهو ما يكون ؛ والذى صُنع فهو الذى يُصنع . فليس تحت الشمس جديد . إن وجد شىء يقال له انظر ، هذا جديد ، فهو منذ زمان كان فى الدهور التى قبلنا[٢٤٦] » . وهو يظن أن الرقى وهم باطل فالمدنيات القديمة قد نسيت وستنسى أيضاً المدنيات القائمة[٢٤٧] .

وهو يرى أن الحياة بوجه عام عمل محزن . وأن لا ضير من التخلص منها ، فهى حركة دائرية لا غاية لها ولا هدف ولا نتيجة باقية ، تنتهى حيث تبدأ ؛ وهى صراع عقيم باطل ليس فيه شىء محقق إلا الهزيمة :

« باطل الأباطيل قال الجامعة ؛ باطل الأباطيل الكل باطل . ما الفائدة للإنسان من كل تعبه الذى يتعبه تحت الشمس ، دور يمضى ودور يجىء ، والأرض قائمة إلى الأبد ، والشمس تشرق ، والشمس تغرب ، وتسرع إلى موضعها حيث تشرق . الريح تذهب إلى الجنوب وتدور إلى الشمال ، تذهب دائرة دوراناً ، وإلى مداراتها ترجع الريح . كل الأنهار تجرى إلى البحر ، والبحر ليس بملآن . إلى المكان الذى جرت منه الأنهار ، إلى هناك تذهب راجعة . . . فغبطت أنا الأموات الذين قد ماتوا منذ زمان أكثر من الأحياء الذين هم عائشون بعد . وخير من كليهما الذى لم يولد بعد ، الذى لم ير العمل الردىء الذى عمل تحت الشمس . . . الصيت خير من الدهن الطيب ، ويوم الممات خير من يوم الولادة[٢٤٨] » .

وهو يقضى بعض الوقت يبحث عن حل للغز الحياة فى الانغماس فى الملذات . « فمدحت الفَرَح لأنه ليس للإنسان خير تحت الشمس إلا أن يأكل ويشرب ويفرح » . ولكن « هذا أيضاً باطل » . والصعوبة التى تواجهنا فى مسراتنا هى المرأة ، ويلوح أن الواعظ قد لاقى منها شراً لم يستطع نسيانه . « رجلا واحداً

بين ألف وجدت ، أما امرأة فبين كل أولئك لم أجد . . . فوجدت أمر من الموت المرأة التي هى شباك ، وقلبها أشراك ويداها قيود ، الصالح قدام الله ينجو منها[٢٥١] » . وهو يختم استطراده فى دنيا الفلسفة الغامضة بالعودة إلى نصيحة سليمان وڤنتير ، وعلى النصيحة التى لم يعمل بها كلاهما : « التذ عيشاً مع المرأة التى أحببتها كل أيام حياة باطلك التى أعطاك إياها تحت الشمس[٢٥٢] » .

وحتى الحكمة نفسها مسألة مشكوك فيها ، فهو يكيل لها المدح جزافاً ، ولكنه يظن أن العلم إذا لم يكن بالقدر القليل كان بالغ الخطورة ، فهويقول فى غير حذر ، « لعمل كتب كثيرة لا نهاية ، والدرس الكثير تعب للجسد[٢٥٣] » . وفى رأيه أنه قد يكون من الحكمة أن يسعى الإنسان للحكمة لو أن الله قد جعلها تثمر مالا أكثر مما تثمره فعلا : « الحكمة صالحة مثل الميراث بل أفضل لناظرى الشمس »(*) . فإذا لم يصحبها المال كانت شركا يقضى على طلابها[٢٥٤] . (إن الحكمة شبيهة بيهوه الذى قال لموسى : « لا تقدر أن ترى وجهى لأن الإنسان لا يرانى ويعيش(**)[٢٥٥] ») . والحكيم يموت آخر الأمر كما يموت الأبله وكلاهما ينتهى إلى جيفة نتنة .

ووجهت قلبى للسؤال والتفتيش بالحكمة عن كل ما عمل تحت السموات هو عناء ردىء جعلها الله لبنى البشر ليعنوا فيه . رأيت كل الأعمال التى عملت تحت الشمس فإذا الكل باطل وقبض الريح . . . أنا ناجيت قلبى قائلا هأنذا قد عظمت وازددت حكمة أكثر من كل من كان قبلى على أورشليم ، وقد رأى قلبى كثيراً من الحكمة والمعرفة ؛ ووجهت قلبى لمعرفة الحكمة ولمعرفة الحماقة والجهل :

(*) هذا هو النص فى الترجمة العربية للكتاب المقدس ، ولكن معنى النص الإنجليزى الذى أورده المؤلف : « الحكمة صالحة مع الميراث » . (المترجم)

(**) " رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى " قرآن كريم .

فعرفت أن هذا أيضاً قبض الريح ، لأن فى كثرة الحكمة كثرة الغم ، والذى يزيد علما يزيد حزناً[٢٥٦] »

ولو أنه كان من مبادئ هذا الدين أن الرجل العادل يستطيع أن يتطلع إلى شيء من السعادة بعد الموت لكان فى مقدوره أن يتحمل سهام مصائب الدهر وقلبه عامر بالأمل والشجاعة ؛ ولكن كاتب سفر الجامعة « يحس » بأن هذا أيضاً وهم باطل ، فالإنسان حيوان يموت كما يموت غيره من الحيوانات :

« لأن ما يحدث لبنى البشر يحدث للبهيمة ، وحادثة واحدة لهم ، موت هذا كموت ذاك ، ونسمة واحدة للكل ، فليس للإنسان مزية على البهيمة لأن كليهما باطل . يذهب كلاهما إلى مكان واحد ؛ كان كلاهما من التراب وإلى التراب يعود كلاهما ؛ . . فرأيت أنه لا شيء خير من أن يفرح الإنسان بأعماله لأن ذلك نصيبه ، لأنه من يأتى به ليرى ما سيكون بعده ؟ . . . كل ما تجده يدك لتفعله فافعله بقوتك لأنه ليس من عمل ولا اختراع ولا معرفة ولا حكمة فى الهاوية التى أنت ذاهب إليها[٢٥٧] » ؛

ألا ما أغرب هذا تعليقاً على الحكمة التى يسبِّح بحمدها سفر الأمثال ! ولا شك فى أن هذه الأقوال إنما تعبر عن الحضارة التى بلغت آخر مراحلها ، فلقد نضب معين شباب إسرائيل فى الكفاح المرير الذى قام بينها وبين الإمبراطوريات المحيطة بها ، والتى لم ينقذها منها يهوه الذى كانت تعتقد على معونته ، فلما تأزمت أمورها وافتقرت وتشتتت رفعت إلى السماء فى آدابها هذا الصوت وهو أشد الأصوات مرارة لتعبر به عن أعمق الشكوك التى طافت فى يوم من الأيام بالنفس البشرية .

نعم إن أورشليم قد أعيد بناؤها ، ولكنها لم تعد لتكون حصناً لإله لا يقهر ، بل عادت لتكون مدينة تخضع للفرس حيناً ولليونان حيناً آخر . فقد وقف الإسكندر الشاب على أبوابها فى عام ٣٣٤ ق . م ، وطلب إلى تلك العاصمة أن

تستسلم له . وأبى الكاهن الأكبر فى أول الأمر أن يجيبه إلى ما طلب ، ولكنه صدع بالأمر فى صباح اليوم الثانى على أثر حلم رآه فى نومه . فأمر الكهنة أن يرتدوا من ملابسهم أعظمها روعة وأشدها وقعاً فى النفوس ، كما أمر الأهلين أن يلبسوا ثياباً بيضاً لا شية فيها ، ثم سار على رأس الشعب إلى خارج أبواب المدينة فى هدوء وسلام ليعرضوا الصلح على الغازين . وانحنى الإسكندر تعظيما للكاهن الأكبر وأظهر إعجابه ببنى إسرائيل وبإلههم وتقبل منهم أورشليم(٢٥٨) .

على أن هذا لم يكن آخر حياة بلاد اليهود ، بل كان هو الفصل الأول من هذه المسرحية العجيبة التى تمتد فصولها المختلفة طوال أربعين قرناً من الزمان ، والتى تدور حوادث فصلها الثانى حول المسيح ، وحوادث الفصل الثالث حول أحاسوروس . واليوم يمثل من هذه المسرحية فصل آخر ولكنه ليس آخر فصولها . لقد خربت أورشليم وأعيد بناؤها ، ثم خربت وأعيد بناؤها من جديد .

الباب الثالث عشر

فارس

الفصل الأول

قيام دولة الميديين وسقوطها(*)

أصولهم – حكامهم – معاهدة سرديس الدموية – انحطاطهم

ترى من هم الميديون الذين كان لهم شأن أيما شأن في تحطيم دولة أشور . أما معرفة أصلهم فأمر معجز الدرك عزيز المطلب ، ذلك أن التاريخ كتاب يجب أن يبدأه الإنسان من وسطه . وأول ما وصل إلينا من أخبارهم فى لوحة تسجل حملة بعث بها شلما نصر الثالث إلى بلد يسمى پارسوا فى جبال كردستان (٨٣٧ ق . م) . ويلوح أنه كان في ذلك البلد سبعة وعشرون من الرؤساء – الملوك ، يحكمون سبعاً وعشرين ولاية قليلة السكان يسمى أهلها أماداى أو ماداى أو ميديين . وهم أقوام من الجنس الهندوربنّى يرجح أنهم جاءوا من شواطئ بحر الخزر إلى غربى آسية قبل المسيح بنحو ألف عام ، ويشيد الزند – أبستاق وهو كتاب الفرس المقدس بذكر هذا الموطن القديم ويصفه بأنه جنة من الجنان .

ذلك أن الأرض التي نقضى فيها شبابنا ، وأيامَ هذا الشباب نفسه ، جميلة على الدوام على شريطة ألا نضطر إلى الحياة من جديد فى تلك الأرض أو فى تلك الأيام.

(*) تسمى أحياناً دولة الماديين وقد ذكرت فى التوراة بهذا الاسم . (المترجم)

ويلوح أن الميديين كانوا يضربون فى إقليم بخارى وسمرقند ، وأنهم توغلوا منه نحو الجنوب شيئاً فشيئاً ، حتى وصلوا آخر الأمر إلى بلاد فارس[1] ، فوجدوا النحاس والحديد والرصاص والذهب والفضة والرخام والحجارة الكريمة فى الجبال التى اتخذوها موطناً لهم جديداً[2] ، ولما كانوا قوماً أشداء بسطاء فى معيشتهم ، فقد أخذوا يفلحون أرض السهول وسفوح التلال وعاشوا منها عيشة رخيَّة .

وفى إكباتانا(*) أى « ملتقى الطرق الكثيرة » الواقعة فى واد جميل المنظر أخصبته المياه الذائبة من الثلوج المغطية لقلل الجبال أنشأ ديوسيس أول ملوكهم عاصمته الأولى ، وزينها بقصر ملكى يشرف عليها ويغطى ثلثى ميل مربع من الأرض . ويقول هيرودوت فى فقرة من كتابه لم تجد ما يؤيدها : إن ديوسيس هذا قد وصل إلى ما وصل إليه من القوة بما اشتهر به من العدالة . فلما أن بلغ ما بلغ طغى وتجبر وأصدر أوامر تقضى « بأن لا يسمح لإنسان بالمثول بين يديه ، بل عليه أن يعرض أمره على يد رسله ، وأن يعد من سوء الأدب أن يضحك إنسان أو يبصق أمامه . وقد أراد بهذه المراسم التى فرضها حوله . . . أن يبدو لمن لا يرونه أنه من طبيعة غير طبيعتهم[3] » . واشتد ساعد الميديين فى أيامه بفضل حياتهم الطبيعية الاقتصادية ، وأصبحوا بتأثير عاداتهم وبيئتهم ذوى جلد وصبر على ضرورات الحروب ، فكانوا بزعامته خطراً يهدد أشور ، فأغارت هذه على بلاد ميديا مرة بعد مرة ، وظنت أنها قد هزمتها هزيمة منكرة لا تجرؤ معها على مناوأتها ولكنها وجدتها لا تمل الكفاح لنيل حريتها . واستطاع سياخار (سياكزارس) أعظم ملوك الميديين أن يحسم هذا النزاع بتدمير نينوى . وأوحى هذا النصر آمالا كباراً فاجتاحت جيوشه بلاد آسية الغربية حتى وصلت إلى أبواب سرديس ، ولم يرد هذه الجيوش عنها إلا كسوف الشمس . فقد ارتاع القائدان المتقاتلان لهذا الذى ظناه نذيراً لهما من السماء ، فوقعا معاهدة للصلح أبرماها بأن شرب كل

(*) والراجح أنها مدينة همذان الحالية .

منهما جرعة من دماء عدوه(٤) . ومات كيخسرو فى السنة التالية بعد أن وسع رقعة دولته فى خلال حكمه وحده فأصبحت إمبراطورية تشمل أشور وميديا وفارس بعد أن كانت ولاية خاضعة لسلطان غيرها . لكن هذه الإمبراطورية قضى عليها ولما يمض على وفاة هذا الملك جيل واحد .

وقد كانت هذه الدولة قصيرة الأجل ، فلم تستطع لهذا السبب أن تسهم فى الحضارة بقسط كبير ، إذا استثنينا ما قامت به من تمهيد السبيل إلى ثقافة بلاد الفرس . فقد أخذ الفرس عن الميديين لغتهم الآرية . وحروفهم الهجائية التى تبلغ عدتها ستة وثلاثين ، وهم الذين جعلوا الفرس يستبدلون فى الكتابة الرق والأقلام بألواح الطين(٥) ، ويستخدمون فى العمارة العمد على نطاق واسع . وعنهم أخذوا قانونهم الأخلاقى الذى يوصيهم بالاقتصاد وحسن التدبير ما أمكنهم فى وقت السلم ، وبالشجاعة التى لا حد لها فى زمن الحرب ؛ ودين زردشت وإلهيه أهورا — مزدا ، وأهرمان ، ونظام الأسرة الأبوى ، وتعدد الزوجات ، وطائفة من القوانين بينها وبين قوانينهم فى عهد إمبراطوريتهم المتأخر من التماثل ما جعل دانيال يجمع بينهما فى قوله المأثور عن « شريعة ميدى وفارس التى لا تنسخ »(٦) . أما أدبهم وفنهم فلم يبق منهما لا حرف ولا حجر .

على أن انحطاط الميديين كان أسرع من نهضتهم نفسها . فقد أثبت استياجس ، الذى خلف أباه سياخار ، ما أثبته التاريخ من قبل ، وهو أن الملكية مغامرة لا تؤمن مغبتها ، وأن الذكاء المفرط والجنون يتقاربان كل القرب فى وراثة المُلك .

لقد ورث المُلك وهو مطمئن القلب هادئ البال ، وأخذ يستمتع بما ورث ، وحذت الأمة حذو مليكها فنسيت أخلاقها الجافة الشديدة وأساليب حياتها الخشنة الصارمة . ذلك أن الثروة قد أسرعت إليها إسراعاً لم يستطع أهلها معه أن يحسنوا استخدامها ، وأصبحت الطبقات العليا أسيرة الأنماط الحديثة والحياة المترفة ،

فلبس الرجال السراويل المطرزة الموشاة ، وتجملت النساء بالأصباغ والحلى ؛ بل إن الخيل نفسها كثيراً ما كانت تزين بالذهب[7] . وبعد أن كان هؤلاء الرعاة البسطاء يجدون السرور كل السرور فى أن تحملهم مركبات بدائية ذات دواليب خشنة غليظة قطعت من سوق الأشجار[8] ، أصبحوا الآن يركبون عربات فاخرة عظيمة الكلفة ينتقلون بها من وليمة إلى وليمة .

وبعد أن كان الملوك الأولون يفخرون بعدالتهم جاء استياجس فغضب يوماً على هرباجس فقدم له أشلاء ابنه بعد أن قطع رأسه وأرغمه على أن يأكل لحمه[9] ، فأكله هرباجس وهو يقول إن كل ما يفعله المليك يسره ، ولكنه انتقم لنفسه بأن أعان قورش على خلع استياجس ؛ ذلك أن قورش الشاب النابه حاكم ولاية أنشان الفارسية التى كانت تابعة للميديين خرج على طاغية إكتابانا المخنث ، وابتهج الميديون أنفسهم بانتصاره على ذلك الطاغية وارتضوه ملكاً عليهم ، ولم يكد يرتفع من بينهم صوت واحد بالاحتجاج عليه ، وما هى إلا واقعة واحدة حتى انقلبت الآية فلم تعد ميديا سيدة فارس بل أصبحت فارس سيدة ميديا وأخذت تعد العدة لتكون سيدة عالم الشرق الأدنى كله .

الفصل الثانى

عظماء الملوك

قورش صاحب الشخصية الروائية – خططه السياسة المستنيرة –
قمبيز – دارا الأكبر – غزو بلاد اليونان

وكان قورش من الحكام الذين خُلِقوا ليكونوا حكاماً والذين يقول فيهم إمرسن إن الناس كلهم يبتهجون حين يتوّجون . فلقد كان ملكا بحق فى روحه وأعماله ، قديراً فى الأعمال الإدارية والفتوح الخاطفة المسرحية ، كريماً فى معاملة المغلوبين ، محبوباً من أعدائه السابقين – فلا عجب والحالة هذه أن يتخذ منه اليونان موضوعاً لعدة روايات ، وأن يصفوه بأنه أكبر أبطال العالم قبل الإسكندر .

ومما يؤسفنا أننا لا نستطيع أن نرسم له صورة موثوقاً بصحتها مما نقرره عنه فى هيرودوت أو أكسنوفون . ذلك بأن أول الرجلين قد خلط تاريخه بكثير من القصص الخرافية[10] ، وأن الثانى قد جعل القيروبيديا (سيرته) مقاله عن فنون الحرب تتخللها فى بعض المواضع محاضرات فى التربية والفلسفة ؛ ونرى أكسنوفون أحياناً يخلط بين قورش وسقراط . فإذا ما أخرجنا هذه الأقاصيص لم يبق لنا من شخصية قورش إلا أنه طيف خيال ممتع جذاب . وكل ما نستطيع أن نقوله عنه واثقين أنه كان وسيما بهى الطلعة – لأن الفرس اتخذوه نموذجاً لجمال الجسم حتى آخر أيام فنهم القديم[11] ؛ وأنه أسس الأسرة الأكمينية أسرة « الملوك العظام » التى حكمت بلاد الفرس فى أزهى أيامها وأعظمها شهرة ، وأنه نظم قوات ميديا وفارس الحربية فجعل منها جيشاً قويا لا يقهر ، وأنه استولى على سرديس وبابل ، وقضى على حكم الساميين فى غربى آسية فلم تقم بعدئذ قائمة ، مدى

ألف عام كاملة ، وضم إلى الدولة الفارسية كل البلاد التى كانت من قبل تحت سلطان أشور ، وبابل ، وليديا ، وآسية الصغرى ، حتى أصبحت تلك الإمبراطورية أوسع المنظمات السياسية فى العالم القديم قبل الدولة الرومانية ، ومن أحسنها حكما فى جميع عصور التاريخ .

ويبدو — على ما نستطيع أن نصوره فيما يحيط به من سُدُم الأساطير والأوهام — أنه كان أحب الفاتحين إلى النفوس ، وأنه أقام دولته على قواعد من النبل وكريم السجايا ، وأن أعداءه كانوا يعرفون عنه لين الجانب فلم يحاربوه بتلك القوة المستيئسة التى يحارب بها الرجال حين لا يجدون بدًا من أن يقتلوا أو يُقتَلوا . ولقد مر بنا من قبل — على ما يرويه هيرودوت — كيف أنجى كروسس من الحطب المحرق الذى وضع عليه فى سرديس ، وكيف أكرمه وجعله من أعظم مستشاريه ، ومر بنا كذلك كرمه وحسن معاملته اليهود . وكانت أولى القواعد السياسية التى تقوم عليها دولته أن يترك الشعوب المختلفة التى تتألف منها حرية العبادة والعقيدة الدينية ، لأنه كان عليما كل العلم بالمبدإ الأول الذى يبنى عليه حكم الشعوب ، وهو أن الدين أقوى من الدولة ؛ ومن أجل ذلك لا نراه ينهب المدن ويخرب المعابد ، بل نراه يبدى كثيراً من الإكبار والمجاملة لآلهة الشعوب المغلوبة ، ويسهم بماله فى المحافظة على أضرحتها ؛ بل إن البابليين أنفسهم ، وهم الذين قاوموه طويلا ، قد التفوا حوله وتحمسوا له حين رأوه يحافظ على هياكلهم ويعظم آلهتهم . وكان أينما سار فى فتوحه التى لم يسبقه إليها فاتح من قبله قرب القرابين إلى الآلهة المحلية فى تقى وورع . وكان كنابليون يعترف بالأديان كلها على السواء ، ويفوقه فيما يظهره من بشاشة وكياسة وهو يكرم جميع الآلهة .

وهو يشبه نابليون من ناحية أخرى ، وهى أنه مات ضحية الإسراف فى المطامع . ذلك أنه لما فرغ من فتح الشرق الأدنى بأجمعه وضمه إلى ملكه ،

أراد أن يحرر ميديا وفارس من غزو البدو الهمج الضاربين فى أواسط آسية ، ويلوح أنه أوغل فى حملاته حتى وصل إلى ضفاف نهر جيحون شمالا وإلى الهند شرقاً ، فلما وصل إلى ذروة مجده قتل فجأة وهو يحارب المسجيتة إحدى القبائل المجهولة التى كانت نازلة على السواحل الجنوبية لبحر الخزر ، فكان كالإسكندر افتتح إمبراطورية متسعة الرقعة ولكن المنية عاجلته قبل أن ينظمها ، لكن أخلاق قورش قد شابتها شائبة كبيرة ، تلك هى قسوته المفرطة فى بعض الأحيان .

وجاء بعده ابنه قمبيز وكان به شبه جنة فورث عن أبيه قوته وإن لم يرث عنه شيئاً من كرمه . وبدأ قمبيز حكمه بأن قتل أخاه سمرديس منافسه فى الملك ، ثم أغوته ثروة مصر الطائلة فزحف عليها ليمد حدود الإمبراطورية الفارسية إلى نهر النيل . وأفلح فيما كان يبتغيه ، ولكنه على ما يظهر أضاع فى سبيل ذلك رشده . ولم يكلفه الاستيلاء على منف كبير مشقة ، ولكن الجيش الذى أرسله للاستيلاء على واحة أمون هلك فى الصحراء ، كما أخفقت حملة سيرها إلى قرطاجنة لأن بحارة الأسطول الفارسى الفينيقيين أبوا أن يهاجموا مستعمرة فينيقية ، وجن جنون قمبيز ، فذهبت عنه حكمة أبيه ، وما كان يتصف به من رحمة وتسامح ، فأخذ يسخر من دين المصريين ، وطعن بخنجره العجل أبيس معبودهم وموضع إجلالهم وتقديسهم وهو يستهزئ به ، ولم يكفه هذا ، بل أخرج الجثث المحنطة من مدافنها ونبش قبور الملوك ولم يبال فى ذلك بما كان عليها من لعنات قديمة ، ودنس الهياكل وأمر بإحراق ما فيها من الأصنام ، ظناً منه أن عمله هذا سوف يشفى المصريين من خرافاتهم وأوهامهم ، فلما انتابه المرض — ويلوح أن مرضه كان نوبات صرع تشنجية — لم يبق لدى المصريين شك فى أن مرضه إنما هو عقاب حل به من قبل آلهتهم ، وأن دينهم لم يبق فيه بعدئذ ريبة لمرتاب . وكأن قمبيز أراد أن يبرهن مرة أخرى على مساوئ الملكية المطلقة ، ففعل ما فعله

نابليون فى بعض ساعات امتعاضه ، إذ أعدم ركسانا أخته وزوجته ، وقتل ابنه بركسسبيس بسهم من قوسه ، ودفن اثنى عشر من أعيان الفرس أحياء ، وقضى بإعدام كروسس ، ثم ندم على ما فعل ، وسر حين علم أن حكمه لم ينفذ ، ثم عاقب الموظفين الذين تأخروا عن تنفيذه[12] . وعلم وهو عائد إلى بلاده أن مغتصباً قد استولى على عرش فارس ، وأن ثورة صماء اندلع لهيبها طول البلاد وعرضها لتأييده . ومن هذه اللحظة يختفى قبيز من التاريخ ، وفى بعض الروايات أنه انتحر[13] .

وكان المغتصب قد ادعى أنه سمرديس ، وأنه نجا بإحدى المعجزات من حسد أخيه قبيز واعتزامه قتله . أما الحقيقة فإنه كان أحد رجال الدين المتعصبين من أتباع المذهب المجوسى القديم ، وكان يعمل جاهداً للقضاء على الزردشتية دين الدولة الفارسية الرسمى ثم شبت فى البلاد ثورة أخرى أطاحت بعرشه . وكان الذين نظموها سبعة من أشراف البلاد اختاروا بعدئذ واحداً منهم هو دارا ابن هشتسبس ورفعوه على العرش . وبهذه الوسيلة الدموية بدأ أعظم ملوك الفرس حكمه .

وكانت وراثة العرش فى الممالك الشرقية تقترن بالفتن فى القصور الملكية تقوم بين المتنازعين على أزمة الحكم ، كما تقترن بالثورات فى المستعمرات الخاضعة لحكمها ، فقد كانت هذه المستعمرات تنتهز فرصة ماينشأ عن الفتن الداخلية من فوضى واضطراب ، أو عن تولى الملك حاكم غير مجرب فتعمل لاسترداد حريتها . وكان اغتصاب الملك فى هذه المرة واغتيال « سمردس » فرصة ثمينة انتهزتها الولايات الخاضعة لفارس ، فخرج عليها حكام مصر وليديا ، وثارت عليها فى وقت واحد سوزانه ، وبابل ، وميديا ، وأشور ، وأرمينية ، وساكيا ، وغيرها من الولايات . ولكن دارا أخضعها جميعاً واستخدم فى إخضاعها منتهى القسوة ، من ذلك أنه لما استولى على مدينة بابل بعد حصار طويل أمر بصلب ثلاثة آلاف من أعيانها ليرهب بذلك بقية الأهلين ويرغمهم على طاعته ، ثم أتبع

ذلك بسلسلة من الوقائع الحربية السريعة « هدأ » بها الولايات الثائرة واحدة بعد واحدة .

ولما رأى أن هذه الإمبراطورية الواسعة قد تتقطع أوصالها إذا حلت بها أزمة من الأزمات ، خلع دروع الحرب ، وأصبح من أعظم الحكام الإداريين وأعلاهم كعباً فى التاريخ كله ، وأخذ يعيد تنظيم ملكه على نسق أصبح مثالا يحتذى فى جميع الإمبراطوريات القديمة إلى سقوط الدولة الرومانية . وبفضل هذا النظام نعمت بلاد غربى آسية بفترة من الطمأنينة والرخاء لم ينعم هذا الصفح المضطرب بمثلها من قبل .

وكان يرجو بعدئذ أن يحكم بلاده فى ظل السلام ، ولكن سنة الأقدار قد جرت على ألا تنقطع الحروب فى الإمبراطوريات ، ذلك بأن الشعوب المقهورة يجب أن يعاد قهرها من آن إلى آن ، وأن الغالبين يجب أن يحافظوا فى شعوبهم على فنون الحرب وعادات المعسكرات وميادين القتال ، وأن الأقدار التى لا تترك شيئاً على حاله قد تتمخض عن إمبراطورية جديدة تتحدى لإمبراطورية القديمة ؛ وتلك ظروف تحتم خلق الحروب إن لم تشتعل نارها من تلقاء نفسها ؛ ولا بد إذن من أن يعوّد كل جيل على احتمال مشاق القتال ، وأن يعلم بالمران كيف يستسيغ الموت فى سبيل الأوطان .

ولعل هذا كان من الأسباب التى حدت بدارا إلى أن يزحف بجيوشه إلى جنوبى الروسيا مجتازاً مضيق البسفور ونهر الدانوب إلى الفلجا ليؤدب السكوذيين الذين كانوا لا ينفكون يغيرون على أطراف الإمبراطورية الفارسية ، وأن يقودها مرة أخرى مخترقاً أفغانستان ، ويجتاز العشرات من سلاسل الجبال حتى يصل إلى وادى نهر السند ، وأن يضم بذلك إلى مملكته أقاليم واسعة الرقعة وآلاف الآلاف من الأنفس والكثير من الأموال . أما حملته على بلاد اليونان فيجب أن نبحث لها عن سبب أقوى من هذا . ويريد هيرودوت أن يحملنا على الاعتقاد بأنه خطا هذه الخطوة

التاريخية الموفقة لأن أتوسا إحدى زوجاته كايدته بها فى فراشه[14] . لكن أكرم من هذا أن نعتقد أن الملك أدرك ما قد تتمخض عنه دويلات المدن اليونانية ومستعمراتها من إمبراطورية أو من حلف يهدد سيادة الفرس على غربى آسية . فلما ثارت أيونا وتلقت العون من إسبارطة وأثينة رضى دارا أن يخوض غمار الحرب وهو كاره لها . والعالم كله يعرف قصة اجتيازه بحر إيجه ، وهزيمة جيشه فى سهل مراثون ، وعودته كسير القلب إلى فارس . وهناك أخذ يستعد استعداداً عظيما ليحاول ضرب اليونان ضربة أخرى ، ولكنه أصيب فى هذه الأثناء بمرض مفاجئ أضعفه وقضى على حياته .

الفصل الثالث

الحياة الفارسية والصناعات

الإمبراطورية – الشعب – اللغة – الزراع –
الطرق الإمبراطورية – التجارة والشئون المالية

كانت الدولة الفارسية حين بلغت أعظم اتساعها فى أيام دارا تشمل عشرين ولاية أو «إمارة» (سترپية) تضم مصر، وفلسطين، وسوريا، وفينيقية، وليديا، وفريجية، وأيونيا، وقبادوش، وقليقية، وأرمينية، وأشور، وقفقاسية، وبابل، وميديا، وفارس، والبلاد المعروفة فى هذه الأيام باسم أفغانستان، وبلوخستان، والقسم الممتد من الهند غرب نهر السند. وسيمديانا، وبكتريا (بلخ)، وأقاليم المسجيتة وغيرهم من قبائل آسية الوسطى. ولم يسجل التاريخ قبل هذه الإمبراطورية أن حكومة واحدة حكمت مثل هذه الرقعة الواسعة من البلاد.

ولم تكن بلاد الفرس فى تلك الأيام، وهى البلاد التى قدر لها أن تحكم هذه الأربعين مليوناً من الأنفس مدى مائتى عام، هى بعينها البلاد المعروفة لنا الآن باسم بلاد فارس، والتى يسميها أهلها بلاد إيران؛ بل كانت هى الإقليم الأصغر المصاقب للخليج الفارسى مباشرة من جهة الشرق؛ والمعروفة لدى الفرس الأقدمين باسم پارش والفرس المحدثين باسم فارس أو فارستان[١٥]. وهذا الإقليم يكاد يكوّن كله صحراوات وجبالا، أنهاره قليلة؛ معرض للبرد القارس والحر الجاف اللافح(*)، ولذلك فإنه لم يكن فيه من الخيرات ما يكفى سكانه البالغ عددهم مليونين من الأنفس[١٧]. إلا إذا استعانوا بما قد يأتيهم من خارج بلادهم عن طريق

(*) يقول استرابون إن حرارة الصيف فى السوس تبلغ من الشدة درجة لا تستطيع معها الأفاعى والسحالى أن تعبر شوارع المدينة بالسرعة التى تكفى لنجاتها من الاحتراق بحرارة الشمس[١٦].

التجارة والفتح. وأهل البلاد الجبليون الأشداء ينتمون كما ينتمى الميديون إلى الجنس الهندوربى ، ولعلهم جاءوا إلى تلك البلاد من جنوبى الروسيا ؛ وتكشف لغتهم ودياناتهم المبكرة عن صلة نسب وثيقة بينهم وبين الآريين الذين عبروا أفغانستان ، وأصبحوا الطبقة الحاكمة فى شمالى الهند. ولقد وصف دارا الأول نفسه فى نقش – رستم بأنه ، فارسى ابن فارسى ، آرى من سلالة آرية » . ويسمى الزردشتيون وطنهم الأول : إيريانا ڤيجو أى « موطن الآريين(**) ، ويطلق استرابون لفظ أريانا على البلاد التى يطلق عليها الآن هذا اللفظ الذى لا يكاد يختلف عن اللفظ الأول وهو إيران[18] ؛

ويلوح أن الفرس كانوا أجمل شعوب الشرق الأدنى فى الزمن القديم . فالآثار الباقية من عهدهم تصورهم شعباً معتدل القامات ، قوى الأجسام ، قد وهبتهم حياة الجبال شدة وصلابة ، ولكن ثروتهم الطائلة رققت طباعهم ، وهم ذوو ملامح متناسبة متناسقة ، شم الأنوف لا يكادون يفترقون فى ذلك عن اليونان ، تبدو على وجوههم سمات النبل والروعة ، ولبس معظمهم الملابس الميدية ثم تحلوا فيما بعد بالحلى الميدية . وكانوا يعدون من سوء الأدب كشف أى جزء من أجزاء الجسم خلا الوجه ، ولذلك كان كل جسمهم مغطى من عمامة الرأس أو عصابته أو قلنسونه إلى خُفَّى القدمين أو حذاءيهما فكان لباسهم سروالا مثلث الطيات ، وقميصاً أبيض من التيل ، ومئزراً من طبقتين ، ذا كمَّيْن يغطيان اليدين ، ومنطقة فى وسط الجسم . وكانت هذه الملابس تحفظ أجسامهم ، دفئة فى الشتاء ، حارة فى الصيف . أما الملك فكان يمتاز بلبس سروال مطرز قرمزى ، وحذاءين ذوى أزرار زعفرانية اللون . ولم تكن ملابس النساء تختلف عن ملابس الرجال إلا بفتحة عند الصدر ، وكان الرجال يطيلون لحاهم ويتركون شعر رأسهم منساباً فى غدائر ، ثم استبدلوا بها فيما بعد شعراً مستعاراً[19] . ولما زادت الثروة

(*) والاعتقاد السائد أن هذا الإقليم هو بعينه إقليم آران الواقع على نهر الأراك .

فى عهد الإمبراطورية أكثر الأهلون رجالهم ونساؤهم من استعمال أدوات التجميل ، فاستعملوا الأدهان لتجميل الوجه ، والأصباغ الملوّنة لدهن الجفون ، لكى يزيدوا بذلك من سعة العينين وبريقهما فى الظاهر . ومن ثم نشأت عندهم طبقة خاصة من « المزينين » سماهم اليونان « الكزمتاى » كانوا خبراء فى فن التجميل ، وعملهم تجميل الأثرياء . وكان الفرس خبراء فى عمل للروائح العطرية ، وكان القدماء يعتقدون أنهم هم الذين اخترعوا أدهان التجميل . ولم يكن مليكهم يخرج إلى الحرب إلا ومعه علبة ثمينة من الزيوت العطرية ، يتعطر بها فى حالتى النصر والهزيمة[٢٠] .

وتكلم الفرس عدة لغات فى أثناء تاريخهم الطويل . فكانت الفارسية القديمة لغة البلاط وأعيان البلاد فى عهد دارا الأول ، وهذه اللغة وثيقة الارتباط باللغة السنسكريتية حتى ليبدو لنا جلياً أن اللغتين كانتا فى وقت من الأوقات لهجتين من لغة أقدم منهما عهداً ، وأنهما هما واللغة الإنجليزية فروع من أصل واحد(*) . وتطورت اللغة الفارسية القديمة وتفرعت إلى فرعين هما الزندية — لغة الزند — أبستاق ، والبهلوية وهى لغة هندية اشتقت منها اللغة الفارسية الحالية[٢٢] . ولما مارس الفرس الكتابة استخدموا فى نقوشهم الخط المسمارى واستخدموا الحروف الهجائية الآرامية لكتابة وثائقهم[٢٣] . وبسطوا مقاطع اللغة البابلية الثقيلة الصعبة ، فأنقصوها من ثلاثمائة رمز إلى ست وثلاثين

(*) وها هى ذى بعض أمثلة تثبت هذه الصلة .

الفارسية القديمة	السنسكريتية	اليونانية	اللاتينية	الألمانية	الإنجليزية
Pitar	Piter	Pater	Pater	Vater	Pather
Nama	Nama	Anoma	Nomen	Nahme	Name
Napat	Nap	Anepsios	Nopes	Netfe	Nephew
Bar	Bhr	Perein	Ferre	Führen	Bea --
Matar	Matar	Meter	Mater	Mutter	Mothe
Bratar	Bhratar	Phrater	Frater	Bruder	Brother
Çta	Stha	Istemi	Sto	Steben	Stand[٢١]

علامة ، تبدلت شيئاً فشيئاً من مقاطع إلى حروف حتى صارت حروفاً هجائية مسمارية[24] . على أن الكتابة كانت تبدو للفرس لهوا خليقاً بالنساء لا يكادون يقتطعون له وقتاً من بين مشاغلهم الكثيرة فى الحب والحرب والصيد ، ولم ينزلوا من عليائهم فينشئوا أدباً .

وكان الرجل العادى أمّيّاً راضياً عن أمّيّته ، يبذل جهده كله فى فلاحة الأرض . ومجدت الزند – أبستاق الأعمال الزراعية وعدتها أهم أعمال الجنس البشرى وأشرفها ، يبتهج لها أهورا – مزدا الإله الأعلى أكثر مما يبتهج بغيرها من الأعمال . وكانت بعض الأراضى يزرعها ملاكها المزارعون . وكان هؤلاء الملاك فى بعض الأحيان يؤلفون جماعات زراعية تعاونية مكونة من عدة أسر لتزرع مجتمعة مساحات واسعة من الأراضى[25] والبعض يمتلكه الأشراف الإقطاعيون ويزرعه مستأجروه نظير جزء من غلته ؛ وبعضها الآخر يزرعه الأرقاء الأجانب (ولم يكونوا قط فرساً) . وكانوا يستخدمون محاريث من الخشب ذات أطراف من الحديد تجرها الثيران ؛ وكانوا يجرون الماء من الجبال إلى الحقول بطرق الرى الصناعية . وكان الشعير والقمح أهم محاصيل الأرض وأهم مواد الغذاء ، ولكنهم كانوا يأكلون كثيراً من اللحم ويتجرعون كثيراً من الخمر . وقد أخذ قورش بتقديم الخمر لجيوشه[26] . ولم تكن مناقشة جدية فى الشئون السياسية تدور فى مجالس الفرس إلا وهم سكارى(*) – وإن كانوا يحرصون على أن يعيدوا النظر فى قراراتهم فى صباح اليوم التالى . وكان من مشروباتهم مشروب مسكر يسمى الهوما يقدمونه قرباناً محبباً لآلهتهم ؛ وكانوا يعتقدون أنه لا يبعث فى مدمنه الهياج والغضب ، بل يبعث فيه التقى والاستقامة[28] .

(*) وفى ذلك يقول استرابون : « وهم يمضون فى أهم مناقشاتهم وهم يحتسون الخمر ، ويرون أن ما يصدرونه من قرارات وهم على هذه الحال أتقى مما يصدرونه منها وهم غير سكارى »[27] .

ولم يكن للصناعة شأن فى فارس ؛ فقد رضيت أن تترك لأمم الشرق الأدنى ممارسة الحرف والصناعات اليدوية ، واكتفت بأن تحمل هذه الأمم إليها منتجاتها مع ما يأتيها من الخراج. أما فى شئون النقل والاتصال فكانت أكثر ابتكاراً منها فى شئون الصناعة . فقد أنشأ المهندسون إطاعة لأمر دارا الأول طرقاً عظيمة تربط حواضر الدولة بعضها ببعض . وكان طول إحدى هذه الطرق وهى الممتدة من السوس إلى سرديس ألفاً وخمسمائة ميل . وكان طولها يقدر تقديراً دقيقاً بالفراسخ (وكان الفرسخ ٤ر٣ ميل) ويقول هيرودوت : « إنه كان عند نهاية كل أربعة فراسخ محاط ملكية ونُزل فخمة ، وكان الطريق كله يخترق أقاليم آمنة عامرة بالسكان[٢٩] » . وكان فى كل محطة خيول بديلة متأهبة لمواصلة السير بالبريد ، ولهذا فإن البريد الملكى كان يجتاز المسافة من السوس إلى سرديس بالسرعة التى يجتازها بها الآن رتل من السيارات الحديثة ، أى فى أقل قليلا من أسبوع ، مع أن المسافر العادى فى تلك الأيام الغابرة ، كان يجتاز تلك المسافة فى تسعين يوماً . وكانوا يعبرون الأنهار الكبيرة فى قوارب ، ولكن المهندسين كانوا يستطيعون متى شاءوا أن يقيموا على الفرات أو على الدردنيل نفسه قناطر متينة تمر عليها مئات الفيلة الوجلة وهى آمنة . وكان ثمة طرق تصل فارس بالهند مجتازة ممرات جبال أفغانستان ، وقد جعلت هذه الطرق مدينة السوس مستودعاً وسطاً لثروة الشرق التى كانت حتى فى ذلك العهد البعيد ثروة عظيمة لا يكاد يصدقها العقل . وقد أنشئت هـــذه الطرق فى الأصل لأغراض حربية وحكومية ، وذلك لتيسير سيطرة الحكومة المركزية وأعمالها الإدارية ، ولكنها أفادت أيضاً فى تنشيط التجارة وانتقال العادات والأفكار ، كما أفادت فى تبادل خرافات الجنس البشرى وهى من مستلزماته التى لا غنى له عنها ، من ذلك أن الملائكة والشياطين قد انتقلت على هذه الطرق من الأساطير الفارسية إلى الأساطير اليهودية والمسيحية .

ولم تبلغ الملاحة فى فارس ما بلغه النقل البرى من رقى عظيم . فلم يكن للفرس أسطول خاص بهم ، بل كانوا يكتفون باستئجار سفن الفينيقيين أو الاستيلاء عليها لاستخدامها فى الأغراض الحربية ، وقد احتفر دارا الأول قناة عظيمة تصل فارس بالبحر المتوسط عن طريق البحر الأحمر والنيل ، ولكن إهمال خلفائه ترك هذا العمل العظيم تعبث به الرمال السافية .

وأصدر خشيارشاى أمره الملكى إلى قسم من قواته البحرية بأن يطوف حول أفريقية ، ولكنه لم يكد يجتاز أعمدة هرقول (مضيق جبل طارق الحالى) حتى عاد من رحلته يجلله الخزى والعار[٣٠] . وكانت الأعمال التجارية تترك فى الغالب لغير أبناء البلاد — للبابليين والفينيقيين واليهود ؛ ذلك أن الفرس كانوا يحتقرون التجارة ويرون أن الأسواق بؤرة للكذب والخداع . وكانت الطبقات الموسرة تفخر باستطاعتها الحصول على معظم حاجاتها من حقولها وحوانيتها بغير واسـطة ، دون أن تدنس أصابعها بأعمال البيع والشراء[٣١] . وكانت الأجور والقروض وفوائد الأموال تؤدى فى بادئ الأمر سلعاً ، وأكثر ما كانت تؤدى به الماشية والحبوب ، ثم جاءتهم النقود من ليديا ، وسكّ دارا « الداريق » من الذهب والفضة وطبع عليه صورته(*) ، وكانت نسبة قيمة الدريق الذهبى إلى الدريق الفضى كنسبة ١٣٫٥ إلى ١ . وكان هذا بداية وضع نسبة بين النقدين فى الوقت الحاضر[٣٣] .

(*) ليس لهذا اللفظ صلة ما باسم دارا ، بل إن لفظ دريق مشتق من كلمة زريق الفارسية وهى القطعة من الذهب . وكانت قيمة الدريق الذهبى الاسمية ٥ ريالات أمريكية . وكانت ثلاثة آلاف دريق ذهبى تعدل منا فارسيا[٣٢] .

الفصل الرابع

تجربة فى نظام الحكم

الملك – الأشراف – الجيش – القانون – عقاب وحشى –
الحواضر – الولايات ، عمل جليل فى الإدارة

كانت حياة فارس حياة سياسية وحربية أكثر منها اقتصادية ؛ عماد ثروتها القوة لا الصناعة ؛ ومن أجل هذا كانت مزعزعة الكيان أشبه ما تكون بجزيرة حاكمة وسط بحر واسع خاضع لسلطانها خضوعاً غير قائم على أساس طبيعى . وكان النظام الإمبراطورى يمسك هذا الكيان المصطنع من أقدر الأنظمة ولا يكاد يوجد له شبيه ؛ فقد كان على رأسه الملك أوخشترا أى المحارب(*) ، وهو لقب يدل على منشأ الملكية العسكرى، وصبغتها العسكرية . وإذ كان تحت سلطانه ملوك يأتمرون بأمره فقد كان الفرس يلقبونه « ملك الملوك » ولم يعترض العالم القديم على هذه الدعوة ، غير أن اليونان لم يكونوا يسمونه بأكثر من باسليوس أى الملك[٣٤] .

وكان له من الوجهة النظرية سلطة مطلقة ؛ فكانت كلمة تصدر من فمه تكفى لإعدام من يشاء من غير محاكمة ولا بيان للأسباب ، على الطريقة التى يتبعها أحد الحكام الطغاة فى هذه الأيام . وكان فى بعض الأحيان يمنح أمه أو كبيرة زوجاته حق القتل القائم على النزعات والأهواء[٣٥] . وقلما كان أحد من الأهلين ، ومن بينهم كبار الأعيان ، يجرؤ على انتقاد الملك أو لومه، كما كان

(*) ولا يزال هذا اللفظ باقياً حتى الآن فى اسم ملك الفرس (الشاه) وكذلك لا يزال أصله باقيا فى لفظ سترب ، الذى يسمى به حكام الأقاليم فى فارس وفى لفظ كشاتريا أو الطبقة الحاكمة فى الهند .

الرأى العام ضعيفاً عاجزاً عجزاً مصدره الحيطة والحذر ، فكان كل ما يفعله الذى يرى الملك يقتل ابنه البرىء أمام عينيه رمياً بالسهام أن يثنى على مهارة الملك العظيمة فى الرماية ؛ وكان المذنبون الذين تلهب السياط أجسادهم بأمر الملك يشكرون له تفضله بأنه لم يغفل عن ذكرهم[٣٦] . ولو أن ملوك الفرس كان لهم من النشاط ما لقورش ودارا الأول لكان لهم أن يملكوا ويحكموا ؛ ولكن الملوك المتأخرين كانوا يعهدون بأكثر شئون الحكم إلى الأشراف الخاضعين لسلطانهم ، أو إلى خصيان قصورهم أما هم فكانوا يقضون أوقاتهم فى الحب أو لعب النرد أو الصيد[٣٧] . وكان القصر يموج بالخصيان يسرحون فيه ويمرحون ، يحرسون النساء ويعلمون الأمراء ، وقد استخدموا ما تخولهم هذه الأعمال من ميزة وسلطان فى حبك الدسائس وتدبير المؤامرات فى عهد كل ملك من الملوك (*). وكان من حق الملك أن يختار خلفه من بين أبنائه ، ولكن وراثة العرش كانت تقرر فى العادة بالاغتيال والثورة .

غير أن سلطة الملك كانت تقيدها من الوجهة العملية قوة الأعيان ، وكانوا هم الواسطة بين الشعب والعرش . وقد جرت العادة أن يكون لأسر الرجال الستة الذين تعرضوا مع دارا الأول لأخطار الثورة التى قامت على سمرديس الزائف ميزات استثنائية . وأن يستشاروا فى مهام الدولة الحيوية ، وكان كثير من الأشراف يحضرون إلى القصر ويؤلفون مجلساً يولى الملك مشورته فى أكثر الأحيان أعظم رعاية . وكان يربط معظم أفراد الطبقة الموسرة بالعرش أن الملك هو الذى يهبهم ضياعهم ؛ وكانوا فى مقابل هذا يمدونه بالرجال والعتاد إذا نفر إلى القتال . وكان لهؤلاء الأشراف فى إقطاعاتهم سلطان لا يكاد يحده شىء — فكانوا يجبون الضرائب ، ويسنون القوانين ، وينفذون أحكام القضاء ويحتفظون بقواهم المسلحة .

(*) كان خمسمائة من الغلمان الخصيان يرسلون من بابل فى كل عام ليكونوا « حفظة على النساء » فى القصور الإيرانية .

وكان الجيش العماد الحقيقي لسلطان الملك والحكومة الإمبراطورية ، ذلك أن الإمبراطوريات إنما تدوم ما دامت محتفظة بقدرتها على التقتيل .

وكان يفرض على كل رجل صحيح الجسم بين الخامسة عشرة والخمسين من عمره أن ينضم إلى القوات العسكرية كلما أعلنت الحرب(41) . وحدث مرة أن طلب والد ثلاثة أبناء أن يعفى واحد منهم من الخدمة العسكرية فما كان من الملك إلا أن أمر بقتلهم هم الثلاثة ؛ وأرسل والد آخر أربعة من أبنائه إلى ميدان القتال ، ثم رجا خشيارشاى أن يسمح ببقاء أخيهم الخامس ليشرف على ضيعة الأسرة فقطع جسم هذا الابن نصفين بأمر من الملك ، ووضع كل نصف على أحد جانبي الطريق الذى سيمر منه الجيش(42) . وكان الجنود يسيرون إلى الحرب وسط دوى الموسيقى العسكرية وهتاف الجماهير التى تجاوزت سن التجنيد .

وكانت أهم فرق الجيش فرقة الحرس الملكى المؤلفة من ألفين من الفوارس وألفين من المشاة كلهم من الأشراف وكانت مهمتهم حراسة الملك .

وكان الجيش العامل كله بلا استثناء من الفرس والميديين ، وكان يؤخذ من هذه القوات الدائمة معظم الحاميات القائمة فى النقط العسكرية الهامة فى الإمبراطورية لترهيب من تحدثه نفسه بالخروج عليها .

أما القوات الحربية الكاملة فكانت تتألف من فرق تجند من جميع الأمم الخاضعة لسلطان الفرس ، وكانت كل فرقة تتكلم بلغتها ، وتقاتل بأسلحتها وتتبع أساليبها الحربية الخاصة ، ولم يكن عتادها وأتباعها أقل اختلافا من أصولها : فهناك القسي والسهام ، والسيوف والحراب ، والخناجر والرماح ، والمقاليع والمدى ، والتروس والخوذ ، والمجنات المتخذة من الجلد ، والزرد . وكانوا يركبون الجياد والفيلة ، ويصحبهم المنادون ، والكتبة ، والخصيان ، والعاهرات ، والسراري ، ومعهم العربات التى سلح كل جزء من عجلاتها بمناجل الصلب الكبيرة . وهذه الجحافل الجرارة التى بلغت عدتها فى حملة

خشيارشاى ٠٠٠ر٨٠٠ر١ مقاتل لم تتألف منها قط وحدة كاملة ، ومن أجل ذلك فإن أول بادرة من بوادر الهزيمة كانت تحيلها إلى جموع من الغوغاء العديمة النظام . وكانت تهزم أعداءها بقوة عددها لا غير ، وبمقدرتها على استيعاب قتلاها ، فإذا ما لاقاها جيش حسن التنظيم يتكلم أفرادها لغة واحدة ويخضعون لنظام واحد حاقت بها الهزيمة ، وهذا هو السر فيما أصابها عند مرثون وبلاتية .

ولم يكن يوجد في هذه الدولة قانون غير إرادة الملك وقوة الجيش . ولم تكن فيها حقوق مقدسة تستطيع الوقوف أمام هاتين القوّتين ، كما أن التقاليد والسوابق لم تجد نفعاً إلا إذا كانت مستمدة من أمر ملكي سابق ، ذلك أن الفرس كانوا يفخرون بأن قوانينهم لا تبديل لها ، وأن الوعد أو المرسوم الملكى لا ينقض بحال من الأحوال ، فقد كان اعتقادهم أن قرارات الملك وأحكامه إنما يوحيها إليه الإله أهورا — مزدا نفسه .

وعلى هذا الأساس كان قانون المملكة مستمداً من الإرادة الإلهية ، وكان كل خروج على هذا القانون يعد خروجاً على إرادة الإله فكان الملك صاحب السلطة القضائية العليا ، ولكنه كان فى العادة يعهد هذا العمل إلى أحد العلماء الشيوخ من أتباعه . ثم تأتى من بعده المحكمة العليا المؤلفة من سبعة قضاة ، ومن تحتها محاكم محلية منتشرة فى أنحاء المملكة . وكان الكهنة هم الذين يضعون القوانين ، وظلوا زمناً طويلا ينظرون فى المظالم ، ثم كان ينظر فيها فى العهود المتأخرة رجال بل ونساء من غير رجال الدين ونسائه . وكانت الكفالة تقبل من المتهم فى جميع القضايا إلا ما كان منها خطير الشأن ، وكانوا يتبعون فى المحاكمات إجراءات منتظمة وكانت المحاكم تأمر أحياناً بمنح المكافآت كما كانت تأمر بتوقيع العقوبات ، وكانت وهى تنظر فى الجرائم تقدر ما للمتهم من حسنات وما أداه من خدمات . ولكى يحولوا بين إطالة الإجراءات القضائية كانوا يحددون

زمناً معيناً تنتهي فيه كل قضية ، ويعرضون على الخصوم أن يختاروا لهم حَكَماً يحاول فض ما بينهم من نزاع بالطرق السلمية .

ولما تكاثرت السوابق القانونية وتعقدت القوانين نشأت طائفة من الناس يسمون « المتحدثين فى القانون » كانوا يعرضون على المتخاصمين أن يفسروا لهم القانون ويساعدوهم على السير فى قضاياهم[٤٣] وكان يطلب إلى المتقاضين أن يقسموا الأيمان ، وكانوا فى بعض الأحيان يلجأون إلى الحكم الإلهى[٤٤] (فيفوّضون أمر المتهم إلى الآلهة تقضى له أو عليه بوسائلها الخاصة ، بأن تنجيه من النار أو الغرق إن كان بريئاً وتقضى عليه بهما إن كان مذنباً)(*) ، وكانوا يقاومون الرشوة بجعل عرضها أو قبولها جريمة كبرى يعاقب مرتكبها بالإعدام .

وكان مما عمله قمبيز لضمان نزاهة القضاء أن أمر بأن يسلخ جلد القاضى الظالم حيّا وأن يستخدم هذا الجلد لتنجيد مقاعد القضاة ، ثم يعيَّن ابن القاضى القتيل بدلا منه[٤٥] .

وكانت الجرائم الصغرى يعاقب عليها بالجلد — من خمس جلدات إلى مائتى جلدة — بسوط من سياط الخيل ، وكان عقاب من يسم كلب راع مائتى جلدة ، ومن يقتل آخر خطأ كان عقابه تسعين جلدة[٤٦] . وكانت الدولة تحصل على بعض المال اللازم للشئون القضائية من استبدال الغرامة بالجلد باحتساب كل ست روبيات للجلدة الواحدة[٤٧] . أما الجرائم التى هى أشد من هذه فكان يعاقب عليها بالوسم بالنار أو بتشويه الأعضاء أو بتر بعض الأطراف ، أو سمل العين أو السجن أو الإعدام . وكان نص القانون يحرم على أي إنسان حتى الملك نفسه أن يحكم على إنسان بالقتل عقاباً على جريمة صغرى ، ولكنه يحل القتل عقاباً على خيانة الوطن ، أو هتك العرض ، أو اللواط ، أو القتل ، أو الاستمناء ، أو حرق الموتى ، أو دفنهم سراً ، أو الاعتداء على حرمة القصر الملكى ، أو الاتصال

(*) هذا الشرح نحن وضعناه لإيضاح معنى عبارة « الحكم الإلهى » . (المترجم)

بإحدى سراريه ، أو الجلوس مصادفة على عرشه . أو الإساءة إلى أحد أفراد البيت المالك[٤٨] .

وكان المذنب فى هذه الحالات يعدم إما بإرغامه على تجرع السم ، أو خزقه أو صلبه . أو شنقه (وكان المجرم يشنق ورأسه مائلة إلى أسفل) ، أو رجمه بالحجارة أو دفن الجسم إلى ما دون الرأس ، أو تهشيم رأسه بين حجرين كبيرين ، أو خنقه فى رماد ساخن ، أو بتوقيع ذلك العقاب الذى لا يصدقه العقل والمعروف باسم عقاب « الزورقين »(*) . وقد ورث الأتراك الذين أغاروا على البلاد فيما بعد بعض هذه العقوبات الهمجية ، وأورثوها العالم من بعدهم .

واستعان الملك هذه القوانين وهذا الجيش على حكم الولايات العشرين التابعة لدولته من عواصمه الكثيرة . وكانت العاصمة الأصلية بزارجاده ، ولكنه كان ينتقل منها أحياناً إلى برسبوليس ، وكانت إكباتانا (همدان) عاصمته الصيفية . أما معظم إقامته فكانت فى مدينة السوس عاصمة عيلام القديمة التى يجتمع فيها

(*) يقول أفلوطرخس إن الجندى مثرداتس قال ساخراً وهو يحتسى الخمر أن ليس الفضل فى قتل قورش الأصغر فى واقعة كوناكسا للملك ، بل الفضل فضله هو — فأمر أرت خشتر الثانى أن يعدم مثرداتس بطريقة القاربين — على النمط الآتى : يؤخذ قاربان صنعا بحيث ينطبق أحدهما على الآخر تمام الانطباق . ثم يوضع المذنب الذى يراد تعذيبه على ظهره فى أحدهما ، ويغطى بالقارب الثانى بحيث يترك رأسه ويداه وقدماه فى خارج القاربين ، أما سائر جسمه فيكون بينهما . ثم يقدم له الطعام فإذا أبى أن يطعمه أرغموه على ذلك بوخز عينيه . وبعد تناوله يسقونه مزيجاً من اللبن والعسل يصبونه فى فمه وعلى وجهه بأكمله . ويظل وجهه فى هذه الأثناء موجهاً نحو الشمس على الدوام ، فلا يلبث أن تغطيه عن آخره أسراب الذباب الذى يحط عليه . ولما كان وهو فى القارب يفعل ما لا بد أن يفعله كل من يأكلون ويشربون ، فإن الحشرات والديدان تتكاثر فى البراز والأقذار ، وتتسرب إلى أمعائه فيتآكل جسمه . فإذا اتضح لهم أن الرجل قد مات بلا ريب ، ورفع أعلى القاربين ، ظهر جسمه وقد تآكل لحمه ، وشوهدت هذه الحشرات الكريهة تنهشه ، كأنها قد توالدت فى أحشائه .. وبهذه الطريقة قضى مثرداتس فى آخر الأمر نحبه بعد عذاب دام سبعة عشر يوماً »[٥٠] .

ملحوظة : ورد اسم **Artaxerxes, Xerxes** بصيغ مختلفة فسمى أولها خشيرشا والخشويرش وسمى الثانى أردشير وأرت خشتر أو ارتخشتر وأرتخشيرشا . ويسميه المسعودى أرطخشست ، ويقول البيرونى إن بهمن أردشير هو أخشويرش .

تاريخ الشرق القديم برمته ويرتبط أوله بآخره . وكان من مميزات هـــذه المدينة صعوبة الوصول إليها ، كما كان من عيوبها بعدها عن سائر عواصم الإمبراطورية ، أراد الإسكندر أن يستولى عليها كان لا بد له أن يختار لها طريقاً طوله ألفا ميل ؛ ولكنها كان عليها أن ترسل جيوشها ألفاً وخمسمائة ميل لتخضع الثورات التى تقوم فى ايديا أو مصر . ولما أنشئت الطرق العظيمة فى آخر الأمر كانت كل فائدتها أن مهدت السبل لليونان والرومان الذين غزوا بجيوشهم غربى آسية ، كما ساعدت غربى آسية على أن يغزو اليونان ورومة بعقائده الدينية .

وكانت الإمبراطورية مقسمة إلى ستربيات أو ولايات لتسهل بذلك إدارتها وجباية خراجها . وكان فى كل ولاية نائب « لملك الملوك » قد يكون أحياناً أميراً خاضعاً لسلطانه ، ولكنه فى العادة « ستر ب » (حاكم) يعينه الملك ويبقى فى منصبه ما دام حائزاً لرضا البلاط الملكى .

وأراد دارا أن يضمن خضوع الوالى لسلطانه فبعث إلى كل ولاية بقائد من قواد جيشه ليشرف على ما فيها من قوى مسلحة مستقلا عن الوالى ؛ ولكى يضمن خضوع هذا وذاك عين لكل ولاية أميناً من قبله مستقلا عن الوالى والقائد جميعاً ، مهمته أن يبلغ عن مسلكهما . وزيادة فى الاحتياط كان للملك إدارة للمخابرات السرية تعرف باسم « عيون الملك وآذانه » يفاجئ موظفوها الولايات ليفحصوا عن سـجلاتها وشئونها الإدارية المالية . وكان الوالى يعزل أحياناً بلا محاكمة ، وأحياناً يتخلص منه فى هدوء ، وذلك بأن يسمه خدمه بأمر الملك نفسه . وكان تحت إمرة الوالى والأمين حشد من الكتبة يصرفون من شئون الحكم ما ليس فى حاجة ماسة إلى القوة . وكان هؤلاء يستمرون فى عملهم وإن تغيرت الإدارات ، بل وإن تغير الملوك ، فالملك يموت ولكن البيرقراطية الحكومية باقية مخلدة .

ولم يكن موظفو الولايات يتناولون رواتبهم من الملك ، بل كانوا يتناولونها

من أهل الولاية التى يحكمونها . وكانت هذه الرواتب عالية تكفى لأن يكون لهؤلاء الولاة قصور وحريم ، وبساتين للصيد كان الفرس يسمونها بذلك الاسم التاريخى المأثور وهو الفردوس أى « الجنة » . وكان على كل وال فضلا عن هذا أن يبعث إلى الملك فى كل عام قدراً معلوماً من المال والبضائع ضريبة مقررة على ولايته . فكانت الهند ترسل ٤٦٨٠ تالنتا (وزنة) ، وأشور وبابل ألفاً ، ومصر سبعمائة ، وولايات آسية الصغرى الأربع ترسل مجتمعة ١٧٦٠ الخ . فكان مجموع ما ترسله الولايات كلها ١٤٫٥٦٠ فى السنة ، قدرت قيمتها تقديراً يختلف من ١٦٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى إلى ٢١٨٫٠٠٠٫٠٠٠ ريال ؛ وفوق هذا فقد كان ينتظر من كل ولاية أن تمد الملك بحاجته من السلع والمؤن : فقد كان على مصر مثلا أن تمده فى كل عام بما يحتاجه ١٢٠٫٠٠٠ رجل من الغلال ، وكان الميديون يمدونه بمائة ألف من الضأن ، والأرمن بثلاثين ألفاً من الأمهار ، والبابليون بخمسمائة من الغلمان الخصيان ؛ وكانت هناك مصادر أخرى تستمد منها الخزانة المركزية الأموال الطائلة ؛ وحسبنا دليلا على مقدار هذه الثروة أن الإسكندر حين استولى على عاصمة الفرس وجد فى الخزائن الملكية ١٨٠٫٠٠٠ تالنت (وزنة) تبلغ قيمتها بحساب هذه الأيام ٢٫٧٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى ، وذلك بعد مائة وخمسين عاما من إسراف الفرس وتبديدهم ، وبعد مائة حرب وثورة باهظة النفقات ، وبعد أن حمل دارا الثالث معه فى فراره ٨٠٠٠ تالنت[٥١] .

ومع هذا كله فقد كانت الإمبراطورية الفارسية على الرغم من نفقاتها الإدارية الطائلة أن تجمع تجربة فى نظام الحكم الإمبراطورى شهدتها بلاد البحر المتوسط قبل الإمبراطورية الرومانية التى قدر لها أن ترث قسطاً كبيراً من النظم السياسية والإدارية لتلك الإمبراطورية القديمة . وإذا كانت هذه الإمبراطورية قد شهدت ما كان عليه ملوكها المتأخرون من قسوة وبذخ ، وما كان فى بعض شرائعها من همجية ، وما كان ينوء به كاهل الأهلين من ضرائب فادحة ، فقد

كان يقابل هذه المساوئ ما كان يسود البلاد بفضل حكومتها من نظام وأمن أثرت في ظله الولايات على الرغم من هذه الأكلاف الباهظة ، وما كانت تستمتع به تلك الولايات من حرية لم تستمتع بها الولايات الخاضعة لأكثر الإمبراطوريات رقياً واستنارة . ذلك أن كل إقليم كان يحتفظ بلغته وشرائعه ، وعاداته ، وأخلاقه ، ودينه ، وعملته ، كما كان يحتفظ فى بعض الأحيان بالأسرة الحاكمة من أهله . وكانت بعض الأمم التى تؤدى الجزية كبابل وفينيقية وفلسطين راضية كل الرضا بالوضع الذى وضعت فيه ، ظناً منها أنه لو وكل أمرها إلى قوادها وجباتها من أهلها لكانوا أكثر من حكامها الفرس قسوة وأشد بطشاً . وقد بلغت الإمبراطورية الفارسية فى عهد دارا الأول من حيث النظام السياسى مبلغاً لم يصل إليه غيرها من الإمبراطوريات إذا استثنينا الإمبراطورية الرومانية فى عهد تراجان ، وهدريان ، والأنطونيين .

الفصل الخامس

زردشت

رسالة النبي – الديانة الفارسية قبل زردشت – كتابه
الفرس المقدس – أهورا مزدا – الأرواح الطيبة
والخبيثة – كفاحها للاستيلاء على العالم

تروى الأقاصيص الفارسية أن نبياً عظيماً ظهر فى إيريانا – فيجو ، « موطن الآريين » القديم قبل ظهور المسيح بمئات السنين ، وكان شعبه يسميه زرثسترا . ولكن اليونان الذين لم يكونوا يطيقون هجاء « البرابرة » أسموه زروستزز . وقد حملت به أمه حملا إلهياً قدسياً : ذلك أن الملاك الذى كان يرعاه تسرب إلى نبات الهَوْما ، وانتقل مع عصارته إلى جسم كاهن حين كان يقرب القرابين المقدسة . وفى ذلك الوقت نفسه دخل شعاع من أشعة العظمة السماوية إلى صدر فتاة راسخة النسب سامقة فى الشرف ، وتزوج الكاهن بالفتاة ، وامتزج الحبيسان الملاك والشعاع ، فنشأ زرثسترا من هذا المزيج[53] . فلما ولد قهقه عالياً من أول يوم ولد فيه ، ففرت من حوله الأرواح الخبيثة التى تجتمع حول كل كائن ، وهى مضطربة وجلة[54] . وأحب الوليد الحكمة والصلاح فاعتزل الناس وآثر أن يعيش فى برية جبلية ، وأن يكون طعامه الجبن وثمار الأرض . وأراد الشيطان أن يغريه ولكنه أخفق . وشق صدره بطعنة سيف وملئت أحشاؤه بالرصاص المنصهر ، فلم يشك أو يتململ بل ظل مستمسكاً بإيمانه بأهورا – مزدا (رب النور) الإله الأعظم ؛ وتجلى له أهورا - مزدا ووضع فى يديه الأبستاق أى كتاب العلم والحكمة ، وأمره أن يعظ الناس بما جاء فيه . وظل العالم كله زمناً طويلا يسخر منه ويضطهده ، حتى سمعه أخيراً أمير إيرانى

عظيم يدعى فشتسبا أو هستسبس ، فأعجبه ما سمع ، ووعده أن ينشر الدين الجديد بين شعبه ، وهكذا ولد الدين الزردشتي . وعمر زرثسترا نفسه طويلا ، حتى أحرقه وميض برق وصعد إلى السماء[٥٥] .

ولسنا نعرف ما فى هذه القصة من حق وما فيها من باطل . ولعل يوشع كيوشع بنى إسرائيل هو الذى كشف هذا النبى . ولكن اليونان صدقوا أن زرثسترا هذا كان شخصية تاريخية حقة وشرفوه بأن حددوا له تاريخاً يسبق تاريخهم بخمسة آلاف وخمسمائة عام[٥٦] . ويقرب پروسس البابلى هذا التاريخ إلى عام ٢٠٠٠ ق . م[٥٧] . أما من يؤمن بوجوده من المؤرخين المحدثين فيحددون تاريخه فيما بين القرن العاشر والقرن السادس قبل الميلاد[*][٥٨] . ولما ظهر بين أسلاف الميديين والفرس ، وجد بنى وطنه يعبدون الحيوانات كما يعبدون أسلافهم[٦٠] ، ويعبدون الأرض والشمس ، وأن لهم ديناً يتفق فى كثير من عناصره وآلهته مع دين الهندوس فى العهد الڤيدى .

وكان أكبر الآلهة فى الدين السابق للدين الزردشتى مثرا إله الشمس ، وأنيتا إلهة الخصب والأرض ، وهوما الثور المقدس الذى مات ثم بُعث حياً ، ووهب الجنس البشرى دمه شراباً ليسبغ عليه نعمة الخلود . وكان الإيرانيون الأولون يعبدونه بشرب عصير الهوما المسكر وهى عشب ينمو على سفوح جبالهم[٦١] وهال زردشت ما رأى من هذه الآلهة البدائية ، وهذه الطقوس الخمرية ، فثار على « المجوس » أى الكهنة الذين كانوا يصلون لتلك الآلهة ويقربون لها القرابين ، وأعلن فى شجاعة لا تقل عن شجاعة معاصريه عاموس وإشعيا أن ليس فى العالم إلا إله واحد هو فى بلاده أهورا — مزدا إله النور والسماء ، وأن غيره من الآلهة ليست إلا مظاهر له وصفات من صفاته . ولعل دارا الأول حينما اعتنق الدين الجديد رأى فيـــه ديناً

(*) وإذا ثبت أن فشتسبا الذى نشر هـــذا الدين كان والد دارا الأول كان آخر هذه التواريخ فى ظننا أرجحها .

ملهماً لشعبه ، ودعامة لحكومته ، فشرع مذ تولى الملك يشير حرباً شعواء على العبادات القديمة وعلى الكهنة المجوس ، وجعل الزردشتية دين الدولة .

وكان الكتاب المقدس للدين الجديد هو مجموعة الكتب التي جمع فيها أصحاب النبي ومريدوه أقواله وأدعيته . وسمى أتباعه المتأخرون هذه الكتب الأبستا (الأبستاق) ، وهي المعروفة عند العالم الغربي باسم الزند – أبستا ، بناء على خطأ وقع فيه أحد العلماء المحدثين(*) . ومما يروع القارئ غير الفارسي في هذه الأيام أن يعرف أن المجلدات الضخمة الباقية– وإن كانت أقل كثيراً من كتاب التوراة – ليست إلا جزءاً صغيراً مما أوحاه إلى زرثسترا إلهه(**) .

(*) لقد أضاف أنكتيل – دوپرون (حوالى ١٧٧١ ب . م) زند إلى هذا اللفظ . وليست هذه إلا كاسعة كان الفرس يضعونها قبله للدلالة على أن ما يليها ليس إلا ترجمة أو تفسيراً للأبستاق . أما لفظ أبستاق نفسه فأصله غير معروف على وجه التحقيق ، والراجح أنه مشتق من فيد وهو الأصل الآرى الذى اشتق منه « فيدا » ومعناه المعرفة(٦٢) .

(**) وتروى الرواية الفارسية قصة أبستاق أخرى أكبر من هذه فى واحد وعشرين كتاباً يسمى واحدها « النسك » وتقول إن هذه الكتب الأخيرة نفسها ليست إلا جزءاً صغيراً من الكتاب المقدس الأصلى ، وإن كتاباً من هذه الكتب وهو الونديداد قد بقى سليماً . أما الكتب الأخرى فلم تبق منها إلا أجزاء مبعثرة فى مؤلفات متأخرة كالدنكرد والبندهيش . ويروى مؤرخو العرب أن النص الكامل للكتاب الفارسى المقدس كان يشتمل على ١٢٠٠٠ جلد من جلود البقر . وتقول إحدى الروايات الدينية إن الأمير ڤشتسبا كتب من هذا الكتاب نسختين ، التهمت إحداها النار حين أحرق الإسكندر القصر الملكى فى برسوبوليس ، أما الأخرى فقد أخذها اليونان المنتصرون معهم إلى بلادهم ، فلما ترجموها كانت هى المصدر الذى أخذوا عنه كل معلوماتهم العلمية (كما يقول الثقات من الفرس) . فلما كان القرن الثالث بعد الميلاد أمر ڤلجيسس الخامس أحد ملوك البارثيين من الأسرة الأرساسية أن يجمع كل ما بقى من أجزاء الكتاب المتفرقة المكتوبة منه والباقية فى صدور المؤمنين . فاتخذ الكتاب من ذلك الوقت صورته الباقية إلى هذا اليوم ، وكان قانون الزردشتية فى القرن الرابع الميلادى ، وأساس الدين الرسمى للدولة الفارسية . ثم عبثت الأيدى مرة أخرى بهذا الكتاب لما فتح المسلمون بلاد الفرس فى القرن السابع بعد الميلاد(٦٣) .

ويمكن تقسيم القطع الصغيرة الباقية من هذا الكتاب إلى خمسة أجزاء :

١ – اليزنا : وتتألف من خمسة وأربعين فصلا من الطقوس الدينية التى كان الكهنة الزردشتيون يترنمون بها ، ومن سبعة وعشرين فصلا (من الفصل الثامن والعشرين –

وهذا الجزء الباقى يبدو للأجنبي الضيق الفكر كأنه خليط مهوش من الأدعية والأناشيد ، والأقاصيص ، والوصفات ، والطقوس الدينية ، والقواعد الخلقية ، تجلوها فى بعض المواضع لغة ذات روعة ، وإخلاص حار ، وسمو خلقى ، أو أغان تنم عن تقى وصلاح . وهى تشبه العهد القديم من الكتاب المقدس فيما تثيره فى النفس من نشوة قوية . وفى وسع الدارس أن يجد فى بعض أجزائها ما يجده فى الرج – فدا من آلهة وآراء ، ومن كلمات وتراكيب فى بعض الأحيان . وتبلغ هذه من الكثرة حداً جعل بعض علماء الهنود يعتقدون أن الأبستاق ليست وحياً من عند أهورا – مزدا ، بل هى مأخوذة من كتب الفدا . ويعثر الإنسان فى مواضع أخرى منها على فقرات من أصل بابلى قديم ، كالفقرات التى تصف خلق الدنيا على ست مراحل (السموات ، فالماء ، فالأرض ، فالنبات ، فالحيوان ، فالإنسان) ، وتسلسل الناس جميعاً من أبوين أولين ، وإنشاء جنة على ظهر الأرض[٦٦] ، وغضب الخالق على خلقه ، واعتزامه أن يسلط عليهم طوفاناً يهلكهم جميعاً إلا قلة صغيرة منهم[٦٧] . لكن ما فيها من عناصر إيرانية خالصة يشتمل على كثير من الشواهد التى تكفى لصبغ الكتاب كله بالصبغة الفارسية العامة . فالفكرة السائدة فيه هى ثنائية العالم الذى يقوم عن مسرحه صراع يدوم اثنى عشر ألف عام بين الإله أهورا – مزدا والشيطان أهرمان ؛ وأن أفضل الفضائل

= إلى الرابع والخمسين) وتسمى الجتها ، وتشتمل على أحاديث النبى وما أوحى إليه مصوغة فى عبارات موزونة كما يظهر .

٢ – الوسپرد : ويشتمل على أربعة وعشرين فصلا أخرى من الطقوس الدينية .

٣ – الونديداد : ويشتمل على اثنين وعشرين فصلا أو فرجودا ، وهى تشرح فقه الزردشتيين وقوانينهم الأخلاقية ، وهى التى تتألف منها الآن شريعة الپارسيين الكهنوتية (فى الهند) .

٤ – اليشت : أى التسبيحات الغنائية ، وهى واحد وعشرون نشيداً فى الثناء على الملائكة تتخللها أقاصيص تاريخية ونبوءة عن آخر العالم .

٥ – وآخرها الخرد أبستاق : أى الأبستاق الصغيرة وهى صلوات تتلى فى مناسبات فى الحياة مختلفة .

هما الطهر والأمانة وهما يؤديان إلى الحياة الخالدة ؛ وأن الموتى يجب ألا يدفنوا أو يحرقوا كما كان يفعل اليونان أو الهنود القدرون ، بل يجب أن تلقى أجسامهم إلى الكلاب أو الطيور الجارحة(٦٨) .

وكان إله زردشت فى بادئ الأمر هو : « دائرة السماوات كلها » نفسها . فأهورا مزدا « يكتسى بقبة السماوات الصلبة يتخذها لباساً له ؛ ... وجسمه هو الضوء والمجد الأعلى ، وعيناه هما الشمس والقمر » . ولما أن انتقل الدين فى الأيام الأخيرة من الأنبياء إلى الساسة صور الإله الأعظم فى صورة ملك ضخم ذى جلال مهيب . وكان بوصفه خالق العالم وحاكمه يستعين بطائفة من الأرباب الصغار ، كانت تصور أولا كأنها أشكال وقوى من أشكال الطبيعة وقواها — كالنار ، والماء ، والشمس ، والقمر ، والريح ، والمطر . ولكن أكبر فخر لزردشت أن الصورة التى تصورها لإلهه هى أنه يسمو على كل شىء ، وأنه عبر عن هذه الفكرة بعبارات لا تقل جلالا عما جاء فى سفر أيوب :

هذا ما أسألك عنه فاصدقنى الخبر يا أهورا مزدا : منذا الذى رسم مسار الشموس والنجوم ؟ — ومنذا الذى يجعل القمر يتزايد ويتضاءل ؟ . . . ومنذا الذى رفع الأرض والسماء من تحتها وأمسك السماء أن تقع ؟ — منذا الذى حفظ المياه والنباتات — ومنذا الذى سخر للرياح والسحب سرعتها — ومنذا الذى أخرج العقل الخير يا أهورا مزدا ؟(٦٩) .

وليس المقصود «بالعقل الخير» عقلا إنسانيا ما ، بل المقصود به حكمة إلهية لا تكاد تفترق فى شىء عن « كلمة الله »(*) يستخدمها أهورا مزدا واسطة لخلق الكائنات . وكان لأهورا مزدا كما وصفه زردشت سبعة مظاهر أو سبع صفات

(*) يعتقد دارمستتر أن فكرة « العقل الطيب » إن هى إلا تطبيق — شبيه بتطبيق الأوربيين — لفكرة الكلمة الإلهية عند فيلون . وهو لهذا يرجع تاريخ اليزنا إلى القرن الأول قبل الميلاد(٧٠) .

هى : النور ، والعقل الطيب ، والحق ، والسلطان ، والتقوى ، والخير ، والخلود . ولما كان أتباعه قد اعتادوا أن يعبدوا أرباباً متعددة فقد فسروا هذه الصفات على أنها أشخاص (سموهم أميشا اسبنتا أو القديسين الخالدين) الذين خلقوا العالم ويسيطرون عليه بإشراف أهورا مزدا وإرشاده . وبذلك حدث فى هذا الدين ما حدث فى المسيحية فانقلبت الوحدانية الرائعة التى جاء بها مؤسسه شركا لدى عامة الشعب . وكان لديهم فضلا عن هذه الأرواح المقدسة كائنات أخرى هى الملائكة الحراس . وقد اختص كل رجل وكل امرأة وكل طفل – حسب أصول اللاهوت الفارسى – بواحد منها ، وكان الفارسى التى يعتقد (ولعله كان فى هذا الاعتقاد متأثراً بعقيدة البابليين فى الشياطين) أنه يوجد إلى جانب هؤلاء الملائكة والقديسين الخالدين الذين يعينون الناس على التحلي بالفضيلة سبعة شياطين (ديو) أو أرواح خبيثة تحوم فى الهواء ، وتغوى الناس على الدوام بارتكاب الجرائم والخطايا ، وتشتبك أبد الدهر فى حرب مع أهورا – مزدا ومع كل مظهر من مظاهــر الحق والصلاح . وكان كبير هذه الزمرة من الشياطين أنكرا – مينيوما أو أهرمان أمير الظلمة وحاكم العالم السفلى . وهو الطراز الأسبق للشيطان الذى لا ينقطع عن فعل الشر ، والذى يلوح أن اليهود أخذوا فكرته عن الفرس ثم أخذتها عنهم المسيحية . مثال ذلك أن أهرمان هو الذى خلق الأفاعى ، والحشرات المؤذية ، والجراد ، والنمل ، والشتاء ، والظلمة ، والجريمة ، والخطيئة ، واللواط ، والحيض ، وغيرها من مصائب الحياة . وهذه الآثام التى أوجدها الشيطان هى التى خربت الجنة حيث وضع أهورا مزدا الجدين الأعليين للجنس البشرى(٧١) .

ويبدو أن زردشت كان يعد هذه الأرواح الخبيثة آلهة زائفة ، وأنها تجسيد خرافى من فعل العامة للقوى المعنوية المجردة التى تعترض رقى الإنسان ، ولكن أتباعه رأوا أنه أيسر لهم أن يتصوروها كائنات حية فجسدوها وجعلوا

لها صوراً ما زالوا يضاعفونها حتى بلغت جملة الشياطين فى الديانة الفارسية عدة ملايين(٧٢) .

ولقد كانت هذه العقائد وقت أن جاء بها زردشت قريبة كل القرب من عقيدة التوحيد ، بل إنها حتى بعد أن أقحموا فيها أهرمان والأرواح ظل فيها من التوحيد بقدرما فى المسيحية بإبليسها وشياطينها وملائكتها . والحق أن الإنسان ليسمع فى الديانة المسيحية الأولى أصداء كثيرة للاثنينية الفارسية ، لا تقل عما يسمع فيها من أصداء التزمت العبرانى ، أو الفلسفة اليونانية . ولعل الفكرة الزردشتية عن الإله كانت ترضى عقلا يهتم بدقائق الأشياء وتفاصيلها كعقل ماثيو آرنلد . ذلك أن أهورا مزدا ، كان جماع قوى العالم التى تعمل للحق ؛ والأخلاق الفاضلة لا تكون إلا بالتعاون مع هذه القوى . هذا إلى أن فى فكرة الثنائية بعض ما يبرر ما نراه فى العالم من تناقض والتواء وانحراف عن طريق الحق لم تفسره قط فكرة التوحيد . وإذا كان رجال الدين الزردشتيون يحاجون أحياناً ، كما يحاج متصوفة الهنود والفلاسفة المدرسيون ، بأن الشر لا وجود له فى حقيقة الأمر(٧٣) ، فإنهم فى الواقع يعرضون على الناس ديناً يصلح كل الصلاحية لأن يمثل لأوساط الناس ما يصادفهم فى الحياة من مشاكل خلقية تمثيلا يقربها إلى عقولهم وتنطبع فيها انطباع الرواية المسرحية ، وقد وعدوا أتباعهم بأن آخر فصل من هذه المسرحية سيكون خاتمة سعيدة — للرجل العادل . ذلك أن قوى الشر ستُغلب آخر الأمر ويكون مصيرها الفناء بعد أن يمر العالم بأربعة عهود طول كل منها ثلاثة آلاف عام يسيطر عليه فيها على التوالى أهورا مزدا وأهرمان . ويومئذ ينتصر الحق فى كل مكان ، وينعدم الشر فلا يكون له من بعد وجود . ثم ينضم الصالحون إلى أهورا مزدا فى الجنة ويسقط الخبيثون فى هوة من الظلمة فى خارجها يطعمون فيها أبد الدهر سُمّاً زعافاً(٧٤) .

الفصل السادس

الفلسفة الأخلاقية فى الديانة الزردشتية

الإنسان ميدان قتال – النار المخلدة – الجحيم والمطهر والجنة –
عبادة مثرا – المجوس – الپارسيين

لما صوّر الزردشتيون العالم فى صورة ميدان يصطرع فيه الخير والشر ، أيقظوا بعملهم هذا فى خيال الشعب حافزاً قوياً مبعثه قوة خارجة عن القوى البشرية ، يحض على الأخلاق الفاضلة ويصونها . وكانوا يمثلون النفس البشرية ، كما يمثلون الكون ، فى صورة ميدان كفاح بين الأرواح الخيّرة والأرواح الشريرة ، وبذلك كان كل إنسان مقاتلا ، أراد ذلك أو لم يرده ، فى جيش الله أو فى جيش الشيطان ، وكان كل عمل يقوم به أو يغفله يرجح قضية أهورا مزدا أو قضية أهرمان . وتلك فلسفة فيها من المبادىء الأخلاقية ما يعجب به المرء أكثر مما يعجب بما فيها من مبادىء الدين – إذا سلمنا بأن الناس فى حاجة إلى قوة غير القوى الطبيعية تهديهم إلى طريق الخُلق الكريم . فهى فلسفة تضفى على الحياة الإنسانية من المعنى ومن الكرامة ما لا تضفيه عليه النظرة العالمية القائلة بأن الإنسان ليس إلا حشرة دنيئة لا حول لها ولا طول (كما كان يقول أهل العصور الوسطى) ، أو آلة تتحرك بنفسها كما يقول أهل هـذه الأيام . ذلك أن بنى الإنسان حسب تعاليم زردشت ليسوا مجرّد بيادق تتحرك بغير إرادتها فى هذه الحرب العالمية ؛ بل إن لهم إرادة حرة ، لأن أهورا مزدا ، كان يريدهم شخصيات تتمتع بكامل حقوقها ، وفى مقدورهم أن يختاروا طريق النور أو طريق الكذب . فقد كان أهرمان هو الكذبة المخلدة ، وكان كل كذاب خادماً له .

ونشأ من هذه الفكرة قانون أخلاقى مفصل رغم بساطته ، يدور كله حول القاعدة الذهبية وهى أن « الطبيعة لا تكون خيرة إلا إذا منعت صاحبها أن يفعل بغيره ما ليس خيراً له هو نفسه(*) »(٧٥) . وتقول الأبستاق إن على الإنسان واجبات ثلاثة : « أن يجعل العدو صديقاً ، وأن يجعل الخبيث طيباً ، وأن يجعل الجاهل عالماً »(٧٦) . وأعظم الفضائل عنده هى التقوى ، ويأتى بعدها مباشرة الشرف والأمانة عملا وقولا . وحرم أخذ الربا من الفرس ، ولكنه جعل الوفاء بالدين واجباً يكاد يكون مقدساً(٧٧) . ورأس الخطايا كلها (فى الشريعة الأبستاقية كما هى فى الشريعة الموسوية) هو الكفر . ولنا أن نحكم من العقوبات الصارمة التى كانت توقع على الملحدين بأن الإلحاد كان له وجود بين الفرس ، وكان المرتدون عن الدين يعاقبون بالإعدام من غير توان(٧٨) ولكن ما أمر به السيد من إكرام ورحمة لم يكن يطبق من الوجهة العامية على الكفار . أى على الأجانب ، لأن هؤلاء كانوا صنفاً منحطاً من الناس أضلهم أهورا - مزدا فلم يحبوا إلا بلادهم وحدها لكيلا يغزوا بلاد الفرس . ويقول هيرودوت إن الفرس : « يرون أنهم خير الناس جميعاً من جميع الوجوه » . وهم يعتقدون أن غيرهم من الأمم تدنو من الكمال بقدرما يقرب موقعها الجغرافى من بلاد فارس ، وأن « شر الناس أبعدهم عنها »(٧٩) . إن لهذه الألفاظ نغمة حديثة وإنها لتنطبق على جميع الأمم فى هذه الأيام .

ولما كانت التقوى أعظم الفضائل على الإطلاق فإن أول ما يجب على الإنسان فى هذه الحياة أن يعبد الله بالطهر والتضحية والصلاة . ولم تلك فارس الزردشتية تسمح بإقامة الهياكل أو الأصنام ، بل كانوا ينشئون المذابح المقدسة على قمم الجبال ، وفى القصور ، أو فى قلب المدن ، وكانوا يوقدون النار فوقها تكريماً لأهورا - مزدا

(*) لكن جاء فى الآية السادسة من الفصل السادس والأربعين من كتاب يزنا . « خبيث من يسدى الخير للخبيث » إن الكتب الموحى بها قلما تتفق نصوصها .

أو لغيره من صغار الآلهة . وكانوا يتخذون النار نفسها إلهاً يعبدونه ويسمونها أنار ، ويعتقدون أنها ابن إله النور؛ وكانت كل أسرة تجتمع حول موقدها ، تعمل على أن تظل نار بيتها متقدة لا تنطفئ أبداً ، لأن ذلك من الطقوس المقررة فى الدين . وكانت الشمس نار السموات الخالدة تعبد بوصفها أقصى ما يتمثل فيها أهورا - مزدا أو مثرا كما عبدها إخناتون فى مصر . وقد جاء فى كتابهم المقدس : « يجب أن تعظم شمس الصباح إلى وقت الظهيرة ، وشمس الظهيرة يجب أن تعظم إلى العصر ، وشمس العصر يجب أن تعظم حتى المساء . . . والذين لا يعظمون الشمس لا تحسب لهم أعمالهم الطيبة فى ذلك اليوم[٨٠] » ، وكانوا يقربون إلى الشمس ، وإلى النار ، وإلى أهورا - مزدا القرابين من الأزهار ، والخبز ، والفاكهة ، والعطور ، والثيران ، والضأن ، والجمال ، والخيل ، والحمير ، وذكور الوعول . وكانوا فى أقدم الأزمنة يقربون إليها الضحايا البشرية شأن غيرهم من الأمم[٨١] . ولم يكن ينال الآلهة من هذه القرابين إلا رائحتُها ، أما ما يؤكل منها فقد كان يبقى للكهنة والمتعبدين ، لأن الآلهة - على حد قول الكهنة - ليست فى حاجة الى أكثر من روح الضحية[٨٢] . وظلت العادة الآرية القديمة عادة تقديم عصير الهوما المسكر قرباناً إلى الآلهة باقية بعد انتشار الدين الزردشتى بزمن طويل ، وإن كان زردشت نفسه جهر بسخطه على هذه العادة ، وإن لم يرد لها ذكر فى الأبستاق . وكان الكهنة يحتسون بعض هذا العصير المقدس ويوزعون ما بقى منه على المؤمنين المجتمعين للصلاة[٨٣] . فإذا حال الفقر بين الناس وبين تقديم هذه القرابين الشهية ، استعاضوا عنها بالزلفى إلى الآلهة بالأدعية والصلوات ؛ وكان أهورا مزدا كما كان يهوه يحب الثناء عليه ويتقبله ، ومن ثم فقد وضع للمتقين من عباده طائفة رائعة من صفاته أضحت من الأوراد المحببة عند الفرس[٨٤] .

فإذا ما وهب الفارسى حياة التقى والصدق كان فى وسعه أن يلقى الموت فى

غير خوف ؛ ومهما يكن من الأغراض التي يهدف إليها الدين فإن هذا المطلب كان أحد مطالبه الخفية . وكان من العقائد المقررة أن أستواد إله الموت يعثر على كل إنسان أيا كان مقره ؛ فهو الباحث الواثق ، الذى لا يستطيع الإفلات منه آدمى ولو كان من أولئك الذين يغوصون فى باطن الأرض ، كما فعل أفرسياب التركى الذى شاد له تحت أطباق الثرى قصراً من الحديد يبلغ ارتفاعه قدر قامة الإنسان ألف مرة ، وأقام فيه مائة من الأعمدة ، تدور فى سمائه النجوم والقمر ، والشمس تغمره بأشعة النهار . وكان فى هذا القصر يفعل كل ما يحلو له ويحيا أسعد حياة . ولكنه لم يستطع رغم قوته وسحره أن يفر من أستواد . . . كذلك لم يستطع النجاة منه من حفر الأرض الواسعة المستديرة التى تمتد أطرافها إلى أبعد الحدود كما فعل دهاق إذ طاف بالأرض شرقاً وغرباً يبحث عن الخلود فلم يعثر عليه . ولم يفده بأسه وقوته فى النجاة من أستواد . . . ذلك أن أستواد المخاتل يأتى متخفيا إلى كل إنسان ، لا يعظم شخصاً ، ولا يتقبل الثناء ولا الارتشاء ، بل يهلك الناس بلا رحمة[٨٥] .

ولما كان من طبيعة الأديان أن ترهب وتنذر ، كما تأسو وتبشر ، فإن الفارسى رغم هذا كله لم يكن ينظر إلى الموت فى غير رهبة إلا إذا كان جندياً أميناً يدافع عن قضية أهورا — مزدا . فقد كان من وراء الموت ، وهو أشد الخفايا كلها رهبة ، جحيم ، وأعراف ، وجنة . وكان لا بد لأرواح الموتى بأجمعها أن تجتاز قنطرة تصفى فيها ، تجتازها الأرواح الطيبة فتصل فى جانبها الثانى إلى « مسكن الفناء » حيث تلقاها وترحب بها « فتاة عذراء ذات قوة وبهاء ، وصدر ناهد مليء » ؛ وهناك تعيش مع أهورا — مزدا سعيدة منعمة إلى أبد الدهر .

أما الروح الخبيثة فلا تستطيع أن تجتاز القنطرة فتتردى فى درك من الجحيم يتناسب عمقه مع ما اقترفت من ذنوب[٨٦] ، ولم يكن هذا الجحيم مجرد دار سفلى تذهب إليها كل الأرواح طيبة كانت أو خبيثة كما تصفها الأديان الأقدم عهداً

من الدين الزردشتى ، بل كانت هاوية مظلمة مرعبة تعذب فيها الأرواح المذنبة أبد الآبدين[٨٧] . فإذا كانت حسنات الإنسان ترجح على سيئاته قاسى عذاباً موقتاً يطهره من الذنوب ، وإذا كان قد ارتكب كثيراً من الخطايا ولكنه فعل بعض الخير ، لم يلبث فى العذاب إلا اثنى عشر ألف عام يرفع بعدها إلى السماء[٨٨] .

ويحدثنا الزردشتيون الصالحون بأن العالم يقترب من نهايته المحتومة ؛ ذلك بأن مولد زردشت كان بداية الحقبة العالمية التى طولها ثلاثة آلاف سنة ، وبعد أن يخرج من صلبه فى فترات مختلفة ثلاثة من النبيين ينشرون تعاليمه فى أطراف العالم ، يحلّ يوم الحساب الأخير ، وتقوم مملكة أهورا - مزدا ، ويهلك أهرمان هو وجميع قوى الشر هلاكاً لا قيام لها بعده . ويومئذ تبدأ الأرواح الطيبة جميعها حياة جديدة فى عالم خال من الشرور والظلام والآلام[٨٩] . فيُبعث الموتى ، وتعود الحياة إلى الأجسام ، وتتردد فيها الأنفاس . . . ويخلو العالم المادى كله الى أبد الدهر من الشيخوخة والموت والفساد والانحلال[٩٠] » .

وهنا أيضاً نستمع ، كما نستمع فى كتاب الموتى المصرى ، إلى التهديد بيوم الحساب الرهيب ، وهو تهديد يلوح أنه انتقل من فلسفة الحشر الفارسية إلى الفلسفة اليهودية أيام أن كانت للفرس السيادة على فلسطين — ألا ما أروعه من وصف خليق بأن يرهب الأطفال فيصدعوا بأوامر آبائهم !

ولما كان من أغراض الدين أن ييسر ذلك الواجب الصعب الضرورى ، واجب تذليل الصغار على يد الكبار ، فإن من حق الكهنة الزردشتيين أن نقرّ لهم بما كانوا عليه من مهارة فى وضع قواعد الدين . وإذا ما نظرنا إلى هذا الدين فى مجموعه ألفيناه ديناً رائعاً أقلّ وحشية ونزعة حربية ، وأقلّ وثنية وتخريفاً من الأديان المعاصرة له ، وكان خليقاً بألا يُقضى عليه هذا القضاء العاجل .

وأتى على هذا الدين حين من الدهر فى عهد دارا الأول كان فيه المظهر الروحى لأمة فى أوج عزها . لكن بنى الإنسان يولعون بالشعر أكثر من ولعهم

بالمنطق ، والناس يهلكون إذا خلت عقائدهم من بعض الأساطير . ومن أجل هذا ظلت عبادة مثرا وأنيتا — إله الشمس وإلهة الإنبات والخصب والتوالد والأنوثة — ظلت هذه العبادة قائمة إلى جانب دين أهورا — مزدا الرسمي تجد لها أتباعاً مخلصين ، وعاد اسماهما إلى الظهور من جديد في النقوش الملكية أيام أرتخشتر الثاني ، وأخذ اسم مثرا بعدئذ يعظم ويقوى ، كما أخذ أهورا — مزدا يضمحل . وما أن وافت القرون الأولى من التاريخ الميلادي حتى انتشرت عبادة مثرا الإله الشاب ذي الوجه الوسيم — الذي تعلو وجهه هالة من نور ترمز إلى الوحدة القديمة بينه وبين الشمس — في جميع أنحاء الدولة الرومانية ، وكان انتشارها هذا من أسباب الاحتفال بعيد الميلاد عند المسيحيين(*) . ولو أن زردشت كان من المخلدين لتوارى خجلا حين يرى تماثيل أنيتا أفروديتي الفرس ، تقام في كثير من مدن الإمبراطورية الفارسية بعد بضعة قرون من وفاته(٩١) . وما من شك في أنه كان يسوءه أن يجد صحفاً كثيرة من صحف وحيه قد خصها المجوس بطلاسم لشفاء المرضى والتنبؤ بالغيب والسحر(٩٢) . ذلك أن « الرجال العقلاء » أي كهنة المجوس قد غلبوا زردشت على أمره ، كما يغلب الكهنة في آخر الأمر كل عات عاصياً كان أو زنديقاً ، وذلك بأن يضموه إلى دينهم أو يستوعبوه فيه ؛ فسلكوه أولا في عداد المجوس ، ثم لم يلبثوا أن نسوا ذكره(٩٣) . وما لبث هؤلاء المجوس بزهدهم وتقشفهم ، واقتصارهم على زوجة واحدة ، ومراعاتهم لمئين من الطقوس المقدسة ، ومن تطهرهم بمئات الأساليب اتباعاً لأوامر الدين وطقوسه ، وبامتناعهم عن أكل اللحوم ، وبملبسهم البسيط الذي لا تكلف ولا تظاهر فيه ، ما لبث هؤلاء أن اشتهروا بالحكمة بين الشعوب الأجنبية ،

(*) كان عيد الميلاد في بداية الأمر عيداً شمسياً يحتفل به وقت الانقلاب الشتائي (حوالي ٢٢ ديسمبر) ببداية طول النهار وبانتصار الشمس على أعدائها ، وأصبح فيما بعد عيداً لمثرا ، ثم صار من الأيام المقدسة عند المسيحيين .

ومنهم اليونان أنفسهم ، كما أصبح لهم على مواطنيهم سلطان لا تكاد تعرف له حدود . لقد أصبح ملوك الفرس أنفسهم من تلاميذهم ، لا يقدمون على أمر ذى بال إلا بعد استشارتهم فيه ، فقد كانت الطبقات العليا منهم حكماء ، والسفلى متنبئين وسحرة ، ينظرون فى النجوم ويفسرون الأحلام(٩٤) ، وهل ثمة شاهد على علو كعبهم أكبر من أن اللفظ الإنجليزى المقابل لكلمة « السحر Magic » مشتق من اسمهم . وأخذت العناصر الزردشتية فى الديانة الفارسية تتضاءل عاماً بعد عام ، نعم إنها انتعشت وقتاً ما أيام الأسرة الساسانية (٢٢٦ – ٦٥١ ب . م) ، ولكن الفتح الإسلامى وغزو التتار قضيا عليها القضاء الأخير . ولا يوجد أثر للديانة الزردشتية فى هذه الأيام إلا بين عشائر قليلة العدد فى ولاية فارس ، وبين البارسيين من الهنود الذين يبلغ عددهم تسعين ألفاً .

ولا تزال هذه الجماعة حفيظة على كتبها المقدسة ، تخلص لها وتدرسها ، وتعبد النار والتراب ، والأرض والماء ، وتقدسها ، وتعرض موتاها فى « أبراج الصمت » للطيور الجارحة كيلا تدنس العناصر المقدسة بدفنها فى الأرض أو حرقها فى الهواء . وهم قوم ذوو أخلاق سامية وآداب رفيعة ، وهم شاهد حى على فضل الدين الزردشتى وما له من أثر عظيم فى تهذيب بنى الإنسان وتمدينهم .

الفصل السابع

آداب الفرس وأخلاقهم

العنف والشرف – قانون النظافة – خطايا الجسد –
العذارى والأعزاب – الزواج – النساء – الأطفال –
آراء الفرس في التربية والتعليم

إن الذي يدهشنا بحق هو ما بقي لدى الميديين والفرس من وحشية رغم دينهم هذا . انظر إلى ما كتبه دارا الأول أعظم ملوكهم في نقش بهستون : « وقبض على فراڤارتش وجيء به إليّ . فجدعت أنفه ، وصلمت أذنيه ، وقطعت لسانه ، وفقأت عينيه ، وأبقيته في بلاطي مقيداً بالأغلال يراه كل الناس . ثم صلبته بعدئذ في إكباتانا . . . وكان أهورا – مزدا أكبر معين لي ، فقد بطش جيشي برعاية أهورا – مزدا بالجيش الثائر . وقبضوا على سترنكخارا وجاءوا به إليّ ، فجدعت أنفه ، وصلمت أذنيه ، وفقأت عينيه . وبقي مقيداً بالأغلال في بلاطي يراه الناس جميعاً ، ثم صلبته(٩٥) » . وإن في حوادث الإعدام التي يقصها أفلوطرخس في سيرة أرتخشتر لصورة مروعة لما كانت عليه أخلاق ملوك الفرس في العهد الأخير . لقد كان الخونة يقضى عليهم بلا شفقة ولا رحمة : فكانوا يصلبون هم وزعماؤهم ، ثم يباع أتباعهم بيع الرقيق ، وتنهب مدنهم ، ويخصى غلمانهم ، وتسبى بناتهم(٩٦) ويبعن . ولكن ليس من العدالة في شيء أن يحكم الإنسان على شعب بأسره من سيرة ملوكه . ذلك أن الفضيلة لا ترويها الأخبار ، وأفاضل الناس لا تاريخ لهم ، شأنهم في هذا شأن الأمم الهنيئة السعيدة . بل إن الملوك أنفسهم كانوا يبدون في بعض المناسبات شيئاً من مكارم الأخلاق ، وكانوا يشتهرون بين اليونان الغادرين بوفائهم . فإذا عاهدوا أوفوا بعهدهم ، وكان من دواعي فخرهم

أنهم لا ينقضون كلمتهم[٩٧] . ومما يجب أن نذكره للفرس مقرونا بالثناء والتقدير ، أن من العسير علينا أن نجد فى تاريخهم فارسيا قد استؤجر ليحارب الفرس ، على حين أن أى إنسان كان يسعه أن يستأجر اليونان ليحاربوا اليونان(*) .

وخليق بنا أن نذكر أن أخلاقهم لم تبلغ من القسوة ذلك الحد الذى يتبادر إلى أذهاننا من قراءة تاريخهم الحافل بالدم والحديد . لقد كان الفرس يتحلون بالصراحة والكرم وحفظ الود وسخاء اليد[٩٩] ، يراعون آداب المجالس ويحرصون عليها حرصا لا يكاد يقل عن حرص الصينيين . وكانوا إذا تقابل منهم شخصان متساويان فى المرتبة تعانقا وقبل كل منهما الآخر فى شفتيه ، فإذا قابل الواحد منهم من هو أعلى منه منزلة انحنى له انحناءة كبيرة تشعر بالخضوع والاحترام ، وإذا التقى بمن هو أقل منه قدم له خده ليقبله ، فإذا قابل أحد السوقة اكتفى بإحناء رأسه[١٠٠] . وكانوا يستنكرون تناول شىء من الطعام أو الشراب على قارعة الطريق ، كما يسوءهم أن يبصق الإنسان أو يتمخط أمام الناس[١٠١] . وقد ظلوا إلى أيام خشيرشا مقتصدين فى مأكلهم ومشربهم ، لا يطعمون إلا وجبة واحدة فى اليوم ، ولا يشربون إلا الماء القراح[١٠٢] . وكانوا يعدون النظافة أكبر النعم لا تفضلها إلا الحياة نفسها وأن الأعمال الطيبة إذا صدرت عن أيد قذرة كانت لا قيمة لها ، لأن الإنسان إذا لم يقض على الفساد (ولعله يريد « الجراثيم ») فإن الملائكة لا تسكن فى جسمه[١٠٣] » . وكانوا يفرضون أشد العقوبات على من يتسببون فى نشر الأمراض المعدية ، وكان الأهلون يجتمعون فى الأعياد وكلهم يرتدون الملابس البيضاء[١٠٤] . وكانت الشريعة الأبستاقية كالشريعتين البرهمية والموسوية مليئة بمراسم التطهير والحذر من القذارة ؛ وفى كتاب الزردشتيين المقدس فقرات طويلة مملة خصت كلها بشرح القواعد

(*) لما حارب الفرس الإسكندر عند نهر غرانيقوس كانت فرق المشاة الفارسية كلها تقريباً من مرتزقة اليونان . وفى موقعة إسوس كان قلب الجيش الفارسى مؤلفاً من ثلاثين ألفا من مرتزقة اليونان[٩٨] .

الواجب اتباعها لطهارة الجسد والروح[105] . وقد جاء فيها أن قلامة الأظفار ، وقصاصات الشعر ، وإخراج النفس من الفم كلها أقذار يجب على الفارسى العاقل أن يتجنبها إلا إذا كانت قد طهرت من قبل[106] .

كذلك كانت الشرائع الفارسية صارمة فى عقاب خطايا الجسد صرامة الشرائع اليهودية ، فكان الاستمناء باليد يعاقب عليه بالجلد ، وكان عقاب من يرتكب جريمة الزنى واللواط والسحاق من الرجال والنساء « أن يقتلوا لأنهم أحق بالقتل من الأفاعى الزاحفة والذئاب العاوية[107] » . لكن فى مقدورنا أن نستدل من الفقرة الآتية التى أوردها هيرودوت على وجود الخلف المعتاد بين القول والعمل : « يرى الفرس أن خطف النساء قوة واقتداراً عمل لا يأتيه إلا الأشرار ، ولكن اشتغال الإنسان بالثأر لهن إذا اختطفن من أعمال الحمقى ، أما إهمالهن إذا اختطفن فن أعمال الحكماء ؛ فغير خاف أنهن لو لم يكن راغبات لما اختطفن[108] » . ويقول فى موضع آخر إن الفرس « قد أخذوا عن اليونان اشتهاء الغلمان »[109] ، وإنا وإن كنا لا نستطيع أن نثق بكل ما يقوله هذا الراوية العظيم لنستشف ما يؤيد قوله هذا فى العبارات القاسية التى تشنع بها الأبستاق على اللواط . فهى تقول فى مواضع كثيرة إن هذا الذنب لا يغتفر وإنه « لا شىء يمحوه قط »[110] .

ولم يكن القانون يشجع البنات على أن يظللن عذارى ولا العزّاب على أن يبقوا بلا زواج ، ولكنه كان يبيح التسرى وتعدد الزوجات ، ذلك بأن المجتمعات الحربية فى حاجة ماسة إلى كثرة الأبناء . وفى ذلك تقول الأبستاق : « إن الرجل الذى له زوجة يفضل كثيراً من لا زوجة له ، والرجل الذى يعول أسرة يفضل كثيراً من لا أسرة له ، والذى له أبناء يفضل كثيراً من لا أبناء له ، والرجل ذو الثراء أفضل كثيراً ممن لا ثروة له[111] » ، وتلك كلها معايير للمركز الاجتماعى شائعة بين مختلف الأمم ، وكانت الأسرة لديهم أقدس النظم الاجتماعية .

وكان من الأسئلة التى ألقاها زردشت على أهورا ــ مزدا : « أى إلهى خالق العالم المادى ــ إلهى القدوس ! ما هو المكان الثانى الذى تحس الأرض فيه أنها أسعد ما تكون ؟ » . ويجيبه أهورا ــ مزدا عن سؤاله هذا بقوله : « إنه المكان الذى يشيد فيه أحد المؤمنين بيتاً فى داخله كاهن ، وفيه ماشية ، وفيه زوجة ، وفيه أطفال ، وفيه أنعام طيبة ، والذى تكثر فيه الماشية بعدئذ من النتاج ، وتكثر فيه الزوجة من الأبناء ، وينمو فيه الطفل ، وتشتعل فيه النار ، وتزداد فيه جميع نعم الحياة[١١٢] »

وكان الحيوان ــ وخاصة الكلب ــ جزءاً أساسياً من الأسرة ، كما كان شأنه فى الوصية الأخيرة التى أنزلت على موسى ، وكان واجباً مفروضاً على أقرب الأسر إلى أنثى الحيوان الحامل الضالة أن تعنى بها[١١٣] ، وفرضت أشد العقوبات على من يطعمون الكلاب طعاماً فاسداً ، أو طعاماً شديد الحرارة ، وكان عقاب من « يضرب كلبة عليها ثلاثة كلاب » أن يجلد أربعمائة وألف جلدة[١١٤] . وكانوا يعظمون الثور لما له من قدرة عظيمة على الإخصاب . كما كانوا يصلّون للبقرة ويقرّبون لها القربان[١١٥] .

وكان الآباء ينظمون شئون الزواج لمن يبلغ الحلُم من أبنائهم . وكان مجال الاختيار لديهم واسعاً ، فقد قيل لنا إن الأخ كان يتزوج أخته ؛ والأب ابنته ، والأم ولدها[١١٦] . وكان التسرىّ من المتع التى اختص بها الأغنياء ، ولم يكن الأشراف يخرجون للحرب إلا ومعهم سراريهم[١١٧] . وكان عدد السرارى فى قصر الملك فى العصور المتأخرة من تاريخ الإمبراطورية يتراوح بين ٣٢٩ ، ٣٦٠ ، فقد أصبحت العادة فى تلك الأيام ألا يضاجع الملك امرأة مرتين إلا إذا كانت رائعة الجمال[١١٨] .

وكان للمرأة فى بلاد الفرس مقام سام فى أيام زردشت كما هى عادة القدماء ؛

فقد كانت تسير بين الناس بكامل حريتها سافرة الوجه ، وكانت تمتلك العقار وتصرف شئونه ، وكان فى وسعها أن تدير شئون زوجها باسمه أو بتوكيل منه . ثم انحطت منزلتها بعد دارا ، وخاصة بين الأغنياء ؛ فأما المرأة الفقيرة فقد احتفظت بحريتها فى التنقل لاضطرارها إلى العمل ، وأما غير الفقيرات فقد كانت العزلة المفروضة عليهن فى أيام حيضهن كلها تمتد حتى تشمل جميع حياتهن الاجتماعية ، وكان ذلك أساس نظام البردة عند المسلمين. ولم تكن نساء الطبقات العليا يجرؤن على الخروج من بيوتهن إلا فى هوادج مسجفة ، ولم يكن يسمح لهن بالاختلاط بالرجال علناً . وحرم على المتزوجات منهن أن يرين أحداً من الرجال ولو كانوا أقرب الناس إليهن كآبائهن أو إخوتهن . ولم تذكر النساء قط أو يرسمن فى النقوش أو التماثيل العامة فى بلاد الفرس القديمة . أما السرارى فكن أكثر من غيرهن حرية ، إذ كان يستعان بهن على تسلية ضيوف أسيادهن . وقد كان للنساء فى جميع الأوقات سلطان قوى فى بلاط الملوك حتى فى العهود الأخيرة ، وكن ينافسن الخصيان فى تدبير المؤامرات ، والملوك فى تمحيص وسائل التعذيب(١١٩)(*) .

وكان الأبناء كما كان الزواج من الشروط الأساسية للإجلال والإكبار . فالذكور منهم ذوو فائدة اقتصادية لآبائهم وحربية لملوكهم ، أما البنات فلم يكن يرغب فيهن ، لأنهن كن ينشأن لغير بيوتهن ، وليستفيد منهن غير آبائهن . ومن أقوال الفرس فى هذا المعنى : « إن الرجال لا يدعون الله أن يرزقهم بنات ، والملائكة لا تحسبهن من النعم التى أُنعم بها على بنى الإنسان »(١٢٠)

(*) كانت استاتيرا زوجة أرت خشتر الثانى مثلا صالحا للأزواج ، ولكن أمه پاريستا قتلتها مسمومة غيرة منها وحسدا ، وشجعت الملك أن يتزوج ابنته أتوسا ، وحدث أن أخذت تلعب النرد معه وتراهنه على حياة أحد خصيانه ، فلما كسبت الرهان أمرت بسلخه حيا . وأمر أرت خشتر مرة بإعدام جندى كارى ، فما كان من باريستا إلا أن هذبت أمره ، فاستبدلت بهذا الإعدام شده على عذراء عشرة أيام كاملة وسمل عينيه ، وصب مصهور الرصاص فى أذنيه حتى يموت »(١١٩) .

(العذراء شىء من حديد يعذب به الإنسان لإقرار بأمر أو نحوه — المحيط)

وكان الملك فى كل عام يرسل الهدايا إلى الآباء الكثيرى الأبناء ، كأن هذه الهدايا ثمناً لدمائهم يدفع مقدما[١٢١] .

وكان الحمل سفاحا سواء ممن لم يتزوجن من البنات أو ممن تزوجن منهن يغتفر أحياناً إذا تجهض الحامل ، ذلك أن الإجهاض كان فى تقديرهم أشد جرما من سائر الجرائم ، وكان عقابه الإعدام[١٢٢] .

وقد ورد فى أحد الشروح القديمة المسماة بالبندهش وصف لجملة وسائل لمنع الحمل ، ولكنها تحذر الناس الالتجاء إليها .

ومما جاء فيها : « وفيما يختص بالتناسل قيل فى الكتاب المنزل إن المرأة إذا خرجت من الحيض تظل عشر ليال وعشرة أيام عرضة للحمل إذا اقترب منها الرجال »[١٢٣] .

وكان الوليد يبقى فى حضانة أمه حتى السنة الخامسة من عمره ثم يحتضنه أبوه حتى السابعة . وفى هذه السن يدخل المدرسة . وكان التعليم يقصر فى الغالب على أبناء الأغنياء ويتولاه الكهنة عادة . فكان التلاميذ يجتمعون فى الهيكل أو بيت الكاهن ؛ وكان من المبادئ المقررة ألا تقوم مدرسة بالقرب من السوق حتى لا يكون ما يسودها من كذب وسباب وغش سبباً فى إفساد الصغار[١٢٤] . وكانت الكتب الدراسية هى الأبستاق وشروحها ، وكانت المواد الدراسية تشمل الدين ، والطب أو القانون ؛ أما طريقة الدرس فكانت الحفظ عن ظهر قلب ، وتكرار الفقرات الطويلة غيباً[١٢٥] . أما أبناء الطبقات غير الموسرة فلم يكونوا يفسدون بتلقى ذلك النوع من التعليم ، بل كان تعليمهم مقصوراً على ثلاثة أشياء — ركوب الخيل ، والرمى بالقوس ، وقول الحق[١٢٦] . وكان التعليم العالى عند أبناء الأثرياء يمتد إلى السنة العشرين أو الرابعة والعشرين ، وكان منهم من يعد إعداداً خاصاً لتولى المناصب العامة أو حكم الولايات ؛ وكانوا كلهم بلا استثناء يدربون على القتال . وكانت حياة الطلاب فى هذه المدارس العليا

حياة شاقة . فكان التلاميذ يستيقظون مبكرين ، ويدربون على الجرى مسافات طوالا ، وعلى ركوب الخيل الجامحة وهى تركض بأقصى سرعتها ، والسباحة ، وصيد الحيوان ، ومطاردة اللصوص ، وفلاحة الأرض ، وغرس الأشجار ، والمشى مسافات طوالاً فى حر الشمس اللافح أو البرد القارس ؛ وكانوا يدربون على تحمل جميع تقلبات الجو القاسية ، وأن يعيشوا على الطعام الخشن البسيط ، وأن يعبروا الأنهار دون أن تبتل ملابسهم أو دروعهم (١٢٧) .

لقد كان هذا فى الحق تعليما ينشرح له صدر فردرك نتشة فى اللحظات التى يستطيع فيها نسيان ثقافة اليونان الأقدمين وما فيها من تنوع وبريق .

الفصل الثامن

العلوم والفنون

الطب – الفنون الصغرى – قبرا قورش ودارا –
قصور برسبوليس – نقش الرماة – قيمة الفن الفارسى

يلوح أن الفرس قد تعمدوا ألا يعلموا أبناءهم أى فن من الفنون عدا فن الحياة . فأما الأدب فقد كان فى رأيهم ترفاً قل أن يحتاجوا إليه ، وأما العلوم فقد كانت سلعاً يستطيعون أن يستوردها من بابل . نعم إنهم كانوا يستسيغون بعض الاستساغة الشعر والروايات الخيالية ، ولكنهم تركوا هذين الفنين للمستأجرين وذوى المنزلة الدنيا منهم ، وآثروا منعة الحديث الفكه على لذة السكون والوحدة فى البحث والقراءة .

وكان الشعر عنـــدهم يغنى أكثر مما يقرأ ، فلما مات المغنون مات الشعر معهم .

وكان الطب فى بادئ الأمر من أعمال الكهنة ، وكانوا يمارسونه على أساس أن الشيطان خلق ٩٩٩ر٩٩ مرضاً يجب أن تعالج بمزيج من السحر ومراعاة قواعد الصحة العامة . وكانوا يعتمدون فى علاج المرضى على الرقى أكثر من اعتمادهم على العقاقير ، وحجتهم فى هذا أن الرقى ، إن لم تشف من المرض ، لا تقتل المريض ، وهو ما لا يستطاع قوله عن العقاقير(١٢٨) إلا أن الطب مع ذلك قد نشأ بين غير رجال الدين حينما زادت ثروة الفرس زيادة مطردة ، حتى إذا كان عهد أرت خشتر الثانى تكونت فى البلاد نقابة للأطباء والجراحين وحدد القانون أجورهم – كما حددها قانون حمورابى – وفقاً لمنزلة المريض الاجتماعية(١٢٩) .

وقد نص القانون على أن يعالج الكهنة من غير أجر ، وكان يطلب إلى الطبيب الناشئ عند الفرس أن يبدأ حياته الطبية بعلاج الكفرة والأجانب ،

كما نفعل نحن فى هذه الأيام ، إذ يقضى الطبيب المقيم سنة أو سنتين فى المران على أجسام المهاجرين والفقراء . بذلك قضى ربُّ النور نفسه إذ قال :

« يا خالق الكون يا قدوس ، إذا شاء عبد من عباد الله أن يمارس فن العلاج ، فأى الناس يجب أن يجرّب فيهم حذقه ؟ أيجرّبه فى عباد أهورا — مزدا أم فى عبدة الشياطين ؟ . فأجاب أهورا — مزدا بقوله : يجب أن يجرب نفسه فى عبدة الشياطين لا فى عباد الله ؛ فإذا عالج بالمبضع عبداً من عبدة الشياطين فمات ؛ وإذا عالج بالمبضع عبداً ثانياً من عبدة الشياطين فمات ؛ وإذا عالج بالمبضع عبداً ثالثاً من عبدة الشياطين فمات ، كان غير صالح أبد الدهر ، ويجب أن يمتنع عن علاج أى عبد من عباد الله . . . وإذا عالج بالمبضع عبداً من عبدة الشياطين وشفى ؛ وإذا عالج بالمبضع عبداً ثانياً من عبدة الشياطين وشفى ، وإذا عالج بالمبضع عبداً ثالثاً من عبدة الشياطين وشفى ، كان صالحاً أبد الدهر ، وكان له إذا أراد أن يعالج عباد الله ، ويشفيهم من أمراضهم بالمبضع »[١٣٠] .

ولما كان الفرس قد وهبوا أنفسهم لإقامة صرح الإمبراطورية ، فإن وقتهم لم يتسع لغير الحرب والقتال ، ولذلك كان جل اعتمادهم فى الفنون على ما يأتيهم من البلاد الأجنبية ، شأنهم فى هذا شأن الرومان سواء بسواء . نعم إنهم كانوا يتذوقون جمال الأشياء ، ولكنهم كانوا يكلون إلى الفنانين الأجانب أو إلى من فى بلادهم من الفنانين أبناء الأجانب صنع هذه الأشياء ؛ ويحصلون من الولايات التابعة لهم على المال الذى يؤدون منه أجور أولئك الفنانين . وكانت لهم بيوت جميلة وحدائق غناء ، تستحيل فى بعض الأحيان بساتين للصيد ومسارح للحيوان ؛ وكان لهم أثاث قيم غالى الثمن : من نضد مصفحة برقائق الفضة والذهب أو مطعمة بها ، وسرر فرشت عليها أغطية جاءوا بها من غير بلادهم ، وطنافس لينة جمعت كل ألوان الأرض والسماء يفرشون بها أرض حجراتهم[١٣١] . وكانوا يشربون فى كؤوس من الذهب ،

ويزينون نضدهم ورفوفهم بمزهريات من صنع الأجانب(*) . وكانوا مولعين بالعزف والغناء وبأنغام الناى والقيثار والنقر على الطبول والدفوف .

وكانت الجواهر كثيرة لديهم من تيجان وأقراط ، إلى خلاخيل وأحذية مذهبة . وحتى الرجال أنفسهم كانوا يتباهون بحليهم يزينون بها أعناقهم وآذانهم وأذرعهم . وكانوا يستوردون اللؤلؤ ، والياقوت ، والزمرد ، واللازورد من خارج بلادهم . أما الفيروز فكانوا يستخرجونه من المناجم الفارسية ، وكان هو المادة التي تصنع منها الطبقة الموسرة أختامها . وكانت لهم حلىّ ذات أشكال رهيبة غريبة تمثل فى ظنهم ملامح الشياطين المعروفة لديهم . وكان ملكهم يجلس على عرش من ذهب تغطيه أكنان ذهبية مرفوعة على قوائم من الذهب(١٣٢) .

ولم يكن للفرس طراز فنى خاص إلا فى العمارة . فقد شادوا فى أيام قورش ، ودارا الأول وخشيارشاى الأول مقابر وقصوراً ، كشف علماء الآثار القليل منها ، وقد يستطيع المعول والمجراف — وهما المؤرخان اللذان لا ينقطعان عن البحث والتنقيب — أن يكشفا لنا فى المستقبل القريب ما يعلى من تقديرنا لفن الفارسى(**) . ولقد أبقى لنا الإسكندر بفضل ما أثر عنه من كريم الشيم قبر قورش فى بازارجادة ، فأصبح طريق القوافل فى هذه الأيام يمر بالطوار العارى الذى كان يقوم عليه من قبل قصر قورش وقصر ابنه المخبول . ولم يبق الآن من هذين القصرين غير عمد قليلة محطمة فى مواضع متفرقة ، أو كتف باب أو نافذة عليها نقوش تمثل ملامح قورش . وعلى مقربة من هذا الطوار فى السهل المجاور له يشاهد القبر وقد

(*) وقد عرضت إحدى هذه المزهريات فى المعرض الدولى للفن الفارسى الذى أقيم فى لندن عام ١٩٣١ . وكان عليها نقش يثبت أنها من مزهريات أرت خشتر الثانى(١٢٣) .

(**) تعمل الآن بعثة من بعثات معهد الشرق التابع لجامعة تشكاجو فى التنقيب فى أنقاض پرسپوليس بإشراف الدكتور چيمس . ه . برستد . ولقد كشفت هذه البعثة فى عام ١٩٣١ عن طائفة من التماثيل لا يقل عددها عن كل ما كان معروفاً قبلها من التماثيل الفارسية (كتب هذا قبل وفاة الدكتور برستد) . (المترجم)

عدا عليه الزمان فى خلال القرون الأربعة والعشرين ، التى مرت به ؛ فهو الآن ضريح حجرى بسيط ، يونانى فى شكله وتخرج صانعه ، يرتفع إلى ما يقرب من خمس وثلاثين قدما فوق قاعدة مدرجة . وما من شك فى أن هذا الأثر كان أعلى مما هو الآن ، وأنه كانت له قاعدة تتناسب مع ضخامته . أما الآن فإنه يبدو عاريا عطلا من الزينـــة مهجورا ، توحى صورته بالجمال الذى لا يكاد يبقى منه أثر فيه ؛ وكل ما يبعثه فى النفس هو الأسى والحزن ، لأن الجماد أبقى على الزمان من سواه . وإلى أقصى الجنوب عند نقش رستم غير بعيد من پرسپوليس يقوم قبر دارا الأول منحوتاً فى واجهة صخرة فى الجبل كأنه ضريح هندوسى ، وقد نقش مدخله ليمثل لمن يراه واجهة قصر لا قبر ، وأقيمت عند هذا المدخل أربعة عمد دقيقة حول باب غير شامخ . ومن فوق هذا الباب شخوص قائمة كأنها فوق سقف يمثل أهل البلاد الخاضعة للفرس تحمل منصة رسم عليها الملك كأنه يعبد أهورا – مزدا والقمر . والفكرة التى أوحت بهذا الرسم وطريقة تنفيذها تسرى فيهما روح البساطة والرقة الأرستقراطية .

والمبانى الفارسية الأخرى التى نجت من الحروب والغارات والسرقات وفعل الجواء مدى ألفين من الأعوام ، هى خرائب القصور . فقد شاد ملوك الفرس الأولون فى إكباتانا مسكناً من خشب الأرز والسرو المصفح بالمعادن ، كان لا يزال قائماً فى أيام پوليبيوس (حوالى ١٥٠ ق . م) ، أما الآن فلم يبق له أثر . أما أروع الآثار الفارسية القديمة التى تنفرج عنها الأرض القابضة الكتوم يوماً بعد يوم فهى الدرج الحجرية والأرصفة والأعمدة التى كشفت فى پرسبوليس . ذلك أن دارا ومن جاء بعده من ملوك الفرس قد أقاموا لهم فيها قصوراً يحاولون أن يرجئوا الوقت الذى تنسى فيه أسماؤهم . ولسنا نجد فى تاريخ العمائر كلها ما يشبه الدرج الخارجية العظيمة التى كان القادم من السهل يرقاها إلى الربوة التى شيدت عليها القصور .

وأكبر الظن أن الفرس أخذوا هذا الطراز عن الدرج التي كانت توصل إلى الزجورات ، أي أبراج أرض الجزيرة ، وتلتف حولها ، ولكنها كان لها مع ذلك خصائص لا يشاركها فيها غيرها من المباني . ذلك أنها كانت سهلة المرتقى واسعة يستطيع عشرة من ركاب الخيل أن يصعدوها جنباً إلى جنب[١٣٥](*) . وما من شك في أن هذه الدرج كانت مدخلا بديعاً إلى الطوار الفسيح الذي يعلو عن الأرض المجاورة له علواً يتراوح بين عشرين وخمسين قدماً ، والذي يبلغ طوله خمسمائة وألف قدم . وعرضه ألفاً ، والذي شيدت عليه القصور الملكية(**) . وكان عند ملتقى الدرج الصاعدة من الجانبين مدخل أمامي كبير نصبت على جانبيه تماثيل ثيران مجنحة ذات رءوس بشرية كأبشع ما خلفه الفن الأشوري . وكانت في الجهة اليمنى بعد هذا المدخل آية العمائر الفارسية على الإطلاق ، ونعني بها الجهل — منار أو الردهة العظمى التي شادها خشيارشاي الأول ، والتي كانت هي وغرفات الانتظار المتصلة بها تشغل رقعة من الأرض تربي مساحتها على مائة ألف قدم مربعة ، فهي أوسع — إذا كان للسعة قيمة — من معبد الكرنك الفسيح ومن أية كنيسة أوربية عدا كنيسة ميلان[١٣٨] .

وكانت هناك مجموعة أخرى من الدرج تؤدي إلى هذه الردهة الكبرى ، وتحف بها من كلا الجانبين جدر لزينتها قليلة الارتفاع ، وعلى جوانبها نقوش بارزة قليلا هي أجمل ما كشف من النقوش الفارسية القليلة البروز إلى هذا اليوم[١٣٩] . ولا يزال ثلاثة عشر عموداً من الاثنين والسبعين التي كانت قائمة في قصر خشيارشاي باقية إلى اليوم بين خربات القصر ، كأنها جذوع نخل في واحة مقفرة موحشة . وتعد هذه الأعمدة المبتورة من الأعمال البشرية القريبة من الكمال ، وهي أرفع من

(*) وصفها فرجسون بأنها « أروع مثل للدرج وجدت في أية بقعة من العالم »[١٣٦] .

(**) وكانت تجري تحت هذا الطوار سلسلة معقدة من القنوات لتصريف الماء يبلغ قطر الواحدة منها ست أقدام نحت الكثير منها الصخر الأصم[١٣٧] .

شكل (٣٧) خرائب برسپوليس

مثيلاتها فى مصر القديمة أو اليونان ، وتعلو فى الجو علواً لا تصل إليه معظم الأعمدة الأخرى ، إذ يبلغ ارتفاعها أربعا وستين قدماً ، وقد خطت فى جذوعها ستة وأربعون محزاً . وتشبه قواعدها أجراساً تغذيها أوراق أشجار مقلوبة الوضع ، ومعظم تيجانها فى صورة لفائف من الأزهار تكاد تشبه اللفائف « الأيونية » ، يعلوها صدرا ثورين أو حصانين مقرنين يتصل عنقاهما من الخلف وترتكز عليهما عوارض السقف . ولسنا نشك فى أن هذه العوارض كانت من الخشب ، لأن أمثال هذه العمد المتباعدة السريعة العطب لا تقوى على تحمل الدعامات الحجرية الثقيلة . وكانت أكتاف الأبواب وكفافات النوافذ من حجارة سود مزخرفة براقة كالأبنوس . أما الجدران فكانت من الآجر يغطيها القرميد المصقول رسمت عليه صور زاهية تمثل حيوانات وأزهاراً . وكانت العمد والفصوص والدرج من حجر الجير الجميل أو الرخام الأزرق الصلد . وقام من خلف الجهل — منار ، أى من شرقيها « للبهو العمد المائة » . ولم يبق من هذا البهو سوى عمود واحد والحدود الخارجة لتصميمه العام . ولعل هـــذين القصرين كانا أجمل ما شاده الإنسان فى العالم القديم والحديث على السواء .

وأقام أرت خشتر الأول والثانى فى مدينة السوس قصرين لم يبق منهما إلا أساسهما : ذلك أنهما شيدا من الآجر المكسو بأجمل ما عرف من القرميد ذى الطلاء الزجاجى . وفى السوس عثر المنقبون على « نقش الرماة » وهم أكبر الظن « المخلدون » الأمناء حراس الملك . ويبدو للناظر إلى هؤلاء الرماة ذوى الطلعة المهيبة أنهم قد ازينوا لحضور حفلة فى القصر وليسوا خارجين لقتال أو حرب . فجلابيبهم تخطف الأبصار بألوانها الزاهية ، وشعورهم ولحاهم مجعدة تجعيداً عجيباً ، وهم ممسكون بأيديهم فى قوة وخيلاء رماحهم رمز مناصبهم الرسمية . ولم يكن التصوير والنحت فى السوس وفى غيرها من العواصم فنين مستقلين ، بل كانا تابعين لفن العمارة ، كذلك كانت الكثرة الغالبة من التماثيل من صنع



شكل (٣٨) نقش « الرماة »

نقش ملون على القرميد وجد فى السوس – محفوظ فى متحف اللوفر

فنانين جيء بهم من آشــور وبابل وبلاد اليونان(١٤٠)

وفى وسع الإنسان أن يقول عن الفن الفارسى ما يستطيع أن يقوله عن الفنون كلها تقريباً ، وهو أن عناصره كلها مستعارة من خارج البلاد ؛ فقبر قورش استعير شكله الخارجى من ليديا ، وعمده الحجرية الرفيعة منقولة عن مثيلاتها من العمد الأشــورية مع شىء من التحسين ، وبهو الأعمدة الضخمة والنقوش القليلة البروز تشهد بأنها قد أوحت بها أبهاء مصر ونقوشها ، وتيجان الأعمدة التى على صورة الحيوان عدوى تسربت إليهم من نينوى وبابل . أما الذى جعل فن العمارة الفارسى فناً قائماً بذاته مختلفاً عن غيره من فنون العمارة فهو اجتماع هذه العناصر كلها والمواءمة بينها ، وهو الذوق الأرستقراطى الذى رقق العمد المصرية المهولة وكتل أرض الجزيرة الثقيلة فأحالها بريقاً ورشاقة ، وتناسباً وتناغماً ، يطالعنا فى برسپوليس .

وكان اليونان يستمعون إلى وصف هذه الأبهاء والقصور وهم أشد ما يكونون دهشة منها وإعجاباً بها ، لأن تجارهم المجدين العاملين وساستهم المطلعين كانوا يحدثونهم عن فنون الفرس وترفهم بما يثير عواطفهم ويحفزهم إلى منافستهم . وسرعان ما استبدلوا برءوس العمد المزدوجة وبالحيوانات ذوات الأعناق الجامدة المتصلبة القائمة فوق العمد الرشيقة ، نقول سرعان ما استبدلوا بها الفصوص الملساء التى نراها فى تيجان العمد الأيونية ، ثم قصروا سوقها ، وزادوها قوة لكى تتحمل أية عارضة ترتكز عليها سواء أكانت من الخشب أم من الحجر . والحق أنه لم يكن بين فنى العمارة فى برسپوليس وأثينة إلا خطوة واحدة ، فقد كان عالم الشرق الأدنى على بكرة أبيــه موشكا أن يستغرق فى سبات عميق كأنه الموت إلا أنه موت لا يدوم إلا آلف عام ، كان عالم الشرق يتأهب ليستودع اليونان تراثه القديم .

الفصل التاسع

الانحطاط

كيف تموت الأمم – خشيارشاى – فقرة عن التقتيل –
أرت خشتر الثانى – قورش الأصغر – دارا الصغير –
أسباب الانحطاط السياسية والحربية والخلقية –
الاسكندر – فتح فارس والزحف على الهند

لم تكد الإمبراطورية التى أقامها دارا تعمر إلا قرناً من الزمان ؛ ذلك أن قواها الطبيعية المادية والأدبية قد تصدعت على أثر الهزائم التى منيت بها فى مراثون ، وسلاميس ، وبلاتية . وأهمل الأباطرة شئون الحرب ، وانغمسوا فى الشهوات ، وتردت الأمة فى مهاوى الجمود والفساد . ويكاد اضمحلال فارس أن يكون فى جملته وتفاصيله صورة معجلة من سقوط رومة ؛ فقد اقترن فيـــه عنف الأباطرة وإهمالهم بفساد أخلاق الشعب وانحلالها ، وحل بالفرس ما حل بالميديين قبلهم ، إذ استحال ما كانوا يتصفون به من تقشف وزهد منذ أجيال قليلة إلى استمتاع طليق ، وأصبح أكبر ما تهتم به الطبقات الأرستقراطية ملء بطونها بلذيذ المأكل والمشرب ؛ وشرع هؤلاء الرجال الذين فرضوا على أنفسهم من قبل ألا يتناولوا إلا وجبة واحدة من الطعام فى اليوم يفسرون معنى الوجبة الواحدة بأنها وجبة تمتد من الظهر إلى غسق الليل ، فامتلأت مخازن مؤنهم بكل ما لذ وطاب ، وكثيراً ما كانوا يقدمون الذبائح كاملة لضيوفهم ، وملأوا بطونهم باللحوم السمينة النادرة ، وتفننوا فى ابتكار أنواع المشهيات والحلوى[(١٤٠ا)] . وغصت بيوت الأثرياء بالخدم الفاسدين المفسدين ، وأصبح السكر رذيلة شائعة بين كل الطبقات[(١٤٠ب)] . وملاك القول أن قورش ودارا قد خلقا بلاد الفرس وأن خشيارشاى ورثها عنهما ثم جاء من خلفهم من الملوك فدمروها تدميراً .

وكان خشيارشاى الأول ملكاً اجتمعت فيه كل صفات الملوك — الجسمية — ؛ كان طويل القامة ، قوى الجسم ، يقر له له الملوك بأنه أجمل إنسان فى الإمبراطورية كلها(١٤١) . ولكن الرجل الوسيم غير المغتر لم يخلق بعد فى هذا العالم ، كما لم يخلق فيه بعد الرجل المغتر بقوته الذى لم تقده امرأة من أنفه . لقد كان خشيارشياى نهباً لسراريه ، وما كان أكثرهن ، وضرب أسوأ الأمثال لشعبه فى الفسق والفجور . ولقد كانت هزيمته فى سلاميس هزيمة طبيعية متوقعة ؛ ذلك أن كل ما كان له من أسباب العظمة هو حب التعاظم لا قدرته على مغالبة الخطوب ، والتحلى بصفات الملوك الحقة إذا دعا الداعى وتأزمت الأمور . وبعد أن قضى هذا الملك عشرين عاماً فى غمرة الدسائس الشهوانية ، والتراخى والإهمال فى شئون الحكم ، اغتاله أرتيان(*) أحد رجال حاشيته ، ثم وورى فى قبره باحتفال ملكى مهيب واغتباط شامل .

وليس فى التاريخ كله ما يماثل المجازر المروعة والدم المراق اللذين تطالعنا بهما سجلات الفرس الملكية إلا سجلات رومة بعد تيبيريوس . لقد اغتال أرت خشتر الأول مغتال خشيارشاى ، وبعد أن حكم أرت خشتر حكماً طويلا خلفه خشيارشاى الثانى ، ثم اغتاله بعد بضعة أسابيع من حكمه أخ له غير شقيق يدعى سجديانوس ، ثم قتله دارا الثانى بعد ستة أشهر كما أمر بقتل تريتتشميس فأخمد بقتله فتنة أثار عجاجها فى البلاد ، ثم أمر بتقطيع زوجته إرباً ودفن أمه وإخوته وأخواته أحياء . وخلف دارا الثانى على العرش ابنه أرت خشتر الثانى ، واضطر هذا الملك أن يقاتل فى واقعة كونسكا أخاه قورش الأصغر قتالا مريراً ، لأن هذا الشاب حاول أن يغتصب الملك . وحكم أرت خشتر حكماً طويلا ، وقتل ابنه دارا لأنه ائتمر به ، ثم مات بائساً حزيناً إذ وجد أن ابناً آخر له يدعى أوكوس يأتمر به ليقتله . وحكم أوكوس عشرين سنة ثم مات مسموماً على يد

(*) يكتب أحياناً أردوان ويسميه اليونان أرتيانوس . (المترجم)

قائده بجواس ، وأجلس هذا القائد السفاح « صانع الملوك » ابناً لأكوس يسمى أرسيس على العرش ، واغتال أخا لأرسيس ليثبت بذلك مركز صنيعته ، ثم اغتال أرسيس وأبناءه الصغار ، ورفع على العرش كودومانوس ، وهو صديق له مخنث مطواع ، وحكم كودومانوس ثمانى سنين ، سمى باسم دارا الثالث ثم مات وهو يحارب الإسكندر فى واقعة إربل حين كانت بلاده تلفظ آخر أنفاسها . ولسنا نعرف فى دولة من الدول حتى الدول الدمقراطية فى هذه الأيام قائداً أقل كفاية وجدارة بقيادة الجيوش من هذا القائد .

إن الإمبراطوريات بطبيعة تكوينها سريعة الانحلال ، وإن الذين يرثونها تعوزهم جهود الذين ينشئونها ، ذلك فى الوقت الذى تهب فيه الشعوب الخاضعة لسلطانها وتستجمع قواها لتناضل فى سبيل ما فقدته من حريتها . كذلك ليس من طبيعة الأشياء أن تبقى الأمم التى تختلف لغاتها وأديانها وأخلاقها وتقاليدها متحدة متماسكة زمنا طويلا . ذلك أن هذه الوحدة لا تقوم على أساس متماسك يحفظها من التصدع ، ولا بد من الالتجاء إلى القوة مرة بعد مرة للاحتفاظ بهذه الرابطة المصطنعة . ولم يعمل الفرس فى عهد إمبراطوريتهم الذى دام مائتى عام شيئا يخفف ما بين الشعوب الخاضعة لحكمهم من تباين ، أو يضعف من أثر القوى الطاردة التى تعمل على تفكك دولتهم ، بل قنعت هذه الإمبراطورية بأن تحكم خليطا من الأمم ، ولم تفكر فى يوم من الأيام فى أن تنشئ منها دولة حقيقية . لذلك أخذ الاحتفاظ بوحدة الإمبراطورية يزداد صعوبة عاماً بعد عام ، وكلما تراخى عزم الأباطرة قويت أطماع الولاة وزادوا جرأة ، وأخذوا يرهبون أو يبتاعون بالمال قواد الجيش وأمناء الإمبراطور الذين أرسلوا إلى الولايات ليشتركوا مع الولاة فى الحكم ويحدوا من سلطانهم . ثم أخذ الولاة يقودون جيوشهم ويزيدون مواردهم كما يحلو لهم ، ويأتمرون بالملك المرة بعد المرة . وأوهنت الثورات والحروب المتكررة حيوية فارس الصغيرة ، ذلك أن الحروب قد قضت على زهرة شبابها القوى حتى لم يبق من

أبنائها إلا كل حذر محتاط . فلما أن جند هؤلاء لمواجهة الإسكندر تبين أنهم لا يكاد يوجد فيهم إلا كل منخوب القلب جبان . ولم يكن شيء من التحسين قد أدخل على تدريب الجنود أو على عتادهم الحربي ، ولم يكن قوادهم على علم بما يستجد من فنون القتال . فلما دارت رحى الحرب ارتكب هؤلاء القواد أشنع الأغلاط ، وكانت عساكرهم المختلة النظام ، والتي كان معظمها مسلحاً بالسهام ، أهدافاً صالحة لرماح المقدونيين الطويلة وفيالقهم المتراصة(١٤٢) لقد كان الإسكندر يلهو ويعبث ، ولكنه لم يكن يفعل ذلك إلا بعد أن يتم له النصر ، أما قواد الفرس فقد جاءوا معهم بسراريهم ، ولم يكن منهم من هو راغب في القتال ، ولم يكن في الجيش الفارسي جنود جديرون بهذا الاسم إلا مرتزقة اليونان .

ولقد تبين منذ اليوم الذي فر فيه خشيارشاي بعد هزيمته في سلاميس أن اليونان سيتحدون الدولة الفارسية في يوم من الأيام . ذلك أن فارس كانت تسيطر على أحد طرفي الطريق التجاري العظيم الذي يربط غربي آسية بالبحر المتوسط ، وأن بلاد اليونان تسيطر على طرفه الثاني ، وكان ما ركب في طباع الناس من أقدم الأزمنة من طمع وحرص على الكسب مما يجعل هذه الحال مثاراً للحرب بين الأمتين ، ولم يكن اليونان ينتظرون لبدء الهجوم إلا أن يقوم بينهم سيد منهم يضم شتاتهم ويؤلف بين قلوبهم

واجتاز الإسكندر مضيق الدردنيل دون أن يلقى مقاومة ، ومعه قوة من رجاله ، خالها الأسيويون ضئيلة ، إذ كانت مؤلفة من ثلاثين ألفاً من المشاة وخمسة آلاف من الفرسان(*) ؛ وحاول جيش فارسي مؤلف من أربعين ألف مقاتل أن يصد جيش الإسكندر عند نهر غرانيقوس ، فخسر الفرس في الواقعة عشرين ألف مقاتل ؛ ولم يخسر الجيش اليوناني إلا ١١٥ رجلا(١٤٤) ، واتجه

(*) ويقول يوسفوس « إن كل من كان في آسية كان مقتنعاً بأن اليونان لن يجرؤوا على الاشتباك في حرب مع الفرس لكثرتهم(١٤٣) » .

الإسكندر جنوباً وشرقاً ، يخضع بعض المدائن ، ويستسلم له البعض الآخر ؛ ودام على ذلك عاماً كاملا . وجمع دارا الثالث فى هذه الأثناء خليطاً من ٦٠٠ر٠٠٠ رجل بين جندى ومغامر . وتطلّب عبورهم نهر الفرات على جسر من القوارب خمسة أيام ، كما تطلّب حمل أموال الملك ستمائة بغل وثلثمائة جمل(١٤٥) . ولما تقابل الجيشان عند إسوس ، لم يكن مع الإسكندر إلا ثلاثون ألفاً من رجاله ، ولكن دارا كان يتصف بكل ما تتطلبه تصاريف الأقدار من غباء ، فاختار للقتال ميدانا لا يتسع إلا لجزء صغير من جيشه أن يقاتل اليونان على حين يبقى سائره معطلا . فلما انتهت المجزرة وجد أن اليونان قد خسروا نحو ٤٥٠ رجلا ، وخسر الفرس ١١٠ر٠٠٠ رجل ، قتل معظمهم وهم يفرون مذعورين . وطارد الإسكندر الجيوش المهزومة مطاردة طائشة عبر فى أثنائها مجرى مائياً على جسر من جثث الفرس(١٤٦) . وفر دارا من الميدان فرار الأنذال ، وترك فيه أمه وزوجة من أزواجه وابنتين وعربة وخيمة مترفة . وعامل الإسكندر السيدات الفارسيات بشهامة أدهشت المؤرخين اليونان ، واكتفى بأن تزوج إحدى ابنتى دارا . وإذا جاز لنا أن نصدق ما قاله كونتس كورتيس ، فإن أم دارا أحبت الإسكندر حباً لم تر معه بداً من أن تقضى على حياتها بالامتناع عن الطعام حين علمت بوفاته(١٤٧) .

وواصل الشاب الفاتح بعدئذ سيره فى بطء ، يخيل إلى الإنسان أنه بطء المستهتر ، يريد أن يبسط سلطانه على غربى آسية بأجمعه . غير أن بطأه هذا كان ناشئاً من رغبته فى ألا يتقدم قبل أن ينظم فتوحه ، ويؤمن مواصلاته . وخرج سكان مدينة بابل على بكرة أبيهم ، كما خرج أهل بيت المقدس من قبل للترحيب به ، وقدموا له مدينتهم وما فيها من ذهب ، فتقبل منهم ما عرضوه فى لطف وبشاشة ، وسرّهم بأن أمر بإصلاح هياكلهم التى هدمها خشيارشاى من قبل دون تدبر وروية . وأرسل إليه دارا يعرض عليه الصلح ، وكان مما عرضه أن يقدم للإسكندر

عشرة آلاف تالنت من الذهب[*] ، إذا رد إليه أمه وزوجته وابنتيه ، وأن يزوجه ابنته ، وأن يعترف له بالسيادة على جميع بلاد آسية الواقعة فى غرب الفرات ، وأنه لا يطلب إليه فى نظير هذا كله إلا أن يأمر الإسكندر بوقف القتال وأن يتخذه صديقاً له . وقال پارمنيو القائد الثانى لجيوش اليونان إنه لو كان الإسكندر لقبل هذه العروض الطيبة مسروراً فينجو بشرفه من شر هزيمة قد تكون ساحقة . فما كان جواب الإسكندر إلا أن قال إنه لو كان هو پرمنيو لقبل هذه العروض ، أما وهو الإسكندر فقد رد على دارا بأن عروضه لا معنى لها ، لأنه (أى الإسكندر) يمتلك بالفعل ما يعرضه عليه من بلاد آسية ، ولأن فى وسعه أن يتزوج ابنة الإمبراطور متى شاء . ووجد دارا أن لا أمل له فى عقد الصلح مع هذا المنطيق المستهتر ، فوجّه همه على كره منه لجمع جيش آخر أكبر من جيشه الأول .

وكان الإسكندر فى أثناء ذلك قد استولى على صور ، وضم مصر إلى أملاكه ، ثم اخترق إمبراطوريته العظيمة متجهاً نحو حواضرها النائية . وبعد مسيرة عشرين يوماً بعد بابل وصل جيشه إلى مدينة السوس ، واستولى عليها دون أن يلقى مقاومة ، ثم تقدم إلى پرسپوليس بسرعة لم تمكن حراس الخزائن الملكية من إخفاء ما فيها من أموال . وفيها أتى الإسكندر عملا يعد وصمة عار فى حياته الحافلة بجلائل الأعمال ، أتاه رغم نصيحة پرمنيو ليكسب بذلك — كما يقول مؤرخوه — رضاء تييس إحدى سراريه[**] . ذلك أنه أحرق قصور پرسپوليس عن آخرها ، وأباح لجنوده نهب المدينة . فلما أن رفع روح جنوده المعنوية بما أباح لهم من السلب ، وبما أغدقه عليهم من العطايا ، اتجه نحو الشمال ليلقى دارا لآخر مرة .

وكان دارا قد جمع من الولايات الفارسية — وخاصة من ولاياته الشرقية —

(*) تقدر قيمتها على الأرجح بنحو ٦٠,٠٠٠,٠٠٠ ريال أمريكى من نقود هذه الأيام

(**) يتفق أبلوطرخس ، وكوكتس كورتيس وديودور فيما يرونه من هذه القصة ، وهى لا تتعارض مع ما عرف عن الإسكندر من تهور واندفاع ، ولكن من واجبنا مع ذلك أن نقابل هذه الرواية بشىء من الشك .

جيشاً جديداً عدته ألف ألف مقاتل[١٤٨] — يتألف من فرس ، وميديين ، وبابليين ، وسوريين ، وأرمن ، وكبادوكيين ، وبلخيين ، وصغد ، وأرخزيان . وساكى ، وهنود . ولم يسلحهم بالقسى والسهام ، بل جهزهم بالحراب ، والرماح ، والدروع ، وأركبهم الخيل والفيلة والعربات ذات الدواليب التى ركبت فيها المناجل لكى يحصد بها أعداءه حصد الحنطة فى الحقول .

حشدت آسية العجوز هذه القوة الهائلة لتحاول بها مرة أخرى أن تدفع عن نفسها أوربا الناهضة الفتية . والتقى الإسكندر ومعه سبعة آلاف من الفرسان ، وأربعون ألفاً من المشاة بهذا الخليط المختل النظام غير المتجانس ، ودارت رحى القتال عند كواكميلا(*) . واستطاع بتفوق أسلحته وحسن قيادته وشجاعته أن يبدد شمله فى يوم واحد — واختار دارا مرة أخرى أن يفر من الميدان ، ولكن قواده ساءهم هذا الفرار المزرى للمرة الثانية ، فقتلوه غيلة فى خيمته . وأعدم الإسكندر من استطاع أن يقبض عليهم من قاتليه ، وأرسل جثة دارا مكرمة إلى برسبوليس فى موكب حافل ، وأمر أن تدفن كما تدفن أجسام الملوك الأكمينيين . وسرعان ما انضوى الشعب الفارسى تحت راية الإسكندر إعجاباً منه بكرم أخلاقه ونضرة شبابه . ونظم شئون فارس وجعلها ولاية من ولايات الدولة المقدونية وترك فيها حامية قوية لحراستها ، ثم واصل زحفه إلى الهند .

(*) وهى مدينة تبعد ستين ميلا عن إربل ، وقد سميت هذه الواقعة باسمها .